سعد كريم الفقي

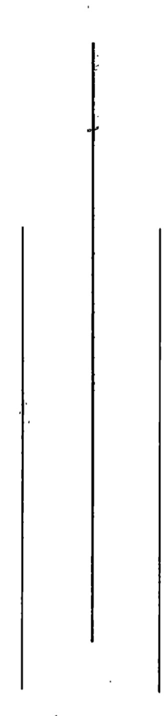


هزت التاريخ الإسلامي

PERFIDIES
Move Islamic History

Saad Korauym Alfiky

العالمية
ALAMIA
للنشر والتوزيع



خيانات هزت التاريخ الإسلامي

خيانات هزت
التاريخ الإسلامي

الدار العالمية
للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٢٢٥٢



الدار العالمية للنشر والتوزيع

٣١ ش الصالحي - محطة مصر - الإسكندرية
محمول: ٠١٠٥٤٠٦٤٠٣ ٢+ / ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٢٠٣+ / تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٢٠٣+
E-mail: alamia_misr@hotmail.com

خيانات
هزت التاريخ الإسلامي

إعداد

الأستاذ/ سعد كريم الفقي




بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أخي وصديقي المهندس/ غانم عبد الواحد

أهدي هذا الكتاب، لما بذله معي في جمع مادة هذا الكتاب

من المصادر، والمراجع المتنوعة.

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين نحمده سبحانه وتعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

نشهد أنَّه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمة، وجاهد في الله حق جهاده حتَّى أتاه اليقين. فجزاه الله عنَّا خير الجزاء.

فتح الله به قلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًا، وأعينًا عميًا... وبعد:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج:١-٢)، ثم أما بعد:

فإنَّ تاريخ السابقين من الأمم فيه كثير من العبر والعظات الجديرة بالدراسة والفهم؛ للاستفادة منها في حياتنا عامة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف:١١١).

فإن هذا الكتاب «خيانات هزت التاريخ الإسلامي»، قصدت به إظهار نقاط الضعف التي تعرض لها المسلمون خلال تاريخهم بسبب الخيانات؛ وذلك للتحذير من الوقوع في مثل هذه البؤر الموبوءة في المستقبل، ولله در القائل:

عرفت الشرَّ لا للشر ولكن لتوقيه *** ومن لا يعرف الخير من الشر وقع فيه

وفي هذا العمل تناولت الأحداث الخيانية التي وقعت في عهد النبي ﷺ حتى فترة العصر الحديث، وما حدث في حرب أكتوبر المجيدة من خيانات أمريكية فظيعة ضد مصر لصالح إسرائيل.

وذِكْرُ هذه الأحداث ليس للتشهير ولا للشماتة في المهزوم ولكن للحذر منها، وتجنب الوقوع في أمثالها؛ فالمؤمن لا يُلدغ من الجحر مرتين.

وسوف يصدر الجزء الثاني - إن شاء الله تعالى - عن انتصارات المسلمين خلال تاريخهم المجيد.

هذا وأرجو من الله العلي القدير أن يتقبل منَّا هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، إنَّه نعم المولى ونعم النصير.

ربنَّا تقبَّل منَّا إنَّك أنت السَّميع العليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

كتبه

سعد كريم الفقي

الباب الأول

الفصل الأول

أحداث في عهد الرسول ﷺ

١ ـ خيانة أبي لهب وزوجته حمالة الحطب:

ذكرت هذه الخيانة في سورة المسد في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (المسد).

جاء في تفسيرها في (مختصر ابن كثير): أن البخاري روى عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: «يا صباحاه»، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم .. أكنتم تصدقوني؟»، قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تبًا لك، فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد) إلى آخرها، أي خسرت وخابت وضل عمله وسعيه، و﴿وَتَبَّ﴾ أي قد تحققت خسارته وهلاكه، ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ يعني ولده، ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي ذات شرر ولهب وإحراق شديد، ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ فكانت عونًا لزوجها على كفره وعناده؛ فلهذا تكون يوم القيامة عونًا له في نار جهنم.

٢ ـ خيانة زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول:

هذا الخائن زعيم المنافقين، كان يمني نفسه أن يكون ملكًا على يثرب (المدينة المنورة) قبل هجرة النبي ﷺ إليها، ولكن خاب أمله وازداد غيظه وحقده بقدوم النور الساطع نور النبي ﷺ إليها حتى كانت غزوة أحد. وكان هذا الخائن المنافق لم يدخر جهدًا في الكيد للنبي ﷺ وللإسلام والمسلمين، فخرج مع المسلمين لملاقاة

كفار قريش عند جبل أحد، وتجلت خيانته في هذا الظرف الدقيق بأن انخذل عن المسلمين ومعه بقية المنافقين، وكان عددهم ثلاثمائة، وكانوا يمثلون ثلث الجيش، فانسحبوا وتراجعوا عن المسلمين قائلين: علام نقتل أنفسنا؟!

وكان من الأفضل أن يظل هذا المنافق قابعًا هو ومن معه من المنافقين في يثرب ولم يخرجوا أساسًا مع المسلمين، ولكن شدة خيانته وخيانة من معه جعلتهم يعملون على إحداث البلبلة في الجيش الإسلامي حتى تنهار وتضعف معنوياته، ولكن الله تعالى خيب ظنهم ورد خيانتهم وكيدهم في نحرهم، فانتصر المسلمون في أول المعركة انتصارًا عظيمًا ونكلوا بالمشركين أشد تنكيل حتى ترك الرماة أماكنهم ظنًا منهم أن المعركة قد انتهت مخالفين بذلك أمر الرسول ﷺ، فتحول الموقف لصالح المشركين.

٣ ـ خيانة عدو الله عامر بن الطفيل:

قدم رجل يسمى أبو براء عامر بن مالك، الملقب بـ(ملاعب الأسنة) إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام، ولكنه طلب من رسول الله ﷺ أن يرسل بعض أتباعه من الصحابة إلى أهل نجد يدعوهم إلى الإسلام، فقال: «إني أخاف عليهم أهل نجد»، فقال أبو براء: أنا جار لهم، فبعث معه سبعين رجلاً من خيار الصحابة، وأمَّر عليهم المنذر بن عمرو حتى نزلوا بئر معونة، وهي أرض بين بني عامر وبني سليم، فنزلوا هناك ثم بعثوا أحدهم وهو حرام ابن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر في الكتاب وأمر رجلاً من أتباعه فطعن الصحابي حرام بن ملحان فقتله خيانة وغدرًا.

ثم استنفر عدو الله عامر بن الطفيل بني عامر إلى قتال بقية الصحابة فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء عامر بن مالك، فاستنفر بني سليم فأجابته قبائل: عصية ورعل وذكوان، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ فقتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا كعب بن زيد بن النجار، واستشهد يوم الخندق.

وهذه الواقعة الخيانية من عامر بن الطفيل وأتباعه من عصية ورعل وذكوان موضحة بالتفصيل في كتب السيرة[١].

٤ ـ خيانة يهود المدينة:

كانت في يثرب (المدينة المنورة) قبل هجرة الرسول ﷺ إليها فئة خطيرة ولها رءوس أربعة: أما الرأس الأول فكان يهود بني قينقاع، وأما الرأس الثاني فكان يهود بني النضير، وأما الرأس الثالث فكان يهود بني قريظة، وأما الرأس الرابع فكان يهود خيبر، وكان حصن خيبر هو أكبر وكر تعيش فيه وتسكن إليه.

وكانت هذه الأفعى قد طُرِدت من جميع بقاع الأرض وسلط الله عليها على مر التاريخ من يسومها سوء العذاب ويذيقها مرارة القتل والتشريد والذل والهوان، حتى استقر بها الحال في يثرب، وكان هدفها على مر التاريخ السيطرة على العالم أجمع، ومازالت كذلك إلى الآن، فلم تقنع بالعيش والثراء والاستقرار في أي بلد من البلاد، ولكن كان الطمع وحب السيطرة هو عنوانها، لذلك كانت ممقوتة من الجميع، وقد أذاقها بختنصر وغيره الذل والهوان والقتل والتشريد لما لمس فيها من طمع وجشع وغدر وخيانة وتطلع إلى انتزاع بلاده والسيطرة عليها.

وأخيراً لم تقنع هذه الفئة بالعيش مع عرب يثرب الذين احتضنوها وآووها بينهم في رغد وثراء وطيب من العيش والمال والحدائق والبيوت، لم تقنع بذلك كله ولم تقنع بالعيش في هدوء وسكينة، ولكن عاد إليها طبعها الخياني، فتطلعوا إلى السيطرة وحدهم على جميع يثرب ثم على جميع الجزيرة العربية، ومنها على شتى بقاع

(١) انظر: «سيرة ابن هشام»، «الرحيق المختوم».

الأرض كما كانوا يحلمون، و هم كذلك مازالوا يحلمون بالسيطرة على جميع العالم، وإنشاء حكومة يهودية تحكم العالم أجمع، كما جاء على لسانهم في كتابهم الخطير (بروتوكولات حكماء صهيون).

ولما استقروا بيثرب (المدينة المنورة)، كانوا ينتظرون ظهور نبي آخر الزمان، وكانوا يظنون أنه سيخرج من بين ظهرانيهم أي من بني إسرائيل كسابق الأنبياء، وكانوا كلما وقع بينهم وبين عرب يثرب (المدينة المنورة) أي نزاع يقولون لهم: صبراً، يوشك أن يخرج منا نبي نقتلكم معه قتل عاد وإرم. أي أن هذا النبي الذي سيظهر حسب أملهم من اليهود سوف يكون هو القائد لهم ضد العرب فيقومون تحت قيادته بقتل العرب والسيطرة على بلادهم.

ففوجئوا بخروج هذا النبي المنتظر من العرب من بني إسماعيل وليس من بني إسرائيل، فازداد حقدهم وغضبهم وظهرت خيانتهم جلية منذ هجرة النبي ﷺ، وأصبحوا شوكة خطيرة في ظهر الإسلام والمسلمين كما هو الحال الآن، ووجد الرسول ﷺ شدة غدر وخيانة هذه الأفعى ولابد من القضاء عليها أولاً قضاءً مبرمًا حتى يتفرغ تمامًا للقضاء على الشرك ولترتفع راية الإسلام عالية خفاقة على جميع الجزيرة العربية كلها، ويعم نور الإسلام بقاع العالم.

ونظراً لأن هذه الفئة كان لها حلفاء من المنافقين، فقد رأى النبي ﷺ أن من الحكمة القضاء عليها وعلى خيانتها تدريجيًا، وسنوجز باختصار مراحل القضاء على هذه الرءوس الخيانية لهذه الفئة:

مراحل القضاء على الخيانات اليهودية:

أولاً ـ القضاء على يهود بني قينقاع:

تتجلى وتظهر الخيانة بكل سماتها ومعانيها في هذه الشرذمة من يهود بني قينقاع، الذين بلغت خستهم التعدي على النساء وكشف عوراتهن والسخرية منهن، وقد فَعَلَ

ذلك بامرأة مسلمة يهودي فاجر، فطلب من المرأة المسلمة كشف وجهها فأبت وزجرته، فغافلها وعقد طرف ثوبها إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحك هو ومن معه من اليهود الذين كانوا يحاولون معه كشف وجهها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين أبت عزته وكرامته أن يرى مسلمة تهان ويفعل بها ذلك وانقض على اليهودي فقتله، فتكاثرت بنو النضير على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهله المسلمين على اليهود، فوقع الشر بين الفريقين، فقام الرسول ﷺ بحصارهم أشد حصار وأذاقهم الذل والهوان وضيق عليهم الخناق لمدة خمسة عشر ليلة، وقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بهم فأوثقوهم أذلة صاغرين.

وعندئذ قام زعيم المنافقين (عبد الله بن أبي بن سلول) بدوره النفاقي والخياني، فألح إلحاحًا شديدًا على الرسول ﷺ أن يعفوا عنهم، فعفا عنهم بشرط أن يتركوا المدينة المنورة ويخرجوا منها، فخرجوا إلى أذرعات بالشام، فما لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم وبقى من بقى منهم أذلة مستضعفين لا حول لهم ولا قوة، وبذلك تطهرت المدينة المنورة من أول رأس خياني لهذه الفئة اليهودية السوداء مُدمِنَة الخيانة والغدر.

ثانيًا - القضاء على يهود بني النضير:

لا نستطيع أن نقول أن هذه الرأس الخياني كان أشد في الخيانة والغدر من سابقه، فهؤلاء الرءوس الخيانية من الصعب التفرقة بينها، فهم رءوس أربعة لجسم أسود واحد، فهذا الرأس الخياني هم طائفة أخرى من طوائف الخيانة والغدر اليهودي الأسود، حيث كانوا يضمرون الغيظ الشديد والدفين للرسول ﷺ وللإسلام والمسلمين، وكان الرسول ﷺ قد أخذ عهدهم وميثاقهم على التعاون في دفع ديات القتلى، ولما ذهب إليهم لمطالبتهم بما كان عليهم وكان معه أكابر الصحابة: أبو بكر

الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهم وأرضاهم -، ومعهم طائفة أخرى من الصحابة، فقال بنو النضير: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هنا حتى تقضي حاجتك، فجلس الرسول ﷺ إلى جانب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، فخلا بعضهم إلى البعض وقالوا: هذه فرصة ثمينة لقتله، فمن يأخذ هذه الرحى ويصعد فيلقيها على رأسه فيقتله؟ فقال واحد منهم اسمه (عمرو بن جحش): أنا أفعل.

وقبل أن يقوم بفعلته الغادرة، كان نصير الأنبياء جبريل عليه السلام ينزل في لمح البصر ليخبر النبي ﷺ بذلك، فهبَّ النبي ﷺ من مكانه وانصرف، ثم حاصرهم حصاراً شديداً وأذاقهم ذل الحصار ومره بعد أن طلب منهم الخروج وإلا قتلهم، فأبوا الخروج، فاستمر في إذاقتهم ذل الحصار حتى استسلموا ورضخوا للخروج بعد أن قذف الله تعالى في قلوبهم الرعب، فأنزلهم الرسول ﷺ على أن يخرجوا بأنفسهم وذراريهم وما حملت الإبل إلا السلاح، ورحلوا عن المدينة المنورة إلى غير رجعة وطهرت منهم المدينة كما طهرت من بني قينقاع. وبذلك تكون قد تطهرت ونظفت من رأسين من رءوس الفئة اليهودية وبقي رأسان آخران.

ثالثاً - القضاء على يهود بني قريظة:

ليس هذا الرأس بأحسن حالاً من زميليه السابقين، فكلهم رءوس لفئة واحدة، فلا نستطيع كما قلنا أن نفرق بين رأس وآخر، لأنهم جميعًا امتداد لمسلسل الغدر والخيانة اليهودي، قام هذا الرأس الخائن بنو قريظة بالتعاون مع أحزاب المشركين أثناء غزوة الخندق، فبدلاً من أن يتعاونوا مع المسلمين في الدفاع عن المدينة التي تؤويهم جميعًا يهودًا ومسلمين، أخذوا يرتكبون أشد أنواع الخيانة على الإطلاق، وهي التعاون مع الأعداء ضد الوطن، فأخذوا يمدون المشركين بالمؤن والعتاد، وقد ضبط المسلمون عشرين جملاً محملة بالسلاح والعتاد والمؤن، فأخذوها غنيمة ازدادوا بها قوة على قوة إيمانهم وأسلحتهم.

كما تحرش يهودي منهم بنساء المسلمين في حصنهم بينما رجال المسلمين يقفون بالمرصاد للمشركين من الأمام يذودون بأرواحهم عن تراب المدينة، فقامت السيدة الطاهرة سليلة المجد والحسب والنسب (صفية بنت عبد المطلب) عمة الرسول ﷺ وشقيقة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ومعها عامود إلى ذلك اليهودي فضربته به حتى قتلته وأصلته الجحيم، وبذلك أصبح ظهر المسلمين آمنًا، فلم يجترئ اليهود على التحرش مرة ثانية بنساء المسلمين في حصنهم.

وقد تحقق الرسول ﷺ من غدرهم وخيانتهم وتآمرهم مع المشركين والتحالف معهم ضد المسلمين ونقضهم للعهد الذي بينهم وبين المسلمين، فكان لابد من تأديبهم وسحقهم، فحاصرهم حصارًا شديدًا وأذاقهم كذلك ذل الحصار ومرارته، كما فعل بمن قبلهم من اليهود حتى نزلوا على حكم الرسول ﷺ، فأمر باعتقال الرجال فوضعت القيود في أيديهم وجعلت النساء والذراري في ناحية أخرى في معزل عن الرجال، فأخذت (الأوس) تشفع فيهم كما شفعت (الخزرج) في حلفائهم بني قينقاع، فقال لهم الرسول ﷺ: «ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟»، قالوا: بلى، قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ»، قالوا: رضينا، وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه قد جرح جرحًا شديدًا أثناء معركة الأحزاب والتراشق معهم، فحكم في يهود بني قريظة بقتل الرجال وسبي النساء والذرية وتقسيم الأموال، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع سموات»، وكان هذا الحكم حكمًا عادلاً منصفًا، فإن هؤلاء الأشخاص من بني قريظة قد ارتكبوا أبشع خيانة، حيث جمعوا لإبادة المسلمين ألفًا وخمسمائة سيف وألفين من الرماح وثلاثمائة درع وخمسمائة ترس حصل عليها المسلمون بعدما دخلوا ديارهم، وأمر الرسول ﷺ بضرب أعناقهم، وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة . . وهكذا تم تطهير المدينة المنورة من رأس الأفعى الثالث يهود بني قريظة الذين ارتكبوا أشنع أنواع الخيانة بتعاونهم مع الأحزاب على إبادة المسلمين في أحرج الأوقات.

رابعًا ـ القضاء على يهود خيبر:

كان هذا الرأس الخائن الغادر أقوى رءوس الأفعى جميعًا، فكانت خيبر مكدسة بالأسلحة والعتاد والأموال من الذهب والفضة التي كانوا يعدونها ويكتنزونها لحرب الإسلام والمسلمين، وكان لهم ثمانية حصون هي: ناعم والصعب بن معاذ وقلعة الزبير وحصن أُبَيّ وحصن النزار والقموص والوطيح وحصن السلالم، وكانت خيبر هي بؤرة الخيانة والتآمر والاستفزازات والتحرشات بالمسلمين والتحريض عليهم، فأهل خيبر الذين حزّبوا الأحزاب ضد المسلمين وحرضوا بني قريظة على الخيانة والغدر، كما قاموا بأعمال التجسس والاتصال بالمنافقين وأعراب البادية، وكانوا هم أنفسهم يعدون العدة لقتال المسلمين، وخططوا لاغتيال النبي ﷺ.

فكان لابد من تطهير المدينة منهم أسوة بمن سبق من رفقائهم من خونة اليهود، وكان أول ما هاجمه المسلمون هو حصن (ناعم) وهو حصن أشد رجال اليهود، وكان اسمه (مرحب)، وكان يُعد بألف فارس، فخرج يطلب المبارزة، فخرج إليه فارس الإسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فانقض عليه كالصاعقة فقتله وأوصله إلى الجحيم وألحقه بالوليد بن عتبة الذي صرعه يوم بدر، وعمرو بن عبد وُد الذي صرعه يوم الأحزاب، وكان عمرو بن عبد وُد هذا يحمل الفارس من على ظهر جواده كما يحمل القشة ويضرب به الأرض، فكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخصائيًا كبيرًا وماهرًا وحاذقًا في قتل عتاة وجبابرة المشركين والكفار، منهم هذا اليهودي مرحب، الذي لا يشق له غبار، ويُقَوَّم بألف فارس.

ويقتل هذا اليهودي دب الذعر والرعب في قلوب اليهود، وتوالت حصونهم في السقوط بأيدي المسلمين، فطلبوا العفو من الرسول ﷺ، فعفا عنهم على أن يخرجوا من خيبر وأرضها بذراريهم ويتركوا أرضهم وديارهم وأموالهم المكدسة من الذهب والفضة التي كانوا يكنزونها ويدخرونها لحرب المسلمين، وبذلك طهر الرسول ﷺ

المدينة المنورة تطهيرًا كاملاً من هذه الأفعى السوداء اليهودية، واستخدمت هذه الأموال المكدسة والأسلحة المدخرة التي غنمها منهم فيما بعد في عهد الصحابة في حرب الفرس والروم والقضاء على الخونة من الأعراب المرتدين، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (المائدة: ٨٢).

٥ ـ خيانة المرأة اليهودية للنبي ﷺ:

أنجبت الأفعى الكبيرة السوداء الأم أفعى أخرى اسمها زينب بنت الحارث بن سلام اليهودية، أخت مرحب اليهودي السابق ذكره، حيث أهدت هذه الأفعى شاة مشوية مسمومة للرسول ﷺ وأكثرت من السم في ذراع الشاة؛ لأنها سألت وعلمت أن الرسول ﷺ يحب الذراع، فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ومعه الصحابي الجليل بشر بن البراء بن معرور، وقد أخذ منها أيضًا بشر فأساغها، وأما الرسول ﷺ فلفظها ثم قال: «إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم»، فأتى بالمرأة فاعترفت فقال لها: «ما حملك على ذلك؟»، فقالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت إن كان ملكًا استرحنا منه، وإن كان نبيًا فسيخبر.

فتجاوز عنها النبي ﷺ لأنه كان من شيمه وأخلاقه العفو عند المقدرة، كيف لا وقد عفا عن وحشي قاتل عمه حمزة رضي الله عنه، وعفا عن هند بنت عتبة وأبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم ممن اعترفوا بذنوبهم واتبعوا الحق، لذلك عفا عن هذه المرأة اليهودية الرقطاء، ولكن لما مات الصحابي بشر بن البراء من هذه الأكلة حيث ظل معتلاً منها حتى مات بعد عام قتلها وصلبها قصاصًا.

٦ ـ خيانة لبيد بن الأعصم اليهودي للنبي ﷺ:

ذلكم هو الثعبان الأسود الذي نشأ وتربى في جحور اليهود، حيث سحر النبي ﷺ تنفيذًا لأمر بقية آبائه من اليهود، حيث جاء في صحيح البخاري عن إبراهيم بن موسى عن عيسى بن يونس عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سحر رسول

الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا ثم قال: «يا عائشة، أشعرت ان الله افتاني فيما استفتيته فيه؟ اتاني رجلان فقعد احدهما عند راسي والآخر عند رجلي، فقال احدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في اي شيء؟ قال: في مشط ومشاطه وجف طلع نخلة ذكر»، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: «يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن رءوس نخلها رءوس الشياطين»، قلت: يا رسول الله، أفلا استخرجته؟ قال: «قد عافاني الله فكرهت ان اثور على الناس فيه شراً»، فأمر بها فدفنت. والحديث موجود في صحيح البخاري بعدة صيغ أخرى عن عائشة أم المؤمنين ﵂.

٧ ـ خيانة كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق:

كان هذا اليهودي عنده كنز وهو من بني النضير، فسأله عنه رسول الله ﷺ، فأنكر مكانه، فأتى رسول الله ﷺ رجل آخر من اليهود فقال لرسول الله ﷺ: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة، فقال رسول الله ﷺ لكنانة: «ارايت إن وجدناه عندك انقتلك؟»، قال: نعم، فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض الكنز ثم سأله عما بقي، فأبى ذلك اليهودي أن يؤديه، فأمر الرسول ﷺ الزبير بن العوام ﵁ فقال: «عذبه حتى تستاصل ما عنده»، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة الذي استشهد في خيبر.

٨ ـ خيانة مقيس بن صبابة:

قدم هذا الخائن من مكة مظهراً الإسلام، فقال: يا رسول الله، جئتك مسلمًا، وجئتك أطلب دية أخي قُتِل خطأ، فامر له رسول الله ﷺ بدية اخيه هشام بن صبابة، فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ثم هرب إلى مكة مرتدًا.

٩ ـ خيانة أخرى لعامر بن الطفيل وأربد بن قيس للرسول ﷺ:

لم يكتف هذا الخائن بما فعل بأصحاب الرسول ﷺ في بئر معونة كما سبق، بل اتفق مع خائن آخر مثله هو أربد بن قيس على قتل رسول الله ﷺ خيانة وغدرًا، فقدما عليه وقال عامر بن الطفيل لأربد بن قيس: إني سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعلُه بالسيف.

فلما قدما على الرسول ﷺ قال له عامر بن الطفيل: يا محمد، خالِني (أي اتخذني خليلاً)، قال: «لا والله، حتى تؤمن بالله وحده»، فجعل يكررها ويقول: يا محمد، خالني. وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به، فجعل أربد لا يجيب شيئًا، فلما رأى عامر ما يصنع أربد قال: يا محمد، خالني، قال: «لا، حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له»، فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجلاً، فلما ولى قال رسول الله ﷺ : «اللهم اكفني عامر ابن الطفيل»، فلما خرجا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد: أين ما كنت أمرتك به؟ قال: والله ما هممت بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلت أنت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك.

وفي رواية أخرى: إلا رأيت بيني وبينه سورًا من حديد، وفي الطريق بعث الله تعالى على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه، فقتله، وأما أربد فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما.

١٠ ـ خيانة قبيلتي عضل وقارة:

من المعروف عن العرب الكرم والوفاء بالعهد والبعد عن الخيانة والغدر، ولكن لكل قاعدة شواذ، ففي شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة قدم على رسول الله ﷺ قوم من قبيلتي عضل وقارة، وهما بطنان (أي فرعان) من الهون بن خزيمة بن مدركة، أي من صميم العرب، وذكر هؤلاء القوم له ﷺ أن فيهم إسلامًا وسألوه

أن يبعث معهم من يعلمهم الدين والقرآن، فبعث معهم ستة نفر في قول ابن إسحاق، (وعشرة في قول البخاري)، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي في قول ابن إسحاق، أما عند البخاري فأمر عليهم عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنهم جميعًا وأرضاهم -، فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرجيع وهو ماء لهذيل بين رابغ وجدة، استصرخوا عليهم حيًا من هذيل يقال لهم بنو لحيان فتبعوهم بقرب من ماء رام، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم فأحاطوا بهم وقالوا لهم: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً.

وكانوا قد صعدوا إلى جبل مرتفع، فأما عاصم فأبى النزول وقاتلهم في أصحابه، فقتل منهم سبعة بالنبل وبقي خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى، فنزلوا إليهم، ولكنهم خانوهم وغدروا بهم وربطوهم بأوتار قسيهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، وأبى أن يصحبهم، فجروه وحاولوا أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة، وكانا قد قتلا من مشركي مكة يوم بدر، فأما خبيب فبقى عندهم مسجونًا ثم أجمعوا على قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أجمعوا على صلبه قال: دعوني حتى أركع ركعتين، فتركوه فصلاهما، فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا إن بي جزع من الصلب والقتل لزدت، ثم قال: «اللهم احصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم احداً». فقال له أبو سفيان بن حرب: أيسرك أن محمداً عندنا تضرب عنقه وأنك في أهلك، فقال: لا والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمداً في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، ثم صلبوه ووكلوا به من يحرس جثته، فجاء عمرو بن أمية الضمري، فاحتمله بخدعة ليلاً، فذهب به فدفنه وكان الذي تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث، وكان خبيب قد قتل أباه حارثًا يوم بدر.

وأما زيد بن الدثنة فأتبعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه. وأما عاصم بن ثابت فقد بعث قريش إليه لقطع جزء من جسده يعرفونه به، وكان قد قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله تعالى عليه مثل الظل من الدبر (أي النحل)، فحمته منهم فلم يقدروا على شيء منه، وكان عاصم قد أعطى الله تعالى عهدًا ألا يمس مشركًا أو يمسه مشرك، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه وأرضاه - لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله تعالى العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته.

١١ - خيانة أبي عامر الفاسق:

كان هذا الخائن الفاسق أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان، كان قد خرج إلى مكة مباعدًا للرسول ﷺ ومعه خمسون غلامًا من الأوس، - وقيل: خمسة عشر رجلاً -، وكان يعد قريشًا أن لو قد لقى قومه لم يختلف عليه منهم اثنان، فلما التقى الفريقان في موقعة أحد كان أول من برز هذا الخائن ومعه الأحباش وعبيد أهل مكة، فنادى: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك علينا يا فاسق. وكان أبو عامر يسمى في الجاهلية الراهب، فسماه الرسول ﷺ (الفاسق)، فلما سمع ردهم عليه قال: أصاب قومي بعدي شر ثم قاتل المسلمين قتالاً شديدًا ثم راضخهم أي رماهم بالحجارة.

١٢ - خيانة هوازن وثقيف:

وهي من الخيانات المشهورة، وما أكثر الخيانات قبل الإسلام، وما أكثر ما يخون الإنسان إذا لم يكن مؤمنًا قوي الإيمان سليم العقيدة متمسكًا بدينه الحنيف القويم، ومعتزًا بما جاء من تعاليم ربانية سماوية يتضاءل أمامها الجاه والسلطان، فكثيرًا ما نجد بعض الناس مخلصين لأعدائهم وخائنين لبني جنسهم نتيجة حب المال أو عرض زائل من الدنيا، فهاهي ذا قبيلة هوازن ومعها ثقيف وجمع آخر غفير من قبائل العرب، تأكلهم الغيرة ويأكلهم الحقد والحسد البغيض للرسول ﷺ والمسلمين،

فجمعوا بقيادة أميرهم (مالك بن عوف النضري) ومعهم بنو جشم، وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال، وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر. فجمعوا جمعهم في خيانة وضيعة ورهيبة، فأقبلوا بقضهم وقضيضهم وأنعامهم ونسائهم.

وليتهم جمعوا جمعهم وشحذوا أسلحتهم واستنفروا فرسانهم وأعدوا أقصى ما يستطيعون من قوتهم لحرب أعداء العرب من الفرس والروم واليهود، فعند ذلك كان التاريخ سيذكرهم بالخير ويثني عليهم ثناءً حسنًا مجيدًا إلى أبد الدهر. ولكنهم جمعوا جمعهم لقتال إخوانهم الذين لا ذنب لهم إلا أن الله تعالى قد نور قلوبهم بنور الإسلام والإيمان ومنَّ عليهم بخير الخلق أجمعين وسيد الأنبياء والمرسلين وقائد البشرية الأعظم محمد رسول الله ﷺ.

والطائف يقال له حنين، وفي هذه الغزوة اغتر المسلمون بكثرتهم حيث قال أحدهم: لن نغلب اليوم من قلة، وكانت الوقعة في أول النهار وفي غلس الصبح، فانحدر المسلمون في الوادي المعروف بوادي (حنين)، وكانت هوازن وحلفاؤها قد أعدوا في الوادي كمينًا لم يخطر للمسلمين ببال، فالمعروف أن الحرب عادة تكون وجهًا لوجه دون مباغتة ودون خيانة وغدر، وعادة تدق طبول الحرب حتى لا يؤخذ أحد الفريقين على غرة، ولكن هؤلاء الخونة قد باغتوا المسلمين وبادروهم بالنبال وأصلتوا فيهم السيوف، ولم يكن المسلمون قد استعدوا وأخذوا أهبتهم للحرب، فكانت نتيجة هذه الخيانة أن ولى المسلمون الأدبار منهزمين في فزع وهلع من هول الخيانة والمفاجأة.

ولك أن تتخيل هذا الموقف الصعب والعصيب والمأرق الخياني الخطير الذي أصاب المسلمين، فقد فر المسلمون نتيجة الخيانة المباغتة والمفاجئة، ولم يثبت مع النبي ﷺ سوى عدد قليل، فمنهم من قال مائة، ومنهم من قال ثمانون صحابيًا منهم

أبو بكر وعمر وعلي والعباس والفضل بن العباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ، وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم - رضي الله تعالى عنهم جميعًا -، وأصابت المسلمين شدة أي شدة وبلاء أي بلاء، وصاروا في أصعب موقف مر بهم في حياتهم وطوال معاركهم السابقة مع الشرك والمشركين والكفر والكافرين.

ولكن، من لهذا الموقف العصيب الخطير، ومن لهذه الشدة العظيمة التي نتجت عن هذه الخيانة البشعة سوى أشجع الشجعان، وقائد البشرية الأعظم، وخير الخلق كلهم على الإطلاق، وإمام الأنبياء والمرسلين محمد رسول الله ﷺ، فقد أمسك بزمام الموقف بسرعة كبيرة وعزيمة صادقة وبراعة فائقة، وأخذ ينادي في المسلمين بأعلى صوته قائلاً: **«إليَّ عباد الله، إليَّ أنا رسول الله»**، وقال قولته الخالدة: **«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»**.

وأمر عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي في المسلمين بأعلى صوته يدعوهم إلى العودة والثبات مع النبي ﷺ، وسرعان ما تبدل الموقف وانكشفت الغمة وانقشعت الشدة والخيانة، وفشل الغدر الخياني المشرك وتماسك المسلمون حول قائدهم العظيم ﷺ، وباعوا أنفسهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى في فدائية عظيمة وجسارة بالغة وشجاعة نادرة لم يشهد التاريخ مثلها، فسرعان ما تحولت الهزيمة إلى نصر ساحق مؤزر، فأثخنوا في الأعداء قتلاً وأسرًا وسبيًا، وأذاقوهم هزيمة مرة وأعطوهم درسًا قاسيًا، وكان ذلك بفضل ثبات نبينا محمد رسول الله ﷺ، وأسروا من الأعداء ستة آلاف أسير، منهم قائدهم المغرور (مالك بن عوف النضري)، الذي أسلم فيما بعد.

الفصل الثاني

أحداث في عهد الصديق أبي بكر رضي الله عنه

كشَّرت الخيانة عن أنيابها في بداية عهد خليفة رسول الله ﷺ الصديق رضي الله عنه، وفغرت فاها وقذفت بالشرر واللهب من فمها وعينيها بحيث كانت ترعب كل من ينظر إليها، فكان كل من يقترب منها يفر مذعوراً، ولكن الصديق كان لها بالمرصاد، فمن لها سوى الصديق الذي قال عنه الرسول ﷺ: «ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبياً»[1].

فتصدى للخيانة القبلية وألقمها حجراً صلباً كصلابة إيمانه، فخرت صريعة وقطع دابرها ومزق جسدها اللعين شر ممزق، وطهر منها الجزيرة العربية ووقف شامخاً كالطود الأشم وصامداً كرواسخ الجبال يقول لسان حاله في عزيمة قوية تفل الحديد وتسحق الفولاذ: أنا لها أنا لها، ها أنا ها أنا ها أنا الصديق أبو بكر لكل من تسول له نفسه بالخيانة من جديد. قائلاً كلمته المشهورة الخالدة: «والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه».

١ـ حروب الردة

ارتدت القبائل العربية عن بكرة أبيها بعد وفاة الرسول ﷺ، وصار الإسلام إلى أحد أمرين، إما أن يبقى وإما أن لا يبقى، وأصبح الإسلام كسفينة تتقاذفها الأمواج العاتية من كل جانب في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، وأشرفت السفينة على الغرق بعد وفاة رسول الله ﷺ، لولا أن سخر الله تعالى لها ذلك الربان الماهر والقبطان الحاذق الذي قادها إلى بر السلام والأمان، بل

---

(١) انظر: الحاكم في «الكنى»، وابن عدي والخطيب في «التاريخ» (٥/ ٢٥٣).

وأخذ يهاجم سفن الأعداء المتربصة ويقضي عليها ويغرقها إلى الجحيم الواحدة تلو الأخرى، ومن يكون ذلك الربان سوى أبي بكر الصديق ﷺ، وقد أفاض الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ في الحديث عن حروب الردة نوجز ما قاله باختصار فيما يلي:

فقد ارتد كل من مسلمة بن حبيب الكذاب في اليمامة، وارتد الأسود العنسي في اليمن، وارتد طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد، وارتدت امرأة اسمها سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان في بني تميم بالجزيرة، وتفشت خيانة الردة بفظاعة وبشاعة لا حد لها في كل من قبائل قضاعة ووديعة والحارث وهوازن وقبائل عبد القيس وربيعة وعمان ومهرة وحضرموت وتهامة، وهكذا ارتد معظم الجزيرة العربية ولم تبق سوى البؤرة الإسلامية القوية في المدينة المنورة ومكة المكرمة.

فانظر كيف أن الخيانة القبلية كادت أن تعصف بالإسلام لولا العزيمة الإيمانية الراسخة لسيدنا أبي بكر الصديق ومن حوله من بقية الصحابة الكرام ذوي الإيمان القوي من المهاجرين والأنصار ـ رضي الله تعالى عنهم جميعًا ـ، فقد تصدوا جميعًا بعزم وحزم وصدق وإخلاص لهذه الخيانة وقضوا عليها واستشهد الكثير منهم في سبيل الله تعالى وفي سبيل القضاء على هذه الخيانة القذرة، خيانة الأعراب المرتدين، وطهروا منهم الجزيرة العربية تطهيراً كاملاً، فقد عقد الصديق أبو بكر أحد عشر لواءً في أنحاء الجزيرة لمحاربة المرتدين كما يلي:

١ ـ جيش بقيادة خالد بن الوليد يتوجه إلى ضاحية مضر في بلاد نجد لملاقاة طليحة ابن خويلد الأسدي في بني أسد، فإذا فرغ خالد من طليحة يسير إلى البطاح حيث مالك بن نويرة في بني تميم.

٢ ـ جيش بقيادة عكرمة بن أبي جهل، يتوجه إلى اليمامة حيث مسيلمة بن حبيب الكذاب في بني حنيفة.

٣ ـ جيش بقيادة شرحبيل بن حسنة يتوجه إلى اليمامة أيضًا.

٤ ـ جيش بقيادة طريفة بن حاجز يتوجه إلى بني سليم ومن معهم من مرتدي هوازن.

٥ ـ جيش بقيادة البطل المغوار عمرو بن العاص يتوجه شمالاً إلى قبائل قضاعة ووديعة والحارث ومن حالفهم من الخونة المرتدين.

٦ ـ جيش بقيادة خالد بن سعيد يتوجه إلى المرتدين بمشارف الشام.

٧ ـ جيش بقيادة المجاهد العظيم العلاء بن الحضرمي يتوجه إلى المرتدين بالبحرين حيث الخائن المرتد الحُطم بن ضبيعة في مرتدي عبد القيس وقبائل ربيعة.

٨ ـ جيش بقيادة حذيفة بن محصن يتوجه إلى الخونة المرتدين بِدبَا بعمان.

٩ ـ جيش بقيادة عرفجة من هرثمة يتوجه إلى الخونة المرتدين من أهل مهرة.

١٠ ـ جيش بقيادة المهاجر بن أبي أمية يتوجه إلى صنعاء باليمن لملاقاة الخائن الخطير المرتد الأسود العنسي ثم إلى حضرموت لقتال من خان وارتد منهم.

١١ ـ أما الجيش الحادي عشر فكان بقيادة المجاهد البطل سويد بن مقرن، حيث توجه لقتال المرتدين بتهامة باليمن.

ـ وقام هؤلاء القادة الأبطال المجاهدون بأعمال وبطولات عظيمة وحروب يشيب لهولها الولدان، فقضوا على هذه الحركة الخيانية وقطعوا دابرها ونكلوا بهؤلاء المرتدين أشد تنكيل وجعلوهم عبرة لمن يعتبر، فانتصر عبقري الحروب وداهيتها سيف الله المسلول خالد بن الوليد بعشرة آلاف مقاتل على طليحة بن خويلد الأسدي ومعه أربعين ألفًا من المرتدين في معركة شرسة تسمى (بزاخة)، ولى طليحة هاربًا ثم تاب بعد ذلك ومات شهيداً في معركة نهاوند الشهيرة بين المسلمين والفرس، وكانت معركة اليمامة من أشرس المعارك التي خاضها الصحابة، وكان قائد المسلمين فيها عكرمة بن أبي جهل، وقد أمَرَهُ أبو بكر الصديق ﷺ بأن يتجنب القتال حتى يصله مدد شرحبيل ابن حسنة، ولكن عكرمة لم يلتزم بالأمر فهُزم في البداية حتى لحق به خالد بن الوليد فأحال الهزيمة إلى نصر. وقد قتل من المرتدين عشرون ألفًا، منهم مسيلمة الكذاب، واستشهد من المسلمين ألف ومائتين من المهاجرين والأنصار، منهم أربعمائة من حملة القرآن الكريم، ولم يستشهد مثل هذا العدد في أي معركة من قبل.

٢ ـ حديقة الموت

احتمى المرتدون بحديقة وأغلقوها على أنفسهم سميت بحديقة الموت لكثرة من قتل فيها. ونادى الصحابي الجليل البراء بن مالك: «يا معشر المسلمين، ألقوني (أي اقذفوني) في الحديقة»، فاحتملوه ورفعوه وألقوه في الحديقة من فوق سورها، فلم يزل يقاتل الخونة الأعداء المرتدين دون باب الحديقة حتى فتحه وتدفقت جنود المسلمين على من بالحديقة من الخونة المرتدين، فأبادتهم إلى الجحيم، ومن ضراوة المعركة وشراستها تكسرت في يد خالد بن الوليد تسعة أسياف.

٣ ـ القتال في البحرين

وأما في البحرين، فقد كان القائد العملاق العلاء بن الحضرمي يخوض بجيشه لجج البحار غير خائف ولا هياب، يقول أبو هريرة رضي الله عنه وكان مشاركًا في هذا الجيش: لما فر جيش المرتدين عابرًا البحر مستخدمًا السفن، ولم نكن ندرك عدونا بالسفن، دعا العلاء بن الحضرمي ربه وأمر الجيش بالعبور، فكان من دعائه: «يا ارحم الراحمين، يا حكيم يا كريم، يا أحد يا صمد، يا حي يا محيي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا انت يا ربنا اجرنا من هذا البحر»، وأمر الجيش أن يقولوا ذلك ويقتحموا البحر، ففعلوا، فمشينا على الماء، فوالله ما ابتل لنا قدم ولا حافر.

وهكذا تم القضاء على أكبر وأشرس خيانة كادت تعصف بالإسلام والمسلمين لولا أن قيض الله تعالى لها أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وتسابق القادة والأبطال والمجاهدون العظام من الصحابة للقضاء عليها، وقد جاء في الطبري وغيره من المراجع التاريخية ما يثلج الصدور ويشرح القلوب من هذه البطولات والملاحم الإسلامية.

٤ ـ افتراءات مسيلمة الكذاب

لا مانع من أن ننقل بعض العبارات من كلام مسيلمة الكذاب الذي كان يوحيه شيطانه إليه، فمن هذه العبارات ما يلي[1]:

١ ـ «والباذرات بذرا، والزارعات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والعاجنات عجنا، والخابزات خبزا، والشاردات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقتكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه والباغي فناوئوه؟!!».

٢ ـ «والليل الأطحم والذئب الأدلم والجزع الأزلم ما انتهكت أسيد من محرم؟!!».

٣ ـ «والليل الدامس والذئب الهامس ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس؟!!».

٤ ـ «والشاة وألوانها، وأعجابها السود وألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محصن، وقد حرم المذاق فما لكم لا تمعجون؟!!».

٥ ـ «يا ضفدع ابنة ضفدع، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين، يا ضفدع نقي نقي، لنا الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشًا قوم يعتدون؟!!».

٦ ـ «ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من صفاق وحشي، ثم إلى ربهم المنتهى؟!!».

٧ ـ «وإن الله خلق النساء أفراجا، وجعل الرجال لهن أزواجا، فنولج فيهن الغراميل إيلاجا، ثم نخرجها إذا نشاء إخراجا، فينتجن لنا سخالا انتاجا؟!!».

---

(١) انظر: «تاريخ ابن جرير الطبري»، الجزء الثالث، حوادث السنة الحادية عشرة

هذا وقد أورد الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ أبياتًا شعرية على لسان هذا الوغد الخائن اللئيم المرتد مدعي النبوة، يخاطب بها هذه المرأة الخائنة العاهرة المرتدة ومدعية النبوة سجاح بنت الحارث التي صممت على أن تكون نبية، فكانت مدعية فاجرة عاهرة زانية، وخاطبها مسيلمة بهذه الأبيات التي يعف القلم عن كتابتها لما فيها من كلمات خادشة للحياء، ذكرها الطبري ليوضح للأجيال مدى ما كان عليه هؤلاء الخونة المرتدين مدعي النبوة من فسق وفجور، وقد ظلت سجاح مع مسيلمة الكذاب ثلاثة أيام في حصنه قضياها في الزنى والفجور والفسق[١].

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

تُوفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه في السنة الثالثة عشر من الهجرة، ومن الجدير بالذكر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد مات بأيدي الخونة اليهود، فسموه في أرزة، وتناول معه الحارث بن كلدة ثم كف، وقال لسيدنا أبي بكر: أكلت طعامًا مسمومًا سنة، فمات فعلاً بعد سنة، وهذه خيانة يهودية حدثت لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الشاة المسمومة كما سبق.

---

(١) انظر: «تاريخ ابن جرير الطبري»، الجزء الثالث، حوادث السنة الحادية عشرة لثمان بقين من جمادى الآخرة، وله ثلاث وستون سنة.

الفصل الثالث

أحداث في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه

تقوقعت الخيانة في جحرها طوال عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان عهده كله عهد الانتصارات الإسلامية الباهرة والفتوحات الخالدة، فمن اليرموك إلى القادسية إلى دمشق إلى أجنادين إلى بيت المقدس إلى مصر إلى الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الوقت إلى نهاوند إلى غيرها، فقد أذل الروم والفرس وطهر منهم البلاد، وسيطرت الدولة الإسلامية في عهده على بلاد الشام والعراق وفارس واليمن ومصر وغيرها.

وكانت الجيوش الإسلامية تنتصر في وقت واحد على جيوش أقوى إمبراطوريتين في ذلك الوقت: إمبراطورية الروم والفرس وتحطمها تحطيمًا وتحتل بلادها الواحدة تلو الأخرى، فكانتا تمثلان أمريكا والاتحاد السوفيتي قبل انهياره في هذه الأيام، وتكونت على أنقاضهما أقوى إمبراطورية إسلامية في التاريخ، فأذل الغطرسة والعجرفة الفارسية وأطفأ نار المجوسية، فلم يبق للخيانة ناب أو مخلب تنهش به.

مقتل الفاروق رضي الله عنه

استمرت انتصارات المسلمين في عهد عمر إلى أن ظهر لأمر أراده الله تعالى وجرت به المقادير، كلب عقور من كلاب المجوس يسمى أبو لؤلؤة المجوسي، فقد تربص في صلاة الفجر لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وطعنه خيانة وغدرًا بسكين ذات طرفين، وطعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة ثم انتحر إلى الجحيم إلى أسفل سافلين، وكأن الله تعالى قد أراد لسيدنا عمر بن الخطاب أن يموت شهيدًا إلى جنات النعيم. وكان ذلك يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة، ودفن يوم الأحد مستهل المحرم سنة ثلاث وعشرين من الهجرة[1].

---

(١) انظر: «تاريخ الخلفاء» تحقيق سعد كريم الفقي، ص١٦٠، «طبقات ابن سعد» ٣/ ٢٧٨، «الطبري» ٤/ ١٩٣

الفصل الرابع

أحداث في عهد ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه

خيانة عبد الله بن سبأ اليهودي:

رغم أن الإسلام قد رسخت جذوره وتأسست أركانه وعلا بنيانه ورفرفت راياته عالية خفاقة على ما يعرف اليوم بدول الشرق الأوسط، فكلما أتم المسلمون نصراً بدأوا نصراً آخر، وكلما أتموا فتحًا بدءوا فتحًا آخر جديداً دون كلل ولا ملل ولا وهن، إلا أنه بقيت في كثير من الجحور بعض الخونة والعقارب السامة التي لا علاج لها إلا القتل.

ففي أحد هذه الجحور ظهر ذلك الحاقد ابن الأفعى السوداء الأم وأحد أذنابها والمعروف اسميًا كما جاء بالمراجع بـ (ابن السوداء عبد الله بن سبأ اليهودي)، من يهود صنعاء، وكانت أمه سوداء فأظهر الإسلام في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه، ولكنه أبطن الخيانة اليهودية وبذل جهده في التأثير على الأعراب والرعاع الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا من سكان الأمصار والذين لم يبتعدوا كثيراً عن الأفكار الجاهلية العقيمة، والذين لم يكن الإسلام قد طهر قلوبهم تطهيراً كاملاً منها، ولم يكن قد رسخ بعد في عقولهم رسوخًا كافيًا.

فأخذ هذا الحاقد يستخف بعقولهم استخفافًا كبيراً، ويستغل جهلهم وسذاجتهم وعدم فهمهم الدين الحنيف، وعدم درايتهم بالقرآن الكريم، وميلهم لأي تحريف أو إشاعات، فأشعل بهم فتنة عظيمة وأجج لهم ناراً ملتهبة وأوقد حولهم شراً مستطيراً، واستمر هذا اليهودي في إشعال هذه الفتنة ولم يهدأ له بال حتى تم قتل ذي النورين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه بأيدي شرذمة[1] من

---

(١) شرذمة: أي جماعة قليلة من الناس، جمعها (شراذم).

الخونة الذين انقادوا له واتبعوه وساروا على دربه ومنهجه الحاقد على الإسلام والمسلمين، فكانت فتنة عظيمة وخيانة كبرى لا يزال الإسلام يعاني منها حتى الآن. فكان يقول للناس ضعاف الإيمان والعقول: أليس قد ثبت أن عيسى ابن مريم سيعود إلى هذه الدنيا، فيقولون: نعم، فيقول لهم: فرسول الله محمد أفضل منه، فلماذا تنكرون أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أفضل من عيسى وأشرف منه؟ وإنه لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع وأن محمد لا يرجع، وقد قال الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (القصص: ٨٥)، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى.

ثم يقول لهم: إنه كان نبيًا ولكل نبي وصي، فمحمد خاتم الأنبياء، وعلى خاتم الأوصياء فهو أحق بالأمر من عثمان، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدءوا بالطعن على أمرائكم، ثم يأخذ في إثارة الناس على سيدنا عثمان ويحرضهم عليه ويحثهم على الثورة والفتنة. وتفاصيل هذه الفتنة وهذه الخيانة موضحة بالتفصيل في (الطبري) و(البداية والنهاية)، وغيرها من كتب التاريخ، ولا يسعنا في هذه الصفحات الضيقة سرد الأحداث التاريخية لهذه الخيانة على مؤججيها ومرتكبيها.

ولعلنا نعلم أن الإسلام كان في هذه الآونة ـ ومازال حتى الآن ـ تتربص به المجوسية الفارسية من ناحية واليهودية من ناحية أخرى، والنصرانية التي كانت متمثلة في الروم، فقد نجحت المجوسية الفارسية لأمر قدره الله تعالى في قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونجحت اليهودية لأمر قدره الله تعالى كذلك في قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الخامس

أحداث في عهد علي بن أبي طالب ﷺ

لم يقنع الخونة الذين قادهم ذلك اليهودي ابن السوداء عبد الله بن سبأ وأشعل بهم نار الفتنة وأوقد لهم نار الخيانة وأججها ملتهبة محرقة، لم يكتفوا بقتل ذي النورين عثمان بن عفان ﷺ، وإنما أرادوا أن يقتلوا الإسلام نفسه ويقضوا عليه، هكذا سول لهم ابن السوداء اليهودي عبد الله ابن سبأ كما سولت له نفسه وأوحى إليه شيطانه بذلك، فبينما هؤلاء الخونة هم الذين تسببوا في مقتل عثمان ﷺ وظنوا أن الإسلام سينتهي بمقتله، أخذوا يشيعون في الناس أنه لابد من الأخذ بثأر عثمان، وأخذوا في البكاء بدموع التماسيح والنواح والعويل لمقتل سيدنا عثمان ﷺ.

فبالأمس كانوا يدعون أن عثمان كان ظالمًا ومتعسفًا ومنحازًا لذوي قرابته وسالبًا للخلافة من علي بن أبي طالب ﷺ .. أما اليوم فأظهروا حقيقته الإيمانية الطاهرة بغرض إحداث الاضطرابات وإشعال نار الفتنة، فهو مظلوم وقتل ظلمًا وعدوانًا، وكيف يقتل وهو خليفة المسلمين؟ وكيف لا يتم الأخذ بثأره في الحال من قاتليه؟ وما هي الجريمة التي قتل بسببها؟ فقد كان رءوفًا رحيمًا بالرعية، وكان عطوفًا على الناس وبارًا أشد البر بالمؤمنين؟ فلماذا يقتل هذا الخليفة المؤمن المسكين؟ وكيف يبقى قاتله على قيد الحياة حتى الآن، فلابد من الأخذ بثأره.

وكأن هؤلاء القوم أتباع اليهودي ابن السوداء لم يكونوا هم الذين دبروا الفتنة وألبوا الناس عليه، فأخذوا من جديد يقومون بخيانتهم ويدبرون لمكرهم وكيدهم للإسلام والمسلمين. فأخذوا يثيرون الناس على الخليفة الجديد علي بن أبي طالب ﷺ، ويؤلبون الناس عليه ويفعلون معه نفس ما فعلوه مع عثمان ﷺ ويتهموه بالتخاذل عن الدفاع عن عثمان ﷺ والتقاعس عن الأخذ بثأره،

فبالأمس كان سيدنا علي ﷺ خاتم الأوصياء وكان صهر النبي ﷺ وابن عمه وأقرب الناس إليه وأحبهم عنده، وقد أخذ عثمان ﷺ منه الخلافة ظلمًا، بل قد أخذها منه أيضًا أبو بكر وعمر ظلمًا، وكان هو أحق الناس بالخلافة، واليوم هو متخاذل عن الدفاع عن عثمان ومتقاعس عن الأخذ بثأره وكيف يترك قتلة عثمان حتى الآن.

وهكذا أرادوا أن يلعبوا نفس الدور ويدبروا نفس (الأسطوانة) ويقوموا بنفس الخيانة للقضاء على الإسلام والمسلمين فيثيرون الناس حول الخليفة الحالي حتى يتم قتله كذلك، وينفرط عقد الإسلام والمسلمين، ويحارب المسلمون بعضهم بعضًا، ويقتل علي بن أبي طالب ﷺ ويقفزون هم على المسرح ويخرجون من جحورهم، كما تخرج الأفاعي والعقارب، ويقضون عليهم بسمهم الخياني وتعود اليهودية من جديد فاغرة فاها مكشرة عن أنيابها، ومسيطرة على ديار الإسلام، وهكذا أصبحت المطالبة بثأر عثمان بن عفان ﷺ هي حديث أهل المدينة، وموقف علي ﷺ من قتلة عثمان.

ـ ولم يكن علي بن أبي طالب ﷺ متهاونًا في ذلك أو متقاعسًا ـ حاشاه ذلك ـ بل كان يريد فقط أن تهدأ الأمواج الهادرة وتتوقف العواصف المثيرة ويهدأ البحر العجاج المتلاطم بأمواجه العاتية حتى يتمكن من صيد القتلة والقبض عليهم وقتلهم قصاصًا، وكيف يمكن القبض عليهم وسط هذه الأمواج العاتية الرهيبة والتي لا يمكن لأي إنسان مهما كانت مهارته أن يتحكم في أي شيء في وجودها حتى تهدأ وتستقر، ولكنها الخيانة القذرة خيانة الإشاعات الخطيرة التي كانت تزداد شيئًا فشيئًا بما يسكبه عليها الخائن اليهودي ابن سبأ هو وأتباعه من وقود باستمرار، فلا تكاد تهدأ النار وتنطفأ إلا ويسارع هذا الحاقد هو وأتباعه بالنفخ فيها وسكب المزيد من الوقود عليها حتى تشتعل من جديد ولا تنطفئ،

فكيف لصحابي جليل أن يتهاون في حق صحابي آخر، فسيرتهما العطرة وتاريخهما المجيد وإيمانهما الراسخ ليس في حاجة منا إلى شرح أو توضيح.

ولكن للأسف أثرت هذه الشائعات في بعض كرام الصحابة الأجلاء مثل الصحابيين الجليلين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهما، فطالبا بحسن نية وعن طيب قصد بالأخذ بثأر عثمان بن عفان رضي الله عنه وانضمت لهما أم المؤمنين السيدة الطاهرة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فطالبت معهما بحسن نية وعن طيب قصد هي الأخرى بالأخذ بثأر عثمان رضي الله عنه، وانضم إليهم المئات من أهل المدينة ومن أهل مكة.

واتجهوا نحو البصرة مطالبين بثأر عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتمكنوا من السيطرة على البصرة، ولم يكن لهم أي قصد ولا نية في التمرد على سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولا في الانشقاق عليه، فكلهم أخوة وكلهم جاهدوا في الله تعالى حق جهاده، وقد بايعوا علي بن أبي طالب عن صدق وإخلاص، ولم تدفعهم سوى الرغبة الصادقة والعاطفة القوية والاعتقاد الصادق بأن الأخذ بثأر عثمان رضي الله عنه أصبح فرضًا واجبًا على الجميع، ومن يتخاذل أو يتقاعس عن ذلك يرتكب إثمًا كبيرًا، حتى لو تطلب الأمر إلى قتال، ولكن لم يكن في نيتهم إطلاقًا التصادم مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أو إضمار أي سوء له.

لذلك: لما لحق بهم علي بن أبي طالب بجيشه، لا ليحاربهم وإنما ليحاورهم ويجادلهم، ولعمل الإصلاح ما استطاع، استجابوا له في سهولة ويسر واتفقوا جميعًا على فض جميع النزاعات والعمل على تهدئة الموقف، وأن يتعاونوا جميعًا على القبض على قتلة عثمان وقتلهم والأخذ بثأره، وعقدوا جميعًا النية الصادقة على ذلك وعقدوا النية وأخذوا العهد على أن يتفرغوا جميعًا لأعداء الإسلام والمتربصين به من الخارج.

ولكن: الخونة مثيري الفتنة من أتباع ابن سبأ لم يكونوا ليقبلوا بذلك، ولم يستريحوا لما اتفق عليه الصحابة الكرام جميعًا علي بن أبي طالب، وطلحة ابن عبيد الله، والزبير بن العوام، وأم المؤمنين عائشة وباقي الصحابة الموجودين ـ رضي الله تعالى عنهم جميعًا ـ، ووجد هؤلاء أنه إذا تم الصلح بين الفريقين سيكون في ذلك حتف جميع مثيري الفتنة والقبض عليهم وقتلهم جميعًا، فأعملوا فكرهم الخياني وهداهم شيطانهم إلى خطة خطيرة، فما هي هذه الخطة؟ هذه الخطة كانت كما يلي:

الخطة الخيانية التي أدت إلى أول معركة في التاريخ بين فريقين من المسلمين

في الليل الحالك البهيم، انقسم مثيري الفتنة إلى قسمين، قسم تسلل خفية إلى معسكر علي ﷺ، والقسم الآخر تسلل إلى معسكر طلحة والزبير بن العوام وأم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ، فلما أصبح الصباح وطلع النهار، بدأ كل قسم منهم ينشر سمه الخياني ويرمي في حقد أسود بسهام الغدر والخيانة إلى المعسكر الآخر، فظن أصحاب علي بن أبي طالب أن طلحة والزبير وعائشة قد نقضوا العهد الذي اتفقوا عليه معهم بالصلح وبدءوا بالقتال، وبالمثل ظن الفريق الآخر كذلك، فكان لا مفر لكل فريق من الدفاع عن نفسه.

موقعة الجمل

التقط الرجال من كلا الفريقين السيوف والرماح والسهام، وبدأ القتال الدامي بين الفريقين المؤمنين، فيما يعرف بموقعة الجمل دون أدنى إرادة أو أي رغبة من قادة الفريقين سيدنا علي وسيدنا طلحة وسيدنا الزبير والسيدة عائشة أو أي أحد آخر من الصحابة الكرام الموجودين، ولم يفطن أحد منهم لما حدث، وقاد

الشيطان هذه المعركة الدموية الرهيبة وسفكت الدماء الإسلامية المؤمنة البريئة من كلا الجانبين، وكانت هذه أول معركة في التاريخ تنشب وتقع بين فريقين من المسلمين، وكان ذلك في سنة ست وثلاثين من الهجرة[1].

وهكذا: نجحت الخيانة اليهودية السبأية الحاقدة في إشعال نار الحروب بين فريقين من المسلمين، وظل الحال إلى يومنا هذا، فقد حدث على مر التاريخ الإسلامي آلاف المعارك بين المسلمين، آخرها الحرب بين إيران والعراق، ثم الحرب بين العراق والكويت، ونسأل الله تعالى أن يقف الأمر عند هذا الحد ولا تقع معارك أخرى أو حروب مستقبلاً بين أي فريقين من المسلمين.

مقتل الصحابي الجليل الزبير بن العوام رضي الله عنه

قام بهذه الخيانة عمرو بن جرموز، فطعن هذا الصحابي الجليل سيدنا الزبير بن العوام غيلة وغدراً وهو يصلي، وكان ذلك بعد معركة الجمل، وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه، ولما دخل على سيدنا علي بن أبي طالب دعا بسيف الزبير بن العوام فقال: سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله ﷺ، وكان هذا الوغد الوضيع ابن جرموز يظن أن علي بن أبي طالب سوف يسر ويفرح بمقتل الزبير بن العوام فخاب ظنه وخسر دنياه وآخرته.

خيانة الخوارج لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه

بعدما حدث ما حدث، من وقوع الحرب بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فيما يعرف بموقعة صفين الموجود تفاصيلها في المراجع التاريخية[2] ـ وحدوث التحكيم ـ، انشق فريق من جيش علي بن أبي طالب عليه

(١) انظر: «البداية والنهاية»، (٧/ ٢٣٠).

(٢) انظر: «البداية والنهاية»، (٧/ ٢٥٣).

رافضين التحكيم، بينما هم الذين دعوا إليه وفرضوه فرضًا على سيدنا علي ﷺ، وكان عددهم اثنا عشر ألف رجل، وزاد من وقاحتهم أنهم كفَّروا علي ﷺ، فكانت خيانة كبرى وخرجوا عليه، وعرفوا باسم الخوارج، ولحق هؤلاء بقرية من قرى الكوفة تسمى (حروراء)، ولذلك سموا بـ (الحرورية)، وارتكبوا كثيراً من الفظائع والخيانات[1].

جرائم الخوارج

التقى هؤلاء الخونة الخوارج برجل مؤمن ابن صحابي جليل، حيث التقوا بعبد الله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ وصاحب التاريخ المجيد والمعروف في الإسلام، وكان عبد الله بن خباب هذا معه امرأته وكانت حاملاً في الشهر الأخير وراكبة حماراً، ويسوق بها زوجها لعدم قدرتها على المشي، فقتلوه ذبحًا وبقروا بطن امرأته وقتلوا ثلاث نسوة مؤمنات من طيء، وقتلوا أم سنان الصيداوية المؤمنة دون أي ذنب أو جريرة ارتكبتها، فبعث إليهم علي بن أبي طالب ﷺ أحد رجاله وهو الحارث بن مرة العبدي ليناظرهم، فقتلوه وعاثوا فسادًا في الأرض، فبعث إليهم علي ﷺ أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا نقتلهم بهم، ثم أني تارككم وسأكف عنكم، فازدادوا تبجحًا عليه وتجاوزوا حدهم، فبعثوا إليه فقالوا: كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم.

موقعة النهروان

بعد ما كثرت فظائع الخوارج وتجرأهم على حرمات الله ودماء المسلمين فما كان من علي بن أبي طالب ﷺ إلا أن أحاط بهم وسحقهم في موقعة النهروان[2]، وكان ذلك في سنة ست وثلاثين من الهجرة، وكان هؤلاء الخونة يقتلون كل من يقابلهم

---

(١) انظر: «البداية والنهاية»، (٧/ ٢٥٦).

(٢) انظر: «البداية والنهاية»، (٧/ ٢٨٨).

من بقيــة المسلمين، ويكفرون كل مــن يخالفهم في آرائهــم من بقية المسلمــين، بينما يتــركون الــكفار والمشــركين، ومما ورد عن ذلك مــا جــاء في كتــاب (تاريخ الجــدل) للأستاذ/ محمد أبي زهرة ما يلي:

خرج واصل بن عطاء مع بعض رفاقه مسافــرين، فقابلهم الخوارج وكانوا يقتلون كل من يقع في أيــديهم من المسلمين طالما هو ليــس من الخــوارج، فطلب واصل بن عطاء من رفاقه أن يتركوه ليتكلم مع الخــوارج ولا يتدخلوا، فخرج إليهم فقالوا: من أنت وأصحابك، فقال: نحن مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده، فقــالوا: قد أجرناكم، قال: فــعلمونا، فجعلوا يــعلمونه أحكامهم وجعل يقــول: قد قبلت أنا ومن معي، قــالوا: فامضوا مصاحبين فــإنكم إخواننا، قال: ليس ذلك لكم فقد قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التوبة:٦)، فأبلغونا مأمننا. فنظــر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ذلك لكم، فساروا بأجمعهم حتى بلغوا المأمن.

ولو كــان واصل بن عطاء قد أخــبــرهم أنهم مسلمــون هو وأصــحابه لقــتلوهم جميــعًا، فانظر إلى هذه العــقلية المتحجــرة والمتخلفة عقليــة هؤلاء الخونة المارقين من الدين كمــا يمرق السهم من الرميــة، فكانوا يفهمــون القرآن الكريم ويفســرونه حسب أهوائهم وآرائهم الفاسدة، وتــسببوا بخيانــتهم في متاعب كثــيرة للإسلام والمسلمين، وسببوا انشقاقًا كبيرًا وشرخًا خطيرًا في الحائط الإسلامي.

مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قُتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين هجرية، وكانت هذه الخيانة لا تعادلها أي خيانة أخرى، فقد أودت بحياة فارس الإسلام الأول، ومبيد صناديد الشرك والكفر وعتاة اليهود، والمتصدي لأعتى الجبابرة الذين حاربوا الإسلام وصارعوه منذ نشأته حتى صرعهم وأذلهم جميعًا، البطل المغوار الذي لا يشق له غبار، صاحب العزيمة الإيمانية الذي جاهد في الله تعالى حق جهاده حتى أتاه اليقين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد قتله ذلك الخائن أحد أذناب الخوارج المسمى بعبد الرحمن بن ملجم.

فقد تربص بسيف مسموم لسيدنا علي رضي الله عنه أثناء خروجه لصلاة الفجر، فقتله بعد أن أغرته امرأة حاقدة فاجرة من الخوارج اسمها قطام، ووعدته بالزواج منها إن قتل علي رضي الله عنه، وكان هذا الوغد الخارجي قد اتفق مع اثنين آخرين من الخوارج على أن يقوم أحدهم بقتل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وأن يقوم الثاني بقتل عمرو بن العاص رضي الله عنه، وأن يقوم الثالث هذا بقتل علي رضي الله عنه . . ولأمر أراده الله تعالى وقدره، فلم يقتل سوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي قدر الله تعالى له أن يموت شهيدًا مثل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم.

وهكذا: فقد قدر الله تعالى للخلفاء الراشدين (الأربعة) أن يموتوا شهداء، وقد استشهدوا جميعًا بأيدي خيانية، فسيدنا أبو بكر الصديق مات شهيدًا مسمومًا بأيدي يهودية، وسيدنا عمر بن الخطاب مات شهيدًا بأيدي مجوسية، وسيدنا عثمان بن عفان مات شهيدًا بأيدي يهودية سبأية، وسيدنا علي بن أبي طالب مات شهيدًا بأيدي خارجية. ومن قبلهم مات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيدًا من الشاة المسمومة بأيدي يهودية، فقد نجحت الخيانة اليهودية والمجوسية والسبأية والخوارجية في استشهادهم جميعًا إلى جنات الخلد والنعيم المقيم - إن شاء الله تعالى -.

خبث الخوارج

▪ وهنا وقفة هامة عند تلك الخيانة الخوارجية، فالخونة الخوارج الثلاثة الذين اتفقوا على قتل سيدنا علي بن أبي طالب وسيدنا عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، ماذا كانوا يريدون من قتلهم في وقت واحد؟

كانوا يريدون بخيانتهم أن ينفرط عقد الإسلام والعالم الإسلامي كله فيصبح بلا قيادة، فكان علي بن أبي طالب وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان هم أقدر ثلاثة وأكفأ وأعظم قادة للعالم الإسلامي في مثل هذه الظروف ـ وإن اختلفوا ـ، فإذا قتل القادة الثلاثة في وقت واحد فسوف يموج الناس بعضهم في بعض وتعم الفوضى وتنشب الحروب الأهلية في كل مكان بشدة وضراوة حتى يأكل المسلمون بعضهم بعضًا، ويتكالب على الإسلام أعداؤه والمتربصون به من فرس وروم ويهود وغيرهم، فأي جيش يقتل قائده يكون مصيره الهزيمة الساحقة، ولكن الله تعالى خيب ظنهم ورد كيدهم في نحرهم.

الباب الثاني
أحداث في عصر الدولة الأموية

١ ـ دس السم لسيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما:

من الكتب التاريخية الإسلامية التي تحدثت عن فترة ولاية الحسن بن علي بن أبي طالب وحياته في التاريخ الإسلامي بصورة واضحة وميسرة، ذلك الكتاب القيم (أبناء الرسول في كربلاء) للأستاذ / خالد محمد خالد ـ رحمه الله ـ، جاء في هذا الكتاب صورة من أبشع الصور الخيانية، وليتها كانت خيانة في حق إنسان عادي، فكان الأمر سيكون أخف وطأة، ولكنها في حق من؟ في حق أحد سيدي شباب أهل الجنة الحسن بن علي بن أبي طالب، وابن سيدة نساء العالمين وسيدة نساء أهل الجنة الطاهرة فاطمة الزهراء بنت محمد ﷺ وعلى آل بيته الكرام الأطهار الطيبين.

ومن الذي قام بهذه الخيانة؟ إنها زوجته جعدة بنت الأشعث فقد جاء: «.. وذات يوم دس للإمام الحسن السم في الطعام، ويمسك التاريخ في هذه الجريمة الدنيئة بإحدى زوجاته وهي: جعدة بنت الأشعث بن قيس كما يمسك بأصبع الغدر الدموي»[١].

كانت وفاة الحسن بن علي سنة تسع وأربعين ومن عجب أن الأشعث بن قيس والد جعدة كان من أبرز أنصار الإمام علي رضي الله عنه، ثم كانت له أثناء خدعة التحكيم وبعدها مواقف مشبوهة ومحاولات مريبة كانت سببًا في أكثر ما نزل بالإمام يومها من آلام وأخطار، ومرض الحسن رضي الله عنه مرض الموت.

وقد أثبت هذه الأحداث الأستاذ/ خالد محمد خالد وقد اعتمد على أهم المراجع التاريخية مثل: (الطبقات الكبرى) لابن سعد، و(الأخبار الطوال) للدينوري،

---

(١) انظر «أبناء الرسول في كربلاء» ص٧٧.

و(البداية والنهاية) لابن كثير، و(تاريخ الطبري) وغيرها. وما كان له أن يكتب ـ رحمه الله ـ إلا ما هو مثبت ومتأكد منه، أما عن الأشعث بن قيس والد جعدة، فقد جاء عنه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: «إني لا آسي على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن ووددت أني تركتهن، وثلاث تركتهن ووددت أني فعلتهن، وثلاث وددت أني سألت عنهن رسول الله ﷺ . . .» إلى أن قال: «وأما اللاتي تركتهن وددت أن فعلتهن: فوددت أني يوم أُتيتُ بالأشعث بن قيس أسيرًا كنت ضربتُ عنقه، فإنه خُيِّل إليَّ أنه لا يرى شرًا إلا أعان عليه»[1].

وجاء أيضًا: «.. وقد سمعت بعض من يقول: كان معاوية قد تلطف لبعض خدمه (أي لبعض خدم الحسن رضي الله عنه) أن يسقيه سمًا، ـ قال محمد بن سعد .. حدثنا يحيى بن حماد حدثنا أبو عوانة عن المغيرة عن أم موسى: أن جعدة بنت الأشعث ابن قيس سقت الحسن السم فاشتكى منه شكاة، فكان يوضع تحته طشت ويرفع آخر نحوًا من أربعين يومًا، وروى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سُمي الحسن وأنا أتزوجك بعده ففعلت، فلما مات الحسن رضي الله عنه بعثت إليه فقال: أنا والله لم نرضك للحسن أفنرضاك لأنفسنا؟ وعندي أن هذا ليس بصحيح وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأحرى»[2].

والذي نفهمه من قول ابن كثير: «وعندي أن هذا ليس بصحيح»، أنه ينفي الجريمة عن يزيد وعن أبيه معاوية ولا ينفيها عن جعدة، وقد أتى بأسماء من أوردوا جريمتها وهم: محمد بن سعد عن يحيى بن حماد عن أبي عوانة عن المغيرة عن أم موسى. أما قوله: «وقد سمعت بعض من يقول: كان معاوية .. إلخ» ثم قوله: «وروى بعضهم أن يزيد بن معاوية .. إلخ»، فلم يذكر فيهما ممن سمع أو من الذي

(١) انظر تاريخ الطبري، الجزء الثالث.

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير، الجزء الثامن، حوادث السنة التاسعة والأربعين.

روى . . »، لذلك قال: «وعندي أن هذا ليس بصحيح» أي ليس بصحيح أن معاوية أو يزيد اشتركا في هذه الخيانة البشعة أو حرضا عليها.

وسيدنا الحسن لم يذكر لأخيه سيدنا الحسين ـ رضي الله عنهما وأرضاهما ـ، لم يذكر له من الذي سقاه السم عندما طلب منه ذلك وهو في فراش الموت، فلم يقبل أن يذكره له حتى لا يقتله، بل ترك الأمر للمولى ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، فهو الحكم العدل العزيز الحكيم، فمن باب أولى أن نترك نحن الخوض في هذا الأمر سواء كانت صاحبة الخيانة هي جعدة أو غيرها ونشير فقط إلى أنها خيانة بشعة والحكم فيها لله وحده.

٢ ـ خيانة أهل الكوفة:

يعتبر مقتل الحسين ﷺ من أشد المصائب وتخلي أهل الكوفة عنه من أخطر الخيانات وبعد إطلاعنا على ما جاء في (تاريخ الطبري) و(البداية والنهاية)[1] لابن كثير والكتاب السابق (أبناء الرسول في كربلاء) الذي يقتبس منهما وتاريخ الخلفاء للسيوطي بخصوص الأحداث الخيانية والأسباب التي أدت إلى مقتل سيدنا الحسين بن علي ـ رضي الله تعالي عنهما وأرضاهما ـ، وجدنا أن ما جاء فيها مطابق لبعضه تمامًا، وأجمعوا جميعًا أن السبب الأول هو خيانة أهل الكوفة بإرسالهم لسيدنا الحسين للقدوم إليهم، وأخذوا يلحون عليه إلحاحًا شديداً في ذلك ويظهرون له أنهم يبايعونه على قلب رجل واحد ليتولى خلافة المسلمين، وأنهم في انتظاره على أحر من الجمر، ولن يتخلف منهم رجل واحد.

وأعطوه بذلك الكثير من العهود والمواثيق وأرسلوا له الكثير من الكتب بذلك، ثم نقض هؤلاء الخونة العهود والمواثيق وانضموا إلى أعدائه وكانوا هم أنفسهم الذين قتلوه وقتلوا شيعته وأتباعه وأنصاره عندما قدم إليهم، فضربوا بذلك أسوأ مثل للخيانة والغدر.

---

(١) انظر البداية والنهاية، ٨/١٤٩.

وباختصار شديد، فإن سيدنا الحسن بن علي - رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما - عندما تنازل لمعاوية بن أبي سفيان عن الخلافة لحقن دماء المسلمين ولعدم سفك المزيد من الدماء بعد موقعة الجمل وصفين حيث سفكت الكثير من الدماء المسلمة بأيدي مسلمة، ووجد أن من الأفضل تضميد الجراح المسلمة وتوجيه هذه الدماء إلى الأعداء المتربصين بالإسلام والمسلمين من الروم والترك والديلم والمجوس وغيرهم.

وكان أهم شرط اشترطه سيدنا الحسن ﷺ واتفق عليه مع معاوية ﷺ ووافق معاوية عليه: هو أن يترك الأمر شورى للمسلمين بعد مماته ليختاروا من يشاءون خليفة عليهم، ولكن معاوية ﷺ أخل بهذا الشرط وعمل على أخذ البيعة لابنه يزيد، وكان ذلك بعد موت سيدنا الحسن ﷺ، فلم يوافق على ذلك أكابر المسلمين وأبناء أكابر الصحابة وعلى رأسهم سيدنا الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر ﷺ جميعًا.

وفي العام الستين للهجرة مات معاوية لينتقل الأمر من بعده إلى ابنه يزيد، وهنا بدأ الغليان في صفوف المقاومة المسلمة بقيادة أبناء الصحابة السابقين، وكان أبرز المرشحين للخلافة لو كان الأمر شورى بعد موت معاوية حسب تعهده واتفاقه السابق مع سيدنا الحسن ﷺ هو سيدنا الحسين ﷺ خليفة بلا منازع، وعمل يزيد على أخذ البيعة بالقوة من أهل المدينة المنورة معقل المقاومة. والتفاصيل موجودة في المراجع السابقة لمن أراد المزيد من الاطلاع[1]، ويهمنا هنا في موضوعنا هذا خيانة أهل الكوفة العراقيين بإرسالهم لسيدنا الحسين ﷺ كما سبق ثم التخلي عنه وانضمامهم إلى أعدائه وقتله.

---

(١) انظر تاريخ الطبري، الجزء الثالث، البداية والنهاية الجزء الثامن، حوادث السنة التاسعة والأربعين.

٣ ـ مقتل هانئ بن عروة وسليمان مولى الحسين بن علي:

عندما جاءت تلك الكتب من أهل الكوفة لسيدنا الحسين ﷺ تدعوه للقدوم إليهم كما سبق، تثبت الأمر في البداية ولم يتسرع في الذهاب إليهم بنفسه؛ لأنه يعلم أنهم قد خانوا أباه من قبل، فأرسل إليهم ابن عمه (مسلم بن عقيل بن أبي طالب)، فمضى إلى الكوفة حيث سارع الناس إليه لمبايعته تحت لواء الحسين مهما تكن التضحيات، وهنا أسرع الخونة من جواسيس يزيد ليخبروا النعمان بن بشير ﷺ والي الكوفة بذلك، وكان صحابيًا جليلاً فردهم خائبين، فكتبوا إلى يزيد بذلك يخبرونه أن مسلم بن عقيل استولى على أفئدة الناس، وأن النعمان بن بشير لا يحرك ساكنًا.

وهناك في دمشق، أشار الخائن سرجون المجوسي على يزيد بعزل النعمان بن بشير عن الكوفة وتولية أمرها لألد أعداء الحسين وآل البيت الكرام، ذلك الخائن الماكر عبيد الله بن زياد، فعمل يزيد بهذه النصيحة، وكانت تولية هذا الخائن لأمر الكوفة بداية سيئة لتغيير مجرى الأحداث التي أدت إلى قتل الحسين ﷺ ومن معه في موقعة كربلاء، وكانت (مرجانة) أم عبيد الله بن زياد جارية مجوسية مثل سرجون المجوسي الذي أشار على يزيد بتولية عبيد الله بن زياد الكوفة.

وفي نفس الوقت، كان سيدنا الحسين ﷺ قد أرسل مولاه (سليمان) إلى أهل البصرة يدعوهم إلى إحياء معالم الحق وإماتة البدعة والباطل، فسارع أحدهم وهو الخائن المنذر بن الجارود إلى ابن زياد وأخبره بذلك فقبض على سليمان وقتله شر قتلة وصلبه.

ثم انتقل ابن زياد إلى الكوفة ودخلها متنكرًا ومخفيًا وجهه وراء لثام وقناع، وذلك لشدة جبنه، رغم قسوته، فخاف أن يعرفه أحد من أنصار الحسين فيقتله، ثم دخل دار الإمارة واحتمى بشرطتها وحرسها، ثم أخذ ينصب شباكه وحباله ويدير فكره لاصطياد مسلم بن عقيل الذي راح يغير مقره وينتقل من دار إلى أخرى في

سرية وكتمان حتى استقر في دار هانئ بن عروة الذي كان من صفوة أهل الكوفة وأشرافهم، وواصل مسلم بن عقيل نشاطه سراً حتى بايعه ثمانية عشر ألفًا، فأرسل إلى الإمام الحسين يبشره بذلك ويدعوه للقدوم.

ولما فشل ابن زياد في القبض على مسلم بن عقيل لجأ إلى حيلة خبيثة، فاختار واحدًا من مواليه وجواسيسه الخونة هو مغفل التميمي وأعطاه صرة بها ثلاثة آلاف درهم، وأمره أن يجوب خلال الكوفة متنكرًا وزاعمًا بأنه واحد من شيعة الإمام الحسين بن علي ويريد أن يأخذ مكانه ودوره بين صفوف أنصاره وأتباعه، ويريد أن يسهم بما معه من مال في شراء سلاح لهؤلاء الأنصار، وبعد طول تطواف وبحث وتجسس، اهتدى ذلك الجاسوس الخائن إلى ضالته المنشودة، فقد تعرف على رجل صالح من أصحاب مسلم بن عقيل وقاده أخيرًا إلى مكان مسلم ومقره دون أن يعرف أن هذا الرجل (معقل التميمي) جاسوس لابن زياد. وأتقن ذلك الجاسوس الخبيث دوره حتى خُدعوا به جميعًا، وأصبح أثيرًا لديهم وأخذ يزور (مسلمًا بن عقيل) كل يوم ويقضي معه النهار كله ثم ينتقل ليلاً إلى ابن زياد ويقضي معه الليل كله ناقلاً له كل الأخبار والأسرار.

وهكذا تمكن ابن زياد بالخيانة والتجسس من صيده الثمين، فأرسل في طلب (هانئ بن عروة) الذي يقيم عنده مسلم بن عقيل، وفاجأ هانئ قائلاً: «إيه يا هانئ بن عروة، ما هذه الأمور التي تحال في دارك لأمير المؤمنين؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك يخفى عليّ؟».

وكانت المفاجأة شديدة على هانئ، فرأى أن يخادع ابن زياد استعدادًا لمجابهته التي أصبحت أكيدة، لكن ابن زياد لم يمهله، فأذهله بمفاجأته الثانية، فدعا جاسوسه الخائن (معقلاً التميمي) الذي وقف كالحًا باردًا أمام هانئ، وسأله ابن زياد: أتعرف هذا؟ وسقط في يد هانئ وأدرك كل شيء، أدرك تلك الخيانة التي دبرت وتلك

الجاسوسية الغادرة التي كان بطلها معقل التميمي إرضاءً لسيده ابن زياد، ولكن هانئ تملك أعصابه وسرعان ما سيطرت عليه رجولته كما سيطر على الموقف كله، فصاح صيحة الحق في ابن زياد قائلاً: نعم أعرفه، إنه خائن مثلك وغادر مثلك، وإن (مسلمًا بن عقيل) في داري وهو ضيفي ولن أسلمه أبدًا وأفديه بروحي.

فجن جنون الطاغية ابن زياد ونادى جلاديه وأمرهم أن ينزلوا به كل عذاب دون القتل حتى لا يستريح بالموت. وتناوشه السفاحون الجلادون يكسرون أنفه ويمزقون لحم وجهه ويهشمون عظامه وهو صابر محتسب، وفاق الجلادون فرعون في تمثيله بالسحرة، وفاق هانئ بن عروة السحرة المؤمنين في الصبر والصمود، ولما شفى ابن زياد (فرعون ذلك الوقت) غليله وروى نفسه الخبيثة المظلمة بتعذيبه، أمر جلاديه أن يخرجوا به إلى السوق ويضربوا عنقه في عملية خيانية قل أن يوجد مثلها في التاريخ، ثم أمر به فسحب إلى الكناسة (إلى القمامة) وصلب هناك ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ.

٤ ـ مقتل مسلم بن عقيل بن أبي طالب:

لما علم مسلم بن عقيل بمقتل هانئ بن عروة جمع رجاله وأنصاره وصاروا جميعًا إلى قصر الإمارة وحاصروه حصاراً رهيبًا، ولكنهم لم يقتحموه ويقتلوا ابن زياد ومن معه؛ لأن مسلم بن عقيل التزم الحدود التي حددها له الإمام الحسين، فقد بعثه لأخذ البيعة ولم يأمره بقتال، لذلك اكتفى بمحاصرة القصر حصاراً محكمًا، وفي داخل القصر أعمل ابن زياد فكره الأسود في نسج شباك الحيلة والخيانة فأمر بعض الخونة الذين كانوا معه في القصر من زعماء الكوفة الممالئين ليزيد أن يطلوا على المحاصرين من أتباع مسلم بن عقيل خارج القصر ويخبروهم في وقت الغروب أن جيش الشام في طريقه إلى الكوفة وسوف يصلها غدًا أو بعد غد على الأكثر، وسيحيل أحياءها قتلى ودورها ترابًا.

ففعل هؤلاء الخونة من زعماء الكوفة ما أمرهم به ابن زياد، وأتقنوا عملية بث الرعب في قلوب الثوار المحاصرين للقصر ونصحوهم بأن ينصرفوا على أن تعالج الأمور فيما بعد بالتفاهم والمفاوضة، فانصرفوا عن مسلم بن عقيل في عملية خيانية تعتبر من أفدح الخيانات المعروفة والمشهورة بين أهل الكوفة والتي لا تعتبر شيئًا جديدًا بالنسبة لهم، فبالأمس يأخذهم الحماس الزائد فيهبوا مع مسلم بن عقيل لمحاصرة ابن زياد في قصره، واليوم ينصرفون عن مسلم بن عقيل منفضين من حوله ومذعورين من مجرد بضع كلمات وتهديدات سمعوها كذبًا من أتباع ابن زياد.

وانبثت شرطة ابن زياد في الصباح للبحث عن مسلم بن عقيل في طول الكوفة وعرضها حتى عثروا عليه في إحدى الدور، فقاومهم وحده بسيفه وعزيمته، ولكن دون جدوى، فحملوه إلى الطاغية ابن زياد الذي أسلمه لجلاديه وسفاحيه وزبانيته، وأمرهم أن يذهبوا به إلى أعلى القصر ويضربوا عنقه، فضربوا عنقه ثم رموا رأسه الكريم من أعلى القصر إلى قارعة الطريق، وقذفوا بجسده الطيب كذلك إلى قارعة الطريق في عملية أثيمة ووضيعة، لا تقل عن عملية قتل هانئ بن عروة، ثم غرس ابن زياد رأس مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة في أسنة الرماح وأرسلها إلى الشام هدية ليزيد بن معاوية، ولم يستح هذا الوغد اللئيم ابن زياد من إظهار خيانته فحملها على أسنة الرماح.

٥ ـ مصرع البطل المؤمن قيس بن مسهر الصيداوي:

مضى الإمام الحسين بن علي ﵄ إلى العراق مصطحبًا معه أهله المباركين الأطهار من زوجات وأخوات وأخوة وأبناء وأبناء عم وأبناء أخوة، ونفرًا من أنصاره وأصحابه، وكانوا جميعًا قد تشبثوا بالرحيل معه ولم يرغم أحدًا منهم على اصطحابه، وكان مسلم بن عقيل قد أرسل إليه كما سبق يبشره بمبايعة ثمانية عشر ألفًا من أهل الكوفة له ويدعوه للقدوم إلى الكوفة، فسار حتى وصل إلى مكان يدعى

(بطن الرقة)، ثم كتب إلى أهل الكوفة يخبرهم أنه في الطريق إليهم، وأعطى الكتاب لواحد من أصحابه هو (قيس بن مسهر الصيداوي)، وأمره أن يسبقه إلى الكوفة، فمضى قيس لسبيله ولم يكد يصل إلى القادسية حتى اعتقلته قوات ابن زياد وحملته إلى ابن زياد بالكوفة، فأمره أن يشرف على الناس من شرفة قصره ويلعن (الحسين)، ويعلن على الملأ أنه ـ حاشاه ثم حاشاه ـ كذاب ابن كذاب.

وتظاهر قيس بالطاعة وصعد مع الحرس إلى حيث أراد ابن زياد ابن مرجانة المجوسية، ثم ألقى على الجموع التي جمعوها وحشدوها نظرة ثم صاح: «أيها الناس، إن الحسين بن علي من خير خلق الله تعالى، فأجيبوه وانصروه، وإن الكذاب ابن الكذاب هو عبيد الله بن زياد، فالعنوه والعنوا أباه». فجن ابن زياد وراح يلعن ويرجم جنوده لأنهم أمهلوه حيًا حتى أكمل عبارته القاصمة الصاعقة، ثم أمرهم أن يلقوا به حيًا من أعلى سور القصر، فقذف به حيث اندقت عظامه وغربت حياته إلى جنات النعيم.

ـ وهناك رواية تاريخية أخرى تقول إن صاحب هذا الموقف هو (عبد الله بن بقطر) أخو الإمام الحسين من الرضاعة.

٦ ـ مذبحة كربلاء ومصرع سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما:

كانت وقعة كربلاء يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين ولاشك أن القلب ينزف دمًا والعين تبكي جمرًا مصرع البطل سليل الأبطال وسليل أطهر وأشرف بيت عرفته الأرض على مدى التاريخ وحفيد إمام الأنبياء وسيد المرسلين وسيد شباب أهل الجنة وريحانة رسول الله ﷺ وقرة عينه ومهجة فؤاده: الإمام الحسين بن علي ابن أبي طالب، رضي الله تعالى عنهما وعن آل البيت الأطهار الكرام جميعًا وأرضاهم.

قرأت ذلك أكثر من مرة ووجدت أن جميع المراجع تتفق في سرد الأحداث المؤلمة التي واكبت هذا الحدث الجسيم وهذه الخيانة البشعة، ولا يختلف بعضها عن بعض، ونوضح بإيجاز شديد بعض ما جاء في ذلك:

الأحداث الخيانية التي واكبت مقتل الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما:

١ ـ وصل الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب بمن معه من آل بيته الأطهار الكرام حتى وصل إلى مكان بالعراق يسمى (كربلاء) أو (كرب وبلاء) وشدوا خيامهم.

٢ ـ وكان ابن زياد في الكوفة يعمل ليل نهار في إعداد ضربته الآثمة للقضاء على الإمام الحسين ويختار قواده للمعركة ويحشد المقاتلين، ومن يهرب من الانضمام لجيشه يأتي به أمام الناس ويضرب عنقه، ثم يلقي برأسه ليتدحرج أمام الناس فيملؤهم رعبًا وفزعًا فينضموا لجيشه كارهين.

٣ ـ كان هناك جيش قوامه أربعة آلاف فارس تحت قيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص معدًا لمجابهة الديلم في أرض همذان، فأمره بترك الجهاد أمام الديلم وأمره بالحرب أمام الحسين وآل بيته وأتباعه بكربلاء، فسار عمر بن سعد بالجيش إلى كربلاء لقتال الإمام الحسين، فسبحان من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، فقد أخرج ـ سبحانه وتعالى ـ الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، ثم أخرج عمر هذا من سعد!!

٤ ـ وكان مستشار هذه الحملة الباغية الطاغية رجل شائه الخَلْقُ والخُلُقُ وشيطان في صورة إنسان اسمه: (شمر بن ذي الجوش) أو (شمر بن ذي الجون) وكان ذلك الرجل دخيلاً على الإسلام وانشقت عنه الأرض بغتة وفجأة في الأيام الأولى لفتنة الخوارج الذين ناصبوا الإمام عليًا العداء، فأدلى معهم بدلوه عاملاً لحساب نفسه الخبيثة أو لحساب قوة خفية شريرة تريد القضاء على الإسلام، وكان يفوق اليهود في خيانته وعدائه الشديد للإسلام والمسلمين ممثلين في الإمام الحسين بن علي وجميع بيت النبوة الكرام الأطهار.

فوجد أن هذه فرصة ينفث فيها سمه ويصب فيها حقده وعداءه وبغضه الشديد للإسلام والمسلمين، متصوراً أن القضاء على الإمام الحسين وأتباعه سيؤدي حتماً إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، ولكن خاب فأله وخاب ظنه وسُحِق فكره وكيده وأُحْرِقت خيانته البشعة، فالإسلام باق ومنصور إلى يوم القيامة مهما كثر أعداؤه وحساده.

٥ ـ وألقى هذا الخائن الخبيث في روع ابن زياد أن هذه فرصة عمره إذا استطاع أن يجهز على الإمام الحسين ويقضي عليه ويقدم رأسه هدية لسيده يزيد بن معاوية، وأخذ يعمل جهده ويبذل أقصى طاقته وأقصى ما يستطيع في الكيد للإسلام وتخريب صفوفه متخفيًا وراء قناع الخيانة الخوارجية متشبعًا بمبادئهم ومتسللاً إلى أغراضه المشبوهة وأغراض القوى الخارجية التي يعمل لحسابها كأحد العملاء المسمومين والمأجورين.

٦ ـ ومن هنا نشأ الكره، ثالوث العداء السافر والبغض الشديد للإسلام والمسلمين ولآل البيت النبوي الكريم الذي يحمل لواءه سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين وآل بيته وأتباعه الكرام الأطهار الطيبين. فظهر الثالوث المكون من ابن زياد وشمر بن ذي الجوش وعمر بن سعد بن أبي وقاص للأسف الشديد . . فأنا لا أتصور كيف ينسب عمر هذا لأبيه الكريم الفاضل الصحابي الجليل وأحد العشرة المبشرين بالجنة سيدنا سعد بن أبي وقاص. ثم يقوم بهذا العمل الغادر وأمام من؟ وضد من؟ أمام سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين بن علي ﷺ. وكيف يكمل عمرهذا ثالوث الخيانة والغدر مع ابن زياد وابن ذي الجوش، وكيف يرضى لنفسه أن يكون الضلع الثالث في هذا المثلث الأسود ضد الإسلام والمسلمين في شخص الإمام الحسين بن علي وآل البيت النبوي الكرام الأطهار الطيبين.

٧ ـ وصل جيش ابن زياد بقيادة عمر بن سعد وعدته أربعة آلاف فارس كما ذكرنا إلى كربلاء حيث معسكر الإمام الحسين وآل بيته وأتباعه، وأرسل إليه يسأله لماذا جاء؟ فأجابه الإمام الحسين: إن أهل الكوفة كتبوا إليَّ يذكرون أنهم لا إمام لهم ويسألونني القدوم إليهم، وفي الطريق علمت نكوصهم فأردت الرجوع فمنعني (الحر بن يزيد)، وسار بي إلى هذا المكان.

فأرسل عمر بن سعد إلى ابن زياد بالكوفة يخبره بذلك، فرد عليه ابن زياد: قد بلغني كتابك، فأعرض على الحسين البيعة ليزيد، فإذا بايع ومن معه فأخبرني وسيأتيك رأيي، وعرض عمر بن سعد كتاب الطاغية ابن زياد على الإمام الحسين، فكان جوابه: لا أجيب ابن زياد إلى ذلك، وإن يكن الموت، فمرحبا به. فأرسل عمر بذلك إلى ابن زياد، فأرسل إليه ابن زياد في خيانة وغدر: أن امنع الحسين وأصحابه الماء، وحُل بينهم وبينه حتى لا يذوقوا منه حسوة.

٨ ـ استمر الحوار بين عمر بن سعد والإمام الحسين الذي أصر على موقفه في رفض مبايعة يزيد رفضًا قاطعًا، ولم يعرض إطلاقًا كما تزعم بعض الروايات أن يذهب إلى يزيد ويضع يده في يده، كما شهد بذلك (عقبة بن سمعان)، وهو أحد اثنين من أصحاب الحسين خلصا من المعركة فقال: ما زاد الحسين على أن قال لهم: دعوني أرجع إلى البلد الذي أقبلت منه أو أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير إليه أمر الناس، فلم يفعلوا، ورفض الإمام الحسين الذهاب إلى الكوفة للقاء ابن زياد، كما رفض طلب ابن زياد لمبايعة يزيد.

٩ ـ ضاق صدر ابن زياد بصمود الإمام الحسين، ففزع إلى مستشاره شمر بن ذي الجوش، فأشار عليه أن يقسو على عمر بن سعد في خطابه ويأمره أن يجيء بالحسين ومن معه إلى الكوفة عنوة، فإن أبو قاتلهم حتى الموت.

ثم هداه تفكيره الخبيث ومكره السام أن ينتقل بنفسه إلى كربلاء لإضرام النار خوفًا من أن يحدث تفاهم بين الإمام الحسين وبين عمر بن سعد، فيتراجع عن قتل الإمام الحسين ومن معه، فاقترح على ابن زياد أن يحمل كتابهُ بنفسه إلى عمر بن سعد، واشتركا معًا على صياغة الكتاب الذي جاء فيه: «إني لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتكون له عندي شفيعًا، فادع الحسين إلى ما أمرتك به، فإذا نزل هو وأصحابه على الحكم مستسلمين فابعث بهم إليَّ، وإن أبو فازحف عليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم، وبعد أن يقتل الحسين أوطئ الخيل صدره وظهره، فإن مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن الجوشن والعسكر».

١٠ ـ لم يكد عمر بن سعد يتلو كتاب أميره ابن زياد حتى أدرك كيد ابن ذي الجوش الذي قال له: إمض لأمر أميرك وقاتل، وإلا فخل بيني وبين الجند. فغلب ابن سعد على دينه واستسلم لأطماعه وهواه، فرضي أن يبقى قائدًا لجيش الشيطان جيش الخيانة والغدر.

وقاموا بأحط وأوضع خيانة شيطانية، فحالوا بين الإمام الحسين ومن معه وبين الماء رغم تفوقهم العددي الساحق، فكانوا أربعة آلاف جندي، بل أربعة آلاف شيطان، بينما كان كل الذين مع الإمام الحسين اثنان وسبعون لا غير، وفيهم السيدات والأطفال والمرضى، فقام هؤلاء الخونة بمحاصرة الطريق إلى الماء بخمسمائة فارس، بل بخمسمائة خائن، فلم يرحموا تحرق الأطفال والنساء والمرضى من العطش في هذه الأرض الموقدة التي تعتبر جهنم الكرة الأرضية من شدة حرها وقيظها، وكل من يزورها حاليًا في الصيف يعرف ذلك.

١١ ـ انشق عن جيش عمر بن سعد (الحر بن يزيد) و(يزيد الكندي)، وانضما إلى الإمام الحسين، وبدأ القتال، فرمى عمر بن سعد بسهم قائلاً: اشهدوا لي أنني

أول من رمى في القـوم، وأعلن بدأ القتـال، وبدأ صف من رجـاله بل من شيـاطينه يطلبون المبارزة، فخرج الأبطال من أتباع الإمام الحسين، فصرعوا في سرعة البرق كل من خرج وبرز إليهم من جـيش الخيانة والغدر بعض الرجال وأوقـعوا الذعر والرعب في صفـوفهم، ومن صفوف الأبطال أتبـاع الإمام الحسين خرج ذلك الأسـد الضاري (عبـد الله بن عمر الكـلبي) مؤمن الكوفة، صـادق الإيمان إلى مبـارزه فيصـرعه في غمضة عين، فـأطار صواب الآخرين، فضربه أحدهم بسيفـه فطارت أصابع كفه في الهواء، لكنه لحق ضـاربه فصرعـه في الحال، وتكالبـوا عليه ولم يتركـوه إلا بعد أن أدركه فريق من أصحابه، فولى الشياطين عنه مـذعورين. وواصل زحفه ضاربًا بسيفه ذات اليمين وذات الشمال حتى فاضت روحه المؤمنة، وأدركتـه زوجته لتحرس جثمانه من الوحوش الذين كانوا يحزون رءوس القتلى من الشهداء أتباع الإمام الحسين، لكن الخائن الوغـد الزنيم شمـر بن ذي الجوش أمر واحـدًا من جنوده فغافـلها من الخلف وهشم رأسها الكريمة.

١٢ ـ التحمت الجبـهتان التحامًا رهيـبًا، جبهة الأربعة آلاف خائن وجـبهة أتباع الإمام الحسين الذين لم يكونوا أكثر من اثنين وثلاثين فارسًـا، فدمروا هجومهم تدميراً ونكلوا بهم تنكيـلاً، ومزقـوهم شر ممزق، وجـاوزوا الدفاع إلى الهـجوم في سـرعة ماحـقة، وأحـاطوا بفـرسان ابن زياد ثم مـرقوا داخل صـفوفـهم يسقطون رءوسـهم كالذباب، وسقط في يد قائدهم الخائن الجبـان (عروة بن قيس) فصاح على ابن سعد لكي يدركه بالرماة، وأمر ابن سعد جيشه فتقدم بأجمعه يتقدمه خمسمائة من الرماة.

وكبـر الإمام الحـسين تكبيـرة هزت الأرض وزلزلتـها، واندفع يضـرب بسيـفه كالصاعقـة المحرقة، فهو ابن علي بن أبي طالب وسليل حمزة سـيد الشهداء، فكان يهجم كـالأسد على عدوه فـيصرعـه ثم يرى عدواً آخـر يريد ضرب أحد أصـحابه فيخطفه كـالصقر ويرديه قتيلاً، ثم يبصـر خائنًا آخر قادمًا إليه يريد مهـاجمته، فلم يمهله حتى يصل إليه، بل يقـابله بضربة قاضية، وظل هكذا كـالليث الضاري حتى

جندل كثيراً من الخونة الأعداء وقتل كثيراً من الأوباش والأنذال، وسحق كثيراً من ثعابين الخيانة والغدر الذين أطلقهم الثعابين الكبار الثلاثة: ابن زياد وابن ذي الجوش وابن سعد.

وافترس كثيراً من ذئاب الخيانة البشعة التي لم يشهد التاريخ بمثلها، ورأى أصحابه الأبطال الكرام أفعاله المجيدة الباهرة، فاشتعل حماسهم وتوقدت عزيمتهم وتوهجت فدائيتهم، فقاتلوا قتالاً رهيبًا، أذهل الأعداء وأوقع المزيد من الرعب والخوف والذعر في صفوفهم - فالخائن مهما كان إنما هو جبان لا يستطيع تحقيق هدفه وغرضه إلا بالخيانة والغدر -، فراح أصحابه الكرام الأماجد البواسل يضربون الأعداء ويقتلونهم وينكلون بهم في كل ناحية، وكلما قل عددهم بوقوع الشهداء منهم ازدادوا إقدامًا ومضاءً وقوة، وكانوا يتعجلون الشهادة والجنة.

١٣ - وهنا، ركز رماة الخونة الأعداء ضرباتهم على الجياد التي يمتطيها فرسان الإمام الحسين، فعقروها جميعًا، وهبط الفرسان على الأرض ليقاتلوا مع إخوانهم بغير جياد، وكل بطل من أصحاب الإمام الحسين يتكاثر ويتكالب عليه العشرات من الخونة ذئاب الخونة الكبار ابن زياد وابن ذي الجوش وابن سعد. ومن ذلك يتبين كيف كانت حدة وشدة وضراوة القتال الذي لم يشهد التاريخ بمثله على الإطلاق، وكان الفزع دائمًا والرعب من نصيب جيش الخونة، والدليل على ذلك أنهم قاموا في خسة ونذالة لا مثيل لها على مر الدهور والأيام بحرق المضارب والخيام التي كان يقيم بها أهل الإمام الحسين وأنصاره ليشغلوا القلة الصامدة لقتالهم ودحرهم من أصحاب الإمام الحسين بإطفاء نار الغدر والخيانة المتقدة في الخيام، ومن العجب أن فسطاط الإمام الحسين نجا من الحريق.

١٤ - أحاط الأبطال المؤمنون من أصحاب الإمام الحسين به من كل جانب يقاتلون من حوله ويذودون عنه في فدائية، لم يَجُد التاريخ على الإطلاق بمثلها،

وكل منهم يتمنى أن يفديه بروحه ويعمل بكل جهده وطاقته على أن يستشهد بين يديه أو عند قدميه، ومنهم على سبيل المثال البطل المؤمن حنظلة بن سعد الشامي، الذي يثبت بين يدي الإمام الحسين كالجبل، وتتناوشه عشرات السيوف والرماح فلا يتزحزح ويظل يقاتل حتى يقع شهيداً.

ـ وكذلك سيف بن الحارس وأخوه مالك يقاتلان معه ومن حوله حتى ينالا الشهادة، وهذا عبد الله بن عروة وأخوه عبد الرحمن يخوضان في صفوف الأعداء ويصليانهم ناراً وسعيراً حتى يثقل جسداهما بالطعن والضرب والجراح فيسقطا على الأرض خائرة قواهما، ثم لا تكاد تقع أعينهم المجهدة على الإمام الحسين يقاتل وحده عشرات من الذئاب حتى تنتفض فيهما غافية الأسد من جديد ويتوهج بأسهما ويتوقد عزمهما وينهضان بين يدي الإمام الحسين في قتال شديد ومرير حتى يقعا شهيدين عظيمين.

ـ وهذا نافع بن هلال البجلي وسويد بن أبي المطاع وشوذب وعباس ابنا أبي شبيب وعشرات من إخوانهم الأبطال المؤمنين يقاتلون في جسارة وفدائية رهيبة حتى نالوا الشهادة، و كذلك زهير بن القين وعبد الله بن عمر الكلبي ويزيد الكندي والحرب بن يزيد كل منهم كأنه جيش وحده، وأبلوا في المعركة بلاءً يفوق كل وصف حتى نالوا الشهادة جميعًا.

١٥ ـ لم يبق مع الإمام الحسين سوى أهل بيت النبوة الأطهار الكرام الذين كان ظمؤهم إلى الشهادة والجنة أعظم بكثير جداً من ظمئهم إلى الماء الذي حرمهم منه المجرمون الخونة، وكان أولهم انطلاقًا البطل الجسور علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، سليل الأبطال، فأعاد إلى الحياة والأذهان بطولات جده العظيم علي بن أبي طالب ﷺ، وكان عمره تسعة عشر عامًا، فأخذ يضرب الخونة ويفرق جمعهم ويشتت شملهم ويمزقهم كل ممزق، فلا يكاد يقترب منه ذئب من جيش الأعداء حتى

يطير رأسه في سرعة البرق حتى دنا أجله وحانت له الشهادة من طعنة رمح غادرة، فحمله أبوه الإمام الحسين وأرسله مع أحد بني عمومته إلى فسطاطه. ولا تسل عن عمته الطاهرة البتول زينب بنت علي وما سكبت عليه من عبرات ودموع طاهرة، ولا تسل عن زفرات حزنها على الشهيد البطل ابن أخيها.

ـ وعاد الإمام الحسين إلى أرض المعركة ومعه فقط أهل بيته الكرام الأطهار، أما أصحابه وأنصاره فقد فازوا جميعًا بالشهادة، وتقدم آل بيته جميعًا كالأسود الكواسر، فهؤلاء إخوته لأبيه عبد الله بن علي بن أبي طالب وجعفر وعثمان ومحمد الأصغر وأبو بكر والعباس، فيلقون بأنفسهم كالصواعق المحرقة والزلازل المدمرة، فيطيرون رءوس الأعداء الخونة بسيوفهم الماحقة، ويعلمونهم كيف يكون الضرب والطعان في يوم تشيب فيه الولدان، وينفذون إلى قلب الجيش المسعور بعزيمة وفدائية تزلزل الجبال الرواسخ، ولكن كثرة الأعداء استطاعت أن تفعل فعلها الغادر الآثم، فوقع البطل ابن الأبطال وسليل الأمجاد العباس بن علي شهيدًا بعد أن أذاق الأعداء ما لم يكونوا يتوقعونه من الضرب والطعان والنكال.

ـ وتبعه إخوته الكرام الأبطال شهيدًا بعد شهيد، حتى فازوا جميعًا بالشهادة وبجنات النعيم، بعد أن نكلوا بالأعداء وأذاقوهم الهول والدمار حتى كاد أن يكتب للحسين وإخوته النصر، وكاد الأعداء الخونة أن يفروا أمامهم مهزومين مدحورين على كثرتهم، ولكنها إرادة المولى ـ عَزَّ وجَلَّ ـ العلي القدير أن يفوز أهل بيت النبوة بالشهادة العظيمة والنعيم المقيم.

ـ ثم تقدم أبناء الإمام الحسين: أبو بكر وعبد الله وابن عمهم القاسم بن الحسن وأبناء عمهم جعفر بن علي بن أبي طالب وعون ومحمد وعبد الله، وأبناء عقيل بن أبي طالب عبد الله الأكبر وعبد الله الأصغر وجعفر، وأبناء مسلم بن عقيل محمد وعبد الله ومعهم محمد بن سعيد بن عقيل . . تقدم هؤلاء الأبطال جميعًا وكل واحد

فيهم كأنه جيش عرمرم، فصنعوا بالأعداء ذيول ابن زياد وابن ذي الجوش وابن سعد الثالوث الخياني ملحمة التاريخ التي ستظل أعظم معجزة لبيت النبوة الطاهر الكريم سيد بيوت الأرض وأشرفها وأطهرها جميعًا، فافترسوا الخونة الأعداء افتراسًا لا يكاد يصدقه عقل، حتى كاد النصر أن يكتب لهم مرة ثانية، ولكن المقادير وإرادة المولى - عَزَّ وجَلَّ - أبت إلا أن تتوجهم جميعًا بالشهادة الكبرى العظيمة والفوز مع من سبقوهم من الشهداء بجنات النعيم.

١٦ - وبقي البطل الإمام الحسين ﷺ وحده في الميدان . . فقد استشهد جميع آل بيت النبوة الكرام الأطهار البررة وجميع من معهم من الأصحاب والأنصار، وبقي البطل وحده ليس معه أحد إلا الله تعالى، فأبى الاستسلام وصمم على أن يقاتل حتى آخر قطرة من دمه الذكي، وكانت الجراح قد أثخنته من كل جانب بعد أن أذاق الأعداء ضربًا وقتلاً تنكيلاً يعجز عنه الوصف، فكان صاعقة محرقة وزلزلة عاتية وأسدًا تتضاءل أمام جسارته جميع آساد الأرض، فأخذ يطيح الرءوس وينقض عليهم يمينًا ويسارًا ولا يجرؤ أي منهم على الاقتراب منه؛ لأن كل من يفكر في الاقتراب كان يعلم مصيره مقدمًا.

وأخذ شمر بن ذي الجوش يحثهم ويصيح فيهم للإسراع بقتل الحسين ﷺ، فاقتربوا منه، ولكنه رغم جراحه الشديدة ونزيف الدم الذكي كان غزيرًا من جسمه الشريف الطاهر من كل مكان، انقض عليهم كالصاعقة بسيفه الصارم البتار، ففروا من أمامه، ثم يقترب منه أحد الخونة شاهرًا سيفه فيصيح به غلام صغير هو عبد الله ابن الحسن في براءة الأطفال قائلاً: يا ابن الخبيثة، أتقتل عمي؟ فيميل عليه الخبيث ابن الخبيثة بضربة توقعه على الأرض دون أن تصيب منه مقتلاً، فيحمله الإمام الحسين إلى عمته زينب، ثم يواجه البطل أعداءه في جولة أخيرة وقد أرهقته الجراح الكثيرة ونزيف الدم الطاهر الذكي غزيرًا من سائر جسده الشريف.

فتقع ضربة سيف غادرة على رأسه الشريف فتدميه ويزداد نزيف الدم، فيشد رأسه بعصابة ويحمل سيفه والدم ينزف من كل جسمه، والمجرمون يضربون، فتخرج أخته السيدة زينب من خدرها فترى أخاها وحيدًا وقد انهارت قواه من كثرة النزيف، فتصيح بعمر بن سعد قائد جيش ابن زياد قائلة: «يا عمر، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر؟»، فيطرق ابن سعد خزيًا وندامة ويصرف وجهه عنها وقد تفجرت عيناه بالدموع، لكنه لم يعد يستطيع الانسلاخ والخروج من الموقف الذميم والتورط الكبير الذي تورط فيه طاعة لسيده الخائن ابن زياد، ويصيح الإمام الحسين فيهم قائلاً: «أعلى قتلي تجتمعون؟ إني لأرجو الله تعالى أن يكرمني بهوانكم ثم ينتقم لي فيكم من حيث لا تشعرون».

١٧ ـ ويطير صواب الخائن شمر بن ذي الجوشن، فيصرخ في الرماة متوعدًا إياهم بشر عظيم عندما يرجعون لسيدهم ابن زياد بغير قتل الحسين، وينطلق طالبًا رأس البطل الإمام الحسين، فيتقدم أحد الخونة تلاميذ ابن زياد وابن ذي الجوش وابن سعد متهزًا شدة ضعف وانهيار البطل الإمام الحسين لكثرة النزيف فيضربه بسيفه الغادر الأثيم على معصم يسراه فتطير كفه، ثم يتقدم كلب ثان عقور فيضربه على عاتقه فيقع على الأرض، وما كان لهذان أن يتجرءا على الاقتراب منه ولو كان معهم ألف مثلهم، لولا ما أصابه من انهيار شديد لنزيف معظم دمه الذكي الطاهر، ويحسب الخونة أنه قد انتهى فينصرفون عنه.

لكنهم يفاجأون به ينهض من جديد متوكئًا على سيفه، فقد صمم على القتال إلى آخر قطرة من دمه الذكي الشريف الطاهر، وقد شاءت إرادة المولى ـ عَزَّ وجَلَّ ـ أن يقود الإمام الحسين موكب الشهداء إلى جنات النعيم، فيسارع إليه بعضهم فيوجهون إليه الضربة الخائنة الفاجرة الأخيرة، ويتقدم رأس الأفعى شمر بن ذي الجوشن، فيتخذ رأس البطل الحسين فيقدمها هدية إلى سيده ابن زياد.

١٨ ـ وجاء في البداية والنهاية بإيجاز شديد: أن العطش قد اشتد على الإمام الحسين ﷺ، فحاول أن يشرب من ماء الفرات فما قدر، بل منعوه عنه، فخلص إلى شربة منه، فرماه رجل يقال له حصين بن تميم بسهم في حنكه، فأثبته فانتزعه الحسين من حنكه ففار الدم، فتلقاه بيديه فرفعهما إلى السماء وهما مملوءتان دمًا ثم رمى به إلى السماء وقال: «**اللهم احصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تذر على الأرض منهم احداً**»، ودعا عليهم دعاءً بليغًا، فوالله لم يمكث الرجل الرامي إلا يسيراً حتى صب الله تعالى الظمأ عليه، فجعل لا يروي ويسقي ماءً مبرداً وتارة يبرد له الماء واللبن جميعًا ويُسقى فلا يروي، بل يقول: ويلكم أسقوني قتلني الظمأ، فوالله ما لبث يسيراً حتى انفدخ بطنه (أي انشرخ) انفداخ بطن البعير.

١٩ ـ ثم إن شمر بن ذي الجوشن أقبل في نحو عشرة من أصحابه وأحاطوا به وجعل شمر يحرضهم على قتله قائلاً: ويحكم، ماذا تنتظرون بالرجل؟ فاقتلوه ثكلتكم أمهاتكم. فحملت الرجال من كل جانب على الإمام الحسين، وضربه زرعة ابن شريك التميمي على كتفه اليسرى وعلى عاتقه، ثم انصرفوا عنه وهو ينوء ويكبو، ثم جاء إليه سنان بن أبي عمرو بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع ثم نزل فذبحه وحز رأسه ثم دفع رأسه إلى خولى بن يزيد. وقيل إن الذي قتله شمر بن ذي الجوش، وقيل: رجل من مذحج.

ـ وجاء كذلك في الفقرة التالية في البداية والنهاية: «... حتى نادى شمر بن ذي الجوشن ماذا تنتظرون بقتله، فتقدم إليه زرعة بن شريك التميمي فضربه بالسيف على عاتقه، ثم طعنه سنان بن أنس بن عمرو النخعي بالرمح، ثم نزل وأخذ رأسه ودفعه إلى مولي». وروي عن عمر بن شبه عن أبي أحمد عن فضيل بن الزبير عن عبد الرحيم بن ميمون عن محمد بن عمرو بن حسان قال: كنا مع الحسين بنهري كربلاء، فنظر إلى شمر بن ذي الجوش فقال: صدق الله ورسوله،

قال رسول الله ﷺ : «كأني انظر إلى كلب ابقع يلغ - او يشرب - في دماء اهل بيتي»، وكان شمر قبحه الله أبرص، وأخذ سنان وغيره سلبه وتقاسم الناس ما كان من أمواله وحواصله وما في خبائه حتى ما على النساء من الثياب الطاهرة.

وقال أبو مخنف عن جعفر بن محمد قال: وجدنا بالحسين حين قتل ثلاثًا وثلاثين طعنة وأربعًا وثلاثين ضربة، وهَمَّ شمر بن ذي الجوش بقتل علي بن الحسين الأصغر (علي زين العابدين) وهو صغير مريض حتى صرفه عن ذلك حميد بن مسلم أحد أصحابه.

وقد ثبت بلا جدال من خلال الحديث الشريف السابق أن شمر بن ذي الجوشن خائن، وشاءت المقادير أن يكون زرعة بن شريك التميمي وسنان ابن أبي عمرو بن أنس النخعي ذراعا شمر بن ذي الجوشن، وهما أشد خيانة.

نسأل الله تعالى أن يخذل كل من اشترك في قتل الإمام الحسين وآل بيته الكرام الأطهار، ومن كل من تآمر على قتله وعمل على خيانته وخدعته، ومن كل من تخاذل وتقاعس عن نصرته والوقوف بجانبه وشد أزره. كما نسأله - سبحانه وتعالى - أن يمتعنا برؤية سيدي شباب أهل الجنة الإمامين العظيمين الحسن والحسين وآل بيت النبوة الكرام الأطهار جميعًا ورؤية الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام أجمعين وأن يجعلنا من رفقاءهم في الجنة وأن يجمعنا معهم في مستقر رحمته، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

٧ - مذبحة الحرة:

بعد مقتل الإمام الحسين بن علي ﷺ ساءت الأحوال بين أهل المدينة المنورة وبين يزيد بن معاوية، حتى ثاروا وخلعوا يزيدًا وطردوا عامله وضيقوا على من كان بها من بني أمية حتى استغاثوا بيزيد. وكان أهل المدينة قد ولو عليهم (عبد الله بن حنظلة الغسيل)، فارسل يزيد جيشًا إلى المدينة بقيادة أحد السفاحين الطغاة مسلم بن عقبة

المري أو المزني، وكان من جبابرة العرب طاعنًا في السن مريضًا، وما كاد الجيش الأموي يصل إلى وادي الحرة شمال المدينة المنورة حتى خرج إليه أهلها.

وهناك جرت معركة هائلة هي موقعة الحرة، وأسفرت عن هزيمة أهل المدينة وقتل عدد كبير منهم، وقتل في هذه المذبحة ألف وسبعمائة من قريش والمهاجرين والأنصار، ووجوه الناس وكان من بينهم ثمانون رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، كما قتل عشرة آلاف من سائر الناس من الموالي والعرب والنساء والصبيان.

وبعد هذه المذبحة الخيانية ضد أشرف مدينة في الأرض بعد مكة المكرمة؛ لأنها تضم رفات أشرف الخلق أجمعين وسيد الأنبياء والمرسلين ﷺ، بعد هذه المذبحة استباح جيش مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام وأسرف هو وجنوده في السلب والنهب والاعتداء، ولذلك لقبوه بـ (المسرف).

▪ ونوجز بعض ما جاء في (تاريخ الخلفاء)[1] «... وفي سنة ثلاث وستين بلغه (أي بلغ يزيد) أن أهل المدينة خرجوا عليه وخلعوه، فأرسل إليهم جيشًا كثيفًا وأمر بقتالهم ثم المسير إلى مكة لقتال ابن الزبير، فجاءوا وكانت وقعة الحرة على باب طيبة (أي المدينة المنورة)، وما أدراك ما وقعة الحرة؟ ذكرها الحسن مرة (أي الحسن البصري) فقال: والله ما كاد ينجو منهم أحد، قتل فيها خلق من الصحابة ﷺ ومن غيرهم، ونهبت المدينة وافتض فيها ألف عذراء، فإنا لله وإنا إليه راجعون، قال ﷺ: «من أخاف أهل المدينة أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» (رواه مسلم).

وكان سبب خلع أهل المدينة ليزيد أنه أسرف في المعاصي، وأخرج الواقدي من طرق أن عبد الله بن حنظلة الغسيل قال: والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن يرمى من السماء بالحجارة، إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة.

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٥٢، والتاريخ الإسلامي العام للدكتور علي إبراهيم حسين، ومروج الذهب للمسعودي ٢/ ٩٢.

■ ثم نورد بإيجاز بعض ما جاء في (البداية والنهاية) حول هذه المذبحة (مذبحة الحرة)، فقد جاء فيه: «. . . ثم انهزم أهل المدينة وقد قتل من الفريقين خلق من السادات والأعيان، منهم عبد الله بن مطيع وبنون له سبعة بين يديه وعبد الله بن حنظلة الغسيل وأخوه لأمه محمد بن ثابت بن شماس ومحمد بن عمرو بن حزم. ثم أباح مسلم بن عقبة الذي يقول فيه السلف (مسرف بن عقبة) ـ قبحه الله تعالى ـ من شيخ سوء ما أجهله، أباح المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد ـ لا جزاه الله خيراً ـ، وقتل خلقًا من أشرافها وقرائها وانتهب أموالاً كثيرة منها.

ووقع شر عظيم وفساد عريض على ما ذكره غير واحد، فكان ممن قتل بين يديه صبرًا (معقل بن سنان) . . ثم استدعى عمرو بن عثمان بن عفان فقال له: إنك إن ظهر أهل المدينة قلت أنا معكم، وإن ظهر أهل الشام قلت: أنا ابن أمير المؤمنين، ثم أمر به فنتفت لحيته بين يديه، وكان ذا لحية كبيرة، فهذا هو ابن عثمان بن عفان الذي يدّعون الأخذ بثأره يفعلون به هكذا ويهينونه هذه الإهانة الفظيعة؟!

قال المدائني: وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام يقتلون من وجدوا من الناس ويأخذون الأموال، فأرسلت سعدى بنت عوف المرية إلى مسلم بن عقبة تقول له: أنا بنت عمك، فمر أصحابك ألا يتعرضوا لإبلنا بمكان كذا وكذا، فقال لأصحابه: لا تبدأوا إلا بأخذ إبلها أولاً. وجاءته امرأة فقالت: أنا مولاتك وابني عندك في الأسرى، فقال: عجلوه لها، فضربت عنقه وقال: إعطوها رأسه. ووقعوا على النساء حتى قيل إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج، فالله تعالى أعلم.

قال المدائني عن أبي قرة قال: قال هشام بن حسان: ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة من غير زوج، وقد اختفى جماعة من سادات الصحابة منهم جابر بن عبد الله.

وقال المدائني: عن شيخ من أهل المدينة قال: سألني الزهري: كم كان عدد القتلى يوم الحرة؟ قال: سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، أما من

وجوه الموالي وممن لا أعرف من حر وعبد وغيرهم عشرة آلاف، قال: وكانت وقعة الحرة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين، وانتهبوا المدينة ثلاثة أيام.

هولاكو العرب!

وعلى هذا يكون هذا الرجل الخائن مسلم بن عقبة هو المعلم الأول لهولاكو، وهو أستاذه القديم والحميم الذي استقى وتعلم منه هولاكو سفك دماء الأبرياء وهتك الأعراض وإباحة النهب والسلب في المدن الآمنة، فلماذا نستغرب هولاكو التتار ونتعجب مما فعل ببغداد وقد سبقه هولاكو العرب مسلم أو (مسرف) بن عقبة. فعُذر هولاكو التتار أنه كان مشركًا ملحدًا كافرًا ويعتبر العرب والمسلمين ألد أعدائه، أما هولاكو العرب وللأسف أن اسمه (مسلم)، فأي عذر نقدمه له وأي عذر يقدمه هو عن نفسه يوم القيامة وقد استباح أشرف وأطهر مدينة على وجه الأرض؛ لأنها تضم رفات أعظم وأشرف إنسان وسيد الخلق أجمعين وإمام الأنبياء والمرسلين وسيد الأولين والآخرين، صلوات ربي وسلامه عليه.

وماذا يقول هذا الخائن هولاكو العرب، بل هولاكو البشرية كلها، ماذا يقول يوم القيامة للمولى - عَزَّ وجَلَّ -، وماذا يقول للنبي ﷺ حينما يعاتبه وقد انتهك حرمة مدينته المطهرة المقدسة وقتل صحابته الكرام الطيبين الأطهار وهتك أعراض المسلمات المؤمنات المحصنات الطاهرات، وهل في يوم القيامة سوف ينفعه أو يدافع عنه يزيد أو ألف يزيد؟!!

إنه بفعله هذا قد انضم إلى ثلاثي الخيانة والغدر السابق ذكرهم في مذبحة كربلاء ابن زياد وابن ذي الجوشن وابن سعد، فأصبح هذا رابعهم، وحول المثلث الخياني إلى مربع خياني، ودع يزيد بن معاوية يشفع لهم أو ينفعهم أو يدافع عنهم يوم القيامة يوم

يقوم الناس لرب العالمين. ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج: ٢)..

ـ أما يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فإن عهده المظلم، الدموي، قد تلطخ بأبشع وأحط مذبحتين عرفهما الإسلام والمسلمون على مر التاريخ الإسلامي، ولو كانت هاتان المذبحتان مذبحة كربلاء ومذبحة الحرة، واللتان تعتبران أشد خيانة من الخيانة نفسها، لو كانت قد تمتا بأيدي كافرة لكان الأمر محتملاً، ولكن ما يحز في النفس ويجعل الدم يغلي في العروق أنهما تمتا بأيدي عربية خائنة.

ـ وأمامك يا يزيد يوم سوف تسأل فيه عن كل قطرة دم مسلمة أريقت وسفكت بسببك أنت وبأوامرك، أمامك يوم تشخص فيه الأبصار وتشيب من هوله الولدان، ولا نريد أن نسكب أو نكتب عنك أي شيء يا يزيد، فإن ما كتبه غيرنا عنك يكفي ويزيد.

٨ ـ أول حصار لمكة المكرمة وأول اعتداء على بيت الله الحرام (الكعبة المشرفة):

امتداداً لطغيان يزيد بن معاوية، سار مسلم بن عقبة المري بعد مذبحة الحرة إلى مكة المكرمة لقتال عبد الله بن الزبير، إلا أن مسلمًا أدركه الموت في الطريق، فتولى قيادة جيوش يزيد من بعده الحصين بن نمير السكوني.

وكان يزيد قد أوصى بتوليته إذا مات مسلم، فسار الجيش اليزيدي إلى مكة وحاصرها في أوائل سنة ٦٤ هـ. وهذه هي أول مرة تحاصر فيها مكة في التاريخ الإسلامي، وكان ابن الزبير قد آوى إليها واعتصم بها على اعتبار أنها حرم مقدس لا يجرؤ أحد على القتال فيه ولا يحل له، وكان كثير من أهل المدينة قد انضوى تحت لواء عبد الله بن الزبير للدفاع عن مكة.

ونصب الحصين بن نمير السكوني قائد الجيش اليـزيدي المجانيق حول الكعبة على جبل أبي قبيس المواجه للكعبة، أما أصحاب الزبير فتحصنوا في بيت الله الحرام. ودار القتال، فأصابت المجانيق الكعبة وهدمتها وأحرقتها حتى تواردت أحجار المجانيق على البيت مما أدى إلى هدم الكعبة في الثالث من ربيع الأول سنة ٦٤هـ، ومات يزيد أثناء القتال[١].

لا شك أن الحصين بن نمير السكوني، تفوق على أبرهة الحبشي في الاعتداء على بيت الله الحرام، فإن أبرهـة لم يهدم حجراً واحداً من الكعـبة، أما الحصين فـقد قام بهدمها وحرقها إرضاء ليزيد بن معـاوية،فويل لهما يوم القيامة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، يوم يصير الولدان شيبا.

ويقول صاحب (تاريخ الخلفاء)[٢]: «وسار جيش الحرة إلى مكة لـقتال ابن الزبير، فمـات أميـر الجيش بالطريق (مـسلم بن عقـبة)، فـاستخلف عـليهم الحصين بـن نمير السكوني، وأتوا مكة وحـاصروا ابن الزبير وقـاتلوه ورموه بالمنجنيق، وذلك في صـفر ٦٤هـ، واحترقت من شرارة نيرانهم أستار الكعـبة وسقفها وقرنا الكبش الذي فدى الله تعالى به سـيدنا إسـماعيل من الذبـح وكان في السقف. وأهلك الله تعـالى يزيداً في نصف ربيع الأول من نفس العام، وجاء الخـبر بوفاته أثناء القتال، فتـوقف القتال وعاد الحصين هو وأتباعه ورفعوا الحصار عن مكة بعد أن ألحقوا بالكعبة الخسائر الفادحة».

وهكذا تشاء المقادير أن يختـم يزيد بن معاوية حياته بهدم وتدميـر وحرق الكعبة بيت الله الحـرام وقبلة المسلمين في مـشارق الأرض ومـغاربهـا، ولا نقول سـوى أنه سيقف يوم القيـامة بين يدي جبار الجبابرة وملك الملوك الحكم الـعدل، ومن العجيب أننا لم نقـرأ في كتب التـاريخ عن أي جيش وجـهه يزيد بن مـعاوية لقـتال الكـفار وجهادهم، فكان جهاده في كربلاء والحرة والكعبة المشرفة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للدكتور علي إبراهيم حسن.

(٢) انظر: تاريخ الخلفاء، ص٢٥٣.

٩- الحصار الثاني لمكة المكرمة

ورد أن عبد الملك بن مروان قد أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي للقضاء على عبد الله بن الزبير بمكة، فصار الحجاج بالجيش إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمنجنيق وهي قاذفات الحجارة وبمثابة المدافع في العصر الحاضر.

وأقبل الحجاج على المنجنيق يضرب وتره بيده، فتنزل الحجارة المدمرة حول الكعبة حتى تصدعت جدرانها، وما هاب حتى أيقن أهل مكة لما رأوا البرق والردع أن غضب السماء قد حل، وأرغم بذلك أهلها على طلب الأمان، فانضم بعض أتباع الزبير إلى الحجاح، وبقى ابن الزبير في عدد قليل من انصاره، وخرج عبد الله بن الزبير بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالاً شديداً، واستبسل في الدفاع. وحمل عليه الأعداء وقتلوه في جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ[١].

أما ما جاء في (البداية والنهاية): «فلما استهلت هذه السنة استهلت وأهل الشام محاصرون أهل مكة، وقد نصب الحجاج المنجنيق على مكة ليحصر أهلها حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك بن مروان، وكان مع الحجاج الحبشة فجعلوا يرمون بالمنجنيق فقتلوا خلقًا كثيرًا، وكان معه خمس مجانيق فألح عليها بالرمي من كل مكان، وحبس عنهم الميرة والماء، فكانوا يشربون من ماء زمزم، وجعلت الحجارة تقع في الكعبة والحجاج يصيح بأصحابه، فكانوا يحملون على ابن الزبير حتى قتلوه.

وذكر غير واحد أنهم لما رموا بالمنجنيق جاءت الصواعق والبروق والرعود حتى جعلت أصواتها تعلو على صوت المنجنيق ونزلت صاعقة فأصابت من الشاميين اثنى عشر رجلاً، فضعفت عند ذلك قلوبهم عن المحاصرة، فلم يزل الحجاج يشجعهم، ونزلت صاعقة على المنجنيق فأحرقته، فتوقف أهل الشام عن الرمي والمحاصرة، فخطبهم الحجاج فقال: «ويحكم، ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم؟ فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار وأكلته».

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء، ص٢٥٧.

فعادوا إلى المحاصرة حتى انتهى الأمر بمقتل عبد الله بن الزبير، فبعث الحجاج برأسه إلى عبد الملك، كما فعل ابن زياد من قبل بإرسال رأس الحسين ﷺ إلى يزيد ابن معاوية، ثم صلب الحجاج جسد ابن الزبير على ثنية عند الحجون بمكة مبالغة في التشفي، فمازالت مصلوبة حتى مر بها عبد الله بن عمر فقال: «أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فبعث الحجاج فأُنزل عن الجذع ودفن هناك[1]».

ومن العجيب أن عبد الملك بن مروان مع أنه يعتبر من أعلام العرب الأفذاذ هو وابنه الوليد بن عبد الملك، ويعتبر رجل دولة من الطراز الأول بلا منازع، وكذلك ابنه، فمن المعروف أنهما قاما ببناء أمجاد كبيرة للدولة الإسلامية، وهما من أعظم من أنجبت الأمة العربية. ولكن كيف يكون عبد الملك بن مروان بهذا الشكل ويتم حصار مكة وضرب الكعبة المشرفة والاعتداء عليها كما سبق في عهده، إن ضرب الكعبة المشرفة والاعتداء عليها مرتين في عهد الدولة الأموية يعتبر سبة لا تمحى أبد الدهر من تاريخ هذه الدولة ويعتبر خيانة ارتكبت في عهد هذه الدولة، كما يعتبر مقتل الإمام الحسين بن علي ومقتل عبد الله بن الزبير وحز رأسيهما وإرسالهما لكل من يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان غدر وإجرام لا يمحى على أبد الدهر.

وقد جر ذلك على هذه الدولة شروراً مستطيرة وجعل الأعداء يتربصون بها في كل مكان، فكثر أعداؤها في جميع بقاع الدولة الإسلامية وتكاتفوا عليها واتحدوا في صراع دائم ومستمر معها حيث تم القضاء عليها قضاءاً مبرمًا على أيدي الدولة العباسية، وسيقف الجميع بين يدي المولى - عَزَّ وجَلَّ - يوم القيامة ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ (الدخان:١٦).

---

(١) انظر: البداية والنهاية حوادث سنة ٧٣هـ.

١٠ - خيانة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث
أمير سجستان سنة ٨٢ هـ

جرت هذه الخيانة على الدولة الإسلامية ويلات خطيرة وحروبًا كثيرة، وسفكت فيها دماء مسلمة غزيرة من المنتصر والمهزوم، فكان الفريقان المتناحران مسلمين، وقتل فيها الآلاف المؤلفة من الطرفين، وكان الأولى بهذه الحروب الطاحنة والمهلكة أن توجه إلى أعداء الإسلام من الروم والترك والديلم وغيرها من دول الكفر والشرك ولكنها الخيانة المشوبة للأسف الشديد بكثير من الدم، منذ القدم هذه الخيانة التي تسببت في تأخر العرب وتخلفهم.

ويلقي الذنب واللوم على الدين الإسلامي الحنيف ويدَّعون أنه هو سبب تأخر العرب وتخلفهم، أما الخيانة، فلم يجرؤ أحد من المتبجحين على الكلام عنها أو حتى الإشارة إليها من قريب أو بعيد، ولنعلم أن الخيانة موجودة من قبل ظهور الإسلام حتى أن فتاه عربية خانت والدها وتسببت في هزيمته وقتله بيد عشيقها أحد ملوك الفرس وهي النضيرة بنت الساطرون ملك الحضر، فلا تتعجب من هذا، ومعذرة لطول المقدمة، ولكن ما جاء في (تاريخ الطبري) و(البداية والنهاية) عن هذه الخيانة أضعاف هذه المقدمة.

والآن فنحن مع واحد من مدمني الخيانة هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، الذي كان للأسف أحد الرجال المسؤولين في الدولة الأموية، والذي كان مفروضًا أن يكون درعًا واقيًا للدولة في ناحيته المكلف بولايتها، ولكنه انقض على الدولة التي وضعت ثقتها فيه واتبع طريق الهوى، وكما خدعه الشيطان، فقد تمكن من خداع الآلاف من المسلمين الذين التفوا حوله، فكان هو وأتباعه نارًا محرقة كادت أن تعصف بالدولة. وأعاد بخيانته أيام حروب الردة في عهد الصديق أبي بكر ﷺ.

وقد كتب الطبري وابن كثير كلامًا كثيرًا جدًا عن هذه الخيانة التي سموها في كتبهم (فتنة ابن الأشعث)، والفتنة أشد من القتل.

جاء في كتاب (التاريخ الإسلامي العام)، (فقد ازداد تفاقم خطر المشرق حينما خرج عبد الرحمن بن الأشعث على طاعة عبد الملك بن مروان والحجاج، وكان ملك كابل في أرض سجستان قد ماطل في دفع الإتاوة والجزية التي اعتاد أداءها ودفعها للدولة الأموية، فجهز الحجاج جيشًا بلغ أربعين ألف مقاتل، وولى قيادته عبد الرحمن بن الأشعث، فخرج من العراق وسار إلى الحدود الشرقية لقتال ملك كابل، وكان ابن الأشعث شديد الزهو والبطئ والحذر، ولذا عنفه الحجاج واستبطأ الخطط الحربية التي رسمها للقتال، ورماه بالجبن.

وكان ابن الأشعث حانقًا على الحجاج لشدته وقسوته، وكذلك كان الجيش تبعًا لقائده، فبدأت أخطر عملية خيانية بعودة ابن الأشعث وجنده إلى العراق وعصوا أمر الحجاج وخرجوا وتمردوا عليه واستوثق ابن الأشعث أن ملك كابل سيحميه في حالة هزيمته ويأخذ بمناصرته، فارتمى في أحضانه ضد الدولة.

ووقعت الحرب بين الحجاج وابن الأشعث في منطقة البصرة حيث هزم ابن الأشعث في موقعة الزاوية ثم اتجه شمالاً إلى الكوفة معقل الخيانة، وخشي الخليفة عبد الملك بن مروان العاقبة فأرسل ابنه عبد الله بن عبد الملك وأخاه محمد بن مروان لمفاوضة ابن الأشعث على أن يوليه أي أقليم يشاء ويعزل الحجاج ويسوي العداء بين أهل العراق وبين أهل الشام، فلم يقبل ابن الأشعث هذا الصلح، وكان عبد الملك يريد لم شمل الدولة ويبتر جذور العداء من بين أركانها ويوحدها ويؤلف بين جميع القوى الإسلامية لمواجهة الأعداء الحقيقيين من الروم والترك وغيرهم، ولكن ابن الأشعث استمر في اللجاج والعناد.

فوقعت موقعة من أخطر المعارك الإسلامية هي موقعة دير الجماجم التي استمرت مائة يوم سنة ٨٢هـ وقتل فيها الآلاف المؤلفة من الجانبين، فكان مع ابن الأشعث مائة ألف مقاتل واشتد الخطر على كيان الدولة الإسلامية، وكانت الحرب سجالاً بين

الفريقين، ولكن في معظم الأيام كان التفوق والنصر لأهل الشام، حتى تمكن الحجاج من هزيمة ذلك الخائن ابن الأشعث الذي فَرَّ وألقى بنفسه من حصن عال، فمات وقُبِض على كثيرين من أتباعه ونكل بهم الحجاج.

وجاء في (الموسوعة الميسرة) في التاريخ الإسلامي أنه قد دارت رحى الحرب وطالت حتى انسلخت هذه السنة وهم على حالهم وقتالهم، والدائرة على أهل الشام في أكثر الأيام، حتى كان يوم أمر الحجاج فيه بالهجوم على كتيبة القراء (العلماء)؛ لأنهم كانوا يحرضون الناس على القتال بعاطفة دينية قوية، ولا ينظرون إلى مصلحة الدولة، والناس لجهلهم يقتدون بهم.

وكانت هذه الكتيبة هي أخطر ما في جيش ابن الأشعث، فكانت هي المحرك القوي و(الدينامو) الفعال للحرب، فما كان من الحجاج إلا أن ركز الهجوم عليهم لأنه ينظر إلى المصلحة العامة للدولة قبل كل شيء، ونجح هجوم الحجاج وقُتل من القراء خلق كثير، فانهزم أصحاب ابن الأشعث وذهبوا في كل وجه ولجأ ابن الأشعث إلى (رتبيل) ملك كابل وملك الترك، فأرسل الحجاج إلى (رتبيل) يتهدده بقتاله بجيش لا قبل له به، وسيرسل إليه ألف ألف مقاتل، ويحيل بلاده خرابًا ودمارًا إن لم يرسل إليه ابن الأشعث، فقتل رتبيل ابن الأشعث وبعث برأسه إلى الحجاج.

ولما قدمت الأسارى إلى الحجاج قتل أكثرهم ومنهم سعيد بن جبير، وعفا عن بعضهم، ومن الأشياء المأخوذة على الحجاج قتله لسعيد بن جبير بالذات، نظرًا لصلاحه وتقواه، وكان عبد الملك بن مروان رغم شدة بأسه وقوته قد اضطر إلى مهادنة ملك الروم، ودفع إتاوة (أي جزية) سنوية له ليتفرغ إلى قمع الخيانات التي كانت تحيط بالدولة من كل جانب والفتن المتأججة في معظم ارجائها، وعلى رأسها هذه الفتنة التي راح ضحيتها الآلاف المؤلفة من القتلى المسلمين من الجانبين، فقد سفكت الدماء المسلمة بأيدي مسلمة واكلت النار بعضها بعضًا، وكان الأولى أن توجه

هذه القوى التي قضت على نفسها بنفسها، كان الأولى أن توجه إلى أعداء الإسلام وأعداء الدولة الخارجين من الروم والترك والديلم وغيرها ولكن هذا كان قَدَرُ الإسلام والمسلمين في هذه الحقبة.

١١- خيانة بيزنطية وخيبة أموية

جاء في كتاب (التاريخ الإسلامي العام) أن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك استطاع في مدة خلافته أن ينفذ الحملة التي أعدها أخوه الوليد بن عبد الملك في أواخر أيامه بفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية الرومية فلم يتوان في تجهيزها ومضي في تنفيذ المشروع دون تردد، وشجعه على ذلك أن القسطنطينية كانت في حالة ضعف تام، فأرسل سنة ٩٨هـ قوة برية تبلغ ثمانين ألفًا إلى أسيا الصغرى تحت قيادة أخيه (مسلمة بن عبد الملك بن مروان)، كما أمَّر (عمر بن هبيرة) قائد الأسطول العربي على القوة البحرية وأمره بالإبحار إلى القسطنطينية. ورابط سليمان بن عبد الملك نفسه بقوة حربية عند دابق بالقرب من حلب ليمد الحملة بما يلزم عند الحاجة.

فاجتاح مسلمة بن عبد الملك أسيا الصغرى ووصل إلى بلدة (عمورية)، وأخذ في محاصرتها وكان يتولى الدفاع عنها الوالي الرومي (ليو الأزوري) البيزنطي الذي عرف بمطامعه السياسية في عرش بيزنطة، فحاول الاستعانة بالعرب للوصول إلى الملك ومن ثم دخل في مفاوضات مع مسلمة بن عبد الملك، ولم يكن مسلمة بالقائد الفطن، فقد وعده (ليو الأزوري) المذكور وتعهد له أنه إذا ساعده على ارتقاء عرش الدولة البيزنطية فإنه سوف يؤدي جزية سنوية للدولة العربية، فصدقه مسلمة ورفع الحصار عن عمورية وسار إلى بلده (أبيدوس) على ساحل أسيا الصغرى الغربي.

وسار (ليو الأزوري) نفسه إلى القسطنطينية وأوهم أهلها أنهم إن جعلوه ملكًا عليهم تمكن من صد غارة العرب؛ لأنه قد تمكن من خديعة القائد العربي، فلم يشك أهل القسطنطينية في قوله، وجلس على عرش بيزنطة، وكان مسلم إذ ذاك يرابط

بجيوشه أمام القسطنطينية منتظراً أن يبر (ليو الأزوري) بوعده ويرسل إليه الأموال، وكان الأسطول العربي قد دخل مضيق القسطنطينية ورابط في خليج البسفور، ولما لم يف (ليو الأزوري) بوعده صمم مسلمة على مداومة الحصار، وأمر رجاله بزرع الأراضي وادخار المؤن والذخائر، ولكن (ليو) تمكن من أن يدخل الغفلة والخديعة مرة أخرى على مسلمة قائد الجيش الإسلامي، فأوهمه أن الروم قد علموا أنه لن يحاربهم ما دام الطعام وفيراً، فلو أحرق الطعام فإنهم يظنون أنه سيبادر إلى الحرب فيقدمون إليه فروض الطاعة والولاء، فأمر مسلمة بإحراق المؤن والطعام دون أن يدرك نتيجة هذا العمل، فلما اشتد حصار المسلمين للمدينة من البحر وهاجمها أسطول المسلمين استدرج (ليو) سفن المسلمين حتى فتكت بها النار الإغريقية ولم يبق معهم من المؤمن والذخيرة ما يساعدهم على مهاجمة المدينة الحصينة.

- وأقبل الشتاء على الجيش وقد نفدت أقواته بعد أن أحرقت واضطر الجند إلى أكل الدواب، وأكلوا كل شيء إلا التراب، حتى جاءت الأخبار بوفاة سليمان بن عبد الملك وتولية عمر بن عبد العزيز خليفة مكانه، فعادت الحملة خائبة بعد أن أمرها الخليفة الجديد بالرجوع.

- وجاء في (الموسوعة الميسرة) في التاريخ الإسلامي أن عدد جيش مسلمة بن عبد الملك كان مائة وعشرين ألفاً، ومزوداً بنحو مائة وعشرين ألفاً آخرين في البحر، وثمانمائة سفينة حربية، وهذه الواقعة الأليمة إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى بلاهة وخيبة (مسلمة بن عبد الملك)، فقد خدعه ذلك النصراني الرومي (ليو الأزوري) مرتين، في المرة الأولى رفع الحصار عن (عمورية)، والمرة الثانية وهي الأفدح والأمر بأن جعله يحرق المؤن والطعام وينخدع ويأمن لعدو دينه ويترك جنده يأكلون الدواب وكل شيء إلا التراب، وكانت النتيجة الماحقة هي هزيمة الجيش وحرق الأسطول.

ـ وكان يمكن للجيش أن يباد عن آخره لولا أن تدارك الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز الموقف، وأمر الجيش بالرجوع، فأي قائد يحرق مؤن طعام جيشه ويعرضه للهلاك نتيجة لنصيحة عدوه، إن ذلك لم يحدث إطلاقًا في التاريخ، وكيف يأمن لعدوه الذي ذهب أساسًا لحربه وحرب دولته، ونحن لا نلوم عدوه (ليو الأزوري البيزنطي الرومي النصراني) لخيانته ولخداعه فالحرب خدعة، وقد وفق توفيقًا كبيرًا في هذه الخدعة لصالح دولته، فهو لم يخن دولته وإنما خان وخدع مسلمة بن عبد الملك، وواجب عليه خيانته وخداعه بقدر الإمكان، وإنما نلوم قائد جيشنا المسلم مسلمة بن عبد الملك لسذاجته الفادحة.

١٢ ـ خيانة يزيد بن المهلب

ورد ذكر هذه الخيانة في المرجع السابق وغيره، وهي تشبه إلى حد كبير خيانة ابن الأشعث التي تحدثنا عنها من قبل، وصاحب هذه الخيانة رجل من الذين تسببوا للدولة في خسائر لا حصر لها وفي قتلى تقدر بمئات الآلاف من المسلمين من الطرفين، كان أولى بها أن توجه للروم وأوروبا وغيرها من البلدان، ولكن كانت كالنار في الهشيم، فتسفك الدماء المسلمة بأيدي مسلمة، وهذا الرجل هو (يزيد بن المهلب)، وقد حدثت هذه الفتنة في سنة ١٠١هـ.

وكان هذا الرجل يزيد بن المهلب للأسف الشديد أحد الرجال العظام المخلصين في الدولة الأموية، فعزله الحجاج فجأة عن أعماله مع أنه كان يحبه، وبالتأكيد كانت هناك أسباب لعزله، ولكنها غير موضحة في كثير من الكتب، ثم أعاده الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك واليًا على العراق، ثم عُزل ثانية في أيام عمر بن عبد العزيز لقسوته، وسجنه عمر حتى يؤدي ما عليه من المال، وكان قد أخذ أموالاً كثيرة من بيت المال، وظل سجينًا حتى تمكن من الهرب في عهد يزيد بن عبد الملك، وبالطبع فهناك خائن أو أكثر مكنه من ذلك، فإن الهروب من سجن الدولة يعتبر خرقًا لقوانينها، خاصة إذا كان الذي سجنه حاكم في مثل عدل وتقوى عمر بن عبد العزيز.

وليته لما هرب من السجن لزم بيته وكف عن الخيانة، اكتفى بما ارتكبه من خيانة تمثلت في أخذه أموال الدولة ثم هروبه من السجن، بل ارتكب خيانة أفظع وأفدح، فذهب إلى العراق، وأخذ يؤلب ويثير العراقيين ضد الدولة الأموية، فبايعه أهل البصرة على السمع والطاعة، وأضافوا بذلك حدثًا خيانيًا جديدًا، فقد تعود هؤلاء القوم على عدم الطاعة إلا لمن يقسو عليهم ويأخذهم بالشدة والعنف مثل الحجاج الذي لا يعاملهم إلا بالسيف ويقتل المحسن بذنب المسيء.

وقد اعترض الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ على يزيد بن المهلب وعلى أهل البصرة، وأخذ ينادي في الناس يحرضهم على الكف وترك الدخول في الفتنة، وينهاهم أشد النهي عن ذلك، وذلك لما وقع من القتال الشديد أيام ابن الأشعث وما قتل بسبب خيانته من الآلاف المؤلفة من المسلمين، وجعل احسن البصري يخطب في الناس ويعظهم ويعظم لهم ذلك، ولكن أهل العراق كعادتهم يتحمسون مع مثير الفتنة والشغب، ثم سرعان ما ينفضوا عنه إذا رأوا قوة منافسيه وقوة الذين أثاروا الفتنة ضدهم.

فقد أرسلت دولة الخلافة مسلمة بن عبد الملك في جند عظيمة من الشام بلغت مائة وعشرين ألف مقاتل، وكان الأولى أن يرسلوا لمعاودة فتح القسطنطينية وتأديب الروم، ودارت رحى الحرب وصمد يزيد بن المهلب وتحقق له النصر في أول اللقاء، ولكن سرعان ما تحولت الدفة وتغير الموقف لصالح مسلمة بن عبد الملك وجند الشام، وفر أهل العراق سريعًا، وثبت يزيد بن المهلب في عصابة من أصحابه وجعل بعضهم يتسللون منه حتى بقي معه شرذمة قليلة وهو مع ذلك يسير قدمًا لا يمر بخيل إلا هزمهم، ولكنه قتل في النهاية على يد جند مسلمة بن عبد الملك، وكما هو متبع ومتعارف عليه في ذلك العصر، فقد حزت رأسه وقطعت وحملت إلى الخليفة بالشام[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي.

■ أما ما جاء عنها بإيجاز في كتاب (التاريخ الإسلامي العام) فكما يلي: «.. قامت في عهد يزيد بن عبد الملك فتنة جامحة قادها يزيد بن المهلب، وهو الذي ولاه سليمان بن عبد الملك على المشرق وافتتح طبرستان، فلما جاء عمر بن عبد العزيز طالبه بخمس الأموال التي جباها وهي حق الدولة، فعجز عن آدائها، فسجنه في جزيرة (دهلك) في البحر الأبيض المتوسط، ثم نقل إلى حلب وظل في السجن إلى أن مرض عمر مرض الموت، ففر من السجن معتزمًا الثورة.

وذهب إلى البصرة وأسر واليها ثم واصل السير إلى الكوفة، فانضم إليه خاصته كما انضم إليه الأزد، وبذلك عظم أمره واشتدت سطوته، فبعث إليه الخليفة يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في جيش عظيم، فالتقى الجيشان واقتتلا قتالاً شديدًا، وقتل يزيد بن المهلب في المعركة وتفرقت جموعه وفر إخوته إلى كرمان والسند، ولكن يزيد بن عبد الملك تعقبهم ونكل بهم[1].

ولم يأخذ هذا المغرور عبرة بمن سبقه من الخونة وأقربهم ابن الأشعث الذي مر ذكره، وهل كان يظن أن الدولة الأموية ستتركه وهي التي قتلت الحسين بن علي رضي الله عنهما وقتلت عبد الله بن الزبير وابن الأشعث وغيرهم حفاظًا على ملكها وعلى أن يظل الملك في بني أمية، ولم يأخذ عبرة بابن الأشعث، فعاد ووضع ثقته في أهل العراق وهم في ذلك الوقت معروفون بالخيانة والغدر وخذلان من يتجمعون تحت لوائه منذ أيام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونسي الجميع أنهم سيقفون بين يدي المولى - عَزَّ وجَلَّ - ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (النحل: ١١١).

فقد عمل هذا الخائن هو وسلفه ابن الأشعث على تفتيت قوى الدولة الإسلامية وعلى إضعافها وإشعال الحروب المستعرة بين قواتهم وبين أبنائها العرب والمسلمين، وتمزيق وحدتها بدلاً من أن توجه هذه القوى مجتمعة ضد الأعداء، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي العام، للدكتور علي إبراهيم حسن.

١٣ - خيانة الحارث بن سريح التميمي

زعم هذا الخائن أنه هو المهدي المنتظر الذي بعثه الله تعالى لتخليص المضطهدين والأخذ بنصرة المظلومين، وقد استغل الكراهية التي كان يضمرها الموالي للدولة الأموية، فجمع حوله عددًا كبيرًا منهم كما جمع عددًا كبيرًا من العرب الناقمين على الدولة، واستطاع أن يستولي على المدن الواقعة على شاطئ نهر سيحون، ولكن أسد ابن عبد الله القسري الذي تولى خرسان في عهد ولاية أخيه خالد على العراق استرد من الحارث بن سريح التميمي الخائن المذكور ما قد استولى عليه من المدن واضطره إلى الانسحاب إلى بلاد ما وراء النهر سنة ١١٨هـ.

وانضم الحارث بن سريح المذكور بعد ذلك إلى أسياده الأتراك ولكنه لم يفز بطائل؛ لأن نصر بن سيار ولي أمر خرسان سنة ١٢٠هـ، وكان من الولاة الأقوياء الموالين للعرش الأموي، فاستطاع أن يوطد دعائم حكم الأمويين في بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٣هـ، كما انضم أيضًا إلى قائمة الخونة السابقين، ولا داعي للكتابة عنه أكثر من ذلك سوى أنه كان مغمورًا في عالم الخيانة، وبانضمامه إلى أعداء وطنه الأتراك يعد خائنا للأمانة.

١٤ - خيانة زعيم الخوارج الضحاك بن قيس

رجل آخر من مدمني الخيانة في الدولة الأموية هو زعيم الخوارج الضحاك بن قيس، فقد كان يسعى إلى الخلافة ويطمع فيها، فسار إلى الموصل وظن أن الدولة الأموية ستشفق عليه وتعطف عليه، ونسي ما حدث لغيره ولم يأخذ عبرة منهم، وكأن الخيانة كانت سلوكا عند هؤلاء القوم، ونسوا أن الدولة الأموية ما زالت قوية، ولم يكن لها أن تترك الملك بسهولة.

فسار الخليفة الأموي مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بنفسه إلى هذا الخائن الخارجي الضحاك بن قيس وقضى عليه وقتله بعد موقعة عظيمة، قتل فيها الكثير من الطرفين، فمرحى للدولة الأموية التي استطاعت أن تقضي على هؤلاء الخونة جميعًا واحدًا بعد الآخر، واستطاعت أن تثبت ملكها وتحافظ عليه لمدة تسعين عامًا.

الباب الثالث

أحداث في عصر الدولة العباسية

لا نستطيع أن نبرز كل ما جاء من خيانات في الدولة العباسية، نظرًا لطول الفترة التاريخية لهذه الدولة، ولكن نقتصر فقط على أهم الخيانات التي لا مناص من ذكرها، فالمراجع التاريخية نجد فيها ما لا يعد ولا يحصى من خيانات يضيق المجال بذكرها، ومن خلال تعرضنا للخيانات في الدولة الأموية مررنا بكثير من الدماء التي سفكت والرءوس التي قطعت وأرسلت إلى أولي الأمر من الخلفاء الأمويين مهما كان أصحاب هذه الرءوس وعدم مبالاة الخلفاء بارتكاب أبشع المجازر والمذابح حتى ضد آل البيت النبوي كمذبحة كربلاء والحرة والاعتداء على الكعبة وضربها بالمنجنيق وغير ذلك، وذلك حفاظًا على ملكهم.

وقد فعل العباسيون نفس الشيء أيضًا للحفاظ على ملكهم وإن كانوا قد ادعوا في أول الأمر وفي بداية دعوتهم أنهم سيكونون الأولياء الصالحين الذين سيقومون بوقف الظلم ووقف سفك الدماء المسلمة والعربية، ولكن لما استتب لهم الأمر لم يبالوا بسفك أي دماء تعترض سبيلهم وتقف في سبيل ملكهم. والفرق بين الدولتين الأموية والعباسية أن الأولى كانت دولة عربية صميمة حافظت على مبادئ العروبة والإسلام واقتدت بالسنة النبوية المطهرة، ولم تخالف مبادئ الشرع أو الدين الحنيف، إلا في سفك الدماء حفاظًا على الملك الأموي، وامتازت بكثرة الفتوح الإسلامية في عهدها، وبلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وابتعدت بشكل واضح عن البدع الدينية.

أما الدولة العباسية فقد قامت على يد قادة غير عرب أبرزهم أبو مسلم الخرساني، وتغلغلت فيها العناصر غير العربية مثل الفرس، وأبرزهم البرامكة، ومثل الأتراك الذين جلبهم الخليفة العباسي المعتصم وجلب بهم شرًا مستطيرًا للدولة

الإسلامية، فأصبح الخليفة العباسي فيما بعد ألعوبة في يد الأتراك الذين ازدادت شوكتهم حتى صاروا هم الذين يقيمون الخليفة العباسي أو يخلعونه كيفما شاءوا.

▪ كماتشعبت وترعرعت في عهدهم كثير من الدول الانفصالية غير العربية مثل (بنو بويه، والسلاجقة والتركمان)، كما ظهر الطولونيون والأخشيديون والفاطميون وغيرهم. وانتشرت الكثير من الملل والنحل غير الإسلامية والبدع الخطيرة مثل بدعة خلق القرآن في عهد الخليفة المأمون والمعتصم والتنكيل بالأئمة الكرام من أهل السنة وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، فكانت هذه البدعة على رأس البدع التي ظهرت وأتبعها بدع كثيرة أخرى.

وما كان للخليفة المسلم المأمون بن هارون الرشيد هو وأخيه المعتصم من بعده أن ينبشا في هذه البدعة ويضيعا فيها وقت الدولة، فكان هناك أمور أخرى أهم وأعظم، فكان هناك الروم والديلم والتركمان والأتراك وغيرهم على حدود الدولة متربصين بها للانقضاض عليها، وطالما أن هذا الموضوع (خلق القرآن) لم يتعرض له الرسول ﷺ ولا الخلفاء الراشدون من بعده إذن فلم يكن هناك أي داع على الإطلاق لإثارة هذا الأمر وإيقاع الأذى والشر المستطير بعباد الله تعالى. ولو كان لنا أن نبحث فيه لم يكن الرسول ﷺ يتركه دون حديث صريح يوضحه، ومثل ذلك كمن يقول مثلاً: أيهما خلق أولاً: القمر أم الشمس؟!!

▪ كما انتشرت الجواري في الدولة العباسية حتى إن أمهات الكثير من الخلفاء العباسيين ومنهم المأمون أيضًا غير عربيات، كما انتشرت المعازف والقيان وأصبح المجتمع الإسلامي غير عربي بحت كما كان في عهد الدولة الأموية، كما كثر الجدل العقيم حتى في قصور الخلفاء أنفسهم وأبرزهم المأمون، وكثر تدخل النساء في شئون الدولة بشكل واضح، كما أن الفتوح الإسلامية في عهد هذه الدولة العباسية لم يكن لها أي ذكر، فلم تزد رقعة الدولة في عهدهم، كما ازدادت كثيراً في عهد

الدولة الأموية، بل انفصل من الدولة العباسية الأم كثير من البلدان، ولم يكن هناك سوى بعض الغزوات لردع الروم وتأديبهم واسترداد ما اقتطعوه من البلاد الإسلامية. فلعل هذه المقدمة توضح الفرق بين الدولتين: الأموية والعباسية، حتى يكون كلامنا عن الأحداث في عهد الدولة العباسية مسبوقًا بشيء من الإيضاح.

■ اهم الخيانات التي تعرضت لها الدولة العباسية :

أولاً - أول الخلفاء العباسيين أبي العباس عبد الله السفاح

لعل لقب السفاح يعطينا فكرة مقدمة عن ميل هذا الرجل لسفك الدماء واستعداده لسفك أي دماء مهما كانت، مادامت تقف في طريقه وفي طريق دولته الناشئة، وهو بذلك لا يختلف عمن سبقوه من خلفاء الأمويين، فقد سار على سياسة الثأر والانتقام من الأعداء في غير هوادة.

حيث عمل على القضاء نهائيًا على بني أمية، ووقعت تبعًا لذلك مذابح عديدة ذهب ضحيتها كثير من الأمويين . . واستعمل معهم المكر والخديعة، إذ أعلن صفحهُ وعفوهُ العام عنهم وأمنهم على حياتهم، فانخدع الأمويون وأظهروا أماكنهم التي هربوا فيها من بطشه، فانقض عليهم وقتلهم شر قتلة، واشتدت حوادث القتل والتشريد في مكة والمدينة والكوفة وفلسطين، وقام الشعراء ورجال البلاط بدور خياني آخر، فأغروا الخليفة باستعمال الشدة والقسوة وأن يكون منهجه العام عدم الثقة بالأمويين، حتى قيل إنه كان جالسًا يومًا في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام ابن عبد الملك، وقد أكرمه السفاح فدخل عليه (سويف) الشاعر وقال:

لا يغرنك ما ترى من رجال ■★■ إن تحت الضلوع داءً دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى ■★■ لا ترى فوق ظهرها امويا

فأمر أبو العباس السفاح بقتل سليمان بن هشام بن عبد الملك الأموي الذي كان ضيفه منذ قليل وفي بيته وحماه، ودخل شاعر آخر على أبي العباس السفاح وكان عنده نحو السبعين رجلاً من بني أمية وقد قدم لهم الطعام، ومعنى تقديم الطعام هو إعطاء الأمان للضيف، فأنشد هذا الشاعر بيتين يحرض أبا العباس السفاح عليهم، فأمر بضربهم بالسياط، وتتبع البقية الباقية من الأمويين وأنصارهم ولم يُبق على أحد منهم.

■ *خيانات عبد الله السفاح:*

١ ـ *قيامه بنبش قبور الأموات من بني أمية:*

فقد عمد إلى الأموات منهم وأمر بالتمثيل بجثثهم وإحراقهم، فنبش قبر معاوية ابن أبي سفيان وقبر ابْنه يزيد وقبر عبد الملك بن مروان الذي تسلم خلافة الدولة وهي قشة في مهب الريح فاستطاع بعبقريته وسياسته الحكيمة وحزمه من التمكن من الحفاظ عليها من الانهيار والضياع، كما ضربت جثة هشام بن عبد الملك بالسياط وذُرِّي في الهواء بعد حرقه، فهل لو كان جده الأكبر العباس بن عبد المطلب ﷺ الذي ينتمي إليه وعم النبي ﷺ، هل لو كان على قيد الحياة كان يفعل ذلك؟!

٢ ـ *عدم احترام العهود والمواثيق و(قتل ابن هبيرة):*

لم يكتف السفاح بالقضاء على أعدائه الأمويين، والذين لم يستعمل معهم العفو عند المقدرة؛ لأنهم مهما كانوا فإنهم مسلمون، بل إنه لم يراع فضل الذين ساعدوه في إقامة الدولة العباسية فغدر بهم ولم يحترم العهود والمواثيق التي كان يعطيها لأعدائه ولأنصاره على السواء، فقضى معظم عهده في محاربة قواد العرب الذين ناصروا بني أمية، ووقف لهم بالمرصاد وعلى رأسهم ابن هبيرة قائد جيوش مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين.

فكان مقيمًا في بلدة واسط بالعراق، وأرسل إليه أبو سلمة الخلال وزير السفاح الجيوش لمحاربته ومحاصرته في تلك البلدة، وطال أمد الحصار فأرسل السفاح أخاه

أبا جعفر الذي تولى الخلافة فيما بعد باسم المنصور، فحاصر ابن هبيرة أحد عشر شهرًا، وحين علم ابن هبيرة بمقتل الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد رأى أن يفاوض أبا جعفر أخا السفاح في الصلح على أساس أن يُسلِّم حَقْنًا للدماء ويُعطى له الأمان على حياته.

وانتهى الأمر بأن أعطاه السفاح الأمان، وتسلم ابن هبيرة كتابًا بذلك يحمل إمضاء الخليفة السفاح، ولكن لم تمض على ذلك بضعة أيام بعد أن سلَّم ابن هبيرة الكتاب حتى قُتل، قتل ابن هبيرة الذي أُعطي الأمان من الخليفة السفاح نفسه، وكانت هذه واحدة من حوادث الغدر في الدولة العباسية، وتتابعت أمثال هذه الحوادث حتى أصبحت أمرًا مألوفًا.

٣ - الغدر بالأنصار وقتل وزيره أبي سلمة الخلال:

قام السفاح بقتل وزيره أبي سلمة الخلال الذي كان من أهم العوامل التي ساعدت في تأسيس الدولة العباسية، وكان أبو سلمةمن أهم أثرياء الكوفة، واشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية، على أنه لما خبر أحوال بني العباس عزم على العدول عنهم إلى أولاد الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، ولما بويع السفاح استوزر أبا سلمة على كره منه لمكانته من الفرس وهم عصب الدولة ومصدر قوتها، ولقبه بلقب (وزير آل محمد)، إلا أن هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح، وكان يضمر قتله، ولكنه خاف على نفسه إن هو قتله أن يقوم أهل خراسان من الفرس بالثأر له، فعمل على أن يتم هذا الأمر على يد أبي مسلم الخراساني، فكتب له مع أخيه أبي جعفر كتابًا يخبره فيه أن أبا سلمة الخلال يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين، وعهد له بمعاقبته، وأسلوب الكتاب ينم عن رغبته في قتله، فأرسل إليه أبو مسلم رجالاً من أهل خرسان فقتلوه، وتخلص منه السفاح وأبو مسلم الذي كان يكرهه ويحقد عليه.

■ تعتبر هذه خيانة مزدوجة من السفاح وأبي مسلم، فهذا أَمَرَ وذاك نَفَّذ، وبذلك هيأ أبو مسلم سبيل قتله بنفسه، فقد عمل السفاح على التخلص من أبي مسلم، كذلك إذ كان شجي وشوكة في حلق دولته، إلا أنه مات قبل أن يحقق ما اعتزمه من قتل أبي مسلم، ووضع السفاح بذلك قاعدة الغدر بالأنصار وعدم احترام العهود والمواثيق، فسار على هذه القاعدة من جاء بعده من الخلفاء العباسيين، وقامت نتيجة لذلك ولكثرة سفك الدماء ثورات كثيرة ضد العباسيين في مختلف أرجاء الدولة يضيق المجال عن ذكرها.

■ ونحن لا نقول: إن معظم خلفاء بني أمية كانوا أتقياء عدول، فهم أيضًا قد أسرفوا في سفك الدماء وارتكاب المذابح ضد المسلمين حفاظًا على ملكهم ودولتهم. ولكن العجيب أن العباسيين قاموا ضد بني أمية بحجة كثرة سفك الدماء المسلمة، فلما نجحت دولتهم وتم لهم الأمر، كان أول شيء فعلوه هو كثرة سفك الدماء المسلمة أيضًا مثل بني أمية، حفاظًا منهم على ملكهم. وكتب التاريخ توضح أن الفريقين الأمويين والعباسيين قد اضطهدوا أبناء وأحفاد علي بن أبي طالب ﷺ، والمعروفين بالعلويين أشد الاضطهاد.

■ كلمة أخيرة عن السفاح: إنه بدولته تفرقت الجماعة، وخرج عن الطاعة ما بين تاهرت وطبنه إلى بلاد السودان وجميع مملكة الأندلس، وخرج من هذه البلاد من تغلب عليها. وقال المؤرخون: في دولة بني العباس افترقت كلمة الإسلام وسقط اسم العرب من الديوان، وأدخل الأتراك في الديوان، واستولت الديلم ثم الأتراك وصارت لهم دولة عظيمة وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر، وكان السفاح سريعًا إلى سفك الدماء، فأتبعه في ذلك عماله بالمشرق والمغرب، وكان مع ذلك جوادًا بالمال[1].

(١) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٣١٤، والكامل لابن الأثير ٤٠٨/٥.

ثانيًا - عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور

غدر المنصور بكثير من كبار أنصاره وبعض أقربائه في سبيل الاحتفاظ بملكه[(١)]، وصار ذلك من سمات العباسيين الواضحة في طوال مدة حكمهم للعالم الإسلامي، ومن أبرز الأحداث الخيانية التي تمت بأمره ما يلي:

١ - قتله لعمه عبد الله بن علي:

عبد الله بن علي هو الذي لعب الدور الأكبر في قيام الدولة العباسية، فهو الذي قضى على قوات الأمويين بقيادة مروان بن محمد آخر خلفائهم في موقعة الزاب الأكبر، وقتل منهم الآلاف المؤلفة، وتتبع الأمويين بالقتل والتشريد وقضى على الفتن الكبرى التي قامت في الشام ضد حكم السفاح، وكان السفاح قد وعده بأن الخلافة من بعده سوف تؤول إليه، أي أنه سوف يكون الخليفة الثاني بعد السفاح.

وكان المنصور يعلم بهذا الوعد، ومن ثم فقد أحس الخطر من ناحية عمه عبد الله ابن علي هذا منذ بلغه نبأ وفاة السفاح، ومن الغريب والذي لا يستطيع أحد فهمه هو أن السفاح قد أوصى بالخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر ومن بعده لعيسى بن موسى أحد رجال العباسيين البارزين، وذلك رغم وعده السابق لعمه عبد الله بن علي بالخلافة من بعده. ولما آلت الخلافة لأبي جعفر المنصور دون عمه خاف من عمه، وأراد أن يأمن شره ويتقي خطره، فهو يعلم أن مثل عمه لم يكن ليستكين لهذه الخيانة، فهو الذي تحمل العبء الأكبر والنصيب الأوفر في قيام الدولة العباسية.

■ إذن، ماذا يفعل أبو جعفر المنصور؟ فلابد من اتباع طريق المكيدة والغدر والخيانة، فأوعز إلى أبي مسلم الخرساني بقتله، فوعده أبو مسلم الخراساني بتدبير قتله أسوة

---

(١) تولى المنصور الخلافة في أول سنة سبع وثلاثين ومائة. انظر: تاريخ الطبري ٧/ ٤٨٦ - ٤٩٠، والكامل لابن الأثير ٥/ ٤٧٤، وتاريخ الإسلام ٩/ ٣٥٦ - ٣٥٨، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٦٥ - ٦٧.

بالخليفة السفاح حين أمره بقتل وزيره أبي سلمة الخلال ـ كما سبق ـ، وكان أبو مسلم الخراساني يعمل على تصفية رجال وأركان الدولة العباسية واحدًا تلو الآخر حتى يستطيع الانقضاض على الدولة الإسلامية العباسية وينتزع منها زمام الحكم ويعيدها فارسية مجوسية لا عربية ولا إسلامية، وهو الآن أمام الرجل الذي لعب الدور الأكبر في قيام الدولة العباسية، فتلقف الأمر على أحر من الجمر من أبي جعفر المنصور وسارع بجيشه إلى عبد الله بن علي ووقعت الواقعة بين الطرفين، فدارت الدائرة على عبد الله بن علي، ففر إلى أخيه سليمان بالبصرة واختبأ عنده إلى أن تم قتله، وهو الرجل الذي أبلى أحسن البلاء في قيام الدولة العباسية.

٢ ـ قتله لأبي مسلم الخراساني:

شرب أبو مسلم الخراساني من نفس الكأس التي شرب منها عبد الله بن علي، فمن أعان ظالمًا سلطه الله تعالى عليه، فقد آن الأوان لأن يقف الذئب الفارسي وجهًا لوجه أمام الذئب العربي، وكان لابد لأحدهما من افتراس الآخر والقضاء عليه ليصبح الأسد الوحيد بعد أن كان بالأمس ذئبًا يناوشه ذئب آخر. فمرحي للذئب العربي الذي استطاع أن يقتنص ذلك الفارسي ويمزق جسده إربًا إربًا، ويصبح السيد الوحيد للدولة.

فكان (أبو مسلم الخراساني) له فضل كبير وباع عريض في نشر الدعوة العباسية وقيامها ونجاحها وجلب الأنصار لها من كل وجه، وكان بذلك يريد أن يتخذ العباسيين سلمًا ليصعد عليه إلى حكم دولة فارسية تقوم على أنقاض الدولة العربية العباسية. وظل قابعًا في مكمنه طوال حكم السفاح؛ لأنه يعلم جيدًا أنه أمام سفاح وأي سفاح!!

ولما انتقل الأمر لأبي جعفر المنصور الذي كان يلاحظ مسبقًا عظم نفوذ أبي مسلم واستبداده بالأمر وقتله الناس لمجرد الشك، وأصبح باختصار (حَجَّاج الدولة

العباسيـة)، ولما استأذن أبو مسلم الخليفة السفـاح في الذهاب إلى الحج ندب السفاح أخاه المنصـور لرياسة الحج حتى لا يظهر أبو مـسلم وحده بمظاهر الفخامـة والأبهة، فاغتاظ أبو مـسلم لذلك وانتقم لنفسه أثناء العودة من الحج بأن تقدم المنصـور وسبقه أثناء السير بمسافة، وهذا يتنافى مع التقاليد المتبعة.

وزاد الطين بلَّة أن أبا مسلم بعـد انتصاره على عـبد الله بن علي وقد عاد ومـعه غنائم أرسل المنصور من قـبله رسولاً ليحصي الـغنائم ويسجلها، فغـضب أبو مسلم وقال: كيف أوتمن على الأرواح ولا أؤتمن على الأموال!!

■ لذلك، رأى أبو مـسلم ألا يقصـد إلى الأنبـار مقـر الخلافـة، بل قصـد إلى خراسان، فمنعه المنصور من الوصول إليها بأن عين عليها الوالي الذي خلفه أبو مسلم أثناء غيابه عن خـراسان، ثم عزل أبا مسلم عن تلك الولاية لـرحيله إلى المشرق دون استئذانه، وعـينه على مصر والشام بدلاً منها، فـرفض أبو مسلم وصمم على الرفض على الرغم من نصح المنصـور له، وسار أبو مسلم في طريقـه حتى صار على مـقربة من خراسان.

وبالطبع فـقد رفض التـخلي عن خـراسان لأنهـا بلده وبهـا رجاله وقـواته التي يستطيع الانقـضاض بها على الدولة عندما يأتـي الوقت المناسب، وإلا فكيف يفضل خراسان عـلى الشام ومصر التي كـان الجميع يتمنون ولايتـها لكثرة خيـراتها وطيب أرضها وجوها . . ولكن لسوء حظه ولقـرب أجله، رأى أن يرجع ليزيل سوء التفاهم بينه وبين المنصور حتى يستتب له الأمر إلى حين، على أنه حين عاد من خراسان كان المنصور قد صمم على قتله وتمكن منه بالفعل.

■ وتفصيل ذلك: أن أبا مـسلم سار إلى المنصور، فلقيه في المدائن عـاصمة بلاد الفرس، فلما علم المنصور بـوصوله أمر الناس جميعًا بتلقـيه والترحاب به، ولما دخل على الخليـفة المنصـور قبل يده، فأدنـاه المنصور منه وأكـرمه، ثم أمره بأن يـعود إلى

خيمته ويحضر في الغد، ولما أصبح الصباح أرسل المنصور إليه يستدعيه، وقد أعد المنصور جماعة من رجاله خلف الستور بأيديهم السلاح، وأوصاهم أنه إذا ضرب إحدى يديه على الأخرى يخرجون فيقتلون أبا مسلم فلما دخل عليه أبو مسلم شرع في تقريعه وتوبيخه على ما اقترفه من ذنوب، وأبو مسلم ينتحل الأعذار، فذكر له أمورًا، فقال أبو مسلم: يا أمير المؤمنين، مثلي لا يقال له هذا الكلام ولا تعد عليه هذه الذنوب، فاغتاظ المنصور وقال: أنت فعلت، وهل نلت ما نلت إلا بنا وبدولتنا؟ فقال أبو مسلم: دع هذا، فقد أصبحت لا أخشى إلا الله، فضرب المنصور بيده على الأخرى، فخرج الرجال من خلف الستار وضربوه بالسيوف، وصاح أبو مسلم: يا أمير المؤمنين، أبقني لأعدائك، فقال المنصور وأي عدو لي أعدى منك؟ ثم أمر به فلف في بساط.

ودخل عيسى بن موسى المرشح للخلافة من بعده وقال: أين أبو مسلم يا أمير المؤمنين؟ فقال: في ذلك البساط، فقال: قتلته؟ قال نعم، فقال: بعد بلائه وأمانه؟! وكان المنصور قد أمنه أي أعطاه الأمان، وأشهد عيسى بن موسى على ذلك. فقال المنصور: خلع الله قلبك، والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه، وهل كان لكم ملك في حياته؟ ثم أمر المنصور بمال للجند من أتباعه فانصرفوا وتفرقوا، فالمال عندهم له مكانة عالية[1].

٣ ـ ضربة للإمام أبي حنيفة وسجنه:

جاء في (تاريخ الخلفاء) للسيوطي: أن الخليفة أبا جعفر المنصور ضرب الإمام أبا حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ على القضاء، ثم سجنه فمات بعد أيام. وقيل: إنه قتل بالسم لأنه أفتى بالخروج عليه[2].

---

(١) انظر: تفصيل ذلك في تاريخ الطبري ٧/ ٤٨٦ ـ ٤٩

(٢) انظر: تاريخ الخلفاء ٣١٧.

٤ ـ خيانات أخرى ظهرت في عهد المنصور:

أهمها النحل الدينية التي ظهرت وكشرت عن أنيابها في وجه العقيدة الإسلامية في عمليات خيانية حاقدة على الإسلام والمسلمين، فلم يرد الفرس أن يكفوا عن الكيد للدين الإسلامي الحنيف وللعقيدة الإسلامية السمحة، وظل الشيطان يسول لهم أنهم مازالوا يستطيعون القضاء على الإسلام والمسلمين بالخداع والخيانة والمكر، حتى تكون لهم القوة الكافية فينقضوا عليهم ويعيدوها فارسية مجوسية كما كانت قبل الإسلام، ومن أشهر هذه النحل الحاقدة التي ظهرت في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ما يلي:

■ **الراوندية:** وهي من أشهر المعتقدات المستمدة من الأفكار الفلسفية القديمة التي نشرها الفرس[1]، ودعوا إليها على أثر مقتل أبي مسلم الخراساني، وكان من أشهر دعاتهم (سنباذ) و(إسحاق) و(أستاذ سيس)، وقد بدأ ظهور حركة الروائدية أو الراوندية في قرية راوند قرب أصفهان، وقلدوا الفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويعتبرونهم آلهة، وكانوا يقولون إن الروح التي كانت في عيسى ابن مريم قد حلت في علي بن أبي طالب ثم في الأئمة حتى وصلت إلى إبراهيم بن محمد سبط العباس عم الرسول ﷺ.

وكانوا يعتقدون في تأليههم ويستحلون ما حرم الله تعالى، وما لبثوا أن عبدوا الخليفة المنصور، وصعدوا إلى القبة الخضراء التي بناها المنصور ببغداد فألفوا أنفسهم كأنهم يطيرون، وخرج جماعتهم على الناس بالسلام فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر المنصور: أنت أنت، أي أنت الله، إلا أن المنصور عد ذلك خروجًا على الدين

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء صـ ٣١٦.

وحاربهم بنفسه وحاول القضاء عليهم على الرغم من تأليههم له وحبس عدداً كبيراً منهم، ولكنهم تمكنوا من اقتحام السجون وإخراج من فيها وحاولوا قتل أبي جعفر بعد ذلك، إلا أنه نجا من الموت. وقيل: إنه فر على دابة.

وهم يعدون أنفسهم من أتباع أبي مسلم الخراساني، وحاربهم العباسيون في عهد المنصور وفي عهد من جاء بعده من الخلفاء، وخاصة بعد أن أخذت الرواندية تتشكل في أشكال مختلفة كالمقنعية والخرمية .. وظهرت كذلك على أثر مقتل أبي مسلم عدة نحل دينية كان الدعاة لها كما سبق هم:

(أ) سنباد: وهو رجل مجوسي ظهر في مدينة نيسابور، ودارت الحرب بينه وبين المنصور نحو سبعين يومًا.

(ب) إسحاق: وعرف باسم إسحاق التركي، مع أنه ليس من تركيا، وقد أعلن أن أبا مسلم متغيب في بلدة قريبة من مدينة الري قرب طهران، وأنه سيظهر يومًا ما ويعيد ديانة زرادشت.

(جـ) استاذ سيس: وقد بنى حركته على أساس المزدكية، وهي ديانة فارسية نادى بها مزدك الذي ظهر في مدينة نيسابور في فارس في أواخر القرن الخامس الميلادي.

وقد أعلن الثلاثة (سنباد وإسحاق وأستاذ سيس) على التوالي أن أبا مسلم الخراساني لم يقتل؛ لأنه حين أراد المنصور قتله ردد الاسم الأعظم وتحول إلى حمامة وطار، وأعلن أنه سيعود ثانية. وقد ادعى هذا الحاقد (أستاذ سيس) النبوة وقطع أصحابه الطرق وارتكبوا كثيراً من الآثام، ولكن كان مصيره الاندحار، وقُتل كثير من أصحابه وأتباعه وانتهت حركته بالفشل، كما انتهت حركة سنباد وإسحاق التركي وتم القضاء على الراوندية الخائنة.

٥ - تآمر المنصور مع الفرنجة للقضاء على عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) في الأندلس:

عبد الرحمن الداخل هذا هو الأموي الوحيد الذي هرب من العباسيين أثناء فتكهم بالأمويين والقضاء عليهم، وذهب إلى الأندلس بعد كفاح طويل ومجيد وشاق، واستطاع أن يُكوِّن دولة أموية بالأندلس واستقل بها عن الدولة العباسية[1]، ولكن ذلك لم يعجب الخليفة العباسي المنصور لم يستكن لذلك فواصل خيانته باتحاده مع عدو العرب والمسلمين اللدود شارلمان للقضاء على عدوهما المشترك عبد الرحمن الداخل الأموى وتزعم هذه المؤامرة الخيانية إلى جانب المنصور خائن آخر هو سليمان ابن الأعرابي صاحب برشلونة، وخائن ثالث هو ابن حبيب الفهري، ورتبت الخطة على أن يذهب ابن حبيب إلى إفريقيا ويجمع جيشًا من البربر - ويركب بهم البحر وينزل في الجهة الشرقية من الأندلس، وفي نفس الوقت يهاجم شارلمان بلاد الأندلس من الجهة الشمالية الشرقية ويعاونه في ذلك سليمان بن الأعرابي، ثم يلتقي ابن حبيب وابن الأعرابي وشارلمان، وينادي بأبي جعفر المنصور حاكما، فيا لها من خطة شيطانية محكمة، وضد من؟ ضد عرب ومسلمين، وبأيدي من؟ بأيدي بعض الخونة الذين تحالفوا مع عدو المسلمين الأول الحاقد شارلمان، فكيف ينحدر خليفة عباسي عربي مسلم من نسل العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ إلى هذا المنزلق الخطير ويتحالف مع العدو الأول للعرب والمسلمين ضد أناس هم مسلمون مهما بلغ الأمر؟!!

ولكن: كتب لهذه الخطة الغادرة الفشل فابن حبيب تعجل ونزل شاطئ الأندلس قبل وصول شارلمان، كما أن جيش ابن الأعرابي لم يساعد شارلمان حين عبر الحدود

---

(١) وكان ذلك في سنة ثمان وثلاثين ومائة، انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٣١٦.

وحاصر بلدة سرا قسطا المسلمة، ولما بلغ مسامع شارلمان أنباء ثورة السكسونيين ضده رحل عن الأندلس ليقضي على تلك الثورة في بلاده وتمكن صقر قريس عبد الرحمن الداخل من القضاء على الخونة الذين اشتركوا في هذه المؤامرة الغادرة وعاقبهم ونكل بهم وثبت سلطانه في الأندلس، وأثبت أنه فعلاً صقر قريش ولم يستكن المنصور للأمر واستمر في خيانته وتآمره: فرغب إلى ملك من ملوك الفرنجة يسمى (ببن)، أن يعاونه على صقر قريش عبد الرحمن الداخل، فأرسل السفراء العباسيين إلى (ببن) فأقاموا عنده عدة سنين عادوا بعدها إلى بغداد بخفي حنين حيث إنهم عادوا خائبين، ولم تؤد مفاوضتهم مع «ببن» إلى أي نتيجة ما لأنه كان يخشى من بطش صقر قريش[1]. ولكن حتى لا نظلم المنصور نقول إنه ترك الدولة ثابتة ومستقرة ووطيدة الأركان بعد أن قضى على أعدائها[2].

ثالثاً ـ عهد الخليفة العباسي المهدي بن المنصور[3]

١ ـ *الحركة الخيانية الأولى في عهد المهدي:* هي الحركة (المقنعية) بزعامة (المقنع الخراساني)، فقد قاد هذه الحركة رجل مولود في خراسان موطن النحل والتقاليد الفارسية، وكان أعورا دميم الخلقة، وكان ملثما حتى لا يرى الناس وجهه الدميم فسمي (المقنع)، ونادى بأن الله تعالى خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح وهكذا حتى أبي مسلم الخراساني ثم تحول إلى المقنع نفسه وكان اسمه هاشم، أي أن الله تعالى قد حل فيه بعد أبي مسلم الخراساني، وبايعه خلق كثير كانوا يسجدون له، وكان يعتقد أن أبا مسلم الخراساني أفضل من النبي ﷺ، ولم يطل أمد هذه الحركة الخيانية وانتهت بقتله سنة ١٦١هـ.

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي، د. علي إبراهيم حسن .

(٢) انظر: تاريخ الخلفاء ص٣١٤ وما بعدها.

(٣) تولى المهدي الخلافة العباسية سنة ١٥٩هـ بعد وفاة أبيه المنصور، انظر: ترجمته في تاريخ الخلفاء ص٣٢٨ وما بعدها.

٢ - *الحركة الخيانية الثانية:* هي (الزندقة) وهي كلمة تطلق على الملحد أي الزنديق، ومبادئ هؤلاء الزنادقة على جانب كبير من الخطورة إذ أنهم كانوا ينادون بالإباحية المطلقة والفوضى والتحلل من جميع الروابط الاجتماعية، وعلى الرغم من أن الخلفاء تسامحوا مع كل الفرق النصرانية واليهودية وغيرها، فإن الزنادقة لم يلقوا شيئا من التساهل أو العطف من جانب الخلفاء حيث أوجد المهدي هيئة جعل اختصاصها مقصورا على البحث عن الزنادقة وأمرهم بالتنكيل بهم وجعل عليها رئيسا أطلق عليه اسم صاحب الزنادقة، وتتبعتهم هذه الهيئة فقتل منهم في عهد المهدي عدد كبير وارتكب في سبيل ذلك كثير من أعمال العسف والظلم لأن هذه الهيئة كانت تعاقب على الظن وتعذب وتحرق كل من يتطرق إليه الشك بأنه من الزنادقة، حتى قضت عليهم، أما من فر منهم فقد تتبعهم الخليفة الهادي بن الخليفة المهدي عملا بوصية أبيه بقتلهم فجد في أمرهم وقتل منهم خلقا كثيرا.

٣ - *خيانة الروم:* ساءت العلاقات بين الخليفة المهدي العباسي وبين الروم (البيزنطيين) فلم تتوقف الحروب البرية والبحرية بينهم، ومنذ سنة ١٥٩هـ توالت حملات المهدي على البيزنطيين فأرسل قواده إليهم لغزو بلادهم ولكن حملاتهم باءت بالفشل مما شجع الروم على الإغارة على حدود الدولة العباسية في سنتي ١٦٢هـ و ١٦٣هـ وفي عملية بيزنطية حاقدة استولوا على مدينة مرعش العربية وأحرقوها، بينما لم يحرق المسلمون طوال حياتهم أي مدينة لأعدائهم استولوا عليها، فخرج إليهم المهدي بنفسه كما خرج ابنه هارون الرشيد على رأس جيش كبير إلى بلاد الروم فاستولى على حمص ثم عاد إلى حلب التي اتخذها أبوه المهدي قاعدة لأعماله الحربية، فسر أبوه بعودته وبما أظهره من همة وإقدام في مناجزة الروم، وكان الرشيد قد عقد معهم صلحا يدفع الروم بموجبه غرامة حربية ويطلقوا سراح الأسرى.

ولكن الروم في عملية خيـانية نقضوا شروط الصلح فعاد هارون الرشـيد لقتالهم كما جمع المهـدي جيشا بلغ مائة ألف جندي جعل رأسـه ابنه هارون الرشيد، فوصل هذا الجيـش إلى سواحل البـسفور وأرغـم الملكة (إيريني) أرملة (ليو الرابع) وكـانت وصيـة على ابنها قـسطنطين السابع على أن تدفع للـمسلمين تسعين ألـف دينار جزية سنوية وأن تسلم أسرى المسلمين وانتهت هذه الغزوة بعـقد هدنة بين الروم والعباسيين لمدة ثلاث سنوات.

رابعًا ـ عهد الخليفة الهادي بن المهدي

لم تظهر خيانات تذكـر في عهد هذا الخليفة[1] لأن عهده كان قصـيرا فكان عامًا واحدا، وأهم ما يذكر في عهده هو خيانة بقـايا الزنادقة الذين تتبعهم وأفناهم بوصية أبيه المهدي كما سبق أما الخيانة الثانية فإنها تتمثل في مقتله، فقيل إن أمه الخيزران هي التي دبرت قتله حيث كانت تتدخل كثيرًا في شـئون الدولة فمنعها من ذلك وأغضبها وأثار سخطها. فلما مرض دست إليه بعض الجـواري لقتله بالجلوس على وجهه حتى مات وذلك كما تـردد على صفحات التاريخ، وحتى لا نظلم أحـدًا فنقل ما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن سبب موت الخليفة الهادي جاء فيه: «مات في ربيع الآخر سنة سبـعين ومائة، واختلف في سـبب موته فقيل: إنـه دفع نديمًا له من جرف على أصول قصب قد قطع «أي على جذور نبات القصب أو البوص» فتعلق النديم به فوقعا معًا من أعلا الجرف إلى هذه الجذور فدخلت قصبة فى منخره فماتا معًا، وقيل أصابته قرحة فى جوفه، وقيل سمتـه أمه الخيزران أي دست له السم لما عزم على قتل الرشيد أخيـه ليعهد إلى ولده بالخـلافة من بعده، وقيل كـانت أمه حاكمـة مستبـدة بالأمور الكبار، وكانت المواكب تغدوا إلى بابها فزجرهم عن ذلك وكلمها بكلام وقح وقال :

---

(١) تولى الهادي الخلافة بعـد وفاة أبيه المهدي سنة تسع وستين ومائة، ومـات سنة سبعين ومائة، انظر: تاريخ الخلفاء ص٢٣٧.

لئن وقف ببابك أمير لأضربن عنقه، أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو سبحة؟! فقالت ما تعقل من الغضب، فقيل إنه بعث إليها بطعام مسموم فأطعمت منه كلبًا فانتثر أى مات، فعملت على قتله لما وعك بأن غموا وجهه ببساط جلسوا على جوانبه حتى مات[1].

خامسًا ـ عهد هارون الرشيد

يعتبر هارون الرشيد أشهر خلفاء العباسيين وقد أصبغ عصره بالصبغة الفارسية وساعد على ذلك أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس، وقد قام العرب بعدة ثورات ضد الدولة العباسية لأنهم احسوا بأنهم مهملون وأن الإدارة العباسية بيد الفرس، ومن هذه الثورات ثورة عرب الحوف بمصر وسكان الجهة الشرقية من الدلتا، ولكن والي الرشيد في مصر قضي عليها، ومن هذه الثورات أيضًا ثورة عرب الموصل في الجزيرة ومنعهم الخراج واستمرت فتنتهم أو بمعني أصح خيانتهم، استمرت وقتًا طويلاً حتى خرج الرشيد إليهم بنفسه ونكل بهم وبمدينتهم، أما أهم العمليات الخيانية في عهد الرشيد فهي:

أ ـ *خيانة الخوارج:* ظهر أحد مدمني الخيانة من الخوارج المسمي الوليد بن طريف، وتبعه عدد كبير يبلغ ثلاثين ألفا، ورمي الوليد بن طريف الخليفة هارون الرشيد بالجور والظلم، وتصور نفسه كأنه لو كان هو الخليفة لكان أعدل من عمر بن الخطاب ﷺ فأرسل هارون الرشيد إليه قائده يزيد الشيباني، ولكن شوكة الوليد بن طريف اشتدت وكثر أتباعه من الخونة وانتصر أكثر من مرة على جند هارون الرشيد، وقتل والي نصيبين وأذربيجان وعاث فيها فسادًا، ولكن يزيد الشيباني قائد هارون الرشيد قتله بعد أن هزمه.

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ص٣٣٧.

٢ ـ *خيانة البرامكة:* البرامكة أسرة فارسية تنتسب إلى رجل فارسي يدعى (برمك) وكان عالمًا بالطب والتنجيم، قدم إلى دمشق في عهد الدولة الأموية، ويعد خالد بن برمك ممن شاركوا في بناء الدولة العباسية فعينه السفاح وزيرًا ثم ولاه المنصور على طبرستان ثم الموصل. وظهر من بعده يحيى بن برمك الذي تولى في زمن المهدي ابنه هارون الرشيد ثم تولى الوزارة في عهد الرشيد واستعان في تصريف شئون الدولة بأبنائه الأربعة: الفضل وجعفر ومحمد وموسى. ثم دفع هارون الرشيد خاتم الخلافة ليحيى بن برمك وسلمه خاتمه الخاص حتى يمكنه من تصريف الأمور كما يشاء بختم الخليفة وخاتم الخلافة حتى صار بيده ويد أولاده الحل والعقد في كل شئون الدولة فانصرف الناس إليهم ونظموا القصائد الرائعة في مدحهم والتغني بكرمهم والإشادة بجودهم، وقد أغدقوا على الناس وخاصة الشعراء إغداقًا كبيرًا ليزدادوا في مدحهم وتحبيبهم إلى الناس، وقد سيطروا بشدة على شئون الدولة وعلى قلوب الناس وكونوا لهم شعبية كبيرة تضم معظم أفراد الدولة وبالغوا في السخاء والكرم للناس، ولكن من أين هذا السخاء والجود ؟، هل من أموالهم الخاصة؟، لا بل كان من أموال الدولة، فرأوا أنهم لا قبل لهم بالسيطرة على الدولة بواسطة القوة، وقد أخذوا درسًا قاسيًا من مقتل أبي مسلم الخراساني فاختاروا طريق المكر والخداع والاستحواذ على قلوب الشعب بواسطة مال الدولة حتى تأتي الفرصة المناسبة للانقضاض الفارسي بقيادتهم.

ولكن: هارون الرشيد حفيد السفاح والمنصور لم يكن غافلاً عما يدور حوله فنظر لأمر هؤلاء القوم من الفرس بعين فاحصة واعية، ففي عهد جعفر بن يحيي قبض البرامكة على أمور الحكم وصار بيدهم الحل والعقد حتى كان هارون الرشيد يطلب البسيط من المال فلا يصل إليه إلا عن طريق البرامكة فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه بينما تغدق الأموال بغير حساب وتقدم الهدايا الفاخرة لباقي أفراد الدولة وخاصة الشعراء لكسب المزيد من الحب والشعبية من أفراد الدولة بصورة مزعجة،

فعظمت آثارهم وازداد مديحهم بينما لم يمدح هارون الرشيد بشيء ولا بقصيدة واحدة ذراً للرماد في العيون، وعمَّر البرامكة مراتب الدولة وأركانها بالرؤساء من أبنائهم وصنائعهم واحتازوها لأنفسهم عمن سواهم من وزارة وقيادة وكتابة وغيرها وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وتخطت إليهم من أقصى التُّخوم هدايا الملوك وأفاضوا على رجال الشيعة العطاء، وسيطرت الأسرة البرمكية على الدولة العباسية سياسيًا واقتصاديًا وإداريًا وأدبيًا وأصبحت مقصد العلماء والشعراء والأدباء وتجمعت الوفود على أبوابهم أكثر من وقوفهم على باب الخليفة، وأصبحوا دولة داخل دولة، حتى إن جعفر البرمكي قد أطلق سراح يحيى بن عبد الله العلوي من السجن دون علم الرشيد بعد أن حبسه الرشيد، واتصل بعلم الرشيد أن عبد الملك بن صالح العباسي يدعو لنفسه «أي يريد الانقضاض على الخليفة ليصبح هو خليفة» وعلم الرشيد أن البرامكة يساعدونه. كما أظهروا التعالي على الرشيد مما لم تحتمله نفسه وعاشوا عيشة البذخ والإسراف، وروى صاحب الفخري عن بختيشوع الطبيب قال: دخلت يومًا على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر على شاطئ دجلة، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد البرمكي وكان الرشيد يناديه: يا أبتي، فقال: استبد يحيى بالأمور دوني، فالخلافة، على الحقيقة له وليس لي منها إلا اسمها، فقلت: أنه سينكبهم أي سيقضي عليهم، وفعلاً وجه الرشيد إليهم ضربته القاضية فقتل جعفر البرمكي وحبس أباه يحيى وبقية أولاده ومات يحيى والفضل في السجن وظل به الباقون حتى عفا عنهم الأمين ابن الرشيد، وكانت هذه الضربة موجهة للأمة الفارسية مثل الضربة التى وجهت لهم بمقتل أبي مسلم الخراساني وقيل إن الرشيد قد ندم بعد ذلك.

٣ـ خيانة نقفور ملك الروم: بدأت العلاقة بين البيزنطيين (الروم) وبين العباسيين منذ عهد الخليفة المهدي العباسي ١٥٨-١٦٩هـ - تسوء - فقد قام المهدي يغزو حدود آسيا الصغرى الشرقية وهي بلاد الروم، ولما ولي هارون الرشيد الخلافة سار بنفسه في

سنة ١٨١هـ على رأس جيش كبير إلى آسيا الصغري وحارب الروم وانتصر عليهم فى كثير من المعارك وظل يتابع فتوحه حتى وصل إلى القسطنطينية، فسارعت (أيريني) إمبراطورة الدولة البيزنطية الرومية إلى طلب الهدنة مقابل دفعها الجزية ولكن الإمبراطور (نقفور) الذي اعتلى العرش بعدها نقض هذه الهدنة في سنة ١٨٧هـ وطالب بالجزية التي دفعتها الإمبراطورة السابقة للرشيد، ومن بجاحة هذا الرومي أنه تجرأ على خليفة المسلمين وبعث إليه كتابًا جاء فيه: «من نقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب: أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلي أقامتك مقام الرخ[1]، وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت واليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثاله لها، لكن ذلك ضعف النساء، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصّل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة وإلا فالسيف بيننا وبينك» فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب فكتب على ظهر الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم: قد قرات كتابك، والجواب ما تراه دون ما تسمعه يا بن الكافرة»[2].

فاجتاحت جيوش المسلمين بلاد الروم وسار الرشيد بجيوشه مخترقًا آسيا الصغرى حتى استولى على هرقلة الرومية فاضطر نقفور إلى المسالمة على جزية يؤديها مقدارها ٣٠٠ ألف دينار سنويًا إلى بيت مال المسلمين.

٤ - خيانة رومية ثانية: نقض الروم هذه الهدنة كما نقضوا سابقتها، فأغاروا فى السنة التالية على حدود الدولة العباسية في عملية غير متوقعة وهزموا المسلمين جنوبي آسيا الصغرى منتهزين فرصة التفات الخليفة إلى القضاء على الفتن الداخلية في

---

(١) الرخ: طائر خرافي بالغ القدماء في وصفه.

(٢) انظر: تاريخ الخلفاء ص٣٤٦.

البلاد، ولكن الرشيد ما لبث أن استولى على المدن الكبرى في الدولة البيزنطية الرومية، وأسر من الروم عشرة الآف، وأخذ جزية قدرها عشرون ألف قطعة من العملة الذهبية، واتسع نطاق الحروب بين الرشيد والروم حتى تعدت آسيا الصغرى إلى البحر المتوسط، فقد غزا العباسيون جزيرة قبرص، وأسروا ستة عشر ألف نفس، من بينهم أسقف هذه الجزيرة نفسه، كما جاء فى تاريخ الطبري.

٥ ـ إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شارلمان: أن الرشيد قد أرسل مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شارلمان إمبراطور الفرنجة، وأصبح شارلمان بعد ذلك حامي المسيحين الذين يحجون إلى هذه البلاد، وأكسب ذلك إمبراطور الفرنجة حق حماية الأماكن المقدسة في فلسطين مما أدى إلى نتائج خطيرة في المستقبل، مع أن شارلمان لم ينظر في ذلك الوقت بعين الاعتبار إلى مسألة إرسال مفاتيح تلك الكنيسة إليه[1]، ولكن بعض الكتب الأخرى بعد أن ذكرت هذه الواقعة شككت فيها، وذلك لتقوى الرشيد وورعه ولم يكن له وهو أحد الرجال المعدودين في الدولة الإسلامية أن يقوم بهذا العمل، أما إذا كان قد قام به فذلك يعتبر خيانة منه ونحن نستبعدها، أما إذا كانت هذه الواقعة غير صحيحة فتعتبر خيانة من دسها على الرشيد وألصقها به.

٦ ـ خيانة رافع بن الليث: ظهرت هذه الخيانة الخطيرة في خراسان وكان بطلها (رافع ابن الليث) وعجز عن قمعها الوالي علي بن عيسي والقائد هرثمة بن أعين واستفحل أمرها حتى خرج الرشيد بنفسه سنة ١٩٣هـ ميمما شطر خراسان واستمر في سيره حتى بلدة طوس وقمع هذه الخيانة وقتل أخا رافع بن الليث الذي قام بالفتنة في خراسان، قتلة شنيعة بأن أمر بشطر جسده أجزاء وهو حي.

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي العام للدكتور علي إبراهيم حسن.

٧ ـ خيانة حمزة الشاري: عاث هذا الرجل فسادا في بلدة (باذغيس) من خراسان فوثب عيسى بن علي بن عيسي على عشرة آلاف من أصحاب حمزة فقتلهم، ويبدو أن خراسان في عهد العباسين كانت تماثل الكوفة والبصرة في عهد الأمويين بالنسبة للعمليات الخيانية ضد الدولة العباسية، هذه هي أهم الخيانات في عهد الرشيد، فالرجل قد قضى عهده في جهاد مجيد ضد أعداء الدولة من الخارج والداخل ووقف بالمرصاد لكل من حاول المساس بحدود الدولة من الروم وغيرهم وكانت عينه واعية لكل من أراد الانقضاض عليها من الفرس وأذنابهم.

سادسًا ـ عهد الأمين بن هارون الرشيد[1]

١ ـ محاولة خلع المأمون من ولاية العهد والخلافة: ارتكب الأمين خيانة كبيرة بهذه المحاولة الفاشلة التى جرت على الأمة شراً مستطيراً وحروبًا دامية وتسببت في قتل الكثير من المسلمين وسفك كثير من الدماء المسلمة ولم تؤد إلى النتيجة المطلوبة منها بل أتت بعكس ما كان متوقعًا.

فكان الرشيد قد عزم على تولية المأمون لأنه أكبر أولاده. ولكن زبيدة زوجة الرشيد وأم الأمين تدخلت، فعدل الرشيد عن رأيه وولى ابنها الأمين على أن تكون الخلافة من بعده لأخيه الأكبر المأمون ولكن الأمين لم يعمل بذلك بل نكث العهد وولى ابنه موسى ابن الأمين وسماه الناطق بالحق ونقض العهد والميثاق الذي أخذه على نفسه في عهد أبيه الرشيد بتولية المأمون، وتطورت الأمور حتى صارت نزاعًا بين الفرس أنصار المأمون وبين العرب أنصار الأمين، وكان الفرس يبذلون جهودًا جبارة لاستعادة نفوذهم ولكن العرب كانوا يقاومون ذلك بشدة ويبذلون جهدهم لعدم عودة النفوذ الفارسي، وكانت أم المأمون امرأة فارسية تدعى مراجل، وكان المأمون شابًا

---

(١) تولى الأمين الخلافة سنة ثلاث وتسعين ومائة يوم الأربعاء الرابع عشر من جمادي الآخرة.

جادًا شغوفًا بالعلم، أما الأمين فكان شابًا مولعًا بالصيد والموسيقى والشراب، ولم يكن رجل دولة مثل المأمون، وعهد المأمون إلى قائديه هرثمة بين أعين وطاهر ابن الحسين بالدفاع عن خراسان، وتدفقت جموع الخراسانيين للعمل تحت قيادتهما، وفي نفس الوقت أمر الأمين قائده علي بن عيسي أن يغزو خراسان معقل المأمون، ودارت الحرب بين الطرفين وانتصر جيش المأمون في وقعة الرى وهزم جيش الأمين، وقتل علي بن عيسي، وبعث طاهر بن الحسين إلى المأمون كتابًا يقول فيه: «كتابي إلى أمير المؤمنين، ورأس علي بن عيسي بين يدي، وخاتمه في إصبعي، وجنده تحت أمري والسلام» وأخذت البيعة للمأمون في هذا الإقليم،واستولى طاهر على الأقاليم الخاضعة للأمين إقليمًا بعد إقليم، فاستولى على إقليم الجبال جنوب بحر قزوين ثم سار إلى الأهواز فواسط والمدائن، حتى أصبح على مقربة من بغداد، وبدأت استعدادات جيش المأمون لحصار بغداد.

٢ـ حصار بغداد بواسطة جيش المأمون: وهكذا أتيحت الفرصة للفرس ليظهروا ويكونوا أسياد الموقف وينتقموا من العرب في ظل المأمون فأطبق جيشه على الجانب الغربي منها بقيادة طاهر بن الحسين وظل الحصار عامًا كاملاً مما ألحق ببغداد أذى يجل عنه الوصف، ودافع العامة[١] عن الأمين وارتكبوا أثناء هذا الدفاع كثيرًا من أعمال النهب والسلب، واستخدمت المجانيق وآلات الحصار المختلفة حتى هدت أسوار بغداد وخربت المباني واستمرت النيران في كل مكان وعزت الأقوات وانتشرت المجاعات وسرعان ما نفذت أموال الأمين، ثم استولى طاهر بن الحسين على بعض أحياء بغداد وعلى أسواق الكوخ وقصر الخلد[٢] ورغم ذلك استمر الأمين في لهوه وعبثه واشتد البلاء بأهل بغداد وساءت أحوالهم، وغدا مركز الأمين حرجًا حتى فكر في الهرب إلى الجزيرة أو الشام فمنعه قواده، وأخيرًا نصحه خلفاؤه بأن يستسلم لأخيه المأمون وينزل

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام ١٢/ ٣٢ ـ ٤٦، الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٦٨، تاريخ الطبري ٨/ ٤١٨.
(٢) وكان ذلك في بداية سنة ثمان وتسعين ومائة، انظر: تاريخ الخلفاء ص٣٥٧.

له عن الخلافة فوافق على ذلك، وحين هرب الأمين في زورق هاجمه أصحاب الطاهر وحاولوا إغراقه ولكنه عبر النهر سباحة إلى الجانب الشرقي حيث قتل وأرسلت رأسه إلى المأمون، وانتهت هذه الفتنة بين العرب والعجم والتي كان مسئولاً عنها الأمين نفسه وأبوه هارون الرشيد الذى ولاه الخلافة قبل أخيه الأكبر المأمون، ولعبت أمه زبيدة الدور الأكبر في ذلك.

سابعًا ـ عهد المأمون بن الرشيد[1]

١ ـ خيانة أبي السرايا ابن منصور الشيباني:

ظهر هذا الرجل في العراق سنة ١٩٩هـ وقام بخيانة وفتنة كبيرة ضد الدولة للوصول إلى الخلافة باسم العلويين، وسيرت العراق الجيوش لمساعدته، وتمكنت جيوش العراق وجيوش أبي السرايا من هزيمة جيش العباسيين لأول مرة حتى تمكن أبو السرايا من تولية الولاة من قبله على مكة والمدينة وسائر بلاد العرب ثم احتل الكوفة وسير جيوشه إلى البصرة وواسط وأقام في العراق حومة علوية، إلا أن الحسن بن سهل أمير العراق من قبل العباسيين استقدم من خراسان هرثمةبن أعين أكبر قواد الدولة العباسية في ذلك الوقت، فقاتل أبا السرايا وهزمه هزيمة ساحقة وانتهى الأمر بفراره وقتله سنة ٢٠٠هـ.

وقضى بذلك على العلويين وعاد النفوذ والسلطان للعباسيين وبالطبع فقد سببت هذه الخيانة للدولة الإسلامية كغيرها من الخيانات السابقة المزيد من سفك الدماء المسلمة بأيدي مسلمة فقتل الآلاف المؤلفة من الطرفين مما أضعف الدولة بوجه عام وكان ذلك تمهيدًا لأن تقع الدولة الإسلامية فيما بعد فريسة للتتار والصليبيين،

---

(١) تولى المأمون الخلافة في المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة بعد مقتل أخيه الأمين.

والعجيب أن أحدًا من هؤلاء الخونة سواء في الدولة الأموية أو العباسية لم يتحرش ولو مرة واحدة بالروم أو الترك أو الديلم أو الخزر المتربصين بالدولة والقابعين على حدودها.

٢ ـ قتل المأمون لقائده هرثمة بن أعين الذي قضى على أبي السرايا:

قضى المأمون على قائده الفذ هرثمة بن أعين مكافأة له على قتل أبي السرايا والقضاء عليه فكان جزاؤه منه جزاء سنمار وذلك أن هرثمة بن أعين رأى أن يطلع المأمون على أحوال البلاد واستبداد الفضل بن سهل والحسن بن سهل وهما فارسيان شيعيان، وكان الفضل بن سهل قد وصل إلى القمة عند المأمون فأوغر صدره على هرثمة بالقول بأنه يتبع العلويين ولهذا لم يقض على كل أتباع أبي السرايا زعيم العلويين في ثورتهم ضد العباسيين بينما في الحقيقة كان الفضل بن سهل هو الذي يعمل في الخفاء على نقل الخلافة للعلويين لأنه فارسي شيعي . ومن العجيب أن المأمون لم يتنبه لهذا الأمر واستمع لهذه الوشاية فأمر بحبس هرثمة بن أعين الذي أنقذه وانقذ الخلافة العباسية من أيدي أبي السرايا وأتباعه، فسجن ذراعه الأيمن هرثمة ابن أعين أبرع قواده ثم قتله في السجن، وبذلك يكون المأمون قد خان رجلا خدم الدولة العباسية أجل الخدمات، وظل نفوذ الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل على ما كان عليه وكانت البلاد تغلي كالمرجل وجاء مقتل هرثمة على هذا النحو دافعًا لتحفز أتباعه وأصبحت بغداد مسرحًا للفوضى وانتهز العامة تلك الفرصة وقاموا بنهب الأموال والفتك بالسكان الأبرياء ثم استدار المأمون إلى الفضل بن سهل نفسه فتم قتله في الحمام على أيدي أربعة من رجال المأمون، وتشاء المقادير أن يضرب الخونة بعضهم بعضًا، ومن المعروف أن المأمون كان يسيىء الظن بالعرب بينما يقرب الفرس دون سواهم.

٣ ـ خيانة مالية أثناء زواج المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل:

أسرف الحسن بن سهل في زواج ابنته المذكورة من المأمون إسرافًا كبيرًا جدًا فقد قدر بعض المؤرخين نفقات الزواج بخمسين مليون درهم وهو مبلغ باهظ في ذلك الوقت. وكان هذا الزواج في سنة عشرة بعد المائتين[1].

وبذر في هذا الزواج تبذيرًا كبيرًا ونثر من الأموال ما لم ينثره وما لم يفعله ملك في جاهلية ولا في إسلام، ونثر على الناس رقعًا مكتوبًا فيها أسماء جواري وضياع، بالإضافة إلى آلاف الدنانير والدراهم، فمن أين أتى بهذه الأموال؟ هل من ماله الخاص أم من خزينة وأموال الدولة؟ وفي كلتا الحالتين تعتبر خيانة مالية، فكان الأولى بهذه الأموال أن تنفق على الفقراء المعدمين والأرامل والأيتام، وبناء المدارس والمستشفيات وتجهيز الجيوش لحرب الروم وبقية الأعداء المحيطة بالدولة من جميع الجهات.

٤ ـ المعتزلة، وقولهم بخلق القرآن وتحريضهم للمأمون بتعذيب من يخالف رأيهم:

لخطورة هذا الموضوع نوضح ما جاء عنه بشيء من التفصيل، فقد جاء ما يلي[2]:

«قال العليمي ما ملخصه»: لما ولي المأمون بن هارون الرشيد صار إليه قوم المعتزلة وأزاغوه عن طريق الحق إلى الباطل وحسنوا له قبيح القول بخلق القرآن فصار إلى ملتهم، أي اقتنع بها، وقدر أنه في آخر عمره خرج من بغداد لغزو بلاد الروم فكتب إلى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب صاحب الشرطة أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن، فاستدعي جماعة من العلماء والقضاة وأئمة الحديث ودعاهم إلى ذلك فامتنعوا فهددهم فأجاب أكثرهم مكرهين، واستمر الإمام أحمد بن حنبل على

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ص٣٦٧.

(٢) انظر: كتاب إمام أهل السنة احمد بن حنبل للأستاذ: أحمد فريد.

الامتناع. واشتد غضبه، فلما أصر على الامتناع حملوه على بعير وسيروه إلى الخليفة. قال: أبو جعفر الأنباري: لما حمل الإمام أحمد بن حنبل إلى المأمون قلت له: يا هذا أنت اليوم رأس الناس، والناس يقتدون بكم، فو الله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك، خلق كثير، وإن لم تجب ليمتنعن خلق كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت ولابد من الموت، فاتق الله تعالى ولا تجبهم إلى شيء، فجعل أحمد يبكي ويقول حاشا لله تعالى، حاشا لله تعالى، ثم سار أحمد إلى المأمون فبلغه توعد الخليفة له بالقتل إن لم يجبه إلى القول بخلق القرآن، فتوجه الإمام أحمد إلى الله تعالى بالدعاء أن لا يجمع بينه وبين المأمون، فبينما هو بالطريق قبل وصوله إليه إذ جاءهم الصراخ بموت المأمون، وكان موته في شهر رجب سنة ٢١٨هـ فرد الإمام أحمد إلى بغداد . ثم ولي الخلافة المعتصم بن هارون الرشيد أخو المأمون(١) .

وسنعود إلى هذا الموضوع أثناء الحديث عن عهد المعتصم لنعرف ما جري للإمام أحمد بن حنبل.

ثامنًا ـ عهد المعتصم بن الرشيد

بويع للمعتصم في يوم وفاة أخيه المأمون، وسار المعتصم على سياسة أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن، فقد أوصاه المأمون قبل وفاته بقوله: يا أبا إسحاق (المعتصم)إدن مني واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن، وزاد المعتصم على ذلك بأن الحق الأذى بكل من يعترف بغير ذلك أى بعدم خلق القرآن من العلماء وأهل الرأي، فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه، وأصبح كل عالم أو قاض هدفًا لأن يضرب بالسياط ، والتعذيب إذا لم يأخذ برأي المعتزلة في القول

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ص٣٧٠، وتاريخ الطبري ٣٨٩/١٠، البداية والنهاية ٢٧٢/١٠، تاريخ الإسلام ١٩/١٤.

بخلق القرآن، ولنقف هنا لنعرف ما جرى للإمام أحمد بن حنبل في عهد المعتصم وهي من أهم الصور الخيانية في عهده:

١ ـ تعذيب الإمام أحمد بن حنبل:

قدم المعتصم من بلاد الروم سنة ٢١٨هـ ودخل بغداد فامتحن الإمام أحمد بن حنبل وضرب بين يديه، وكان من خبر المحنة أن المعتصم لما قصد إحضار الإمام أحمد ازدحم الناس على بابه كيوم العيد وبسط بمجلسه بساطًا ونصب كرسيًا جلس عليه ثم قال: إحضروا أحمد بن حنبل.. فأحضروه، فلما وقف بين يديه سلم عليه فقال له: يا أحمد تكلم ولا تخف، فقال الإمام أحمد والله لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال حبة من الفزع، فقال المعتصم ما تقول في القرآن؟ فقال كلام الله. قديم غير مخلوق.. قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبة:٦)، فقال له: عندك حجة غيرها؟ فقال نعم: قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن:١-٢)، ولم يقل: الرحمن، خلق القرآن، وقوله تعالى: ﴿يس ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ (يس:١)، ولم يقل: يس والقرآن المخلوق فقال المعتصم: احبسوه فحبسوه وتفرق الناس. فلما كان من الغد جلس المعتصم مجلسه على كرسيه وقال: هاتوا أحمد بن حنبل فاجتمع الناس وسمعت ضجة ببغداد، فلما جيء به وقف بين يديه والسيوف قد جردت، والرماح قد ركزت، والأتراس قد نصبت، والسياط قد طرحت فسأله المعتصم عما يقول في القرآن، فقال: غير مخلوق، قال: ومن أين قلت؟ فقال حدثني عبد الرزاق عن معمر بن الزهيري عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «إن كلام الله الذي استخص به موسي مائة ألف كلمة، وثلاثمائة وثلاث عشرة كلمة، فكان الكلام من الله تعالى، والاستماع من موسي»، ثم قال: وقال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة:١٣)، فإن يكن القول من الله تعالى فإن القرآن كلام الله. وأحضر المعتصم الفقهاء والقضاة

فناظروه بحضرته في مدة ثلاثة أيام وهو يناظرهم ويظهر عليهم بالحجج القاطعة. . وكان من المعتصمين عليه (محمد بن عبد الملك الزيات) وزير المعتصم، وأحمد بن أبي دؤاد القاضي، وبشر المريسي، وكانوا معتزلة قائلين بخلق القرآن، فقال ابن أبي دؤاد وبشر المريسي للخليفة: اقتله حتى نستريح منه، وهذا كافر مضل، فقال: إني عاهدت الله أن لا أقتله بسيف ولا آمر بقتله بسيف، فقالا له: اضربه بالسياط فقال المعتصم له: وقرابتي من رسول الله ﷺ لأضربنك بالسياط أو تقول كما أقول، فلم يرهبه ذلك فقال المعتصم: أحضروا الجلادين فأحضروا، فقال المعتصم لواحد منهم بكم سوط تقتله، قال بعشرة، قال: خذه إليك فأخرج به ففعل ثم جرد الإمام أحمد من أثوابه وشد في يده حبلان جديدان ولما جيء بالسياط نظر إليه المعتصم وقال: أئتوني بغيرها، ثم قال: للجلادين: تقدموا فلما ضُرِبَ سوطًا قال: بسم الله، فلما ضُرِبَ الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما ضُرِبَ الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فلما ضُرِبَ الرابع قال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة:٥١). وجعل الجلاد يتقدم إلى الإمام أحمد فيضرب به سوطين، فيحرضه المعتصم على التشديد في الضرب، فلما ضُرِبَ تسعة عشر سوطًا قام إليه المعتصم فقال له يا أحمد: علام تقتل نفسك؟ إني والله عليك لشفيق. قال أحمد: فجعل عجيف ينخسني بقائمة سيفه وقال أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك، الخليفة على رأسك قائم، وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين إنه صائم وأنت في الشمس قائم، فقال المعتصم: ويحك يا أحمد، ما تقول؟ فقال أحمد أعطوني شيء من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ حتى أقول به، وجعل المعتصم يحرض الجلاد على إيجاعه بالضرب ويقول للجلادين تقدموا . . والجلاد يضربني سوطين ويتنحى، والمعتصم يحرضهم على التشديد في الضرب ويقول: شدوا: قطع الله أيديكم، قال أحمد فذهب عقلي، فأفقت بعد ذلك فإذا ٠ القيود قد أطلقت عني فقال رجل ممن حضر إنا كفيناك على وجهك وطرحنا على ظهرك حصيراً ودسناك، قال فما

شعرت بشيء من ذلك، وجيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فتقدم ابن سماعة فصلي، فلما انتهينا من الصلاة قال لي: صليت والدم يسيل في ثوبك، فقلت قد صلي عمر وجرحه يسغب دما أي يسيل دما، وظل الإمام أحمد حتى زمن الخليفة الواثق بن المعتصم فلم يتعرض له، ثم بقى حتى تولى المتوكل بعد الواثق فأظهر الله تعالى به السنة وأمات البدعة وقبض على محمد ين عبد الملك الزيات الوزير ووضعه في تنور حتى مات، ثم مات أحمد بن أبي دؤاد بمرض الفالج وهلك بشر المريسي[1].

وعن عمران بن موسي قال: دخلت على أبي العروق الجلاد الذي ضرب الإمام أحمد بن حنبل لأنظر إليه فمكث خمسة وأربعين يومًا ينبح كما ينبح الكلب وشرع الخليفة المتوكل فى الإحسان إلى الإمام أحمد﵀ وشرع في تعظيمه وتكريمه.

٢ ـ اعتماد المعتصم على الأتراك:

واضح أن النساء في ذلك العصر كان لهن تأثير كبير على أبنائهن من الخلفاء، فالمأمون اعتمد على الفرس لأن أمه كانت فارسية، والمعتصم اعتمد على الأتراك لأن أمه كانت تركية، فأكثر المعتصم من جلب الأتراك من أسواق الرقيق في بلاد ما وراء النهر، وولاهم حراسة قصره وأسند إليهم أعلى المناصب وقلدهم الولايات الكبيرة وخلع عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم وفضلهم على العرب والفرس في كل شيء، فتمكنوا من الوصول إلى أعلى المراتب وأندمجوا في سلك بلاط الخلافة وتقلدوا ولاية الإمارات وعظم نفوذهم واشتد حتى أصبح في أيديهم تولية الخليفة وعزله أو حبسه ونفيه أو قتله، وما لبث عددهم أن زاد حتى قارب على الخمسين ألفا فقويت شوكتهم

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٩/ ١٠ ـ ٢٢، تاريخ الإسلام ٣١/١٤، الكامل ٤٤٦/٦ ـ ٤٥٢، البداية والنهاية ١٠/ ٢٨٢، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٧.

وتدللوا على الخليفة حتى ألبسهم حلل الديباج والمناطق المذهبة فداخلهم الغرور، وارتكبوا الكثير من أعمال العسف[١].

واتصفوا بالشدة حتى أنهم كثيرًا ما آذوا السكان وداسوهم بخيولهم في الأسواق والطرقات مما أثار غضب العامة وحنقهم عليهم، وقد جر المعتصم بهؤلاء الأتراك شرًا مستطيرًا على الدولة فنتيجة لإهماله للعرب واستعانته بالأتراك، وإجزاله العطايا لهم دون غيرهم دب في نفوس العرب دبيب الغيرة والحسد. وقام عجيف العربي بثورة على قواد الترك وعزم على التخلص من المعتصم نفسه واشترك معه قواد العرب واتفقوا على قتل المعتصم ولكن تسرب الخبر إلى المعتصم ففشلت المؤامرة ومات عجيف. ثم ثار عرب الشام على المعتصم وثار الأكراد في الموصل ولكن هذه الثورات باءت بالفشل في مهدها، على أن المعتصم بعد أن تخلص من قواد الفرس والعرب ما لبث أن وقع فريسة في أيدي الأتراك الذين كانت لهم الرغبة في انتزاع السلطة منه إذ لم يكونوا جادين في إخلاصهم للخليفة وعملوا على حصر السلطة في أيديهم، وأصبح عهد خلافة المعتصم والواثق من بعده فترة انتقال إلى حكم الأتراك الفعلي في بغداد، وأصبح سلطان الخلفاء اسميًا فقط منذ وفاة الواثق . واتضح بجلاء في العصر العباسي الثاني خطر اعتماد العباسيين على الأتراك، وهكذا تسبب المعتصم في الضرر للعرب عامة وللخلفاء العباسيين من بعده خاصة فأصبح الخليفة العباسي فيما بعد ألعوبة في يد الأتراك.

٣ ـ خيانة بابك الخرمي:

ظهر هذا الخائن سنة ٢٠١هـ في عهد المأمون، وتمرد واعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية اثنين وعشرين سنة، من ٢٠١هـ إلى ٢٢٣هـ نشر خلالها مذهب الإباحية واحتمى بحصن منطقة حران، وأدعي هذا الخائن اللعين أن روح (جاويدان)

---

(١) انظر: البداية والنهاية ١٠/٢٩٦.

قد حلت فيه، وجاويدان هذا كان زعيمًا نسب إليه أتباعه صفات الألوهية، وزاد هذا الخائن بابك الخرمي على ذلك أن نشر مبادئ الإباحية وأخذ في العبث والفساد وجنح إلى الوحشية والفوضي وكلها من تعاليم المجوس . كما أن هذا الخائن قد أثار البيزنطيين كثيرًا على الدولة العباسية وعقد محالفات خيانية مع الروم ضد الدولة، ولذا تمكن من المقاومة مدة طويلة. وساعده على ذلك أيضًا أن المأمون كان مشغولاً بالقضاء على الفتن الداخلية فى أنحاء البلاد بالإضافة إلى انشغاله بالحرب مع البيزنطيين.

ولكن المعتصم دفع كل قوات الدولة للقضاء على هذا الخائن وعهد بذلك إلى (الأفشين) قائد الخليفة الذى حاصره مدة طويلة في مكمنه في حران وحصنها، ثم أطبقت جيوشه عليه واضطر هذا الخائن بابك إلى التسليم وحاول الفرار ولكن تم القبض عليه وسيق إلى سامرا حيث لاقاه الخليفة المعتصم هو ومن معه من الأسرى، وقتل هذا الخائن بابك الخرمي أشنع قتله وطيف برأسه في الأقطار ليكون عظة لمن يحاول أن يقوم بمثل خيانته وبذلك تم القضاء على خيانة وفتنة كبيرة كانت ترمي إلى التحرر من أى نظام إجتماعي وتدعو إلى الإباحية، وكافأ المعتصم قائدهُ الأفشين وولاه السند.

٤ ـ خيانة الأفشين:

من العجيب أن الخونة لا يتورعون عن إفشاء سر بعضهم البعض ولا يترفعون عن أن يضرب بعضهم بعضًا، وقد يضحى كل منهم بزميله الآخر ليبقى هو وحده. فقد ظهر في عهد المعتصم في أقليم طبرستان رجل يعرف باسم (مزيار المجوسي) وحدث خلاف بينه وبين عبد الله بن طاهر والى خراسان من قبل الدولة العباسية وكان مزيار هذا لا يؤدى الضريبة المفروضة على إقليمه لعبد الله بن طاهر باعتبار أن

طبرستان خاضعة من الناحية الإدارية لخراسان وكان مزيار يؤدي الضريبة مباشرة للخليفة المعتصم متخطيًا ابن طاهر والي خراسان وانتهز الأفشين تلك الفرصة وعمل على أتساع الهوة وازدياد الخلاف بين ابن طاهر ومزيار، لأنه كان يريد أن يتولى خراسان بدلاً من ابن طاهر، فكاتب مزيار سرًا وحرضه على ابن طاهر وانتهى ذلك بقطع الضريبة التي كان يدفعها مزيار للخليفة، فأمر الخليفة ابن طاهر أن يحارب مزيارًا، ورغب الأفشين في أن يتولى الحرب ضد مزيار، ولكن ابن طاهر استطاع الانتصار على مزيار وقبض عليه وأرسله إلى المعتصم وهناك عند الخليفة أفشي مزيار أمر الرسائل التى كان يبعث بها الأفشين إليه ويحرضه على ابن طاهر وعلى الخليفة نفسه، فتنكر المعتصم للأفشين وأمر بحبسه وحاكمه وسجنه حتى مات بالسجن سنة ٢٢٦هـ وأحرق بالنار ووجدت في حوزته عدة أصنام وبعض كتب المجوس التى تشرح ديانتهم، واتضح أن الأفشين كان يسر المجوسية ويظهر الإسلام. وهكذا تشاء المقادير أن يقضي الأفشين على بابك الخرمي الذي كان يحاول نشر الإباحية، ثم يتضح أن الأفشين نفسه كان خائنًا يعمل على نشر المجوسية، أما مزيار فهو الذي أفشى سر زميله في الخيانة والتآمر (الأفشين) وتسبب في سجنه والقضاء عليه.

تاسعًا - عهد الواثق بن المعتصم[1]

أخطر خيانة في عهده هي قتله لأحمد بن نصر بن مالك الذي كان من أهل العلم والديانة والعمل والاجتهاد في الخير وكان من أئمة السنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وممن يخالف رأى الخليفة في القول بخلق القرآن، وأبوه هو نصر ابن مالك الذي بايعته العامة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عندما غلب الفساد ببغداد سنة ٢٠١هـ أثناء غيبة المأمون بمرو. وقد استدعاه الواثق وناظره فلم يفلح في

(١) تولى الواثق الخلافة بعد وفاة أبيه سنة سبع وعشرين بعد المائتين في ربيع الأول.

إقناعه بما يعتقد من بدعة خلق القرآن التى كان يعتقدها الخليفة الواثق مثل أبيه المعتصم وعمه المأمون، فقتله الواثق بنفسه، وفصلت رأسه عن جسده[1]، وعلقت رأسه ببغداد من ٢٨ شعبان سنة ٢٣١هـ إلى ٣ شوال سنة ٢٣٧هـ. ولم يغير أحمد عقيدته وثبت عليها، وقد سمعه بعض الناس وهو مصلوب على الجذع ورأسه يقرأ ﴿**ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون**﴾ (١، ٢ ـ العنكبوت). ولما تولى المتوكل الخلافة بعد الواثق في سنة ٢٣٧هـ وكان محبًا لأهل السنة أمر بإنزال رأسه وضمه إلى جسده وأن يسلم لأوليائه ففرح الناس بذلك فرحًا شديداً واجتمع في جنازته خلق كثير جداً.

عاشرًا ـ عهد المتوكل أخي الواثق بن المعتصم

أخطر خيانة في عهد المتوكل هي قتل المتوكل نفسه بواسطة ابنه المنتصر الذي دبر قتله مع الأتراك، فدخل عليه خمسة في جوف الليل فقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان، وذلك لأنه أراد تقديم ابنه المعتز عليه في الخلافة لمحبته لأمه فلم يعجب ذلك المنتصر الذي دبر قتله مع الخونة الأتراك. وهناك خيانة ارتكبها المتوكل نفسه قبل موته بقتل يعقوب بن السكيت الإمام في اللغة العربية فقد ندبه لتعليم أولاده، فنظر المتوكل يومًا إلى ولديه المعتز والمؤيد فقال لابن السكيت: من أحب إليك؟ هما أم الحسن والحسين؟ فقال ابن السكيت (قنبر) مولى علي بن أبي طالب خير منهما . فأمر المتوكل الأتراك فداسوا بطنه حتى مات، وقيل إنه بسل لسانه حتى مات.

الحادي عشر ـ عهد المنتصر بن المتوكل

أشهر خيانة في عهده كذلك هي قتله بواسطة الخونة من الأتراك لأنه لما ولى الخلافة صار يسبهم ويقول هؤلاء قتلة الخلفاء، فهموا بقتله ولكنهم عجزوا عنه لأنه

---

(١) انظر: تاريخ بغداد للخطيب ١٧٦/٥ ـ ١٧٨، تاريخ الإسلام ٥٦/١٦، البداية ٣٠٣/١٠

كان مهيبا شجاعًا متحرزاً فطنًا، فتحيلوا بخيانتهم إلى أن دسوا إلى طبيبه ابن (طيفور) ثلاثين ألف دينار أثناء مرض المنتصر ليقتله، فأشار بفصده ثم فصده بريشة مسمومة فمات وكان ذلك في خامس ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين بعد المائتين ولم يمكث في الخلافة إلا أشهراً قليلة . وقيل إن الطبيب ابن طيفور مرض بعد ذلك ونسى أن هذه الريشة مسمومة فأمر غلامه ففصده بتلك الريشة فمات كذلك[1] .

الثاني عشر - عهد المستعين أخى المتوكل بن المعتصم

بويع له بالخلافة فتنكر له الأتراك لما قتل (وصيفًا-وبغا) التركيين والمسيطرين على شئون الدولة وعلى الخلفاء، كما نفى (باغر) التركي الذي قتل المتوكل . ولما تنكر له الأتراك خاف وانحدر من سامرا إلى بغداد، فأرسلوا إليه يعتذرون ويسألونه الرجوع فامتنع، فقصدوا الحبس (السجن) وأخرجوا المعتز بالله بن المتوكل وبايعوه وخلعوا المستعين، فوقعت الحرب بين المستعين وبين المعتز ودام القتال أشهراً وكثر القتل وحدثت فتنة عظيمة إلى أن تم الصلح على أن يخلع المستعين نفسه، وأرسل إلى واسط وسجن بها تسعة أشهر، وتولى المعتز الخلافة فأرسل إلى أحمد بن طولون ليقتل المستعين فرفض، فندب له المعتز سعيداً الحاجب فذبحه، وكان ذلك في ثالث شوال سنة إحدى وخمسين بعد المائتين وهكذا وصلت الخيانة إلى درجة أن يقتل الابن أباه أو عمه.

الثالث عشر - عهد المعتز بن المتوكل

أمور خيانية عجيبة يقرؤها المرء في هذه الحقبة من الزمن، ولا يكاد يصدقها، وكأن القوم كانوا يجدون في خيانة القتل لبعضهم البعض لذة عجيبة، وتتفق جميع

---

(١) انظر : فوات الوفيات ٣/٣١٨، الوافي بالوفيات ٢/٢٨٩، السير ١٢/ ٤٣.

المراجع على سرد هذه الخيانات البشعة ولم نجد كتابًا أو مرجعًا يعتد به يخالف الآخر، ونوجز ما جرى من الأمور الخيانية في النقاط التالية:

١ ـ فقد تولى المعتز الخلافة كما سبق بعد أن ذبح عمه المستعين، ولم يدر أن الأيام دول وأن يومًا لك ويومًا عليك، وكانت أمه امرأة رومية تسمي (قبيحة) مع شدة جمالها، فقام المعتز بخلع أخيه المؤيد من ولاية العهد[1] وهذه في حد ذاتها خيانة كبيرة تضاف إلى خيانته بذبح عمه المستعين.

٢ ـ ولم يكتف بخلعه بل قيده وضربه حتى مات، وهذه خيانة أفظع من السابقة.

٣ ـ وكان المعتز مستضعفًا مع الأتراك، فاتفق أن جماعة من كبارهم أتوه وقالوا له يا أمير المؤمنين: أعطنا أرزاقنا لنقتل (صالح بن وصيف) التركي والذي كان المعتز يخاف منه، وطلبوا منه خمسين ألف دينار.

٤ ـ طلب المعتز من امه قبيحة هذا المبلغ ليعطيه لهم ويكفهم عنه فأبت وشحت نفسها ولم يكن بقي في بيوت المال شيء يعطيه لهم، فاجتمع الأتراك على خلعه ووافقهم صالح بن وصيف ومحمد بن بغا التركيان فلبسوا السلاح وجاءوا إلى دار الخلافة ليخرج إليهم المعتز فأبي.

٥ ـ هجموا عليه وجروا رجله وضربوه بالدبابيس وأقاموه في الشمس في يوم صائف وهم يلطمون وجهه وهو الخليفة ويقولون: أخلع نفسك، فخلعوه عن الخلافة ثم أحضروا محمد بن الواثق وأقاموه خليفة وسموه: المهتدي بالله.

٦ ـ اخذوا المعتز بعد خمس ليالٍ من خلعه فأدخلوه الحمام فلما اغتسل عطش عطشًا شديدًا ومنعوا عنه الماء حتى مات عطشانًا، وهو أول من يموت عطشانًا من الخلفاء العباسيين وكان ذلك في شهر شعبان سنة ٢٥٥هـ.

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ص٤٢٣.

٧ـ اختفت امه قبيحة ثم ظهرت في شهر رمضان.

٨ـ اعطت قبيحة صالحًا بن وصيف التركي الذي كان يخيف ابنها المعتز مالاً عظيمًا مقداره: ألف ألف دينار وثلاث مائة ألف دينار، كما أعطته سفط (أي سبت) فيه مكوك زمرد وسفط آخر فيه حبات لؤلؤ كبار، وكيلجة ياقوت أحمر وغير ذلك فقومت السفاط بألفي ألف دينار أي مبلغ ٢ مليون دينار.

٩ـ لما رأى ابن وصيف ذلك تعجب وقال: قبحها الله، عرضت ابنها للقتل لأجل خمسين ألف دينار وعندها كل هذا؟ فأخذ الجميع ونفاها إلى مكة، فانظر إلى هذه المرأة التى خانت ابنها وضحت به وبحياته من أجل خمسين ألف دينار بينما أعطت لعدوه الذي كان يخيفه كل هذه الأموال المذكورة[١].

الرابع عشر ـ عهد المهتدي بالله محمد بن الواثق

الأتراك الذين أمسكوا بزمام الدولة وأحكموا قبضتهم عليها منذ أن جلبهم المعتصم ابن الرشيد ومكنهم من الدولة ومن رقاب العباد وحكمهم في أرزاقهم فكان كمن ربي ذئبًا أو شبلاً صغيرًا ليستأنس به فلما كبر وترعرع واشتد عوده انقض عليه وعلى أهله، فكان الأتراك يولون من يشاءون حتى جاء الدور على الخليفة المهتدي وكان رجلاً صالحًا تقيًا ورعًا عادلاً. فأجمعوا على قتله وساروا إليه فقاتل عنه المغاربة والفراغنة والأشروسنيه، وقتل من الأتراك في يوم أربعة آلاف. ودام القتال إلى أن هزم جيش الخليفة فأمسكوه وعصروا خصيتيه فمات[٢] وذلك في رجب سنة ست وخمسين بعد المائتين.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٩/ ٣٨٩ ـ ٣٩٥، الكامل ٧/ ١٩٥، تاريخ الإسلام ١٧/ ١٥، البداية والنهاية ١١/ ١٦، السير للذهبي ١٢/ ٥٣٣.

(٢) انظر: تاريخ الخلفاء ص ٤٢٧.

الخامس عشر- عهد المعتمد على الله أحمد بن المتوكل

خيانة الزنج: الزنج هم طائفة من عبيد أفريقيا أثاروا الرعب والفزع في حاضرة الخلافة العباسية، وهددوا كيان الدولة، وكان مسرح خيانتهم وثورتهم العنيفة في المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط، وقدم صاحب الزنج العراق ودعا إلى تحرير العبيد فعظم شأنه وقويت شوكته ولقيت دعوته قبولاً، ثم سار إلى بغداد في عهد المعتمد في سنة ٢٥٤هـ، فعهد المعتمد إلى أخيه الموفق بقتالهم، ولما دخل الزنج البصرة خربوها وبذلوا السيف وأحرقوا وسبوا وخربوا وجرى بينهم وبين الموفق أخي الخليفة حروب كثيرة، وأعقب ذلك الوباء الذي لا يكاد يتوقف نتيجة تعفن جثث الموتى فمات خلق لا يحصون. ثم أعقب ذلك الوباء هزات وزلازل فمات تحت الردم ألوف من الناس واستمر القتال مع الزنج منذ تولي المعتمد سنة ٢٥٦هـ إلى سنة ٢٧٠هـ فقتل رأس الزنج وزعيمهم (يهبوذ)، وكان قد أدعى أنه أرسل إلى الخلق ولكنه رد الرسالة ولم يقبلها، وأنه مطلع على المغيبات، وذكر الصولي أنه قد قتل من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف أي مليون ونصف مليون آدمي، وقتل في يوم واحد بالبصرة ثلاثمائة ألف، ولما قتل هذا الخبيث دخل برأسه بغداد على رمح وكان يومًا مشهودًا وأمن الناس وتراجعوا إلى المدن التى أخذها كواسط ورامهرمز[1].

السادس عشر- عهود المعتضد بالله بن الموفق، والمكتفي بالله بن المعتضد، والمقتدر بالله بن المعتضد

١- **خيانة القرامطة** في سنة ٢٨٦هـ في عهد المعتضد ظهرت أكبر خيانة في عهده وهي خيانة أبي سعيد القرمطي الذي ظهر بالبحرين وقويت شوكته هو وابنه أبو طاهر

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٩/ ٤٩٠ - ٥٠١، الكامل ٧/ ٢٥٣ - ٢٥٥، تاريخ الإسلام ١٧/ ٢٤ - ٢٨، البداية والنهاية ١١/ ٣٠ - ٣١ .

سليمان الجنابي الذي قلع الحجر الأسود ووقع القتال بينه وبين عسكر الخليفة وأغار على البصرة ونواحيها وهزم جيش الخليفة عدة مرات، وفي سنة ٢٨٩هـ في عهد المكتفي ابن المعتضد خرج ابن زكويه القرمطي، فاستمر القتال بينه وبين عسكر الخليفة إلى أن قتل في سنة ٢٩٠هـ، فقام مكانه أخوه الحسين وأظهر شامة في وجهه زعم أنها آيته، وجاء بن عمه عيسي بن مهروية وزعم أنه لقب المدثر وأنه المعنى في السورة، ولقب غلامًا له بلقب (المطوق بالنور)، وظهر على الشام وعاث فيها فسادًا، وتسمى بأمير المؤمنين المهدي، ودعى له على المنابر، ثم قتل الثلاثة يحيى بن زكويه وأخوه الحسين وابن عمهما عيسي بن مهرويه، في سنة ٢٩١هـ، بعد أن تفاقم شر القرامطة حول بغداد والبصرة وفي سوريا واليمن بزعامة ابن زكويه، وألقوا الرعب والفزع في قلوب الأهالي وضعف بعد ذلك سلطان هذه الفرقة الضالة والطائفة الخائنة، وقتل أكثر دعائهم، ولكن بقى أخطرهم وهو أبو سعيد الجنابي بالبحرين، ولم يكن له في عهد المكتفي كبير عمل ولكن كانت مصائبه ورزاياه في عهد المقتدر، وقد قتل هذا الخائن أبو سعيد الجنابي زعيم القرامطة في ٣٠١هـ في عهد المقتدر[1]، وتولى ابنه أبو طاهر سليمان الجنابي من بعده، وفي عهده فعل القرامطة الأفاعيل، واشتد نفوذه وسار نحو الكوفة وتقدم ناحية بغداد هو وجيوشه، وهم يهزمون جيوش الخلافة الواحد تلو الآخر، فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفًا شديدًا وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمذان، كل ذلك وعدد القرامطة لا يزيد عن ٢٧٠٠ مقاتل، ولما علم المقتدر بعددهم قال «لعن الله سبعا وثمانين ألفا يعجزون عن ألفين وسبعمائة» وفي سنة ٣١٢هـ في عهد المقتدر اعترض القرمطي أبو طاهر الحسين بن سعيد الجنابي للحجيج وهم راجعون من بيت الله الحرام، فلما حاولوا أن يدافعوا عن

(١) انظر: تاريخ الطبري ١٠/١٠٨ ـ ١١٧، الكامل ٧/ ٥٢٣، تاريخ الإسلام ٢٠/ ٥ ـ ٨، البداية ١١/٩٨، النجوم ٣/ ١٤٧.

أنفسهم وأموالهم وأعراضهم قتل هذا الخائن القرمطي منهم خلقًا كثيرًا وأسر من نسائهم وأبنائهم عددًا كبيرًا. ثم بعث الخليفة المقتدر جيشًا بقيادة مؤنس الخادم لقتال القرامطة وأنفق على خروجه ألف ألف دينار. فخافه الخائن أبو الطاهر القرمطي وأطلق من كان معه من أسرى الحجيج، فسكن الأمر وانصلحت الأحوال، وفي سنة ٣١٧هـ سير المقتدر ركب الحجيج مع منصور الديلمي فوصلوا إلى مكة سالمين، فوافاهم يوم التروية عدو الله أبو طاهر القرمطي فقتل الحجيج في المسجد الحرام قتلاً ذريعًا وطرح القتلى في بئر زمزم، وضرب الحجر الأسود بدبوس (مسمار) من المعدن فكسره ثم أقتلعه، وأقام بها أحدٍ عشر يومًا ثم رحلوا وبقى الحجر الأسود عندهم أكثر من عشرين سنة، ودفع لهم فيه خمسون ألف دينار فأبوا حتى أعيد في خلافة المطيع في سنة ٣٣٩هـ وصعد طاهر القرمطي على باب الكعبة وهو يقول:

أنا بالله وبالله أنا ** يخلق الخلق وأفنيهم أنا

فلم يفلح بعدها وتقطع جسده بالجدري ثم مات، وبهلاكه انقرضت القرامطة.

٢ـ مقتل الخليفة المقتدر: تعتبر هذه خيانة كبرى لأولي الأمر الذين أمر الله تعالى بطاعتهم، ففي سنة ثلاثمائة وعشرين حدث بين الخليفة المقتدر وبين أكبر القادة وأعظمهم نفوذًا وهو مؤنس المظفر قائد عام الجيوش، صدام وقتال فهزم الخليفة المقتدر وقتل على يد بعض الجند فذبحوه ورفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه، وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوفًا إلى أن مر به رجل فستره بالحشائش ثم حفر له فوضعه ودفنه وكان عمره حين قتل ثمانية وعشرون عامًا[1].

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ص٤٥١.

السابع عشر - عهد الراضي بالله أبي العباس بن المقتدر

١ - خيانة المهدي صاحب المغرب: هذا الخائن هو جد الخلفاء الذين حكموا مصر في هذه الفترة المعروفين بالفاطميين، فهذا الخائن المهدي أدعى أنه علوي أي ينتسب إلى علي بن أبي طالب، وفي نفس الوقت يكون فاطميًا نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ وزوجة علي بن طالب رضي الله عنه[1].

ولكن في الحقيقة أن جد هذا الخائن مجوسي، قال القاضي أبو بكر الباقلاني: إن جد عبيد الله الملقب بالمهدي مجوسي، ودخل المغرب وادعى أنه علوي ولم يعرفه أحد من علماء النسب وكان باطنيًا خبيثًا حريصًا على إزالة ملة الإسلام، وأعدم العلماء والفقهاء ليتمكن من إغواء المسلمين، وجاء أولاده على أسلوبه وعلى طريقته فأباحوا الخمور والفروج، وأشاعوا الفوضى.

٢ - خيانة محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن العزافر[2]: شاع عن هذا الخائن سنة ثنتان وعشرين وثلاثمائة أنه يدعي الألوهية وأنه يحي الموتى، فقتل وصلب وقتل معه جماعة من أصحابه.

٣ - مرداويج زعيم الديلم باصبهان: كان هذا الخائن قد عظم أمره وتحدثوا أنه يقصد بغداد، وأنه مسالم لصاحب المجوس، وكان يقول: أنا أرد دولة العجم وأمحق دولة العرب.

الثامن عشر - عهد المستكفي وخيانة معز الدولة بن بويه

كان علي بن بويه الملقب بمعز الدولة بن بويه قد استولى على العراق سنة ٣٣٤هـ في عهد الخليفة العباسي المستكفي وقوى أمره واشتد نفوذه وخلع الخليفة المستكفي

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ص ٤٥٨.

(٢) انظر: ابن الأثير ٨/ ١٠٠، تاريخ الخلفاء ص٤٥٨.

وسحل عينيه فدخل هذا الخائن على الخليفة في جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ ومعه الديلم، فتقدم اثنان من الديلم إلى الخليفة فمد يديه إليهما ظنًا منه أنهما يريدان تقبيلها، فجذباه من السرير وطرحاه أرضًا وجراه بعمامته، وهاجم الديلم دار الخلافة ونهبوها فلم يبق فيها شيء، ومضى معز الدولة إلى منزله، وساقوا المستكفي إليه ماشيًا وسملت عيناه يومئذ أي فقئت بحديده محماه بالنار[1].

التاسع عشر ـ عهد القائم بأمر الله أبو جعفر بن القادر

خيانة أرسلان التركي المعروف بالبساسيري كانت في سنة ثلاثمائة وخمسين حيث: ظهر هذا الخائن وعظم أمره واستفحل شأنه وانتشر ذكره وهابه أمراء العرب والعجم ودعى له على المنابر وجبى الأموال وخرب القرى وعزم على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة، ثم قبض على الخليفة القائم العباسي فعلاً وحبسه، وكان الخليفة قد كاتب صاحب الغز المعروف بطغرلبك، فجاء سلطان الغز هذا وقبض على البساسيري وقتله.

العشرون ـ عهد المستظهر بالله العباسي
ثم الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر

١ ـ خيانة احمد خان صاحب سمرقند: هذا الخائن أظهر الزندقة فقبض عليه وقتل.

٢ ـ خيانة الباطنية: ظهر أمر الباطنية بالعراق سنة ٤٩٤هـ وكثر قتلهم للناس واشتد الخطب بهم وقتلوا كثيرًا من الخلائق الأبرياء. وفي سنة ٥٠٠هـ حاصر السلطان محمد القلعة التي ملكها الباطنية بأصبهان وهدمها، وقتل كبيرهم وسلخه وحشي جلده تبن، وفي سنة ٥٠٢هـ عادت الباطنية فدخلوا مدينة شيزر على حين غفلة من أهلها في عملية خيانية لصوصية فملكوها وملكوا القلعة، وأغلقوا الأبواب،

---

(١) انظر: تكملة الطبري ١١/ ٤٣٩، الكامل ٨/ ٤٤٨، البداية ١/ ٢١١.

وكان صاحبها خارجًا يتنزه فعاد وأبادهم في الحال، وفي سنة ٥٠٧هـ جاء الأمير مودود صاحب الموصل بعسكره ليقاتل ملك الفرنج الذي بالقدس فوقع بينهم معركة هائلة، ثم رجع مودود إلى دمشق فصلى الجمعة يومًا في الجامع، فوثب عليه باطني خائن فجرحه فمات من يومه، فكتب ملك الفرنج الصليبي إلى صاحب دمشق كتابًا جاء فيه: «وإنَّ أمة قتلت عميدها في يوم عيد في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها» وفي يوم الخميس ١٦ من ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ هجم سبعة عشر خائنًا من الباطنية على الخليفة المسترشد فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه، فأحاط بهم العسكر وقتلوهم.

إحدى وعشرون - عهد الخليفة الراشد بالله بن المسترشد

بعد أن بويع له بالخلافة بعد قتل أبيه المسترشد في سادس عشر ذي القعدة سنة خمسمائة وتسع وعشرين تم خلعه بإدعاء ظلمه وأخذه الأموال وسفك الدماء وشرب الخمر، فلما بلغ الراشد الخلع خرج من الموصل إلى بلاد أذربيجان ومعه جماعة من أتباعه فعاثوا هناك ومضوا إلى همذان وأفسدوا بها وقتلوا جماعة وصلبوا آخرين وحلقوا لحي جماعة من العلماء ثم مضوا إلى أصبهان فحاصروها ونهبوا القرى. وتعتبر هذه خيانة من الراشد فكان عليه بدلاً من ذلك أن يعود إلى بغداد ويتصرف مع من خلعوه ولو بالقوة والقتال ويعيد نفسه خليفة كما كان بدلاً من الإفساد في الأرض، ومرض الراشد بأصبهان مرضًا شديدًا فدخل عليه جماعة من العجم كانوا فراشين معه أي خدمًا له ويعتبرون من رجاله فقتلوه بالسكاكين ثم قُتلوا كلهم وكان ذلك في ١٦ رمضان سنة ٥٣٢هـ[1].

(١) انظر: الكامل ١١٤٠ - ١١٤٢، السير ١٩/ ٥٧٠ - ٥٧١، البداية ١٢/ ٢١٠.

ثنتا وعشرون ـ عهد المقتفي بأمر الله ابن المستظهر وما بعده حتى آخر الخلفاء العباسيين المستعصم

وهكذا فإن الخلفاء العباسيين بعد عهد المعتصم بن الرشيد قد أصبحوا ألعوبة في يد الأتراك الذين جلبهم المعتصم، كما أصبحوا ألعوبة في أيدي بني بويه والسلاجقة يسجنونهم ويعزلونهم أو يقتلونهم وفقدوا هيبتهم ومكانتهم، وأصبح الأتراك لهم هيبة ومكانة فى قلوب الناس أكثر من الخلفاء العباسيين الذين جاءوا بعد عهد المعتصم فضعفت الدولة في عهدهم وتلاشت المكانة والكرامة العربية بوجه عام والعباسية بوجه خاص، ومهدوا بذلك الطريق للصليبيين من جانب وللتتار من جانب آخر ليحتلوا بلاد المسلمين ويدمروها ويفعلوا بالمسلمين الأفاعيل، وكان آخر الخلفاء العباسيين بالعراق هو الخليفة المستعصم بالله أبو أحمد بن المستنصر بالله (٦٤٠هـ - ٦٥٩هـ) والذي قتله التتار شر قتلة بعد أن أودعوه هو وأسرته معسكرهم في ذل ومهانة بالغة، وقد ذبح المغول (التتار) السواد الأعظم من الأهالي كما تذبح الشاه وأضرموا النيران في بغداد، وواصلوا النهب والسلب فخربوا المساجد ليحصلوا على قبابها الذهبية وهدموا القصور بعد أن جردوها مما بها من التحف وأتلفوا الكتب إما بحرقها أو برميها في نهر دجلة الذي تغير لونه من كثرة الأحبار التي كتبت بها هذه الكتب كما قتلوا معظم أهل المدينة دون أن يستثنوا طفلاً أو امرأة أو شيخًا أو مريضًا أو عالمًا[1]، وسنتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد، والخلفاء العباسيون الذين جاءوا بعد المعتصم لا يستحقون أي ذكر بخير فهم الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا لُعبًا في أيدي أتباعهم كما سبق، والسبب في ذلك هو الخليفة المعتصم بن الرشيد بجلبه للأتراك وتكوينه الجيوش القوية منهم وأتاح لهم الفرصة للسيطرة على العرب لأنه جرد العرب من القوة، فكان أخطر شيء هو تجريد العنصر العربي الذي هو أصل البلاد من القوة، وبذلك تم تدميره وإلغاؤه بينما هم أهل البلاد الحقيقيون،

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ص٥٣٦ وما بعدها.

وتم كذلك بزوغ العناصر غير العربية من الأتراك والسلاجقة والديلم وغيرهم فلم يصمدوا أمام زحف التتار والصليبيين وتركوا البلاد فريسة لهم.

ولو كان العنصر العربي هو المسيطر في هذه الأوقات كما كان في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين لما تجرأ التتار ولا الصليبيون على اجتياح بلاد العرب والمسلمين أو احتلالها وتدميرها.

وكانت الخيانة في هذه الأوقات فظيعة لما فعل بالإسلام والمسلمين من الأهوال والمخاطر حيث يعجز عنه الوصف، وأصبحت البلاد محتلة إما من الأتراك الديلم أو السلاجقة أو اليهود ثم جاءت الكارثة الكبرى بالاحتلال المغولي التتاري والاحتلال الصليبي حتى قيض الله تعالى للإسلام والمسلمين من يجعلهم يفيقون من كبوتهم ويقود البلاد للتحرير من الاحتلال المغولي التتاري الصليبي، وذلك بعد الضرب بشدة على أيدي الخونة وتطهير البلاد منهم قبل تطهيرها من أعدائها الخارجيين، لأنه بدون تطهير البلاد من الخونة أولاً، لم يكن من اليسير ولا من السهل تطهيرها من أعدائها الخارجيين، ولما بدأ العنصر العربي يأخذ دوره من جديد بدأ يدافع عن بلاده ويحررها بنفسه بينما تخاذل محتلوها الأتراك والديلم والسلاجقة والبوهيون والفرس وغيرهم عن الدفاع عنها، فلم يدافع عن أى بلد ويحررها سوى أبناؤها، والأحداث التاريخية تشهد بذلك فعبثا أن تطلب من الأتراك أو السلاجقة أو الديلم أن يدافعوا عن الشام ضد الصليبيين.

فالطامة والكارثة التى حلت بالعراق والشام وسائر البلاد العربية على أيدى التتار والصليبيين كانت بسبب تخاذل العنصر العربي ودفنه حيًا بعد تجريده من قوته وإعطاء الفرصة لغيره من الأتراك والديلم وغيرهم للسيطرة عليه، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد فلم يقتد بأبيه الرشيد وجده المنصور ويأخذ منهما عبرة ويأخذ حذره من نفوذ الفرس ممثلين في أبي مسلم الخراساني

والبرامكة، ولم يعطيا للعنصر الفارسي الفرصة للسيطرة على العنصر العربي، لذلك ظلت الدولة الإسلامية العباسية قوية ومتماسكة في عهدهما، وكان من يتجاسر من الأعداء المحيطين بها ويعتدي عليها يعاقب عقابًا مريرًا،وسوف نؤجل الحديث عن الخيانة في عهد آخر الخلفاء العباسيين بالعراق وهو المستعصم بالله ابن المستنصر العباسي إلى ما بعد الحديث عن الأحداث التي وقعت في عهد التتار لأن هذه الأحداث مرتبطة سويًا أشد الارتباط.

ثلاث وعشرون ـ حروب (التتار)

الحديث عن التتار يطول شرحه ولكننا ستتحدث فقط عن الخيانة في عهد التتار والذين يسمون أيضًا المغول، أما باقي الأحداث التاريخية والحربية بالتفصيل فهى موجودة بالمراجع التاريخية لمن أراد الإطلاع عليها، ولكن نقتصر على أهمها دون تدخل منا.

١ ـ موقف حكام الدول الإسلامية عند قدوم المغول (التتار)

لو راجعنا كتب التاريخ في هذا الشأن فسنجد أن الدول الإسلامية كان الفساد منتشرًا فيها والشقاق والخلاف بين أمرائها وحكامها، فكان كل منهم يقاتل الآخر طمعًا في الخلافة أو توسيع مملكته، وانتشر الفساد واقتناء الراقصات واللهو والترف والغناء والزنا وشرب الخمر أثناء هذه الفترة واكتناز الذهب والفضة، وانشغلوا بدنياهم وشهواتهم عن دينهم وكثر الخبث فيما بينهم كما نبأ بذلك النبي ﷺ ، فعند ذلك بعث الله تعالى عليهم التتار، فكان المسلمون أصحاب النصيب الأكبر والأوفر في الخراب والدمار والقتل والتشريد الذي أحدثه التتار في أنحاء متفرقة من العالم.

٢ ـ خيانة أرسلان شاه

كان خيانة أرسلان شاه أمير (القارلوق) هو أول أمير مسلم يعلن ولاءه للتتار وكان ذلك في سنة ١٢١١م، وتبعه على نفس المنوال أمير (المالق) سنة ١٢١٦م.

٣ ـ دور خوارزم شاه وخاله قادرخان في إشعال أول شرارة للحروب التتارية

بعد أن اندمج في مملكة المغول الشطر الشمالي من تركستان الروسية، وبعد انتصار خوارزم شاه على (القبجاق) شجع ذلك تجار خوارزم على اتخاذ الطريق الشمالي المؤدي إلى منغوليا ليتجنبوا اجتياز تركستان الشرقية التي كانت ما تزال في يد (كوجلك) عدو خوارزم شاه، فاتجهت قافلة بزعامة أحمد خوجندي، وأحمد بلخس إلى منغوليا، .ورد جنكيز خان على هذه السفارة بأن أنفذ سفارة سنة ١٢١٨م لتعزيز العلاقات التجارية والسياسية مع خوارزم شاه، وترأس هذه السفارة محمود الخوارزمي وعلي الخواجا من بخاري، ويوسف خالجا، من (أوترار)، وحملت إلى خوارزم شاه هدايا ثمينة جدًا من الذهب والأحجار الكريمة والمسك وأثواب التورجو المصنوعة من وبر الإبل والتي لا تهدى إلا للسلاطين. واستقبل خوارزم شاه هذه السفارة وسلموه رسالة غاية في الرقة واللطف من جنكيز خان جاء فيها: «لا يخفي عليّ عظيم شأنك وما بلغت من المكانة العالية، وقد علمتُ باتساع ملكك ونفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الأرض، وإني أرى أن مسالمتك من جملة الواجبات وأنت عندي مثل أعز أولادي، فإن رأيت أن تهيئ للتجار في الجهتين سبيل التردد عمت المنافع وشملت الفوائد»، فتضايق خوارزم شاه من وصف جنكيز خان له في رسالته بأنه مثل أعز أولاده حيث اعتبر أن هذا التشبيه فيه إهانة له، فلم يوافق على عقد معاهدة مع جنكيز خان إلا بعد أن أطلعه محمود الخوارزمي على فتوحات جنكيز خان في الصين وما لديه من قوات لا يمكنه الصمود أمامها، فوافق في نهاية الأمر على عقد معاهدة مع جنكيز خان، وإلى هنا يعتبر الأمر طبيعيًا وطيبًا ولكن الذي حدث: أن جنكيز خان في سنة ١٢١٨م، أرسل قافلة إلى بلاد خوارزم شاه، فوصلت إلى (أوتّراري)، ببلاد ما وراء النهر والتابعة للدولة الخوارزمية، وكان واليها (قادر خان) خال خوارزم شاه . وتألفت القافلة من ٤٥٠ رجلاً كلهم مسلمون، ومن ٥٠٠ جمل تحمل سلعًا تجارية من

الذهب والفضة والمنسوجات الحريرية ومنسوجات التورجو المصنوعة من وبر الجمال، وفراء السمور والقندس وغيرها، ورأس القافلة عمر خوجا الأوتراري، وجمال المراغي (من مراغة بأذربيجان) وفخر الدين الديزكي البخاري، وأمين الدين الهيراني، لكن والي (أوتراري) خال خوارزم شاه، شرهت نفسه إلى أموال التجار وطمع فيها فاحتجز القافلة وكاتب السلطان خوارزم شاه يقول: (إن هؤلاء القوم قد جاءوا بزي التجار وما قصدهم إلا التجسس، فإن آذنت لي فيهم قبضت عليهم، فأذن له من باب الاحتياط، فقبض عليهم وأخذ أموالهم ووزع السلع على تجار بخاري وسمرقند، وحاز أثمانها لنفسه الدنيئة التي جلبت على المسلمين شراً مستطيراً لم يكن في حسبانه ولا في حسبان نفسه الخائنة، فلم يكن يعلم أنه قد استحوذ على حمل وديع آمن خلفه أسد كاسر افترس جميع آساد الغابة ووحوشها، فقد أرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه سفارة مؤلفة من ثلاثة رجال للاحتجاج عند السلطان على الخيانة والغدر برجال القافلة ومبعوثيه، وكان نص الرسالة التي حملها السفراء إلى خوارزم شاه ما يلى: إنك أعطيت أمانك للتجار، فغدرت، والغدر قبيح، وهو من سلطان الإسلام أقبح، فإن زعمت أن الذي فعله خالك إنما هو بغير أمرك فسلمه إلينا، وإلا سوف تشاهد مني ما تعرفني به، وبدلاً من أن يقوم خوارزم شاه بإطفاء الشرارة التي اشتعلت والنار التي اتقدت ويسكب عليها الماء، سكب عليها بنزينًا ونفخ فيها لتزداد اشتعالاً، فماذا فعل؟!: أمر خوارزم شاه بحماقته وغطرسته وغروره وصلفه، أمر بقتل أحد أفراد السفارة والقبض على زميليه وحلق شعر رأسيهما، وكانا من التتار، وهنا أعلن جنكيز خان الحرب ليس على خوارزم شاه والدولة الخوارزمية فحسب بل على جميع المسلمين. وهذا التصرف الأحمق من خوارزم شاه جر عليه وعلى البلاد العربية والإسلامية شراً مستطيراً وويلات خطيرة وحروبًا مستمرة لم يكن للمسلمين قبل بها في ذلك الوقت ولم يكن لديهم أدني استعداد لها، فكان عليه أن يحترم وعده وميثاقه حتى ولو كان مع الأعداء، فما فعله منافٍ لتعاليم الإسلام، ولا يدل إلا

على حمقه وخسته التي لم يتحمل نتيجتها وحده بل تحمل نتيجتها معه معظم البلاد الإسلامية.

٤ ـ خيانة بعض أمراء المسلمين وتحالفهم مع التتار

وصل الحال ببعض أمراء المسلمين إلى حد تحالفهم مع التتار ضد باقي الأمراء المسلمين، بل منهم من كاتب التتار صراحة وطلب منهم مقاتلة الأمراء المسلمين ووعدهم بمساندتهم وإمدادهم بالمؤن والسلاح والجنود في حالة حربهم مع المسلمين.

٥ ـ خيانة بعض المستشارين المسلمين

بعد أن اكتسح جنكيز خان التركستان الشرقية المجاورة لدولة خوارزم شاه، اتخذ له مستشارين مسلمين خونة وطلب منهم إعداد تقارير له عن قوات خوارزم شاه، وما أعده من خطط لقتال المغول فأدوا إليه ما طلب منهم على أكمل وجه.

٦ ـ خيانة بعض التجار المسلمين من العناصر الساخطة على خوارزم شاه وقوات الأمراء المسلمين في (ألماليق)

في عام ١٢١٩م تقدم جنكيز خان بجيوشه إلى (قاياليق) فتعاونت معه قوات الأمراء المسلمين في (ألماليق) و (قاياليق) فضلاً عن أرسلان خان أمير (القارلوق)، وصحب جنكيز خان أيضًا التجار الخونة الذين استخدمهم كوسطاء بين المغول والسكان الأصليين نظرًا لدرايتهم بأحوالهم الداخلية، واستفاد جنكيز خان من كل العناصر الساخطة على خوارزم شاه، ومن العداء المتأصل بين السلطان وقواده العسكريين، وبفضل التجار والمستشارين المسلمين الخونة استطاع جنكيز خان أن يرسم خططًا استراتيجية بارعة ساعدته على اكتساح واجتياز بلاد خوارزم شاه بكل بساطة وبكل سهولة، وهذا بفضل هؤلاء الخونة من المسلمين الذين مكنوه من ذلك إما بسبب

عدائهم لخوارزم شاه أو خوفهم من المغول أو طمعهم في ولاية إحدى الإمارات التي كان جنكيز خان يمنيهم بولايتها ثم يخلف وعوده معهم ويتخلص منهم بقتلهم لأنهم خونة، وماداموا قد خانوا بلادهم لا مانع من أن يخونوه أيضًا، ونسي هؤلاء الخونة انتماءاتهم الوطنية أو الإسلامية فجروا على بلادهم وعلى بلاد المسلمين الخراب والدمار. وكانت مدينة (أوترار) التى قتل فيها التجار هي أول مدينة تسقط في أيدي المغول للأخذ بالثأر فقبضوا على حاكمها (قادرخان) خال خوارزم خان الذي قتل التجار ثم أوقدوا نارًا وصهروا بها فضة ورصاصًا ثم سكبوهما فى عينيه وأذنيه فمات، ثم قتلوا جميع سكان المدينة من رجال ونساء وشيوخ وأطفال ثم أشعلوا النار في المدينة كلها واندفعوا بعدها كالإعصار لتدمير كل مدن الشرق الإسلامي، وعندما وصلوا إلى بخاري موطن الإمام البخاري قتلوا جميع سكانها وأحرقوا المدينة بعد أن وضعوا صناديق المصاحف تحت أقدام الخيل في الزرائب وكانت خيانة جنكيز خان ووحوشه من التتار أبشع ما يمكن في بخاري، فمن خستهم أنهم سبُوا النساء والذرية وفعلوا الفاحشة بالنساء أمام أهليهم فمنهم من قاتل عن حريمه حتى قتل ومنهم من عُذِّب أشد العذاب. ثم زحفوا على سمرقند ثم جرجانية حاضرة بلاد ما وراء النهر ثم مدينة بلخ عاصمة خراسان ثم مرو ثم غزنة وغرنين وكابول، وملكوا جميع مملكة خوارزم شاه الذي فر إلى إحدي الجزر ومات هناك وحيدًا[1]، فيالها من خيانة مغولية حاقدة سببتها خيانة غادرة حمقاء. وعندما اجتاحوا جرجانية قتلوا كل من فيها ونهبوا الثروات وسبوا النساء والأطفال وحطموا السد الذي يمنع ماء نهر جيحون عن البلد فغرقت وتهدمت الأبنية، ومن أفلت من السكان من القتل غرق في الماء أو هلك بين الأنقاض.

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ص٥٣٩ وما بعدها.

٧- واحدة من خيانات جنكيز خان في مدينة بلخ

عندما توجه جنكيز خان إلى بلخ استسلم أهلهـا وطلبوا الأمان فاستجاب لطلبهم وأعطاهم الأمان، فدخلوها ولم ينهبوها أو يقتلوا سكانها كما هي عادتهم، ثم بعد فترة وجيزة نقضوا عهدهم فقتلوا أهل المدينة وخربوها في عملية خيانية مغولية بشعة.

٨- خيانة المغول وقائدهم تولوي في مدينة (مرو)

عندما توجه التتار إلى مدينة مرو استبسل المدافعون عنها في قتالهم، فحاصروهم لمدة خمسة أيام، ثم أرسلوا إلى حاكم المدينة يطلبون منه الإذعان والتسليم مقابل أن يعطوه وأهل المدينة الأمان فصدقهم حاكمها وتوجه إلى القائد المغولي (تولوي) فاحترمه واثني عليه ليطمئنه وأمره أن يطلب من المدافعين عن المدينة وقائدهم الخروج إليه لينظر في حالهم ويتخذهم معاونين له وأمراء يملكهم على المدن، فلما حضروا إليه وصدقوا كلامه ووعده بالمساعدة لسذاجتهم وسذاجة حاكمهم، قبض عليهم وعلى قائدهم وطلب منهم أن يكتبوا إلى أهل البلد بالخروج إليه، فلما خرج إليه جميع أهل البلد أمر جنوده بقتلهم جميعًا ثم أحرق البلد كلها وأمر بإحصاء القتلى فكانوا سبعمائة ألف قتيل.

٩- خيانة جنكيز خان مع أهل (هراه)

تمرد أهل (هراة) على الوالي المغولي (ومن حقهم التمرد والثورة عليه وعلى أى محتل لبلادهم)، فأرسل جنكيز خان إليها عسكرًا فدخلوا البلد وقتلوا كل من فيه، ونهبوا الأموال وسبوا الحريم وحرقوا المدينة، وبلغ عدد القتلى حسب بعض الروايات مليون ونصف قتيل وذلك سنة ١٢٢١م، وقد هلك جنكيز خان في سنة ١٢٢٧م بعد أن خان البشرية جميعًا حيث خان معظم دول الأرض مسلمين ونصارى وأذاق البشرية الهلاك والدمار والويلات وسفك من الدماء ما لم يسفكه أحد قبله فذهب إلى الجحيم بعد أن خان جميع من وقعت عليه يده من بني جنسه.

١٠ـ خيانة بعض الأمراء المسلمين بعد استيلاء المغول على بلاد خوارزم شاه وفارس

بعد أن استولى المغول على بلاد خوارزم شاه وبلاد فارس وباتوا يهددون الخلافة العباسية في بغداد، كانوا يهددون أيضًا الأمراء الأيوبيين في مصر والشام بعد الاستيلاء على دول شرق أوروبا وروسيا وبلاد السلاجقة الأتراك، وبالرغم من ذلك لم يترك الأمراء المسلمين خلافاتهم ويوحدوا كلمتهم ويستعدوا للخطر القادم فكانت الكارثة والفاجعة عندما تحالف فريق من هؤلاء الأمراء مع المغول ضد بقية الإمارات الإسلامية الأخرى، فحينما وصلت فتوحات المغول إلى قرب حدود الشام كان الأمراء الأيوبيون الذين أتوا بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي، في نزاع فيما بينهم على إمارات الشام والجزيرة ومصر، وانضم إلى هذه الخلافات والنزاعات التي بين (المعظم) صاحب دمشق وبين أخويه الأشرف والكامل في مصر، ثم انضم إلى هذه الخلافات والمنازعات صاحب أربل وصاحب ماردين وصاحب حيفا، ودعا الغازي أخو الأشرف والكامل جلال الدين خوارزم شاه لقتال أخويه الأشرف والكامل فاستنجد الأشرف بالسلطان السلجوقي واستولي جلال الدين على خلاط سنة ١٢٣٠م بعد عدة حروب مع أهلها المسلمين بدلاً من أن يحرر بلاده من المغول، واستعاد الأشرف (خلاط) في نفس السنة.

ماذا كانت نتيجة هذه الخلافات والمنازعات بين أمراء المسلمين؟: كانت النتيجة أن المغول بادروا بالمضي إلى بلاد جلال الدين التي بقيت بدون احتلال مثل الري وهمذان وما بينهما فاحتلوها واستولوا عليها، ثم قصدوا إلى أذربيجان وأنزلوا الخراب والدمار بكل أرجاء البلاد، وحلت الهزائم بجلال الدين على أيدى المغول حتى قتله بعض الأكراد سنة ١٢٣١م، ولما قتل دخل جماعة على الأشرف يهنئونه بموته فغضب منهم وأنبهم قائلاً: فارس في أيدي المغول، وبات متوقعًا إقدامهم على غزو الخليفة العباسي في العراق.

١١ ـ خيانة غياث الدين كيخسرو الثاني بن (كيقباذ) الأول ووزيره

عندما زحف التتار على دولة السلاجقة المسلمة هرب أميرها المذكور غياث الدين إلى الحدود البيزنطية، فما كان من وزيره الخائن مثله إلا أن توجه إلى المغول ووقع معهم معاهدة تقضي باستمرار الدولة السلجوقية مقابل أن تؤدي ما هو مقرر عليها من الجزية للمغول وترسل الإمدادات اللازمة لجيشهم كلما طلبوا منها ذلك، فانظر كيف يتفق هذا الخائن مع المغول على أن يرسل لهم الإمدادات اللازمة لجيشهم ليزدادوا تقتيلاً في المسلمين وتخريبًا وتدميرًا واحتلالاً لبلادهم، فيا لها من خسة وخيانة يتحالف فيها وزير شعب مسلم مع أعدائهم ضد باقي الدول الإسلامية نظير بقاء دولته.

١٢ ـ أفدح الخيانات بطلها سيف الدين بغراق

ورد ذكر هذا الرجل في كتاب (وا إسلاماه) للأستاذ/ علي أحمد باكثير، فقد ورد أن جنكيز خان طاغية المغول قد أرسل جيشًا سماه جيش الانتقام بقيادة أحد أبنائه، وذلك بعد أن تمكن جلال الدين بن خوارزم شاه من هزيمة التتار في معارك متعددة وحقق انتصارات كثيرة عليهم، ولولا كثرة عددهم لتمكن من القضاء عليهم ولكنهم كانوا كالسيل المنهمر والجراد المنتشر، وانطلق هذا الجيش المغولي كالسهام وطفقوا يخترقون البلاد حتى وصلوا إلى أبواب كابول، فقصدهم جلال الدين بكل ما عنده من الجيش، ولما التقى الجمعان اقتتلوا قتالاً شديدًا دام ثلاثة أيام بلياليها، وكان جلال الدين يصرخ في جنوده أثناء المعركة: «أيها المسلمون: أبيدوا جيش الانتقام، وقد انتهى القتال بهزيمة التتار لما أبداه المسلمون من المصابرة والمرابطة والثبات، ويرجع معظم الفضل في ذلك إلى قائد من قواد جلال الدين يدعى سيف الدين بغراق استطاع أن يكيد التتار فانفرد بفرقته عن الجيش وطلع خلف الجبل المطل على ساحة

القتال، ولم يشعر التتار إلا بهذا السيل من المسلمين ينحدر عليهم من الجبل، فاختلت صفوفهم، فأوقع بهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وغنموا ما معهم من الأموال التي نهبوها من البلاد التي مروا بها، إلى هنا فقد أدى سيف الدين بغراق دوراً مجيداً يحسب له لو ظل على موقفه هذا، ولكنها الخيانة، فاختلف قادة جلال الدين على اقتسام الغنائم، فغضب من جراء ذلك سيف الدين بغراق وانفرد بفرقته التى تبلغ ثلاثين ألفا من خيرة الجنود والمقاتلين المسلمين في عملية خيانية وترك بقية الجيش بسبب الدناءة في الغنائم، وتوسل إليه جلال الدين أن يرجع بفرقته إلى الجيش فأبي، وسار معه الثلاثون ألفا من الجنود فبدلا من أن ينقضوا عليه ويقتلوه لخيانته حتى يكون عبرة لغيره، إذا بهم مثله خونة يتبعوا سيف الدين بغراق، ولما علم التتار بذلك جمعوا فلول جيشهم وانتظروا الإمدادات من جنكيز خان الذي قاد جيوشه بنفسه وقدم لقتال جلال الدين، وكان قد ضعف أمره بانسحاب سيف الدين بغراق وفرقته، فلم يتمكن جلال الدين من الثبات للطاغية جنكيز خان الذي هزمه هزيمة ساحقة. فانظر كيف تحول الخيانة النصر الباهر إلى هزيمة ساحقة.

■ **والحقيقة:** أن جلال الدين قد جاهد جهاداً كبيراً ضد التتار، فقد هزمهم عند غزنة مرتين وأفقدهم وعيهم في المرة الثانية، وخلص كثيراً من الأسرى المسلمين، وتحدى جنكيز خان نفسه أن يبرز للقتال واستجاب جنكيز خان لهذا التحدي وتواجه جلال الدين وجنكيز خان وتقاتلوا ثلاثة أيام قتالاً لم يسمع بمثله وكاد جلال الدين أن ينتصر ويجرع جنكيز خان مرارة الهزيمة التى لم يعرفها، ولكن جيش جلال الدين قد تفرق من حوله في عملية خيانية غادرة، ولم يصبر الجيش على القتال بالرغم من شجاعة قائده جلال الدين، فالخيانة هي التي خدمت جنكيز خان ومكنته من النصر.

١٣ - خيانة ابن البهلوان حاكم تبريز

في سنة ٦٢١هـ - ١٢٢٤م هرب الخوارزمية المسلمين أتباع جلال الدين خوارزم شاه إلى تبريز إحدى المدن الإسلامية فلحقهم التتار، فصالحهم ابن البهلوان حاكم تبريز وأرسل لهم الأموال والهدايا، فقالوا له: إن كنت مصالحًا لنا فابعث لنا بالخوارزمية وإلا فأنت منهم، فانخلع قلب ابن البهلوان لأنه لم يكن همه في الحرب ولكن كان همه في السكر والشراب والعربدة، فلما قال له التتار ذلك قتل من الخوارزمية عددًا كبيرًا في عملية خيانية وأرسل برءوسهم إلى أسياده التتار مع تحف وهدايا كثيرة وكان عدد التتار ثلاثة آلاف أما الخوارزمية فكانوا أضعاف أضعافهم.

١٤ - خيبة مائة رجل من مراغة

روى ابن الأثير أن رجلاً واحدًا من التتار دخل دربًا من دروب مدينة مراغة بعد فتحها، وكان بالدرب مائة رجل لم يستطع منهم أحد أن يتقدم إليه، وما زال يقتلهم واحدًا بعد الآخر حتى قتل الجميع ولم يرفع أحد منهم يده إليه ونهب ذلك الدرب وحده، فلا نقول في حق هؤلاء المائة من الرجال إلا أنهم لم يكونوا يستحقون القتل فحسب بل كانوا يستحقون ما هو أشد منه لشدة جبنهم وذعرهم، فلو كانوا مائة طفل وليسوا مائة رجل لهجموا على هذا التتاري وقتلوه، ولكنهم استسلموا له فقتلهم جميعًا فمرحى له من رجل قضى على مائة كاملة من الجبناء، ثم قال ابن الأثير: (ودخلت امرأة من التتار في زي رجل بيتًا فقتلت كل من في البيت وحدها)، ثم استشعر أسير معها أنها امرأة فقتلها، والآن نصل إلى الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين بالعراق والذى تم في عهده تدمير بغداد وإبادة أهلها على يد هولاكو ومن معه من التتار.

أربع وعشرون ـ عود إلى الدولة العباسية

عهد الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في العراق

حدث في عهده خيانة ذو شقين: شق إسلامي وشق مغولي تتاري، وبادئ ذي بدء فقد جاء عن هذا الخليفة أنه كان متدينًا متمسكًا بالسنة كأبيه وجده، ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة، وسنوجز بعض ما جاء عنه في الأسطر القادمة.

١ ـ خيانة الدويدار والشرابي

وهما اللذان كان بيدهما مقاليد الحكم الفعلية، ويسيرون أمور الدولة كيفما شاءا دون أى اعتبار أو أي وزن للخليفة العباسي، فكانا يوليان من يشاءان من الخلفاء، ممن يكون على هواهما، ويخلعان من لا يكون على هواهما، كان للخليفة السابق المستنصر بالله أخ يعرف بالخفاجي، وكان ذو شجاعة وشهامة وكان يقول: إن ملكني الله تعالى الأمر (أي لإن صرت خليفة للمسلمين) لاعبرن بالجيوش نهر جيحون وأنتزع البلاد من التتار وأستأصلهم، فلما توفى الخليفة المستنصر لم ير الدويدار والشرابي والكبار تقليد الخفاجي الأمر وخافوا منه، وآثروا المستعصم للينه وانقياده، وليكون لهم الأمر فأقاموه خليفة ليكون ألعوبة في أيديهم يفعلوا به كيف يشاءون.

٢ ـ خيانة الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الرافضي

من العجب أن الكتاب الوحيد الذي يدافع عن هذا الوزير الخائن هو كتاب التاريخ الإسلامي العام للدكتور/ علي إبراهيم حسن، أما باقي المراجع فتتفق جميعها على فداحة خيانة هذا الرجل ابن العلقمي الرافضي.

فخيانته أشد مرارة من العلقم فقد جاء عنه أنه: (ركن الخليفة المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين بن العلقمي الرافضي، فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف

أراد، وباطن التتار وناصحهم، أي كاتبهم وراسلهم في السر وأطمعهم في المجيء إلى العراق وأخذ بغداد وقطع الدولة العباسية ليـقيم خليفة رافضي فاطمي، وكان إذا جاء الخبر من التتار كتمه عن الخليفة، أما أخبار الخليفة فيطالع بها التتار، إلى أن حصل ما حصل)[١]، ويستمر السيوطي في شرحـه فيقول: ولما دخلت ٦٥٦هـ وصل التتار إلى بغداد وهم مائتا ألف، ويقودهم هولاكو فخرج إليهم عسكر الخليفة فهُزِم.

ودخلوا بغداد يوم عاشوراء، فأشار الوزير ابن العلقـمي، على الخليفة المستعصم بمصانعتهـم وقال: أخرج إليهم أنا فى تقرير الصلح، فخـرج وتوثق بنفسه منهم، ثم عاد إلى الخليـفة وقال: إن الملك (أى هولاكـو) قد رغب أن يزوج ابنته بإبنك الأمـير أبي بكر ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى صاحب الر في سلطنته، ولا يريد إلا أن تكون له الطاعة كما كـان أجدادك مع السلاطين السلجوقية (السـلاجقة) وينصرف عنك بجيوشه، فليجب مولانا إلى هذا فإن فيه حقن دماء المسلمين.

ويمكن بعـد ذلك أن تفـعل ما تـريد، والرأى أن تخرج إليـه، فـخـرج الخليفـة المستعـصم إلى هولاكو بناء على كلام الوزير ابن العلقمي هذا في جـمع من الأعيان فأنزل في خيـمة، ثم دخل الوزير الخائن فاستدعي الفـقهاء والأكابر ليحضـروا العقد الذي زعم لهم أن هولاكو سيبرمه مع الخليفة المسـتعصم، فضربت أعناقهم في عملية خيانيـة خسيسة ولم يقف الأمـر عند هذا الحد، بل صارت كذلك تخـرج طائفة بعد طائفة من الفقهاء والعلماء وهُم لا يدرون بما حدث لمن قبلهم فتضرب أعناقهم كذلك على مرأى ومسـمع من الخائن ابن العلقمي، وبيـد الغادر هولاكو وأتباعـه حتى قتل جميع من هناك من العلمـاء والأمراء والحجاب والكبراء، ثم مد الجسر وبذل السيف في بغداد واستمر القتال فيهـا نحو أربعين يومًا فبلغ عدد القتلى من المسلمين أكثر من الف الف نسمة أى أكثر من مليون نسمـة، وقتل الخليفة ركلا بالأقدام، قال الذهبي:

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي.

وما أظن أن الخليفة المستعصم قد دفن، وقتل معه جماعة من أولاده وأعمامه، وأسر بعضهم، وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها.

ولم يتم للوزير الخائن ابن العلقمي ما أراد، وذاق من التتار الذل والهوان، ولم تطل أيامه بعد ذلك فلما فرغ هولاكو من قتل الخليفة وأهل بغداد، وأقام على العراق نوابه، وكان ابن العلقمي قد حسن لهم أن يقيموا خليفة فاطميًا فلم يوافقوه وأطرحوه وأهملوه، وصار معهم في صورة بعض الغلمان، ومات كمدا، وكان شيعيًا رافضيًا خبيثًا، فبعد أن كان وزيرًا للخلفاء أصبح بخيانته خادمًا للتتار.

٣ـ خيانة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل

حينما اتجهت الجيوش المغولية إلى بغداد في نوفمبر عام ١٢٥٧م، واجتازت الموصل، كاتب التتار بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والمتواطئ مع التتار ضد شعبه المسلم ليهيئ للتتار الإقامة والسلاح، فأمدهم بعسكر من عنده ليقاتلوا مع التتار ضد إخوانهم المسلمين، ومهد لهم ما يريدون وبعد سقوط بغداد أرسل هولاكو رءوس الوزراء الذين قتلهم إلى هذا الخائن فعلقها على أسوار الموصل ثم توجه إلى هولاكو ليهنئه بتدمير بغداد وقتل أهلها.

٤ـ خيانة أبي بكر ابن الخليفة المستعصم وركن الدين الدوادار

في عام ١٢٥٧م اشتعلت الفتنة بين السنيين والشيعة على جاري عادتهم، وكان أبو بكر ابن الخليفة المستعصم وركن الدين الدوادار يتزعمان السنيين، فأمر العسكر بنهب الكرخ مركز تجمع الشيعة وهتكوا أعراض النساء، فيالها من خيانة بشعة أن يهتك رجال مسلمون أعراض نساء وإن كن من الشيعة لكنهن مسلمات فعظم ذلك على ابن العلقمي الشيعي، فكاتب التتار وأطمعهم في ملك بغداد ثم أرسل إليهم أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم، فهذه خيانة من أبي بكر بن

الخليفـة وركن الدين الدوادار والوزير مؤيد الدين ابن العلـقمي تسببت فيمـا حدث لبغداد وأهلها والخليفة على يد التتار

٥ـ انشغال الخليفة المستعصم عن تدبير ملكه وتقوية جيشه وتفرغه للهو والجواري وطاعته لابن العلقمي

في سنة ١٢٤٢ - ١٢٥٨م، كـان المستـعصم بـالله هو الخليفـة في هذا الوقت، وكـان يتـصف بالضعـف ولين الجانب وقلـة الخبـرة بأمـور المملكة والدولة وضـعف الشخصيـة وسيطرة أصحابه عليه كمـا كان منشغلاً عن أمور الخلافـة بسماع الأغاني والملاهي وشراء الراقـصات والجواري وشـرب الخمر، وفي ذلك الوقت قـاد هولاكو بنفسه والتتار لغزو مقر الخلافة العباسية ببغداد وكانت الثقة بين الخليفة المستعصم وبين قادة جيشه منعدمة، وكان بإمكانه أن يـحشد ١٢٠ ألف مقاتل لمواجهة المغول، ولكن وزيره الرافضي الشـيعي مؤيد الدين ابن العلقـمي الخائن أشار عليه بأن يخـفض عدد الجيش ويحمل إلى المغـول متحصل إقطاعاتهم وبذلك يتجنب خطـر المغول، فخفض الجيش إلى حوالى عشرين ألف مقاتل وأدي ذلك إلى ضعف الجيش وطمع المغول في ثروة الخلافة وفي الاستيلاء على بغداد، وزحف هولاكو على بغداد في يناير ١٢٥٨م وخرج جيش الخليفة بناء على أوامر كـاتب الخليفة السني مجاهد الدين أيبك الدوادار الذي فضل الجهـاد على الاستسلام والخـضوع، لكن المغول قطعوا السـدود والجسور فغمرت المياه الأراضي الواقعة وراء جيش الخليفة ثم هاجموهم فلقي أثناء القتال عشر ألفًا من جيش الخلـيفة مصرعـهم، ولاذ الباقون بالفرار إلى الشـام وتركوا الدفاع عن المدينة، وحـاول الخليفـة استمـالة المغول فـأرسل إليهم وزيره الشـيعي ابن العلـقمي و(ماكيخا) وجـاثليق المسيحيين النساطره، نظرًا لما للمسيـحيين النساطره من نفوذ عند هولاكو، ولكنهما لم يسـتطيعا إثارة عطف هولاكو ورحمته على الخليـفة حيث أصر على غـزو بغداد، بل جاء في بـعض الكتب أن الوزير ابن العلقمي الخـائن هو الذي

أشار على هولاكو بقتل الخليفة وفي ١٠ فبراير ١٢٥٨م قدم الخليفة على هولاكو الذي طلب منه أن يصدر أوامره إلى جميع السكان بالخروج من المدينة وإعلان الإذعان برفع أيديهم إلى أعلى فصار الأهالى يخرجون إلى المغول طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا قتلهم التتار عن آخرهم إلا أن جانبا من السكان لم ينفذوا ما صدر إليهم من أوامر، فلما دخل المغول المدينة طاردوهم وأجروا فيهم مذبحة جماعية ثم أشعلوا الحرائق في المدينة ونهبوها واستباحوها لمدة سبعة أيام، ثم شرعوا في قتل الشيوخ والأطفال والنساء ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يومًا، واحترقت المساجد والمدارس ونبشت القبور على أيديهم .

ودخل هولاكو قصر الخليفة العباسي المستعصم وأمر بإحضاره، فمثل أمامه وهو يرتعد من شدة الخوف، وأمره هولاكو أن يدلهم على مكان الكنوز والنفائس الموجودة بالقصر، فقدم له الخليفة كثير من الثياب الفاخرة والمجوهرات وألوف الدنانير، فلم يلتفت إليها هولاكو، وأمر جنده بأخذه غنيمة وقال للخليفة: هذه تملكها على سطح الأرض وأمرها واضح، ولكن نريد أن تدلنا على ما خفي من الثروة، فاعترف الخليفة بوجود حوض بداخل القصر مملوء بالذهب، فلما حفروا وجدوه مملوء بالذهب الابريز، كل قطعة منه تزن مائة مثقال، وأمر هولاكو بإحصاء عدد نسائه وخدمه فوجدهم ٧٠٠ امرأة من أجمل النساء، وألفًا من الخدم[١] .

٦- توبيخ الخليفة المستعصم

بكى الخليفة وهو يتضرع إلى هولاكو ويقول له: امنحني تلك النسوة اللاتي لم يكن يطلع عليهن ضوء الشمس ولا نور القمر.

(١) انظر: يأجوج ومأجوج قادمون للأستاذ هشام عبد الحميد.

ثم في اليوم التالي لما قال الخليفة أنه جائع، طلب له هولاكو طبقًا مملوءًا بالذهب وقال له: كل هذا الذهب، لماذا كنزت هذا الذهب ولم توزعه على شعبك كي يحمي عرشك وملكك؟ لماذا لم تحول حديد قصورك إلى رماح تسددها إلى صدورنا لتحمي شعبك وبلدك؟ ولماذا لم تعبر إلينا نهر جيحون وتدفعنا قبل أن ندهم أرضك ونقتل شعبك؟ ولماذا احتفظت لنفسك بالمئات من أجمل النساء وحبستهن على نفسك فلم يطلع عليهن ضوء الشمس ولا نور القمر؟ وانشغلت بهن عن مصالح دولتك وشعبك؟

٧ـ مقتل المستعصم

ثم أمر هولاكو بوضع الخليفة في غرارة (جوال) وأمر جنوده أن يركلوه بالأرجل ويلعبوا به الكرة حتى لقى حتفه داخل الجوال وبعد سقوط بغداد وإرسال رءوس الوزراء إلى الخائن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والمتواطىء مع المغول ليعلقها على أسوار الموصل وقدومه إلى بغداد لتهنئة هولاكو كما ذكرنا، قدم إلى هولاكو أيضًا كل من أتابك فارس والأخوين عز الدين كيكاوس الثاني وركن الدين قلج أرسلان الرابع الذين اقتسما سلطنة السلاجقة بآسيا الصغرى ليقدموا التهنئة إلى هولاكو رغم أنهم من الأمراء المسلمين، ووصل الأمر بعز الدين إلى أنه أظهر الندم، وألح في طلب العفو من هولاكو لأنه سبق أن حاول التمرد على القائد المغولي (بايجو) فعفا عنه هولاكو وأقره على ملكه، فيا لها من خيانة يندى لها الجبين وخاصة إذا كانت من قادة وحكام، وعجبًا لأمر هذا الخليفة كيف يرضى لنفسه هذه الذلة والمهانة على يد هولاكو، وكيف يصل به الحال إلى هذا الهوان وهو سليل السفاح والمنصور والمهدي والرشيد، ولماذا لم يهجم على هولاكو بنفسه أو يطلب مبارزته فإما أن يقتل هولاكو ويريح المسلمين من شره، وعند ذلك كانت سترتفع الروح المعنوية لشعبه وجيشه

ويقفوا وراءه صفًا واحدًا ويدافعوا عن بلدهم ويحفظوا كرامتهم وشرفهم وأعراضهم فإن عجز عن ذلك فكان عليه أن يقاوم قدر استطاعته، ولا شك أن هذا الخليفة كان يتمتع بقوة جسدية كبيرة لأنه عنده سبعمائة امرأة من أجمل النساء وتفوق قوته قوة الأسد الكاسر، وإذا كان قد قتله هولاكو فيكون قد محى العار والذل عن نفسه ذلك العار الذي أصبح يلازمه مدى الدهر، ويلاحقه مدى التاريخ، ثم لماذا ادخر كل هذا الذهب وكل هذه الأموال ولم ينفقها على تجهيز الجيوش وتدريبها وتقويتها للدفاع عن البلاد؟ وقد صدق هولاكو فيما وجه إليه من أسئلة.

وورد أنه قد تم أسر ألف فتاة بكر من دار الخلافة، وأن الناس كانوا يغلقون على أنفسهم الأبواب فيقتحمها التتار، فيهربون منهم فيطلبونهم حتى يقتلونهم فوق الأسطح فتسيل المزاريب بالدماء في الأزقة، وكذلك كانوا يفعلون في الناس بالمساجد والجوامع ولم ينج منهم أحد سوى اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم أو دخل دار الوزير الرافضي ابن العلقمي، وكانوا يطلبون الرجل من بني العباس فيخرج بنسائه وأمواله فيذبح كما تذبح الشاه ويأسرون من يختارون من بناته وجواريه، كما قتلوا الخطباء والأئمة، وحملة القرآن، وقتلوا أبناء الخليفة الذكور وأسروا البنات.

الباب الرابع

عهد التتار بعد قتل الخليفة المستعصم العباسي

١ - خيانة الناصر يوسف الأيوبي حاكم الشام

عندما اقترب المغول من الشام بعد مقتل الخليفة المستعصم واهلاك بغداد وأهلها كما سبق، أعلن حاكم الشام الناصر يوسف الأيوبي ولاءه للمغول وأرسل في سنة ١٢٥٨م ابنه العزيز ومعه عدد من الأمراء المسلمين إلى هولاكو وطلبوا منه أن يساعد الناصر في استخلاص مصر من أيدي المماليك، ولكن هولاكو كان مصراً على إخضاع الشام ومصر للحكم المغولي، فكيف يساعد هذا الخائن على استخلاصها له وهو يريدها لنفسه.

٢ - خيانة الأمراء الأيوبيين وخيانة الكرج والأرمن المسيحيين

بادر الأمراء الأيوبيون بإعلان الولاء لهولاكو رغم إصراره على قتال الأيوبيين بأعالي الجزيرة، فأنفذ هولاكو حملة لقتال الكامل محمد بن شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب ميافارقين الذي رفض الاعتراف بسيادة المغول، فهاجم المغول ميافارقين فسقطت في أيديهم في أوائل سنة ١٢٦٠م بفضل مساعدة الوحدات العسكرية من الخونة الكرج والأرمن المسيحيين لهولاكو.

ودارت مذبحة في السكان المسلمين، بينما لم يتعرض المسيحيون لأي شيء من الأذى لأن هولاكو كان يعتبرهم حلفاء ومناصرين له، وبلغ من تعذيب المغول للكامل محمد بن شهاب أنهم أخذوا يقتطعون أجزاء من جسمه في عملية وحشية مغولية همجية ويرغمونه على تناولها وأكلها في عملية بشعة حتى لقى حتفه آخر الأمر ورفعوا رأسه على رمح وطافوا به أنحاء البلاد.

٣ ـ خيانة أخرى للناصر يوسف الأيوبي والمنصور الثاني حاكم حماه

استدار المغول إلى حلب واستولوا عليها فلما علم الناصر يوسف الأيوبي بذلك هرب من دمشق بمن معه من العسكر كما يهرب الفأر، وهرب معه كذلك المنصور الثاني صاحب حماه تاركين شعوبهم عزلاً بدون سلاح نهبا وفريسة سهلة للمغول، فاضطر أعيان حماه لأن يعلنوا إذعانهم لهولاكو، فأعطاهم وأهل المدينة الأمان وعين عليهم ذنبًا من أذنابه من الفرس واليا عليهم هو خسروشاه.

٤ ـ أثر هذه الخيانة على أهل دمشق

لما رأى أهل دمشق ما حل بغيرهم وهروب حكامهم الخونة توجه وفد من الشيوخ والأعيان إلى المغول وأظهروا لهم الولاء والخضوع فقبلوا منهم وعينوا عليهم حاكمًا عسكريًا مغوليًا.

٥ ـ خيانة القائد المغولي كتبغا نائب هولاكو وموقف مشرف لوالي قلعة دمشق

بعد أن استسلم أهل دمشق للمغول كما سبق لهروب حكامهم الخونة،رفض والى قلعة دمشق هو وجنوده الاستسلام للمغول وفضلوا الجهاد والاستشهاد على الاستسلام وقاوموا المغول مقاومة عنيفة ولكنها بالطبع غير متكافئة، فقتلهم جميعًا القائد المغولي كتبغا في مارس ١٢٦٠م بعد أن حاصر القلعة ونصب عليها المجانيق، فكان موقف والى قلعة دمشق وجنوده أكثر شرفًا من موقف حاكمه الناصر الجبان الذي ترك المدينة وهرب ، وأفضل من أهل دمشق الذين فضلوا الاستسلام للعدو والخضوع والذلة على الجهاد والاستشهاد، فياليتهم فضلوا الجهاد والاستشهاد ومقاومة العدو المغولي الوحشي حتى ولو بالعصى والحجارة على أن يخضعوا ويستسلموا، حيث حكموا على أنفسهم بالذلة والمسكنة والمهانة أمام هذا العدو البربري الحاقد.

٦ - خيانة النصارى في دمشق

انتهز النصارى فرصة انتصار المغول، وارتموا في أحضانهم وأظهروا من الشماتة للمسلمين ما يعجز عنه الوصف، ونسي هؤلاء أنهم قد تربَّوا، وترعرعوا في هذه البلاد وأكلوا من خيراتها واحتموا ببيوتها، ونسوا أن المسلمين كانوا يعاملونهم أحسن معاملة، ولكنه الحقد الدفين الذي أخذ ينفس عما في صدره من بغض للإسلام، فعندما دخل المغول دمشق أعلن النصارى الذين كانوا بها التمرد على المسلمين والثورة عليهم بعد أن عاشوا في كنفهم هم وأجدادهم هذه القرون الطويلة، وأعلنوا جهرا فرحتهم وشماتتهم بالمسلمين وبما حل بهم من نكبة مغولية، ولم يخف سيدهم كتبغا القائد المغولي نائب هولاكو، ما يكنه من الميل والتعاطف نحو هؤلاء الصليبيين حيث كانوا حلفاء له، وفضلوا أن يكونوا عبيداً عنده على أن يظلوا أحراراً في رحاب المسلمين، ويشير المقريزي رحمه الله إلى أن النصاري بدمشق استطاعوا الحصول من هولاكو على فرمان يقضي بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، وكأن دينهم لم يكن مقاماً في رحاب المسلمين، وأخذ هؤلاء يشربون الخمر جهراً في نهار رمضان ويرشوه على ثياب المسلمين في الطرقات ويصبوه على أبواب المساجد، وألزموا المسلمين بالقيام وقوفًا إذا مروا عليهم بالصليب، وأهانوا كل من كان يمتنع عن القيام للصليب، وصاروا يمرون بالصليب في الشوارع إلى كنيسة مريم ويقفون ويخطبون في الطرقات ويثنون على دينهم ويمجدونه جهاراً، ويقولون جهراً أمام المسلمين: ظهر الدين الصحيح دين المسيح، فاغتاظ المسلمون من ذلك وشكوا أمرهم لقائد المغول كتبغا نائب هولاكو، فأهان المسلمين وضربهم وعظم قدر أذنابه قساوسة النصارى وزار كنائسهم وأقام شعائرهم كيدا للمسلمين، فيا لها من خيانة ارتمت في أحضان الخيانة المغولية التتارية الضارية، وكذلك فقد التقت أذناب الحقد، فاتحدوا وتحالفوا مع بعضهم ضد

الإسلام والمسلمين، رغم أن المسلمين في كل بلد وفي كل عصر لم يقدموا للأقليات النصرانية التي تعيش بينهم إلا كل خير وعطف.

٧ ـ خيانة الزين الحافظي

رجل وضيع ارتضى لنفسه أن يكون ذنبا من أذناب التتار وارتضى لنفسه أن يكون ذيلاً لهم فوافق على أن يقوم بأمر دمشق للمغول ويكون خادمًا عندهم، فأخذ يجمع من الناس أموالاً طائلة يشتري بها ثيابًا فاخرة وهدايا باهظة ويقدمها لسيده كتبغا نائب هولاكو ولسائر أمراء المغول، وصار يحمل الضيافات والموائد والأطعمة الفاخرة لهم كل يوم، ولو كان هذا الخائن مغوليًا مثلهم فإنه لن يسارع إلى فعل هذه الأعمال لهم، وكأنه وجد لذة ومتعة مغرية في خيانته لبني وطنه وجلدته، وكأن المغول والتتار كانوا أباءه وأجداده، أو كأن أمهُ قد التقطته وحملت به سفاحا من أحد المغول، وأثار عمله ذلك غضب وسخط المسلمين ولكن لا حياة لمن تنادي.

نهاية الهمجية التتارية

(في معركة عين جالوت)

الحديث بالتفصيل عن هذه المعركة الخالدة سيأتي في الجزء الثاني عند الحديث عن انتصارات المسلمين ولكن باختصار شديد فإن الله تعالى لما أذن بإطفاء هذه النار المتأججة المستعرة نار المغول، وأذن سبحانه وتعالى بتدمير دولتهم وسحقها من الوجود، فعين لمصر حاكمًا مسلمًا وسيفًا بتارًا هو السلطان سيف الدين قطز، وكان هذا الرجل من خير من أنجبتهم الأمهات ومن خير من أنجبهم الإسلام ومن خير من أنجبتهم الأمة، فانبثق النور الباهر على يديه من خلال الظلام الدامس الحالك، انبثق النور على يديه بفضل الله تعالى فنفخ في المصريين من روحه الإسلامية المخلصة ونادى بأعلى صوته: إنني سأقاتل المغول ولو بمفردي، فمن أراد أن يتبعني فليتبعني ومن أراد أن يتقاعس ويتخاذل فليتقاعس وليتخاذل وليذهب وشأنه إلى حيث يريد، فهب المصريون على قلب رجل واحد خلف هذا البطل الذي قيضه الله تعالي للقضاء على التتار وسحقهم وإنقاذ مصر والعالم الإسلامي من براثنهم وتطهير الشام وسائر البلاد من حقدهم المغولي الهمجي.

وأخذ ثأر الملايين المسلمة التي قتلوها في وحشية لم تحدث في التاريخ من قبل، فكان هدف هذه الجيوش المفترسة القضاء على العالم كله وتدميره، ولم يبق أمامهم سوي مصر والمغرب العربي (الشمال الإفريقي) والحجاز واليمن، وكانت مصر بفضل الله تعالى هي الصخرة التى تحطمت عليها أحلامهم القائمة وموجاتهم العاتية وجيوشهم الجرارة التى لم تهزم من قبل، فهب الشعب المصري بجميع فئاته ووقفوا صفًا واحدًا خلف قائدهم المسلم البطل قطز، وكان ذراعه الأيمن الظاهر بيبرس، هب الجميع في عزيمة صادقة وعقيدة إسلامية خالصة وتعاهد الجميع على الجهاد وعلى قتال المغول والتتار لآخر قطرة من دمائهم، وتعاهدوا على إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة.

وكان قائد التتار هولاكو قد أرسل إلى قطز والمصريين رسالة طويلة يهددهم ويأمرهم بالإذعان والخضوع والاستسلام، فما كان من قطز إلا أن قتل الرسل وعلقهم على باب زويلة، ولم يترك فرصة لهذا المغولي هولاكو أن يدنس أرض مصر الطاهرة بأقدامه وأقدام جنوده فقرر الزحف إليهم ولم ينتظرهم حتى يفاجئوا مصر بزحفهم الغادر كما فاجأوا بقية البلاد السابقة.

بداية المعركة وتحقيق النصر

خرجت طلائع الجيوش المصرية بقيادة بيبرس وتبعهم بقية الجيش المصري البطل بقيادة السلطان قطز والتقوا مع المغول عند عين جالوت بفلسطين في يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م، وسحق المصريون ولأول مرة جحافل المغول والتتار وأسروا قائدهم كتبغا وقتلوا أهل بيته كما كان يفعل بالمسلمين وتتبعوا فلولهم حتى طردوهم من الشام وطهروا بلاد الشام منهم وعبروا خلفهم نهر الفرات، وعلى الضفة الأخرى من النهر خر المصريون ساجدين لله تعالى.

انطفاء شعلة التتار

وبهزيمة المغول الساحقة في عين جالوت قُطعت الإمدادات عن جيوشهم المتوغلة في أوروبا فتوقفت هذه الجيوش وأسرعت بإعلان إسلامها وتحالفت مع المصريين ضد بقية المغول الذين مازالوا في البلاد الأخرى، ثم استقر بهم المقام في جنوب روسيا في منطقة بحر قزوين، وبدأت دولة المغول والتتار تضعف شيئًا فشيًا حتى انطفأت وذابت في بقية الشعوب الأسيوية الأخرى كأنها لم تكن.

وأصبحت معركة عين جالوت شقيقة لمعركة حطين والقادسية واليرموك وأجنادين والزلاقة وغيرها من المعارك الإسلامية الخالدة، ولو لم يكن لمصر في التاريخ سوي

هذه المعركة الخالدة لكفاها فخراً وكرامة، فقد أنقذ الله تعالى بهـده المعركة المجيدة، البشرية من الهلاك والفناء على يد هؤلاء المغول أعداء المدنية والحضارة، فكان قائدهم الخائن الأكبر جنكيز خان قد أعلن صراحة أنه لا يكف عن إفناء العالم كله، وأعلنها كذلك حفيده الحاقد هولاكو، فكان هذان الرجلان ألد أعداء البشرية كلها.

وكذلك لو لم تنجب مصر من الأبطال والمجاهدين سوى قطز وبيبرس لكفاها ذلك مجداً فإن معركة عين جالوت تعتبر أكبر وأعظم درة على جبين مصر والمصريين وقائدهم المجاهد سيف الدين قطز وكذلك رفيق كفاحه وذراعه الأيمن الظاهر بيبرس على مدى الأيام والتاريخ .

الباب الخامس

ضياع الأندلس

إن القلب لينزف كلما اقرأ كتابًا عن الأندلس ومـا قام به أسلافنا من جهود رائعة في فتح الأندلس وجعلها درعًا واقيًا للإسلام والمسـلمين لمدة ثمانية قرون، ثم يُضيِّعُها شـرذمة من الخـونة الذين كانوا مـسلمين بالاسم ولكن الإسـلام منهم بريء، لأنهم مارقون يعتـبرون سبة للعروبة والمسلمين مدى الدهر، وظَلَلْتُ مـدة غارقًا في بحر من الحزن والحيرة الشـديدة على ضياع الأندلس الإسلامية وانتـزاعها من أيدى المسلمين، فكيف يضـيع ويطير هذا القطر الـغالي من أيديي المسلمين بعـد أن كان زهرة العـالم الإسلامي الناضرة ودرعـه القوي الواقي لمدة ثمانية قرون، وكانت خـلالها هذه البلاد إسلامية بحتة وخالصة، فأين كان العرب والمسلمون؟ وفي زمن واحد كان يعتبر أسود الأزمنة وأحلكها بالنسـبة للإسلام والمسلمين وأين كانت هذه النخوة الإسـلامية؟ وأين كانت البطولات التى فتحت واستحوذت عـلى معظم بلاد الكرة الأرضية وكونت أكبر إمبراطورية إسلامية في التاريخ؟ ولكن بعد مـا قرأت عن الخيانات الدنيئة التى قام بها هؤلاء عـرفت أن الأندلس كان لا بد أن يضـيع وأن ينتزع من أيدي المسلـين، وكان لابد لهؤلاء أن يُـطردوا صاغرين من الأندلس إلـى غير رجـعة بعـد أن نجح أجدادنا العظام من المسلمين في فتحها والسيطرة عليهـا وجعلها إحدى قلاع الإسلام الحصينة، لمدة ثمانية قـرون، فقد أضاع هؤلاء جـهود طارق بن زياد، وموسى بن نصيـر وعبد الرحمن الداخل وغيرهم من أبطال المسلمين وجعلوا هذه الشـمانية قرون الإسلامية في الأندلس كأنها حلم ليلة غبراء مضت عبر الزمان.

أولاً ـ خيانة سليمان بن يقظان الكلبي المعروف بالأعرابي والي برشلونه، والحسين بن يحيي الأنصاري والي سرقسطة

تعرض الأندلس أيام عبد الرحمن بن معاوية المعروف بعبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قريش، إلى محاولة قام بها شارلمان للاستيلاء على سرقسطة، الثغر الأعلى، ولو وفق شارلمان لذلك لما كان من المستبعد أن يستطرد إلى غيرها من عواصم الأندلس، ومن حسن الحظ أن الأندلس كان مجتمعًا تحت راية عبد الرحمن الداخل في ذلك الوقت، فتمكن من إحباط الخطر المحيط به، ومن الأسف أن الذين لفتوا نظر شارلمان إلى الأندلس ودعوه إلى غزوه، ووعدوه بالمعاونة كانوا عربًا يتزعمهم: سليمان بن يقظان الكلبي المعروف بالأعرابي والي برشلونة و(الحسين بن يحيى الأنصاري) والي سرقسطة، وقد بلغ عطشهم للانتقام من عبد الرحمن إلى درجة أنه هان عليهم أن يعرضوا الإسلام في الأندلس للخطر في سبيل أحقاد شخصية، وقد بلغ بهم الأمر أن ذهبوا للقاء شارلمان في (بادر بورن) في ولاية (وستفاليا) في غرب ألمانيا الاتحادية الحالية واتفقوا معه على أن يعاونوه فى الاستيلاء على سرَقُسْطَه، فانظر كيف يقطع هذان الخائنان هذه المسافة الشاسعة الطويلة ولم تكن هناك أيامها وسائل مواصلات سريعة كالتي لدينا الآن، وكيف تحملا هذه المشقة من أجل ارتكاب الخيانة؟[1]

وفي شوال ١٦١هـ سار شارلمان نحو أسبانيا في جيش ضخم فعبر جبال ألبرت من الشرق أي من ناحية (نربونه) ودخلت بعض الفرق النصرانية في ممر الجزء الغربي من الجبال يسمى (رنشفالة) أو (باب الشزري) وكان الاتفاق أن يعاونه البشكونس من

(١) انظر: في ذلك معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس.

حلفاء المسلمين في ذلك العمل وأن يقوم (الحسين بن يحيي الأنصاري) بتسليم سرقسطة إذا وصل إليها، ولكن بعد أن استولى شارلمان على بنبلونة ورأى جمهور المسلمين من أهل الثغر الأعلى أن سليمان بن يقظان الأعرابي قد خدعهم وأن الأمر سينتهي بغزو نصراني أجنبي لبلاد إسلامية، غيروا موقفهم وتحالفوا مع البشكوتس ضد أولئك الغزاة ورفض حسين بن يحيي الأنصاري أن يفتح أبواب سرقسطة ولعله فعل ذلك خوفًا من المسلمين لانكشاف أمره فطال حصار شارلمان لسرقسطه حتى أحس أنه لا يستطيع الاستيلاء عليها قبل نزول الشتاء فقرر العودة وغضب على سليمان بن يقظان الأعرابي واعتبره أسيراً هو وكل من كان بين يديه من رهائن العرب وانقلب راجعًا في سنة ١٦١هـ - ٧٧٨م، فلولا يقظة جمهور المسلمين من أهل الثغر الأعلى وتنبههم لخيانة سليمان بن يقظان الأعرابي وخديعته لهم، لاستولى شارلمان على سرقسطة من أيدي المسلمين.

ثانيًا ـ خيانة عبد الله بن عبد الرحمن الداخل وأخيه سليمان بن عبد الرحمن الداخل

بعد موت عبد الرحمن الداخل تولى الحكم بعده ابنه هشام الأول بن عبد الرحمن الداخل المعروف بالرضي ثم تولى الحكم بعد هشام الأول ابنه الحكم الأول ابن هشام، وكان للحكم الأول ابن هشام عمان أخوان لأبيه هما سليمان وعبد الله ابنا عبد الرحمن الداخل وكانا يطمحان في حكم البلاد ويريان أنهما أحق من أب أخيهما (الحكم) بوراثة الخلافة والحكم، وقد شقى بهما الحكم ابن هشام وشقيت بهما البلاد شقاء كبيراً لأنهما ربطا نفسيهما بنفر من الثائرين من الثغر الأعلى بل سعى أحدهما وهو عبد الله بن عبد الرحمن الداخل إلى تأليب شارلمان على الإسلام والمسلمين وذهب هذا الخائن إلى شارلمان لمقابلته في (إكس لاشايل).

وبالفعل أرسل شارلمان جيشًا دخل الأندلس، ولكن أبا صفوان حاكم الثغر الأعلى رده على أعقابه سنة ١٨٠هـ - ٧٩٧م، وبعد ذلك بقليل أصيب سليمان بالفالج فاستراحت البلاد من أذاه.

ولكن محاولة عبد الله وسليمان الخائنين في الثغر الأعلى كشفت لرجال شارلمان ضعف الجبهة من هذه الناحية، وشجعه أهل شمال شبه الجزيرة من النصارى على القيام بحملة أكثر جدية، وبالفعل قامت قوات فرنجية في سنة ١٩٠هـ - ٨٠٦م بالسير نحو الأندلس فعبرت الجبال وحاصرت برشلونه، وثبت القائد العربي (سعدون الرعيني) مدافعًا عن ذلك الثغر (الثغر الأعلى) في رباطة جأش وانتظر أن يصله المدد فلم يصله شيء لأن (الحكم) كان مشغولاً بعميه الخائنين في جنوب الأندلس.

وأخيرًا: سقطت برشلونه في يد الفرنجة النصارى وأنشأ شارلمان فيها ولاية ثغرية تسمى الثغر الأسباني (لاماركا - هيسبانيكا) أصبحت من ذلك الحين شوكة في جنب المسلمين لأنها تطورت مع الزمن حتى أصبحت ما يعرف بـ: (كونتينة قطالونيا) التي ستتحد مع مملكة (أرغرن) وتغزو الجانب الشرقي لمملكة الإسلام في الأندلس فيما بعد.

وهكذا: فقد وضع هذان الخائنان عبد الله وأخوه سليمان ابنا عبد الرحمن حجر الأساس لضياع الأندلس وانتزاعها من أيدي المسلمين فيما بعد.

ثالثًا - خيانة موسى بن موسى بن قسى صاحب الثغر الأعلى

كانت هناك حروب كثيرة بين المسلمين وبين مملكتي (نافار) و (ليون) النصرانيتين، وكانتا لخوفهما من المسلمين قد اتحدتا، وقد انضم إليهما هذا الخائن (موسى بن موسى ابن قسى) ضد المسلمين، وكان آل قسي أسرة أسبانية نصرانية فى الأصل اعتنقت الإسلام ودخلت فى طاعة المسلمين واستظلت بظلهم وخضعت لهم كأسرة إسلامية بحتة ولكن الخائن لا يهمه دين أو عقيدة فالخيانة داء عضال ومرض مزمن ولله در القائل: **لكل داء دواء يستطب به *** إلا الخيانة أعيت من يداويها**

رابعًا ـ عبد الرحمن بن مروان الجليقي

تزعم هذا الرجل طائفة من أهل غرب الأندلس وطالبوا الحكومة بأن تسمح لهم بشيء من الاستقلال في ناحيتهم التى كان مركزها (ماردة) فأخرج الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط جيوشه إلى ماردة سنة ٢٥٤هـ - ٨٦٨م واستولى على ذلك البلد وأخذ كبار الثائرين وأسكنهم في قرطبة ليطمئن إلى ولائهم، ولكن الوزير هاشم ابن عبد العزيز أساء التصرف مع عبد الرحمن بن مروان الجليقي وأهانه فهرب من قرطبة إلى ماردة ثم إلى يطليوس.

ثم: باع دينه ووطنه وتحالف مع ألفونسو الثالث ملك ليون النصراني مرتكبًا بذلك أفظع الخيانات على الإطلاق فكان الأجدر به على الأقل أن يتحالف مع بعض الأمراء الآخرين المسلمين الثائرين ولا يرتكب هذه الخيانة ضد دينه ووطنه بتحالفه مع الأعداء.

خامسًا ـ عمر بن حفصون

ظل هذا الرجل ثائرًا متمردًا على الدولة حوالي أربعين عامًا من سنة ٢٦٥هـ - ٨٧٨م وحتى سنة ٣٠٥هـ - ٩١٧م، واستنفذ جهدًا كبيرًا من الدولة في حروب معها مستمرة وشغلها عن التفرغ للنصارى الأسبان، ورغم كل ما لقيه هو وأتباعه من هزائم مريرة على يد جيوشها وقادتها المسلمين المخلصين إلا أنه كان مدمنا للثورة والتمرد ولعله كان مدمنا كذلك لهزائمه المتكررة، وأخيرًا وفي أخريات أيامه ارتد إلى النصرانية وارتدت معه ابنته (ارجنتيا) كما ارتد أحد أبنائه (جعفر) إلى النصرانية ثم مات هذا الخائن عمر بن حفصون في قلعة (بيشتر) ودفن فى كنيستها في ربيع الأول ٣٠٥هـ سبتمبر ٩١٧م.

وقد حاول ابنه جعفر الذي ارتد إلى النصرانية مثل أبيه أن يقوم بنفس الدور الخياني لأبيه ولكنه قتل في جمادي الآخر ٣٠٨هـ - أكتوبر ٩٢٠م، وتم استيلاء المسلمين على قلعة (بيشتر) وحولوا كنيستها إلى مسجد.

سادسًا - خيانة المرأة التي تزوجت نصرانيًا

نحن الآن أمام نوع غريب من الخيانة وكنت أريد أن أعف القلم عن كتابته وذلك أن امرأة مسلمة بالاسم ولكن الإسلام منها بريء تسمى (أراكه بنت لب بن قسي) وهي شقيقة كل من (محمد بن لب بن قسي) و (المطرف بن لب بن قسي) وكان هذان الرجلان ثائران على الخليفة عبد الرحمن الناصر فقتل الأول سنة ٣٠٣هـ - ٩١٦م ثم تولى الثاني (المطرف) المقاومة بعد أخيه في (طليطلة) حتى استسلمت للأمير عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٢هـ - ٩٢٤م، أما (أراكه) المذكورة فقد تزوجت (فرويلا الثاني بن الفونسو الثالث النصراني) ملك أشتريس فخيانتها أنها فضلت الزواج من رجل نصراني.

سابعًا - القادة الأندلسيون وموقفهم من الخليفة عبد الرحمن الناصر

يعتبر عبد الرحمن الناصر من أعظم الرجال الذين حكموا الأندلس وأعادوا له القوة والمجد، ويضيق المجال لسرد تاريخه العظيم فقد أذاق المتمردين الذل والهوان.

ولكن حدث في سنة ٣٢٧هـ - ٩٣٩م أن تقدم عبد الرحمن بجيوشه من مدينة (سلمنقه) بجيوش (ليون ونبرة)، وحدث في هذه المعركة أن عبد الرحمن أقام على رياسة الجيش قائد من مواليه من الصقالية يسمى (نجده الحيري) فغضب القادة الأندلسيون المسلمون ورجالهم وتخلوا عن عبد الرحمن فلحقت به الهزيمة في ١١ شوال ٣٢٧هـ - أول أغسطس ٩٣٩م، وتراجع المسلمون فتساقط الكثير منهم في

خندق كان النصارى قد حفروه، ولذلك تسمى هذه المعركة بمعركة الخندق، وقد استعاد بسبب ذلك (روذمير) الثاني النصراني معظم الحصون التى كان عبد الرحمن قد استولى عليها في وادي نهر (تورمس)، فلم يقتد هؤلاء القادة الأندلسيون بخالد بن الوليد حين أتاه خطاب العزل وهو في أوج انتصاره من عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فكان الأجدر بهم وبرجالهم ألا يتخلوا عن حاكمهم وأميرهم، ويواصلوا معه القتال ثم يناقشوه بعد ذلك بالحسنى خاصة وأنه لم يكن مستبداً وإنما كان متفاهمًا مع الجميع كما ورد في كتب التاريخ، ولكن الخيانة داء عضال.

ثامنًا ـ جعفر بن عثمان المصحفى وتآمره على قتل الأمير (المغيرة بن عبد الرحمن الناصر)

عندما توفى عبد الرحمن الناصر تولى الخلافة الأندلسية بعده ابنه الحكم بن عبد الرحمن الذي تلقب (بالمستنصر)، وعندما توفى الحكم المستنصر أوصى بالعرش لابنه هشام وكان عمره اثنا عشر عامًا أي غلامًا صغيراً لا يستطيع النهوض بالمسئولية والحكم وتدبير أمور الدولة، وكان هناك في مقر الخلافة فتيان هما (فائق وجوذر) وكان كبير الصقالبة رجال القصر والذين كان يعتمد عليهم الخليفة فكانوا أشبه بالحرس الملكي أو الحرس الجمهوري في هذه الأيام، فاتفق (فائق وجوذر) المذكوران على أن يستدعيا (المغيره بن عبد الرحمن الناصر) وشقيق الحكم المستنصر المتوفي وعم ابنه ولي العهد هشام المذكور، واتفقا على أن يتولى المغيرة بن عبد الرحمن هذه الخلافة واستشارا في ذلك الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وكان هذا يريد أن يكون وصيًا على هشام حتى يتصرف فى زمام الخلافة والحكم، وكان سياسيًا سيئا حيث عهد في الكثير من وظائف الدولة إلى أبنائه وأقاربه وكان غير أمين على أموال الدولة فصور له

خياله أنه إذا دافع عن خلافة هشام الغلام الصغير أصبح هو الوصي وأصبحت الدولة في يده، فتظاهر بالاقتناع برأي الصقلبيين فائق وجوذر، كبيرا حاشية الصقالبة بالقصر ثم استدعى أنصاره وأولهم (محمد بن أبي عامر) صاحب الشرطة والمواريث، وأفضى إليهم بما يدبر الصقالبة، ودعاهم إلى تأييد هشام واتفقوا على قتل (المغيرة بن عبد الرحمن) عم هشام وتولى قتله محمد بن أبي عامر فكانت هذه الجناية الشنعاء نذير شؤم على جعفر المصحفي وأصحابه وعلى الأندلس كله، فوقع التنافس بين الرجلين ابن أبي عامر قاتل المغيرة والمصحفي المدبر لقتله، فانتصر محمد بن أبي عامر على المصحفي بواسطة (صبح البشكنسيه) أم هشام وأرملة الحكم المستنصر فأصبح محمد ابن أبي عامر صاحب الوزارة (أي رئيسا للوزراء) فسجن المصحفي سجنًا طويلاً وحقق معه فيما ضيعه هو وأهله من أموال الدولة ثم قتله، وبذلك دفع المصحفي ثمن خيانته واستبد بعد ذلك محمد بن أبي عامر بالحكم.

وحسب ما يقول المؤرخون فإنه نجح طيلة حياته فقط في المحافظة على البلاد بانتصاراته الباهرة على النصاري ولكن بدأ الضعف والانهيار في الدولة بعد موته لأنه لم يضع الأساس السليم والمتين الذي تظل عليه الدولة قوية بعد موته، ولم تكن انتصاراته التى أحرزها حاسمة على النصاري فلم يضف إلى الدولة أي أراضٍ جديدة وإنما كانت كلها انتصارات لتثبيت أقدامه فقط أي للاستهلاك المحلي حتى يظهر في نظر الناس والشعب أنه مناضل مجاهد، فبدأ الانهيار يدب في أوصال الدولة بعد موته وذلك نتيجة الخيانة التي شارك فيها بقتل المغيرة عم هشام كما سبق.

تاسعًا ـ محمد بن عبد الجبار المهدي
واستعانته بالنصارى ضد البربر المسلمين

انتهت الدولة العامرية التى أسسها المنصور محمد بن أبي عامر سالف الذكر بقتل آخر رجالها وزعمائها عبد الرحمن بن المنصور الملقب بـ(شنجول) على يد رجال محمد بن عبد الجبار المهدي وكان من أسوأ طراز من شباب بني أمية الأندلسيين فقد تولى الأمر دون أن تكون لديه فكرة أو مؤهلات تؤهله لإدارة شئون الدولة والقيام بأعبائها واتخذ لقب (المهدي) وكان كل همه الانتقام من العامريين رجال دولة المنصور ابن أبي عامر، ولم يهده ذكاؤه إلا إلى الاستبداد بالبربر المسلمين وإذائهم وإهانتهم عقابًا لهم على تأييدهم لبني عامر، وقد أساء التصرف لأنه ناصب البربر العداء وكان أولئك البربر قد أتى بهم المنصور بن أبي عامر إلى هذه البلاد مرتزقين في أعداد كبيرة واتخذوا الأندلس موطنا لهم وكانوا ركنا هامًا في الدولة فشاركوا في أعباء الجهاد وأبلوا بلاء حسنًا مع الجيش الإسلامي، وليس ذنبهم أن ابن أبي عامر قد استقوى بهم على بني أمية، وكانوا قوة كبيرة لا يستهان بها وليس لديهم أي تعصب لبني جنسهم، ويعتبرون أنفسهم ضمن المسلمين سواء كانوا بربرا أو عربًا أو من أى جنس آخر، فالإسلام لا يفرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى، وكانوا بعد مقتل عبد الرحمن شنجول آخر العامريين قد أعلنوا ولاءهم للحاكم الأموي الجديد، ولكن محمد بن عبد الجبار هذا بدلاً من أن يقبل منهم الولاء، ويدخلهم في زمرة رجاله ويستفيد من قوتهم الكبيرة ومهارتهم في الحروب، بدلاً من ذلك فقد استذلهم وأهانهم فتخوفوا منه واتخذوا منه موقف العداء وحاول إخراجهم من قرطبة ولكنهم رفضوا الخروج منها، وبدأ الصراع والإنشقاق في الجيش، كان هذا الانشقاق الذي سببه ابن عبد الجبار من أسوأ ما أصاب الأندلس، لأن الجيش كان درع المملكة، وهذا الانقسام كسر وحدة الجيش وفرق بين عنصرية البربر والأندلسيين العرب، وحرم الدولة من أن تكون

لها قوة عسكرية تدافع عنها فمهدت هذه الخطوة الخطيرة الطريق لاسترداد الأندلس وانتزاعه من أيدي المسلمين، وكانت هذه من أسوأ السقطات لابن عبد الجبار، ولم تنته خيانته عند هذا الحد فأحس أنه لا يستطيع الثبات أمام البربر، فأرسل يستنجد بالنصارى، وخرج في ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠هـ - ٥ نوفمبر سنة ١٠٠٩م للقاء البربر في مكان يسمى (قنتيش)فانتصر البربر وحصدت صفوف العرب المسلمين الأندلسيين حصداً، فسفكت الدماء المسلمة بأيدي مسلمة، بينما كان النصارى يتحدون ويتكتلون بعيدهم وقريبهم وسيدهم وخادمهم وغنيهم وفقيرهم، بل ورجالهم ونساؤهم ضد المسلمين، وكان هذا أول مسمار يدق في نعش المسلمين في الأندلس.

عاشراً- يحيى بن ذي النون الملقب بالمأمون ملك طليطلة

عندما زالت الخلافة الأموية الإسلامية من الأندلس في ١٠٣١م وبدأ العهد الأسود للمسلمين فى الأندلس، عصر ملوك الطوائف، وتقسمت الأندلس إلى شيع وأحزاب وأصبحت كالفريسة لكل من يستطيع أن ينهش فيها ويلتهم منها جزءاً، سواء من المسلمين أو النصارى وتمكن هذا الرجل المسمى (يحيي بن ذي النون الملقب بالمأمون) من الاستحواذ على طليطلة فارتكب خيانة عظمي تسببت في فقد طليطلة وانتزاعها من أيدي المسلمين وذلك بأنه استضاف أهم وأقوى ملوك النصارى والذي لعب الدور الأكبر والأساسي في انتزاع الأندلس واستردادها من أيدي المسلمين وهو (الفونسو السادس) فاستضاف بذلك الذئب في حظيرة الغنم مخالفًا أمر الله تعالى ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ (آل عمران: ٧٣).

ففي هذه السنوات الطويلة التي أقام فيها ضيفًا على يحيى بن ذي النون المأمون، أخذ (الفونسو السادس) يمهد للاستيلاء على طليطلة وأخذ يتجسس ويتعرف على أحوال البلد، فعرف أن طليطلة كلها لا تملك خمسمائة فارس فاستقر رأيه على الاستيلاء عليها متى واتته الفرصة لذلك، وبعد مقتل أخيه (سانشو) تولى حكم

النصارى من بعده فأصبح ملكا لقشتاله وليون، وفي سنة ٤٦٧هـ - ١٠٧٥م توفى يحيي بن ذي النون المأمون وخلفه حفيد له يسمى يحيي القادر في غاية الضعف وليس له أية قدرة سياسية أو عسكرية فارتمى في أحضان (الفونسو السادس) على أن يحميه من جيرانه المسلمين فوافق، وبذلك أصبحت طليطلة حماية نصرانية قشتالية ليونية، وصارت تدفع الجزية عن يد وهي صاغرة للملك النصراني ألفونسوا السادس الذي انتهز فرصة خلاف وقع بين أمير طليطلة يحيي القادر ورجال دولته وخاصة أسرة بني الحديدي من الوزراء ودخل البلد بقوته سنة ٤٧٨هـ - ١٠٨٦م، وبذلك ضاعت طليطلة كلها ووقعت كل أرضها في مملكة قشتالة وليون النصرانية. وحتى يتمكن ألفونسو السادس من دوام السيطرة على هذا الحفيد الخائن يحيي القادر وريث الخيانة عن جده يحيي بن ذي النون المأمون وحتى يضمن بقاءه تحت سيطرته، أعطاه ولاية بلنسية وأرسل معه جماعة من الفرسان النصارى لحمايته فدخل هذا الحفيد بلنسية صوريا تحت حماية النصارى.

حادي عشر ـ أبو مروان عبد الملك عماد الدولة وتنازله عن طليطلة الأندلسية المسلمة لملك النصارى الفونسو السادس

في هذه الأثناء من عام ٤٧٨هـ كان البطل المسلم يوسف بن تاشفين زعيم المغرب الإسلامي يعبر بجيوشه الإسلامية المغربية إلى الأندلس لينقذها من براثن ذلك الحاقد على الإسلام والمسلمين الفونسو السادس فالتقى به في معركة الزلاقة الشهيرة الكبرى وأباد جيوشه إبادة كاملة وكانت جيوشه النصرانية خمسين ألفا فلم ينج منهم سوى خمسمائة مقاتل، ونجا الفونسو نفسه من القتل بأعجوبة وفر من المعركة مذعوراً وبذلك أعاد يوسف بن تاشفين السيطرة الإسلامية على سائر بلاد الأندلس ومنها طليطلة، ودخل رجاله المرابطون المسلمون المدن الإسلامية.

ولكن ألفونسو السادس لم يهدأ له بال ولم يستكن وإنما عمل على جمع النصارى من جديد وأخذ يستعين ببقية ملوك أوروبا من النصارى وحاول الاستيلاء على بعض بلاد المسلمين من جديد فتمت هزيمته عند بلدة تسمى (باتيره) في رجب ٥٠٣هـ - ١١١٠م على يد أمير مسلم اسمه أحمد المستعين ثم استشهد، فخلفه ابنه أبو مروان عبد الملك الملقب بعماد الدولة، وكانت طليطلة كما ذكر قد استردت من النصارى ومن ألفونسو السادس المذكور على يد المرابطين المسلمين، ولكن في أواخر سنة ٥٠٣هـ تنازل هذا الخائن أبو مروان عماد الدولة عنها أى عن طليطلة لألفونسو السادس مرة أخرى وقدمها له لقمةً سائغة في هذه المرة دون قتال.

ثاني عشر. خيانة ملك طليطلة الملقب بالمستعين

بعد موت الخائن السابق أبي مروان عماد الدولة خلفه أبناؤه وآخرهم المستعين بالله، ودخل في طاعة الملك النصراني ألفونسو السادس بدلاً من أن يقاومه فصار خاضعًا وتابعًا ذليلاً له، وكان الموت له والاستشهاد في سبيل الله تعالى أشرف من أن يعيش ذليلاً خاضعًا للنصراني ألفونسو السادس وقبوله بأن يكون حاكمًا له، وقد تسببت خيانة أبى مروان عماد الدولة وابنه المستعين في زيادة رقعة الأراضي النصرانية وتقويتها بصورة كبيرة وإنشاء دولة نصرانية قوية بقيادة ألفونسو السادس أصبحت تلتهم البلاد الإسلامية المتفككة الواحدة تلو الأخرى حتى فقدت الأندلس المسلمة بسبب بعض الخونة الذين كانوا مسلمين بالاسم فقط ولكنهم كانوا عملاء للنصارى.

ثالث عشر. أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد

دخل هذا الرجل أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد في حروب طويلة مع جيرانه المسلمين لكى يمد رقعة إشبيلية ويجعلها تشمل غرب الأندلس كله وجنوبه، واقترف في هذا السبيل جنايات أخلاقية كبيرة وضرب لمعاصريه أسوأ المثل، وهو

المسئول إلى حد كبير عن هذا النوع من الأخلاقيات غير الإسلامية أو غير العربية الذي ساد ذلك العصر في الأندلس وأدى إلى ضياع أمر الإسلام والعروبة في الجزيرة الأندلسية .

ذلك أن هذا الرجل لم يكن يقيم للأخلاقيات أى وزن، وكان همه منصرفًا إلى جمع المال بأي طريق وتدبير المؤامرات لجيرانه المسلمين والعدوان عليهم، أما في مواجهة ملوك النصارى فنجده يتهافت عليهم ويؤدي لهم الجزية ويعرض عليهم طاعته بدلاً من أن يفكر في أن يدعو إخوانه من ملوك الطوائف المسلمين المجاورين له للوقوف صفًا واحدًا أمام العدو النصراني المشترك وقتئذ.

فقد دفع الجزية لفرناندو الأول النصراني ملك ليون ثم أدى الجزية كذلك لألفونسو السادس النصراني ملك قشتاله ورهبه رهبة شديدة وخاصة بعد أن استولى على طليطلة، وقد اشتهر أمر هذا الرجل بأشياء بشعة مثل حديقة الرؤوس وأصصها هي جماجم أعدائه الذين قتلهم فيستعملها أصصا للزهور وكان يتفاخر بذلك، وقد تمكن من توسيع رقعة بلاده على حساب بلاد المسلمين ولكن لم يضف إليها أي شيء من بلاد النصارى وتوفى سنة ٤٦١هـ - ١٠٦٩م.

رابع عشر- ملوك الطوائف الذين كانوا نكبة على الأندلس

من هؤلاء بنو هود المسلمون الذين كانوا يؤدون الجزية للملك الأرغوني النصراني متخاذلين، وكان ملوك النصارى في الحقيقة أضعف من ملوك الطوائف المسلمين، وبلاد النصارى كانت أصغر من بلاد المسلمين وكانت ثرواتها أقل بكثير.

ويزداد نزيف القلب حينما أقرأ الأسطر التالية عن تلك الرقعة الغالية من أرض المسلمين يقول د. حسين مؤنس:

ويستوقفنا النظر أن ملوك الطوائف هؤلاء كانوا يؤدون إلى ملوك النصارى مبالغ من الذهب لا تُصَدَّق فقد اتفق مثلاً المقتدر بن هود صاحب سرقسطة المسلم والثغر الأعلى مع سانشو دبينان النصراني أن يدفع له كل شهر ١٠٦٩ قطعة من الذهب، وكان يدفع في نفس الوقت إتاوة أخرى إلى (كونت أورخل) النصراني غير محددة القدر، فإذا قدرنا وزن القطعة الذهبية في ذلك العصر بنحو جرامين فإن مجموع ما كان يدفعه المقتدر بن هود المسلم صاحب سرقسطة للنصارى يزن عشرين كيلوجرامًا من الذهب في العام، ولا بد أن نضف إلى ذلك ما كان يدفعه إلى الكونت أورخل النصراني، وكان أصحاب أشبيلية المسلمون يدفعون أكثر من ذلك المبلغ لملك قشتالة وليون النصراني، ولا بد أن ملوك الطوائف الأخرين كانوا يدفعون ما يقارب هذه المقادير من الذهب، ومعنى ذلك أن ملوك الطوائف الخونة كانوا ينهبون بلادهم نهبًا ليدفعوا لملوك النصارى، فكأنهم لم يكتفوا بإعطائهم الأراضي بل قدموا لهم أيضًا الأموال اللازمة للتعمير، فالملك (سانشو الكبير النصراني ١٠٠٤-١٠٣٥م) وكونت برشلونة (رامون بيرنجير الأول ١٠٣٥-١٠٧٦م) كان يتقاضى من أمراء طليطلة المسلمين قبل أن تسقط ضعف ما كان يدفع بنو هود المسلمون أصحاب سرقسطة لملوك النصارى الآخرين[1].

ومعنى ذلك أن بلاد وملوك النصارى كانت تحصل دون عناء على ذهب كثير من الأمراء المسلمين ملوك الطوائف مما مكن لهم من إنشاء المدن وتكوين الجيوش وتسليحها وتعمير الأراضي.

وكان عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر قد خلفا أموالاً كثيرة وبيوت مال مفعمة فأنفق كل ذلك هؤلاء الخونة أمراء الطوائف وبمعنى أصح خونة الطوائف بتصرفهم الذي يندر أن تجد له شبيهًا في التاريخ وفي حوليات الإسلام.

(١) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس.

فبالله هل هناك خيانة مثل هذه الخيانة؟ فبدلاً من أن يتحدوا وينفقوا هذه الأموال على تكوين جيوش قوية وتسليحها وتدريبها ويتعاونوا جميعًا ضد العدو المشترك النصراني، أخذ يكيد بعضهم لبعض ويتآمر بعضهم على بعض ويرتمون في أحضان النصارى ويتحالفون معهم ضد بعض ويدفعون لهم الأموال الباهظة والجزية عن يد وهم صاغرون، فاللهم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. يقول الدكتور/ أحمد شلبي ـ رحمه الله ـ عن ملوك الطوائف أيضًا:

(تمزقت الدولة في عصر ملوك الطوائف إلى إمارات صغيرة في الوقت الذي وجد فيه الفونسو السادس تحت إمرته: استورباس وليون وقشتاله، وقد عرف الفونسو ما يجب أن يفعله تمام المعرفة فقد رأى أنه لم يكن عليه إلا أن يمد حبله للملوك الطوائف مدًا كافيًا ليشنقوا به أنفسهم لأن هؤلاء الجهلة لم ينظروا في العواقب ولم يعنوا ويهتموا إلا بأنفسهم، ولم يتركوا جهدًا دون أن يبذلوه لإضعاف أنفسهم بعضهم البعض. وكانوا يجثون ويسجدون عند قدمي ألفونسو لاستجداء معاونته كلما ضعفوا عن مقاومة إخوانهم المسلمين، وتقربوا جميعًا كل الدويلات الإسلامية إلى ألفونسو بتقديم الإتاوات، وكان ألفونسو يزيد فيها كل عام كلما زادت قوته لأنها (أى الإتاوات) ثمن عطفه وحمايته لهم، وقد بذل هؤلاء الخونة ملوك الطوائف هذه الإتاوات للاستعانة بجيوش ألفونسو ضد بعضهم البعض.

وكان ألفونسو يتوسع ويقدم خطوطه في كل فرصة ويستولى على الحصون والقلاع واحدة إثر الأخرى حتى وثب وثبته التي استولى فيها على طليطلة سنة ٤٧٨هـ وقد أحدث بوثبته هذه فزعًا كبيرًا في صفوف المسلمين بالأندلس[(١)].

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي.

هذا ونترك التعليق على هؤلاء الخونة الذين أضاعوا البلاد وهدموا أمجاد طارق ابن زياد وموسى بن نصير وعبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر وغيرهم من أبطال المسلمين المجاهدين العظام.

خامس عشر- خيانة المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس

هو مسلم بالاسم فقط ولكن الإسلام منه بريء فقد تطاول وأساء على اثنين من أكابر الصحابة بل هما أعظم الصحابة على الإطلاق وهما سيدنا أبو بكر الصديق وسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، فحينما حدثه الناس في أمر توحيد بلاد المسلمين للوقوف صفًا واحدًا ضد النصارى وفي مواجهة التيار الصليبي النصرانى الجارف الذي يقتحم ويلتهم بلاد الأندلس الإسلامية بلدًا تلو الأخرى، قال هذا اللعين كلمة عظيمة استعظمها حتى أهل عصره بما عرف عنهم من فقدهم للحمية العربية والنخوة الإسلامية، أتدري ماذا قال هذا اللعين؟ قال: (لو جاءني أبو بكر وعمر ونازعاني هذا الملك لقرعتهما بالسيف)، ومع هذا فقد كان يؤدي الجزية صاغرًا ذليلاً عن يد لملك قشتالة النصراني، ولم ينقص هذا الحقير إلا أن يتطاول على الرسول ﷺ لأنه لا يوجد علي الإطلاق أفضل من أبي بكر وعمر سوى سيد الخلق محمد رسول الله ﷺ.

ولم يدر هذا الوغد الذي يعتبر هو وأمثاله سبة عار في جبين المسلمين، أن أبا بكر وعمر هما اللذان تحملا عبأ الدولة الإسلامية التي أسسها الرسول ﷺ وقاما بتقويتها وحققوا الفتوحات والانتصارات العظيمة وحطموا الفرس والروم ورفعوا الراية الإسلامية عالية خفاقة وسحقوا أكبر إمبراطوريتين في ذلك الوقت وهما الفرس والروم وأقاما على انقاضهما الإمبراطورية الإسلامية العظيمة التي شملت معظم بلاد الأرض وامتدت حتى سيطرت على الأندلس التى أضاعها هذا الحقير هو وأمثاله من الأذلاء.

فلولا الأساس القوي الذي وضعه أبو بكر وعمر ﷺ للدولة الإسلامية العظيمة ومهدا الطريق لمن جاء بعدهما من الصحابة والقادة المسلمين العظام فكانوا حقًا خير خلف للرسول ﷺ، ولولا ما قاما به من جهود إسلامية خارقة لما كان لهذا المظفر ابن الأفطس وجود على أرض الأندلس التي أضاعها هو وأمثاله بخيانتهم وذلتهم، ولم ينظر هذا الخائن إلى فعل النصارى بحوارى المسيح عليه السلام وصحابته فهم يدعونهم بالآباء ، فلم ينظر إلى تقديسهم واحترامهم لهم على مدى الدهر وعلى مدى التاريخ ويعتبرونهم الآباء الروحيين لهم، فليته أعتز بدينه وفخر بسيدنا محمد ﷺ وبصحابته الكرام الأبطال المجاهدين العظماء وأولهم أبو بكر وعمر، يوم القيامة يفصل الله تعالى بين هذا الوغد ابن الأفطس وبين أبي بكر وعمر جزاء ما قاله واقترفه في حقهما، فإن قطعة من نعل أحدهما هي أفضل وأشرف من هذا الأفطس ومن بني الأفطس جميعًا، لأن أبا بكر وعمر قد أسسا وفتحا أكبر وأعظم إمبراطورية إسلامية في التاريخ، ولكن بني الأفطس ومنهم هذا الوغد أضاعوا ودمروا أعظم درة في تاج الإمبراطورية الإسلامية وهي الأندلس الإسلامية التي كانت أعظم بلاد المسلمين على الإطلاق وكانت الدرع الواقي الغربي للإسلام والمسلمين.

سادس عشر. خيانة المعتمد بن عباد

كان هذا الرجل يؤدي الجزية إلى الملك النصراني، ويستولى الملك النصراني منه على الحصون فلا يجرؤ على الاعتراض، ولكنه في نفس الوقت يأبي أن ينافسه أحد من المسلمين على حصن صغير ويتحدث كأنه ملك وينفق ويبذر في أموال المسلمين كأنه يملك مال قارون فكان كالأسد أمام المسلمين ولكنه كالقط أمام ملك النصارى ألفونسو السادس ولله در القائل:

أسد عليّ وفي الحروب نعامة * فتخاء تنفر من صفير الصافر**

وحدث ولا حرج عن البذخ الذي كان في قصره وعن تدليله لزوجته اعتماد الرميكية.

سابع عشر- خيانة المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس

نموذج خياني آخر من بني الأفطس لا يقل عن سابقيه من ملوك الطوائف فكان هذا الرجل من أكثر الناس تهافتًا على ملوك النصارى فاشتد طمعهم فيه وأخذ الفونسو السادس يدبر للاستيلاء على بطليوس المسلمة كما استولى على طليطلة.

هذا ويطول بنا المقام للحديث عن بقية ملوك الطوائف فهم كثيرون منهم بنوزيري ابن زاوي، وبنو صمادح فكانوا من نفس طراز بني عباد وبني الأفطس خيانة وأنانية وتخاذلاً فكانوا نكبة على الأندلس التي كانت تعتبر أعظم درة على جبين التاج الإسلامي فأضاعوها بخيانتهم التى لا مثيل لها في التاريخ.

نهاية ملوك الطوائف

بعد معركة الزلاقة العظيمة التي قادها يوسف بن تاشفين أمير المسلمين والمرابطين في المغرب كما سبق، فإن هذا النصر لم يعجب ملوك الطوائف ولم يكن على هواهم وخافوا من يوسف بن تاشفين، وكان هواهم وتعاطفهم وتحالفهم ضده مع النصارى وخيانتهم مازالت قائمة فكانوا يفضلون الفونسو السادس النصراني على يوسف بن تاشفين المسلم، ولو أن هؤلاء وقفوا إلى جوار يوسف بن تاشفين وأمدوه بكل قواتهم وأخلصوا له ضد النصارى لتقدم إلى طليطلة واستولى عليها ولأعاد ميزان الأمور في الأندلس إلى نصابه . فلما تبين له خيانتهم جميعًا قضى عليهم وتولى أمر الدفاع عن الأندلس هو ورجاله المرابطون المسلمون من بعده وحملوا لواء الجهاد ضد النصارى.

ثامن عشر- خيانة نصارى الأندلس (أهل الذمة)

كان هؤلاء النفر من النصارى المعاهدين يعيشون في كنف المسلمين وفي رحابهم ويستظلون بظلالهم كأهل ذمة يعيشون في البلاد لهم ما للمسلمين وعليهم ما على

المسلمين لا فرق بينهما إلا في العبادات الدينية فقط ولكنهم متساون في جميع الحقوق والواجبات كالمسيحين الذين يعيشون في مصر الآن أو في أي بلد عربي إسلامي، وكانوا ملتزمين بأمن البلاد والدفاع عنها ضد النصارى الأعداء والذين كانوا يتربصون بالبلاد من الخارج ومن كل جانب، فقام هؤلاء المعاهدون من أهل الذمة باستدعاء ملك النصارى ألفونسو الأول الملقب بالمحارب ملك أرغون النصرانية، وعاونوه على اختراق بلاد المسلمين وبلادهم من الشمال إلى الجنوب والعيش في نواحيها خلال سنة ٥١٩هـ - ١١٢٥م فقام علي بن يوسف بن تاشفين الزعيم المرابطي المسلم وحامل لواء الجهاد بعد أبيه بنفي الكثير من هؤلاء الخونة المعاهدين من أهل الذمة إلى المغرب.

تاسع عشر- محمد بن تومرت منشئ دولة الموحدين في المغرب

لعب هذا الرجل دوراً خطيراً في المغرب ضد المرابطين وتسبب في تشتيت قوتهم بدلاً من تركيزها ضد النصارى في الأندلس فقد قاد ضدهم ثورة تعرف بثورة المصامدة بينما كانوا ماضين بحزم في جهادهم ضد الصليبيين النصارى أعداء الإسلام في الأندلس، فبدلا من أن يضع يده في يد المرابطين ويشاركهم في الجهاد والكفاح ضد النصارى أخذ بخيانته ينقلب على أبناء جنسه المسلمين المرابطين فاضطروا إلى إيقاف الجهاد في الأندلس ليواجهوا هذه الثورة الظالمة بقيادة ابن تومرت وأتباعه فبعد أن كان المرابطون يكسبون النصر تلو النصر ويستعيدون ما ضاع من بلاد المسلمين الأندلسية بدأت الهزائم تتوالى عليهم بسبب سحب قواتهم من الأندلس لمواجهة من سموا أنفسهم بالموحدين الذين تزعمهم ابن تومرت المذكور وبدأت المدن والبلاد الأندلسية الإسلامية تسقط في أيدي النصارى، ولم يجد ابن تومرت هو وأتباعه الذين عرفوا بالموحدين، سوى أشقائهم المرابطين المجاهدين المسلمين يستأسدون عليهم

ويشغلونهم عن الجهاد في الأندلس ضد النصارى، فكان ابن تومرت هذا هو وأتباعه كانوا عملاء لنصارى الأندلس فلعبوا بعمالتهم وخيانتهم أخطر وأسوأ دور في ضياع الأندلس لأن المرابطين كانوا على وشك القضاء على نصارى الأندلس واستعادته كاملاً إلى أيدي المسلمين، ولو انضم إليهم ابن تومرت وأتباعه لكان القضاء على نصارى الأندلس سهلاً ميسوراً بل لاستطاع المسلمون أن يمدوا شوكتهم وسلطانهم إلى بلاد النصارى الأخرى المجاورة، وكان أمام ابن تومرت وأتباعه ميادين أخرى كثيرة وشاسعة للجهاد الإسلامي في سائر بلاد أوروبا وأفريقيا التي لم يكن قد انتشر فيها الإسلام بعد، فلماذا تركوها واتجهوا نحو أشقائهم المرابطين المسلمين وانقضوا عليهم وعاقوهم عن الجهاد ضد نصارى الأندلس؟!!

عشرون ـ خيانة محمد بن سعد بن مردنيش وصهره

لعب محمد بن سعد بن مردنيش وصهره إبراهيم بن هامشك أسوأ دور خياني تسبب فيما أصاب الإسلام والمسلمين في شرق الأندلس في أواخر عصر المرابطين المسلمين المجاهدين العظام وذلك أنهما بخيانتهما عملا على سقوط (لاردة) المسلمة في سنة ٥٦٧هـ - ١١٧٢م في يد النصارى، وبذلك توالى مسلسل سقوط المدن والبلاد والأقاليم الإسلامية، فقد تم ضمن هذا المسلسل المخزي والمحزن سقوط كل من: سرقسطة والمرية وطرطوشة وغيرها بيد النصارى بسبب انشغال المرابطين المسلمين بالدفاع عن أنفسهم في الأندلس ضد الخونة من أهل الأندلس من جانب، وضد المسلمين الموحدين من جانب آخر، وضد النصارى الطامعين من جانب ثالث، ومن خلال المراجع التاريخية يتبين أن ابن مردنيش وابن هامشك كانا مدمنين للتحالف مع النصارى ضد المسلمين.

واحد وعشرون - خيانة القاضي بن حمدين

رغم أنه كان قاضيًا أي من رجال الدين والمفروض أن يكون لديه غيرة وحمية على الإسلام فلا يحارب المجاهدين المسلمين بل يتحد معهم ويشد أزرهم إلا أنه قاد ثورة على المرابطين المجاهدين المسلمين وطردهم من قرطبة عاصمة الأندلس الإسلامية، ولم يجرؤ على الاقتراب من إحدى مدن النصارى أو حتى النظر إليها خوفًا من النصارى. وقد فعل فعله خائن آخر هو ابن قسى في بطليوس المسلمة، وهناك تفاصيل أكثر يضيق المقام عن ذكرها[1] .

ثنتان وعشرون - الأندلسيون المسلمون والعرب في معركة سهل العقاب عام ٦٠٩هـ

توضح الأحداث التاريخية أن دولة الموحدين التي أنشأها محمد بن تومرت كما سبق قد تمكنت من القضاء على دولة المرابطين المسلمين في المغرب والأندلس وفي سنة ٥٩١هـ - ١١٩٥م كان يتولى أمر الموحدين في الأندلس رجل فذ من رجال الإسلام هو أبو يوسف يعقوب المنصور فهزم النصارى بقيادة الفونسو الثامن هزيمة ساحقة تسمى موقعة (الإرك) وأباد فيها النصارى إبادة تامة فكانت هذه المعركة أختا لمعركة الزلاقة التي سحق فيها المرابطون النصارى الأسبان على يد يوسف بن تاشفين وأبادوهم من قبل . وقد توفى البطل أبو يوسف يعقوب المنصور زعيم دولة الموحدين في ربيع الأول عام ٥٩٥هـ وخلفه ابنه محمد الملقب بالناصر، وحدثت معركة رهيبة بينه وبين النصارى في الخامس عشر من صفر عام ٦٠٩هـ - ١٦ يوليو عام ١٢١٢م في منطقة سهل العقاب بالأندلس وكان الموقف في صالح المسلمين في أول المعركة ولكن لعبت الخيانة الأندلسية دورها، فانخذل الأندلسيون العرب والمسلمون تاركين

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي.

الجناح الشرقي من الجيش الإسلامي مكشوفًا فانقض عليهم النصارى وأنزلوا بهم هزيمة قاصمة قتل فيها عشرات الألوف من المسلمين معظمهم من المجاهدين المتطوعين من أهل الأندلس، وكذلك حصدت في المعركة زهرة مقاتلي المغرب وكانت هذه المعركةقاصمة الظهر بالنسبة لمستقبل الأندلس فقد تضعضعت جبهة الوادي الكبير وسقطت مدن كبرى مثل (بياسة وأبدة) وأصبح النصارى يشرفون مباشرة على قرطبة وأشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم خط الوادي الكبير وبدأت تصفية ما بقي للمسلمين في بقية عصر الموحدين وذلك بسبب هذه الخيانة المؤلمة والتي كانت أكبر مسمار في نعش هؤلاء الخونة في الأندلس، فلم تبق بأيدي المسلمين سوى مملكة غرناطة، وقد أثبت هؤلاء الخونة أنهم غير جديرين بأرض الأندلس وغير جديرين بالبقاء فيها، وأضاعوا ذلك المجد العظيم الذي بناه طارق بن زياد وموسى بن نصير وعبد الرحمن الداخل وغيرهم من الأبطال المجاهدين المسلمين الذين كانوا جديرين حقًا بأرض الأندلس العظيمة، أما هؤلاء الخونة جميعًا فإنهم يتحملون عبأ ضياع الأندلس.

ثلاث وعشرون. خيانة محمد بن يوسف الجذامي بن هود

أصبحت الخيانة إدمانًا عند هؤلاء القوم فكانوا مدمنين بشكل يدعو إلى التعجب والحيرة فلديك هذا الخائن الذي نصب نفسه زعيمًا لما بقي من بلاد الأندلس فقد بايعه الناس في رجب ٦٢٥هـ وتقاطر الناس عليه وأصبح له جيش ضخم يستطيع به أن يحمي ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية وذهب بجيشه إلى (ماردة) ليدافع عنها ضد البرتغال فالتقى بهم عند موضع يسمى (الحنش) واخترق صفوف الأعداء ونفذ إلى خلف جيشهم دون أن يرسم خطة ثم كر راجعًا بعد أن كان النصر حليفه فظن بقية الجند أنه قد انهزم فولوا على وجوههم مدبرين وتحول النصر إلى هزيمة، ثم أسرع بمن معه من المقاتلين إلى (مرسية) وجمع جيشًا عدته ثلاثين ألفًا تمكن به من

تملك أشبيلية ولماذا أشبيلية بالذات؟ لأنها كانت ضمن بلاد المسلمين، فترك بلاد النصارى، واستأسد على بلاد المسلمين بدلاً من أن يأخذ ثأر معركة الخنش السابقة، المهم تملك أشبيلية سنة ٦٢٩هـ، وفي ٦٣١هـ طاعت له قرطبة ثم غرناطة ومالقة سنة ٦٣٥هـ ودخل في طاعته أصحاب مرسيه، وامتد سلطانه إلى مدينة الجزيرة الخضراء، وكانت كلها بلاد إسلامية، فلم يبسط سلطانه على أي شبر من بلاد النصارى، وفي هذه الأثناء تقدم فرناندو الثالث وحاصر قرطبة العاصمة الإسلامية يريد الاستيلاء عليها وكانت قرطبة الغربية محصنة تمامًا، أما الشرقية فكان في حصونها ضعف وثغرات، وقد دام حصار قرطبة أشهرًا حتى نفذت أقوات المدافعين عن البلد، ثم تمكن نفر من فرسان قشتالة النصارى من دخول قرطبة الشرقية، وفي هذه الأثناء أرسل أهل قرطبة إلى محمد بن يوسف الجامي بن هود يستنجدون به فأقبل في جيش عدته ثلاثون ألفا ووقف عند (إستجة) وهابه فرناندو الثالث فلم يجرؤ على اقتحام البلد واستبشر أهلها خيرًا، ولو أراد محمد بن يوسف بن هود نجدة العاصمة، عاصمة الأندلس الإسلامية الخالدة قرطبة لفعل، ولكن خمل وجبن عن اللقاء، وبعد انتظار عدة أسابيع انسحب بقواته، وتلك خيانة لا يغفرها له أحد، لأنه عقب انسحابه مباشرة وجد القرطبيون والمسلمون أنه لا أمل يرجى في الدفاع بعد أن هلكت قواتهم، فدخل الجيش القشتالي النصراني قرطبة عاصمة الأندلس الإسلامية في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣هـ - يونية ١٢٣٦م، فقدم مدمن الخيانة ابن هود هذا عاصمة الأندلس الإسلامية قرطبة لقمة سائغة للنصارى، وطالما سقطت العاصمة فالكل هين، وكان المفروض على هذا الخائن طالما نصب نفسه حاكمًا للمسلمين أن يقوم من تلقاء نفسه بالدفاع حتي الموت عن عاصمة المسلمين خاصة وقد كانت لديه القوات الكافية لذلك، ولكنها الخيانة والجبن الذي ليس له مثيل، وقد توجه هذا الخائن إلى شرق الأندلس ولجأ إلى بلدة (المرية) عند أحد عماله المسمى عبد الله الرميمي، وكان قد استودعه ابن هود

جارية نصرانيـة لكي يُلِمَّ بها عندما يريد، فألَمَّ بهـا الرميمي وأخذها لنفسـه، وعندما دخل ابن هود قصـره، قتله الرمـيمي خنقًـا، وإذا كان الرميـمي قد خـانه في جارية نصرانيـة فهو قد خان الآلاف مـن المسلمين وقدم بخيانتـه كما قلنا عاصـمة المسلمين قرطبة لقمة سائغة للنصاري.

أربع وعشرون. خيانة بني أشقيلولة

انضم بنو أشقيلولة إلى ملك قشتالة النصراني ضد حليفهم وصهرهم وابن دينهم محـمد بن محـمد بن نصـر بن الأحمر ، وكـان لذلك أثر سيء على مصـير مملكة غرناطة المسلمة، ومن أسباب ضياعها أيضًا، وقد قام بنفس الدور المحزن بنو سراج مما ساعد على ضياع مملكة غرناطة المسلمة.

خمس وعشرون. خيانة ملوك غرناطة

كان هؤلاء الملوك الخونة يتخوفون من أشـقائهم بني مرين المسلمين وينضمون إلى ملوك قـشتـالة النصارى ضـدهم، وكان ذلك في النهـاية وبالاً عليهم وعـلى مصـير الإسلام في الأندلس،وفي الحقيقة أن أكثر ما آذى الإسلام والمسـلمين في الأندلس هو خلاف المسلمين مع بعضهم البعض وانضمام بعضهم إلى النصارى ضد البعض الآخر فيعتبر المسلمون بذلك هم الذين أضاعوا الأندلس ولعبوا بسبب أطماعهم الدور الأكبر والأعظم في فقدها وضياعها وانتزاعها من أيديهـم وتسليمها خالصة للنصارى، فمثلاً قد اشـتد العداء والخـلاف بين أبي الحجـاج يوسف الثاني أحد البـارزين من المسلمين وبين بني سراج المسلمين، فانتـهز ملك قشتالة النصراني الفرصـة واستولى على بلدة الزهراء المجـاورة لغرناطة سنة ٨٠٩هـ - ١٤١٧م، وهذا قليل مـن كثيـر مما ورد عن الأحداث الخيانية في الأندلس

ست وعشرون ـ الحاكم الخائن أبو عبد الله محمد

تتضاءل جميع الخيانات السابقة أمام خيانة أبى عبد الله محمد الملقب بالخائن يقول د. أحمد شلبي في أحداث سنة ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م:

الحاكم الخائن: مخزاة أبي عبد الله محمد الخائن آخر حكام المسلمين بالأندلس جديرة بالحسرة والأسف، فقد باع هذا الرجل كل المثل من أجل أطماع شخصية، فحارب أباه من أجل الملك لأنه أحس أن الأب (أبو الحسن علي بن سعد) يؤثر أخاه (محمد بن سعد المعروف بالزغل) عليه أي على هذا الابن الخائن، وهكذا قام نزاع دموي مات على أثره الأب (أبو الحسن) همّاً وكمداً، فلما تولى أخوه (محمد بن سعد المعروف بالزغل) تعاون هذا الخائن (أبو عبد الله محمد الخائن) مع فرديناندو وزوجته إيزابيلا لإسقاطه، وكانت جيوش هذا الخائن (أبو عبد الله محمد الخائن) تتصدي لجيوش عمه (محمد بن سعد الزغل) كلما اتجهت هذه الجيوش للدفاع عن حصون المسلمين وبلادهم، فلما تم النصر للنصارى المسيحيين ضد الزغل ارتكب هذا الأحمق الخائن أبشع ألوان حماقاته وخياناته حيث بعث يهنئ فرديناندو، وإيزبيلا بالنصر وباستيلائهما على مالقة المسلمة، فهل كان هذا الخائن جديراً بأن يبقى على أرض الأندلس الإسلامية، وهل كانت أرض الأندلس الإسلامية تتشرف ببقاء هذا الخائن وأمثاله فيها؟ . . .

ولكن: فرديناندو استدار إليه وهاجمه وسلب منه ممتلكاته، وسلم مفاتيح آخر مدينة إسلامية بالأندلس مدينة غرناطة الإسلامية لفرديناندو النصراني، وأخذ يبكي ملكا أضاعه بخيانته التى لا ينساها له التاريخ ولا ينساها له الإسلام، وهاجر إلى أفريقيا حيث أخذ يعيش على السؤال والاستجداء والتسول، فهذا الخائن جدير فعلاً بالسؤال والاستجداء وجدير بأن يكون متسولاً شحاذاً، ولم يكن جديراً هو وأمثاله

الخونة بأرض الأندلس الإسلامية أرض طارق بن زياد وموسي ابن نصير وعبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر ويوسف ابن تاشفين وغيرهم من أفذاذ وأبطال ومجاهدي الإسلام والمسلمين[١] .

بقع الحقد الصليبي على الإسلام والمسلمين في الأندلس

منذ فجر التاريخ ومنذ بدأت الدعوة الإسلامية الخالدة، والإسلام يعامل أهل الأديان الأخرى نصارى ويهود أحسن معاملة وأطيبها لدرجة أن الإسلام يسميهم أهل الذمة (أي أنهم في ذمة المسلمين وفي عهدهم ورعايتهم وحمايتهم) ويتعهدون لهم بأن يكونوا مثل المسلمين تمامًا في جميع الحقوق ويتساون معهم تمامًا في كل شيء.

ولا مجال لهم بأن يقلبوا الدنيا رأسًا على عقب بحجة التعصب الديني من المسلمين الذي يبرأ منه الإسلام على كافة المستويات، والدولة تتيح لهم خلال سائر العصور الإسلامية التمتع بكافة الثروات من الذهب والأموال والأراضي الزراعية وأراضي البناء والعمارات الشاهقة والمحلات التجارية الضخمة والسيارات والشركات والصيدليات وغيرها مما لم يتمتع به كثير من المسلمين ولا بعشر معشاره، كما تتيح لهم الدولة الفرص في التعليم من المرحلة الابتدائية حتى الجامعية، وكذلك في الصناعة وغيرها، وذلك لأن الدولة الإسلامية منذ ظهور الإسلام فيها سواء مصر أو غيرها لا تفرق إطلاقًا بين مسلم ومسيحي فالكل سواء وقد مكنتهم الدولة والحكومات الإسلامية التي يعيشون فيها رغم قلتهم، من بناء كنائس بأبراجها الشاهقة التي يريدونها منذ فجر التاريخ الإسلامي وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على عدل الإسلام وسماحة شريعته وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر القصة التي يعرفها الجميع

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي.

من ضرب ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه لابن أحد النصارى المصريين فشكاه لسيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فأحضرهما وأمر المسيحي المصري أن يضرب ابن عمرو بن العاص قائلاً له اضرب ابن الأكرمين..... إلخ.

وكذلك المرأة الصليبية التي أتت باكية إلى البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي لفقد طفلها فأصدر أوامره المشددة بالبحث عن هذا الطفل ورده لأمه الصليبية التي أتت من بلادها أيام الحروب الصليبية لتشارك في الحرب ضد المسلمين، ويضيق المجال عن ذكر مثل هذه الوقائع التي تحدثنا بها كتب التاريخ. ورغم ذلك نجد أن الحقد الصليبي ضد المسلمين لا يفارق هؤلاء القوم إلا من رحم ربك منهم، ولا يشمل هذا جميع النصارى ولكن فظاعة وبشاعة هذا الحقد وهذه الخيانات تلصق العار بالجميع لسكوت الآخرين عن المسيئين،وسوف يتضح ذلك من الوقائع والأحداث التالية على سبيل المثال لا الحصر.

أولاً - البقعة الأولى من الحقد الصليبي ضد المسلمين في الأندلس

منذ بدء الدعوة الإسلامية الخالدة والمسلمون يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين سواء أنبياء اليهود أو أنبياء النصارى أو غيرهم من الأنبياء ولا يصح إسلام أي مسلم إلا إذا آمن بجميع الأنبياء والمرسلين، ولا يذكر أي نبي أمام مسلم إلا ويقول عبارة (عليه السلام) فيلقي عليه السلام تلقائيًا تعبيرًا عن الإيمان به، وكذلك لا يكتب اسم نبي إلا كتب بعده نفس العبارة (عليه السلام)، مهما كان هذا النبي، ومن هؤلاء الأنبياء عيسى ابن مريم نبي النصارى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وحتى إذا ذكرت السيدة/ مريم أم المسيح يقول المسلمون كذلك (عليها السلام)، فالإسلام لا يفرق بين نبي ونبي، فقد قال تعالى : ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ولكن التعصب النصراني الصليبي الأعمى ضد المسلمين قد ظهر فجأة في الأندلس المسلمة التي كانت تحتضن أهل الذمة من النصارى كما كانت تحتضن المسلمين سواء بسواء. فقد ظهر في قرطبة العاصمة الإسلامية الأندلسية في عهد عبد الرحمن الأوسط، قسيس مسيحي حاقد اسمه (يولو غيوس) اشتهر بالجرأة والتعصب والحقد على الإسلام والمسلمين فأخذ يسب الإسلام ويهاجم الأسبان الذين اعتنقوه وكانوا قبل ذلك نصارى مثله ولكن الله تعالى مَنّ عليهم بفضله وكرمه وأنار بصيرتهم بنور الإسلام الحنيف وأخرجهم من الظلمات إلى النور كما فعل بأهل مصر وغيرهم من عباده تعالى في مشارق الأرض ومغاربها، فأخذ هذا الصليبي الحاقد يحبب لاتباعه الاستشهاد في سبيل الحط من الإسلام والهجوم عليه، وساعده على ذلك صليبي آخر قرطبي اسمه (الفاو)، وتبعته حاقدة سوداء أخرى اسمها (فلورا)، وكانت مسلمة فطمس الله تعالى بصيرتها وأعمى قلبها وطبع عليه فارتدت عن الإسلام لا لشيء إلا لتكسب بطولة زائفة وشهرة صليبية تاريخية ، حتى أن القاضي المسلم الذي كان يحاكمها أراد من سماحة الإسلام أن يخفف عنها حكم الإعدام ولكنها ثارت وراحت تتمادى في وقاحتها وبجاحتها وهجومها على الإسلام وطالبت بالموت والإعدام قائلة إنها تريد أن تنضم إلى قائمة الشهداء. ولم تدري أنها قد انضمت إلى قائمة المرتدين والمخلدين في الجحيم إلى أبد الأبدين فحكم عليها بالإعدام والذهاب إلى جهنم مع الذاهبين.

▪ وهناك صليبي آخر مدمن الخيانة والحقد على الإسلام اسمه (برفكتوس) وكان قسيسًا يسب إمام الأنبياء وخاتم المرسلين محمد ﷺ ويسب القرآن، فحكم عليه أيضًا بالإعدام، وتوالت النزعة الصليبية الحاقدة بهذا الشكل، وطالما رأي قضاة المسلمين الا يقابلوا هذه النزعة الحاقدة بالعنف وأخذوا ينصحون هؤلاء الخونة بالحسنى

ولكنهم كانوا يطلبون الموت بإصرار ليلحقوا بمن سموهم بالشهداء حتى أعدم في هذه الحركة أحد عشر منهم في شهرين[١] .

ثانيًا ـ البقعة الثانية من الحقد الصليبي ضد المسلمين في الأندلس

يقول الدكتور/ حسين مؤنس عن الخيانة ضد المسلمين في الأندلس: إن الصليبي الحاقد الفونسو السادس أراد الاستيلاء على سرقسطة المسلمة ففشل وهزم فمضى يستعين بملوك النصارى من أوروبا ولجأ إلى البابوية فتمكن الصليبيون الغربيون من مفاجأة بلد إسلامي صغير يسمى (بربشتر) على بعد ٦٠كم شمال شرق سرقسطة وتمكنوا من التغلب عليها في شعبان٤٥٦هـ-١٠٦٤م حيث أنزلوا بأهلها مذبحة بشعة بقيادة صليبي يسمى (دي مونتروي)، وقد بارك البابا (إسكندر الثالث) كل ما عمله النصارى في ذلك البلد من أفاعيل شنيعة بدلاً من أن يعتذر لحكام المسلمين عن ذلك، وقد بلغ من أسر من بنات المسلمين فيها وبيع في الأسواق خمسة آلاف فتاة مسلمة، فكانت هذه كارثة سببتها آلاف بل ملايين الخيانات السوداء ضد المسلمين على مر التاريخ[٢] .

ثالثًا ـ البقعة الثالثة من الحقد الصليبي ضد المسلمين في الأندلس

صاحب هذه البقعة السوداء هو (راميرو الثاني ملك ليون، ٩١٢م - ٩٣٢م) فقد تمكن هذا الحاقد من حشد ثلاثين ألف مقاتل نصراني هاجم بهم في غفلة بلدة (ماردة) المسلمة في البرتغال الحالية وأنزل مذبحة بأهلها المسلمين العزل الأبرياء في

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي.

(٢) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس.

غاية من الخسة والخيانة، وأخـذ أربعة آلاف من النساء والأطفال المسلمين أسرى، ولم يكتف هذا الخـائن بذلك بل هاجم مديـنة (ماردة) المسلمـة في سنة ٩١٤م وتمكن من دخول حصن (الحنش) وقـتل ألوف المسلمين العزل الأبرياء كذلك، وبلغ من وقـاحته وحقده أنـه أنشأ في ذلك الحصن كنيسـة سميت كنيسـة القديسة مارية الليـونية. ولم يقتنع بذلك فـقط بل انتهز فـرصة انشغال المسلـمين في جنوب البلاد وهاجم في ١٤ ربيع أول ٣٠٥هـ - ٤ ديسـمبـر ٩١٧م جيـشًا غيـر نظامي قليل العـدد من المسلمين بالقرب من بلدة (غرماج) التي تسمى بقلعـة المسلمين بقيادة قائد مسلم من المجاهدين المسلمين هو (أبو العباس أحـمد بن أبي عبده)، فانهزم هـذا القائد الباسل لقلة جنده ولعدم تدريبهم جيداً فمـا كان من هذا الحاقد إلا أن علق رأس هذا القائد المسلم على أسوار (غرماج) وإلى جانبها رأس خنزير وذلك تعبيراً عن الحقد الأسود.

رابعًا: البقعة الرابعة من الحقد والتعصب الأعمى ضد المسلمين في الأندلس

لن نستطيع لضيق المجال هنا أن نسرد جـميع ما أوردته المراجع التاريخية من بقع خيـانية ضـد المسلمين في الأندلس ولكن نوضح فـقط هذه الحركـة التي غطت على جمـيع الأحداث قبلهـا حتى يعرف المسلمـون ما يحل بهم عند هزائمـهم على مدى التاريخ منذ فجر الإسلام وحتى الآن، ربما يتعظون ويتحدون ويتركون النزاع والشقاق والتباغض والتنافر والصراع فيما بينهم وليعلموا أن أمامهم أعداء كثيرين يتربصون بهم الدوائر، وإذا ما تغلبوا عليهم في أي وقت وفي أي حرب فلن يـرفقوا بهم أو يشفقوا عليهم بل سيذيقـونهم العذاب الشديد والقتل والتشريد والإبادة دون مـراعاة لعهد أو ميثاق ودون أي اعتبار لحقوق الإنـسـان[1] .

---

(١) وخير دليل على هذا الكلام ما حدث للمسلمـين في الأندلس قديمًا وما حدث في البوسنة والهرسك وكوسوفو وأفغانستان والعراق وفلسطين في العصر الحديث.

يقول الدكتور/ أحمد شلبي: عندما سقطت (غرناطة) الإسلامية آخر الممالك الإسلامية بالأندلس بسبب خيانة حاكمها أبي عبد الله محمد الخائن كما سبق في عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م والذي سلم المدينة لفرديناندو وإيزابيلا كما سبق.

فكان من شروط التسليم أن تظل للمسلمين حريتهم الدينية وأملاكهم على أن يصبحوا من رعايا الدولة والحكومة الأسبانية المسيحية التى استولت منهم على البلاد، ولكن بعد قليل بدأ الاضطهاد المرير للمسلمين الذي كان يحث عليه رجال الدين المسيحي وينفذه رجال الحكم والسياسة النصارى، ووصل هذا الاضطهاد إلى القسر والإجبار على التنصر والنفي والرق والقتل واندفعت محاكم التفتيش في أعمالها القسرية الوحشية اندفاعًا قاسيًا للانتقام من المسلمين بتحريض من بعض رجال الدين المسيحي مما أرغم الكثيرين من المسلمين على التنصر أو الهجرة من البلاد والتشرد والضياع . وقد بدأ هذا الحاقد فرديناندو نفسه هذا السلوك التعسفي وحنث في الإيمان والعهود التي قطعها على نفسه، وقد بلغ من ظلمه وحقده الأسود في معاملة المسلمين أنه كان يحرق بعضهم ويصادر أموالهم ويتتبعهم بالأذى والعذاب في كل مكان، وكان أول ما فعله الخونة هو تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة، على أن هذه الوحشية الحاقدة بلغت مداها في عهد (فيليب الثالث، ١٦٠٩م - ١٦١٤م)، فقد وضع الأساس للقضاء على الإسلام في الأندلس تمامًا، ولما تمسك عدد كبير من السكان بالإسلام يقدر بخمسة ملايين مسلم منهم الكهول والنساء والبنات والأطفال والعجزة استولى هذا الحاقد على أموالهم وطردهم بصورة غير إنسانية وبمهلة لم تزد على ثلاثة أيام،وكثير منهم لم يَصِلواُ إلى الشاطئ الآخر فغرقوا في البحر[1] ، ومن موسوعة التاريخ الإسلامي الميسرة إعداد فريق البحوث والدراسات الإسلامية نقدم بعض ما

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي.

ورد فيها بإيجاز شديد عن هذه الخيانة الصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين في الأندلس فقد جاء فيها ما يلي عن حركة إزالة الإسلام في الأندلس:

لم تكن دموع أبي عبد الله محمد الخائن آخر دموع سكبت في الأندلس بل تلتها دموع كثيرة وغزيرة، وذلك أن النصارى ما لبثوا أن تنكروا لعهودهم ونقضوا الشروط إلى أن آل الأمر إلى حملهم المسلمين على التنصير، فكان هناك حاقد يسمى (الكردينال شيمينس) لم يرض عن سياسة اللين التي اتبعت في بادئ الأمر مع المسلمين فأخذ يوسوس كالشيطان إلى الملكة الأسبانية النصرانية بأن في حفظ عهد المسلمين خيانة لعهد الله، حتى أصدرت هذه الملكة الحاقدة أمرًا باضطهاد المسلمين فثار المسلمون لذلك، ولكن الكردينال السابق كان يزيد الأمر اشتعالاً وتوهجًا، فقد استصدر مرسومًا جديدًا يخير العرب والمسلمين بين التنصير وبين مغادرة البلاد بحجة أن أسلافهم كانوا نصارى وأن الكنيسة تعدهم نصارى منذ الولادة، ثم أعقب ذلك غلق المساجد وتحويلها إلى كنائس وإحراق المخطوطات والكتب الدينية الإسلامية وتعذيب المسلمين أشد العذاب ففر كثير من المسلمين إلى مراكش ومصر وتركيا، أما من اضطر أمام الضغط إلى التظاهر بالمسيحية فقد جهدوا أن يؤدوا فروض دينهم سرًا، ولم يأت عام ١٠١٧هـ ١٦٠٩م إلا والأندلس خالية تمامًا من العرب المسلمين، وبلغ عدد من نفي من المسلمين بعد سقوط غرناطة حوالى ثلاثة ملايين مسلم.

ولم يحدث أن أساء المسلمون لأحد في شتى بقاع الأرض على مر العصور بل كانت سماحة الإسلام والمسلمين تمنعهم، ومنعتهم فعلاً، من أي أنواع الاضطهاد والتعصب ضد الأديان الأخرى على مر التاريخ فعاملوا نصاري الأندلس أطيب معاملة وأعطوهم أكثر من حقوقهم ولم يقوموا بحرق أي منهم أو قتله أو تعذيبه أو اضطهاده فكانوا في عرف الإسلام (أهل ذمة) ولكنهم حينما انتصروا على المسلمين عاملوهم

أسوأ معاملة من حرق وقتل وتعـذيب وتشريد وتوالت الأحداث الخيانية على المسلمين كما يلي:

١ ـ في ٤ محرم سنة ٩٠٧هـ صدر المـرسوم الملكي بمنع وجود المسلمين في مملكة غرناطة وحظر اتصـال المسلمين بعضهم ببعض ومن يخـالف ذلك يكون جزاؤه الموت ومصادرة أملاكه.

٢ ـ في ١٣ من رمـضـان سنة ٩٠٨هـ الموافق ١٢ نوفـمبـر سنة ١٥٠٢م صـدر المرسوم الذي يحتم على كل مسلم حر يبلغ الرابعة عشر من عمره إن كان ذكرًا والثانية عشر من عمـرها إن كانت أنثى مغادرة غرناطة قبل أول شهر مـايو من العام نفسه ولا يسمح لمن يريد الخروج بالتصرف في أمـواله أو ممتلكاته، ولا يكون الخروج إلى شمال إفريقيا لأنها بلاد إسلامية.

٣ ـ في ١٩ من ربيع الأول سنة ٩٠٩هـ - ١٢ سبـتمبر ١٥٠٢م، صـدر المرسوم الملكي الذي يحـظر على المسلمين التصرف في أملاكـهم قبل مضـي عامين كمـا يحظر عليهـم مغادرة مملكة قـشتـالة إلا إلى مملكة (الأراغـون والبرتـغال) لأنها بـلاد غـير إسلامية.

٤ ـ في ٦ جـمادى الأولى سنة ٩٢٠هـ - ٢١ مـارس سنة ١٥٢٤م صدر الأمـر البـابوى بإجبـار المسلمين على اعـتناق النصرانيـة الكاثوليكيـة، ومن أبى ذلك فعليـه الخروج من أسبانيا خلال مدة معينة أو يصبح عبـدًا رقيقًا مدى الحياة، كما صدر الأمر بجعل كل المسـاجد كنائس، ورغم تنصـير الكثـيرين من المسلمين إلا أنهم لـم يتـركوا لحالهم ولـم يسلموا من التعذيب والمطاردة.

٥ ـ في سنة ١٠٠٧هـ - ١٥٩٩م صدر المرسوم الملكي باستـرقاق شباب المسلمين الذين أرغموا على التنـصير وكذلك استرقـاق الكهول منهم ومصادرة أمـوالهم ونفيهم

إلى خارج البلاد وأخذ أطفال المسلمين وإيداعهم في المعاهد الدينية المسيحية ليتلقوا تربيتهم النصرانية فيصبحوا نصارى منذ طفولتهم.

٦ ـ في ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩م - ١٠١٨هـ صدر المرسوم النصراني الملكي بنفي كل المسلمين الذين أجبروا وأرغموا على التنصير إلى بلاد البربر خلال ثلاثة أيام من نشر القرار وتم تقدير عدد المنفين بأكثر من مليون شخص، وأخذ النصارى الأسبان يلفقون تهمًا غريبة لبقايا المسلمين، وكان العقاب جاهزًا ومتشابهًا في كل الحالات، فمن الحرق إلى الجلد ومصادرة الممتلكات والتشهير بهم بأن يركب المسلم حمارًا ويعلق على ظهره لوحة فيها اسمه وتهمته ويطاف به في أرجاء المدينة، ومن التهم التي كانت تلفق للمسلمين مثلاً: كثرة الاستحمام أو تكفين الميت في ثياب جديدة أو ذكر النبي ﷺ أو اقتناء القرآن الكريم أو إحراز أوراق أو كتب عربية أو الامتناع عن أكل لحم الخنزير أو الامتناع عن شرب الخمر، أو الوضوء والقيام إلى الصلاة أو الصوم .

وهكذا: لم يأت عام ١٠١٧هـ - ١٦٠٩م إلا وأسبانيا (الأندلس) خالية تمامًا من العرب المسلمين، وبلغ عدد من نفي ما بين سقوط غرناطة والعقد الأول من القرن السابع عشر حوالى (ثلاثة ملايين مسلم) .

والآن: فقد ظلت الأندلس (أسبانيا) في أيدي المسلمين ثمانية قرون وانتزعت من أيديهم منذ أربعة قرون وكان وراء هذا السقوط المرير عامل خفي هو الخيانة.

الباب السادس

الحروب الصليبية

إن من يراجع الأحداث التي واكبت الحروب الصليبية يجد أن الخيانة ممثلة في الأمراء والحكام العرب في ذلك الوقت وهي التي مكنت الصليبيين من تدنيس الأراضي الإسلامية واحتلالها لفترة طويلة من الزمن تقدر بقرنين تقريبًا وقد أورد كبار المؤرخين العديد من الصور الخيانية التى لا يصدقها عقل ولا يتصورها إنسان.

ونود أن نشير إلى أن الحروب الصليبية قد بدأت بخيانة عقائدية فقد تجمع الحقد الصليبي والغيرة الشديدة من الإسلام والمسلمين، في جوف حاقد لدود، وأفعى متربصة، ذلكم هو الصليبي الذي عرف باسم البابا (إيريان الثاني)، فقد عقد مؤتمرًا صليبيًا في مدينة كليرمونت بفرنسا في نوفمبر عام ١٠٩٥م ونفخ فيه كل ما في جوفه من حقد وكراهية للإسلام والمسلمين، وكان يتطاير من فمه شرر الحقد الصليبي الذي أجج نيران الحروب الصليبية لمدة قرنين من الزمان، وافرغ هذا الثعبان كل ما في جوفه من سم زعاف ضد الإسلام والمسلمين حتى نجح في هذا المؤتمر في إثارة حماسهم وحقدهم وبغضهم ضد الإسلام والمسلمين، واتفقوا على تجريد جيوشهم الصليبية للزحف على بلاد المسلمين بحجة انتزاع القدس من أيدى المسلمين واحتلال بلادهم وإعادتها صليبية كما كانت قبل ظهور الإسلام. وضَمِنَ بوقاحته الجنة لمن يقاتل في سبيل ذلك ولمن يشترك في الزحف على بلاد المسلمين، وألقى خطابًا ناريًا ألهب به حماس المجتمعين جميعًا وبدأت النار تنتشر في نفوسهم فبدأت أوروبا النصرانية كلها تشتعل بهذه النيران المتأججة التي أطلق شررها ذلك الحاقد إيريان الثاني، وأخذ يتجول في الدول الأوروبية بين الفينة والفينة للنفخ من روحه الثعبانية في هذه النار

التي أججها في (كليرمونت) ويزيدها حماسًا واشتعالاً وتصميمًا على غزو بلاد المسلمين لانتزاع القدس وبيت المقدس واحتلال الجنات التي في انتظارهم في بلاد المسلمين، وتجاوبت معه الجموع الغفيرة من الأوربيين من مختلف الطبقات، وكان يساعده في التجول حاقد آخر لا يقل عنه ضراوة وحقدًا للإسلام والمسلمين هو القسيس (بطرس الناسك) وبين يوم وليلة بدأت الحملات الصليبية الحاقدة الشرسة تتوالى على بلاد الإسلام والمسلمين حتى بلغت ثمان حملات صليبية خلال قرنين من الزمان سُفِكَت فيها دماء الألوف المؤلفة من الجانبين المسلمين والصليبيين على السواء وقتل فيها مئات الألوف، من الطرفين وكان الصليبيون والمسلمون على حد سواء يستميتون في القتال والحروب لأنها حروب عقيدة وحروب دفاع عن الدين والوطن من جانب المسلمين، وحروب تعصب ديني أعمى من الصليبيين.

وكان المسلمون كلما يُبيدُون حملة صليبية تظهر في الحال مكانها حملة صليبية أخرى، فكأن الصليبيين كانوا يتلذذون بالقتل والموت على أيدي المسلمين لضمان الجنة التي وعدهم بها إيربان الثاني وبطرس الناسك، ونتيجة لتفكك الأمراء والحكام المسلمين في ذلك الوقت ونتيجة للخيانات المتعددة من الكثير من حكام المسلمين ووزرائهم فقد تمكن الصليبيون من البقاء في أرض الإسلام هذه المدة الطويلة المقدرة بقرنين من الزمان، وتمكنوا من تأسيس عدة ممالك صليبية في أرض المسلمين منها الرها وإنطاكية وعكا وبيت المقدس، وبقى القدس في أيديهم ثمانية وثمانين عامًا حتى استرده منهم صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧م، وقد لعبت الخيانة الدور الأكبر في تدنيس الأراضي الإسلامية بالأقدام الصليبية هذه المدة الطويلة، ويؤكد جميع المؤرخين أنه بدون هذه الخيانات المتعددة لما تمكن الصليبيون من تدنيس الأراضي الإسلامية ولما

كان لهم فيها موضع قدم على الإطلاق، ولما تمكنوا من احتلال شبرًا واحدًا من بلاد الإسلام والمسلمين، ويتجلى الحقد الصليبي بأبشع صوره في مذبحة القدس في ١٥ يوليو عام ١٠٩٩م فقد أقاموا في القدس مجزرة أحالوها إلى بركة من الدماء في واحدة من أشد المذابح بربرية ووحشية في التاريخ، فقتل الصليبيون ما لا يحصى ولا يعد من سكان المدينة من المسلمين واليهود، وقد لاذ أهل المدينة بالمسجد الأقصى وظنوه حصنًا آمنًا مقدسًا ترتفع فيه الصلوات باسم الرب، وظنوا أن هؤلاء السفاحين البرابرة قد جاءوا حقًا من بلادهم في سبيل الله تعالى.

وفي داخل الحرم المقدس بيت الله - عزَّ وجلَّ - ذبح هؤلاء سبعين ألفًا من المسلمين كلهم من المدنيين غير المقاتلين وبعضهم من الأئمة وعلماء الدين، وأكثرهم من الضعفاء والعجزة والنساء والشيوخ والأطفال، وحزوا رءوس القتلى المسلمين وألقوا بالكثيرين منهم في النيران، وتكدست في شوارع القدس أكوام من الجثث والرءوس والأيدي والأقدام، وتحول هؤلاء الخونة إلى وحوش مسعورة لا تتمتع إلا بسفك الدماء المسلمة والقتل الجماعي للمسلمين العزل الآمنين الضعفاء، وأمام هؤلاء الحاقدين، أقاموا المذبحة للمسلمين الأبرياء لمدة أسبوع كامل حتى يرووا ظمأهم من الدم المسلم وحتى يفرغوا شحنة التعصب والعداء والحقد الدفين للإسلام والمسلمين، أسبوع كامل والقدس مباحة ومستباحة للقتل الذي نصبته الوحشية الصليبية الحاقدة، ولا تسل عما نهبه هؤلاء اللصوص الذين جاءوا من بلادهم باسم الدين، والدين منهم بريء، فقد سرقوا ونهبوا كل ما وقع تحت أيديهم من محتويات المسجد الأقصى، فأخذوا سبعين قنديلاً منها عشرين ذهبًا، وفي كل قنديل ألف مثقال، ومنها خمسين قنديلاً فضة، وأخذوا تنورًا (فرنا) من فضة، ونهبوا من الأموال ما لا يحصى

ولا يعد . وكتب مؤرخ صليبي معاصر يقول عن هذه المذبحة الوحشية الصليبية: (خاض رجالنا إلى ركبهم في دماء المسلمين)، فكان ذلك وصمة عار في جبين الصليبيين والأوروبيين على مدى التاريخ . وكتب وليم الصوري الصليبي يقول: (إن البلد أصبح مخاضة واسعة من دماء المسلمين)، وكتب مؤرخ صليبي آخر يقول: (إنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا بصعوبة بالغة، وأن دماء المسلمين بلغت ركبته)، وكتب ابن العبري الملطي الصليبي الشرقي يقول: (ولبث الفرنجة الصليبيون في البلد أسبوعًا يقتلون المسلمين، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا من المسلمين)، وكتبوا إلى (البابا) في أوروبا يهنئونه بهذا العمل الإجرامي البشع قائلين: إذا أردت أن تعلم بما جرى لأعدائنا المسلمين فثق أن في إيوان سليمان ومعبده كانت خيولنا تخوض في بحر من دماء المسلمين إلى ركبتيها). وكان ذلك كله بلا شك بسبب الخيانات المتعددة.

الخيانة الأرمنية والخيانة الفاطمية والباطنية

١ ـ الأرمن وحاكم الرها الأرمني وتسببهم في سقوط الرها في يد الصليبيين وتأسيس أول إمارة صليبية في الشرق

تم تأسيس هذه الإمارة، إمارة الرها أول إمارة صليبية في الشرق بسبب سلسلة من الخيانات والانتهاكات من جانب كل من الأرمن المسيحيين وبلدوين أبرز أمراء الصليبيين، فقد فرح أمراء الأرمن المسيحيين المحليين بمجيء الصليبيين، وهذا يدل على أن الصراع كان بين المسلمين والمسيحيين، واتصل هؤلاء الأرمن ببلدوين الذي استطاع بسبب خيانتهم ومساعدتهم له من الاستيلاء على كثير من المواقع والقلاع .. ولم يجد صعوبة في احتلال تل باشر والراوندان، وقام حاكم الرها الأرمني (طوروس) بدعوة بلدوين الصليبي إلى الرها لمساعدته ضد السلاجقة المسلمين وفعلاً سارع بلدوين إلى الرها في ثمانين فارسًا فاستقبله الأرمن وحاكمهم استقبالاً حاراً وحافلاً بعد أن كاد بلدوين أن يسقط في قبضة حامية سميساط السلجوقية، ولكنه نجا بأعجوبة، وعندما طلب منه الخائن الأرمني طوروس مهاجمة سميساط السلجوقية المسلمة رحب كثيراً بذلك، وأمده طوروس بالجيش الأرمني لمساعدته، ولكن بينما كان الأرمن مشغولين في النهب والسلب في (سميساط) خرج عليهم جيش من السلاجقة المسلمين فأبادوا منهم ألفًا واضطروهم للفرار، وقد دفع ذلك بلدوين إلى التعجيل بالاستيلاء على الرها فاشترط على حاكمها الخائن طوروس أن يتبناه ويجعله وريثًا له في الرها، فقبل ذلك طوروس وتبني بلدوين في سنة ١٠٩٨م رسميًا ولم يعرف طوروس أنه كان بذلك يكتب صك وفاته ونهاية أجله وعمره، فقامت ضده ثورة من أهل المدينة لهذا الإجراء فعزلوه ثم قتلوه، ولم يتمكن المؤرخون من تبرئة بلدوين في تحريك هذه الثورة في الخفاء، ولكن الدلائل تشير إلى أنه هو الذي حرك هذه الثورة ضد والده بالتبني الخائن طوروس، حيث خانه وعمل على عزله وقتله

ليخلو له الجو ويرث مملكة الرها، وهكذا تضرب الخيانة بعضها بعضًا ويضرب الخونة رقاب بعضهم.

حيث أن بلدوين قضى على طوروس بعد ما تبناه وخان بلده، وأصبحت الرها أول مملكة صليبية وأول قاعدة للصليبيين في الشرق بسبب الخيانة وبفعل الخونة، ومما يندى له الجبين أن بلدوين الصليبي قد أخذها هدية بدون قتال وبدون سفك (أي قطرة من دم جنود الصليبيين).

٢ ـ خيانة أمير سميساط السلجوقي

باع هذا الخائن إمارته لبلدوين الصليبي بعشرة آلاف دينار من الذهب، ودفع بلدوين هذا المبلغ من خزانة (طوروس) الذي تبناه وورثه كما سبق، فلم يخسر أي شيء من أموال الصليبيين في شراء إمارة سميساط وإنما اشتراها من أموال الرها.

٣ ـ حاكم سروج ودفع الأرمن ثمن خيانتهم وخيانة سكان مدينة مرعش من الأرمن

أرسل هذا الخائن إلى بلدوين يستعين به ضد رعاياه الذين رفضوا دفع الضرائب المفروضة عليهم، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، حيث أتاح لبلدوين الفرصة الذهبية حيث إنه زحف على سروج واستولى عليها وعزل حاكمها الخائن وضمها إلى أملاكه، وقد دفع الأرمن ثمن خيانتهم ومساعدتهم لبلدوين والصليبيين الذين استعبدوا الأرمن وسخروهم في فلاحة وزراعة الأرض وعاملوهم معاملة العبيد والخدم، ولما أفاق الزعماء الأرمن وأرادوا تصحيح خيانتهم وخطئهم بعد فوات الأوان حيث قاموا بمؤامرة للتخلص من بلدوين والصليبيين، لكنهم عاقبوهم عقابًا شديدًا في ٢٦ ديسمبر ١٠٩٨م وأذاقوهم الذل والهوان، ثم استولى الصليبيون على قلعة (بلاكتيا) الأرمنية في جبال طوروس، ثم اخترقوا جبال طوروس إلى مدينة مرعش

الأرمنية واستولوا عليها وكان معظم أهلها من الأرمن الخونة فساعدوا الصليبيين في الاستيلاء عليها، ومن مرعش اتجه الصليبيون جنوبًا إلى إنطاكية حيث مهدت مرعش لهم الطريق فوصلوا جسر الحديد على نهر العاصي شرق إنطاكية في ٢٠ أكتوبر سنة ١٠٩٧م، ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الأرمن قد تمردوا في الرها في عهد نور الدين زنكي الأمير المسلم الذي كافح كفاحًا مريراً ضد الصليبيين، فتمرد هؤلاء الأرمن ضده في سنة ١١٤٧م، فدمر الرها على رءوسهم ونكل بهم.

٤ ـ خيانة أخرى للأرمن ومعهم السريان في حلب ونقل خطة المسلمين إلى العدو الصليبي

تجمعت القوى الإسلامية السلجوقية لفك حصار الصليبيين عن إنطاكية فاجتمعت جيوش حلب وديار بكر وحماه وحمص وإقليم الجزيرة في (حارم) التى تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً شرق إنطاكية، ورسمت خطتها على مهاجمة الجيوش الصليبية، في الوقت الذي تخرج فيه جيوش الأمير (باغي سيان) المسلم من إنطاكية، لمهاجمتها من الجانب الآخر فيقع الصليبيون بين نارين، ولكن الأرمن والسريان الخونة في حلب وحارم سارعوا بنقل خبر تلك الخطة إلى الصليبيين في أوائل فبراير ١٩٠٨م، فقرر (بوهيمند) الصليبي ترك المشاة يحرسون معسكر الصليبيين حول إنطاكية وخرج بجيشه للقاء الجيوش الإسلامية في موقع حصين بين بحيرة (العمق) ومجرى نهر العاصي، وانتهت المعركة باندحار المسلمين وتراجعهم إلى حارم يتبعهم الصليبيون، بينما فرت حامية حارم التي أشعلت النار في الحصن، واستولى الصليبيون على حارم بمساعدة الأرمن والسريان الخونة فسقطت بذلك القلعة التي كانت تحمي إنطاكية من ناحية حلب، وعاد الصليبيون إلى إنطاكية، يحملون رءوس ضحاياهم من القتلى المسلمين في معركة العمق السابقة وقذفوا بها داخل أسوار المدينة ليعلم المدافعون بما حل بحلفائهم . وهكذا لعبت الخيانة القذرة خيانة الأرمن والسريان الدور الأكبر في إفساد خطة المسلمين وهزيمتهم ومهدوا بذلك الطريق لسقوط إنطاكية.

٥ ـ خيانة بشعة لأحد الأرمن الذين أسلموا وتسببه في سقوط إنطاكية

شيد الصليبيون قلعة على تل قريب من إنطاكية فأحكموا الحصار عليها، كما وفد عدد من السفن الإنجليزية والإيطالية تحمل المؤن والسلاح وآلات الحصار، وعمدوا إلى التآمر مع أحد الخونة من الأرمن الذين أسلموا، وكان الأمير المسلم باغي سيان قد عهد إلى هذا الأرمني الخائن بحراسة أبراج المدينة التى كان يقوم بحراستها وحمايتها ففتحها للصليبيين فتقدموا منها سريعًا بالليل، حتى إذا طلع نهار يوم ٣ يونية ١٠٩٨م كانت إنطاكية في قبضة الصليبيين، وكانت نكبة فظيعة للمسلمين سببها هذا الخائن الوضيع، وقد أسرف الصليبيون في قتل وأسر وسبي الرجال والنساء والأطفال فقتلوا وأسروا من المسلمين ما لا يدركه حصر ولا عدد، وتأسست بذلك مملكة صليبية أخرى وهي مملكة إنطاكية بجانب مملكة الرها وذلك بسبب خيانة فرد واحد جعل نفسه ذنبًا وذيلاً لأسياده الصليبيين.

٦ ـ خيبة الأمير (كاربوغا) الفادحة

تحرك هذا الأمير المسلم بجيشه بعد سقوط إنطاكية وضم إليه بعض الجيوش الإسلامية الأخرى خصوصًا جيش الأمير العربي جناح الدولة صاحب حمص، ووصل إلى الشرق من إنطاكية فقضى على الحامية الصليبية ثم ظهر أمام أسوار إنطاكية التى كانت قلعتها ما تزال في أيدي المسلمين، وفرض الحصار على المدينة، وهكذا انقلب الموقف لصالح المسلمين فبعد أن كان الصليبيون يحاصرون إنطاكية أصبحوا محاصرين فيها، وكانت خطة كاربوغا تجويع الصليبيين داخل المدينة بإحكام الحصار عليها، وعين على قلعة إنطاكية أحمد بن مروان وأخذ يشدد قبضته شيئًا فشيئًا عليها وسرعان ما أخذت تنضب موارد الصليبيين داخل إنطاكية ويعانون من وطأة الحصار وقلة القوت وأكلوا الميتة، واضطر الكثيرون منهم إلى العيش على أوراق

الأشجار وأكل الميتات والدواب، وبلغ سعر الرغيف الصغير دينار وسعر البيضة دينارين ويدأ اليأس ينتاب الصليبيين داخل إنطاكية وخارت قواهم وأخذوا يتسللون من مواقعهم إلى مساكن المدينة للأحتماء بها مما دعا بوهمند الصليبي إلى حرق مساكن المدينة في ١٢ يونية لأجبار الصليبيين داخلها على الخروج إلى مواقعهم القتالية الأمامية، وتقبل الصليبيون الأمر الواقع وفكروا في الاستسلام ودخلوا في مفاوضات مع كاربوغا المسلم الذي يحاصرهم، ولكنه أصر على الاستسلام دون قيد ولا شرط وقال لهم (لاتخرجوا إلا بالسيف)، فلم يعد أمام الصليبيين مفر من القتال، وفي ٢٨ يونيه ١٠٩٨ أمر بوهمند رجاله بالخروج للدخول في معركة فاصلة مع المسلمين. وكان في وسع كاربوغا القضاء عليهم تدريجيًا كجماعات صغيرة أثناء خروجهم، فقد أشار عليه قواده بالوقوف على الباب ليقتلوا كل من يخرج من الصليبيين، فإن أمرهم وهم متفرقون سهل، ولكن كربوغا لأسباب سوف يقف عندها التاريخ طويلا بالحيرة رفض هذه المشورة قائلاً: (أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم)، وبذلك أضاع كربوغا آخر فرصة لهزيمة الصليبيين، إذ لم يكد يتكامل عددهم حتى خاضوا معركة حياة أو موت، وحلت الهزيمة بجيش كاربوغا وانفض عنه كثير من الأمراء لأنه أضاع فرصة العمر.

٧ـ مزيد من التفاصيل عن الخائن الأرمني المتسبب في سقوط إنطاكية

نتقل ما جاء عن هذا الخائن العميل، يقول الأستاذ/ عبد العال الباقوري تحت عنوان (خيانة فيروز): حفلت الحروب الصليبية بعدد كبير من الخيانات التى من اشهرها تلك الخيانة التي ساعدت الصليبيين في فتح إنطاكية والاستيلاء عليها بعد أن كاد اليأس يصرفهم عنها ويدفعهم إلى فك الحصار، فقد أثبت الحاكم السلجوقي (باغي سيان) كفاءة عالية في مواجهة الحصار، لكنه لم يكن يعتقد أن

الخيانة ستأتيه من داخل المدينة نفسها ومن أحد قواده الخونة. ويبدو أن بوهمند الصليبي كان يجيد أعمال المخابرات والتسلل إلى داخل صفوف العدو، فقد كانت هذه فرصته الأخيرة ليعزز مركزه، واستطاع عن طريق بعض الأرمن أن يتصل بأحد الخونة من رجال (باغي سيان) داخل المدينة وهذا الخائن اسمه (فيروز) .

وكان فيروز هذا أرمنيا اعتنق الإسلام وأصبح قريبًا من باغي سيان ثم تولى منصبًا كبيراً في حكومته، ولكن حادثًا غريبًا جعل فيروز يحقد على سيده الذي ظن أنه وراء خيانة زوجته أي زوجة فيروز له، وهذه الخيانة من زوجته جعلته يفقد رشدهُ ويمتلىء حقداً ورغبة في الانتقام، ولو كان هذا عن طريق فتح إنطاكية نفسها أمام الصليبيين لعله بذلك يشفي صدره من الحقد الذي عشش داخله، وتمت الاتصالات بين بوهمند وعميله الخائن فيروز في سرية تامة وكتمان شديد، وكان هذا الخائن فيروز يعرف ما هو المصير الذي سيلقاه لو افتضح أمره، وكان بوهمند يخفي صفته عن عيون زملائه الآخرين من القادة الصليبيين وعندما ضاق الحال بالصليبيين وضجوا من طول الحصار جاءهم الفرج في الوقت المناسب فاتصل فيروز بسيده (بوهمند) وحدد له المكان الذي يستطيع الصليبيون أن يتسللوا منه إلى داخل إنطاكية.

وفي ذات ليلة كئيبة هي ليلة ٢ يونيه ١٠٩٨م استولى الصليبيون على إنطاكية ولم يتركوا بالمدينة أحداً حيًا من المسلمين، كما نهبوا بيوت ساكنيها مسيحيين كانوا أو مسلمين، ونهبوا كنوز إنطاكية وقتلوا من أهلها ما ملأ شوارعها بالدم وجثث الرجال والنساء والأطفال، وتمكن باغي سيان من الهرب، وترك أهله وأولاده وأمواله في إنطاكية، فلما بعد عن البلد ندم على هربه وتَرْكِ أهلِه وأولادِه وأمواله فنزل عن فرسه وحثي التراب على رأسه ويبكى ولطمّ، وتفرق عنه أصحابه، حتى إذا ما بقى وحده مر به رجل أرمنى حطاب فعرفه وقتله وحمل رأسه إلى (صنجيل) ملك الفرنج، وقتل

فيروز زوجتـه الخائنة، لكنه لم يحصل من بوهمند على ثمن خيـانته الذي وعده به، وبذلك تختـفي أخبار ذلك الأرمني الخائن فـيروز ولا تستمـر لأن عمر الخيـانة دائمًا قصير[1].

فهذه تعـتبر خطة خيانـية من فيروز وزوجتـه وباغي سيان إن كان فعـلاً قد خان فيروز في زوجتـه، ثم بفراره وكان الأشرف له أن يموت شهيدًا، ثم خـيانة الصليبيين وبوهمند بقتلهم الأبرياء من أهالى إنطاكية ثم خـيانة بوهمند لفيروز بعدم إعطائه ثمن خيانته، ثم خيانة الحَطَّاب بقتله لباغي سيان.

٨ ـ التحالف الفاطمي مع الصليبيين ضد السلاجقة المسلمين

خلال الظروف العـصيبة التى يمر بهـا الصليبيون أمـام إنطاكية لعبت الـصراعات والانقسامات بين القوى الإسلامية دورًا خطيرًا لصالح الصليبيين، فقد انتهز الفاطميون في مصر فرصة انشـغال السلاجقة بالصراع مع الصليبيين فقـاموا بتحريك جيش تمكن من فتح بيت المـقدس في أغسطس سنة ١٠٩٨م، وكـانت في ذلك الوقت في أيدي السلاجقة ولـم تكن قد سقطت بعد في أيدي الصليبيين.

وأرسل الفاطميـون بعثة فاطمية إلى الصليـبيين أمام إنطاكية للتفـاوض على عقد تحالف ضد خـصومهم من أهل السـنة (أى الخلافة العـباسية في بغداد)، (والسـلاجقة المسلمين السنيين في الشام)، وقد سعد الصليبيون بهذه البـعثة الفاطمية لأنها أكسبتهم وضعًـا سياسـيًا معتـرفًا به في هذا الركن الهـام من أركان العالم العـربي والإسلامي خاصة أنه من دولة مـثل الدولة الفاطمية، وأخـذ الصليبيون يموهون على الـفاطميين لإخفـاء مشروعاتهم في الشـام وعلى رأسها الاسـتيلاء على بيت المقدس، وخـدعوا الفاطميين الخونة حتى تمكنوا من ذلك.

---

(١) انظر: كتاب (سقوط القدس) للأستاذ عبد العال الباقوري، ص٣٩، ٤٠.

٩ ـ خيانة الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه

مقدمًا فإن اسم شاهنشاه محرم شرعًا وقد نهى الرسول ﷺ عنه، ويعتبر من الشِّركِيَّات لأنه اسم فارسي معناه باللغة العربية (ملك الملوك) وهو لا يجوز إلا لله سبحانه وتعالى. وكان هذا الوزير هو الحاكم الفعلي لمصر في ذلك الوقت من (١٠٩٥م - ١١٢١م) وقد أرسل إلى الصليبيين سفارة تحمل هدايا نفيسة وعرضًا من الخليفة الفاطمي بأن يسهل لهم مهمة الحج إلى بيت المقدس على شكل مجموعات من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين، ولكنهم ردوا عليه بأنهم سيتمكنون من الحج فعلاً ولكن بمعونة الله، وكان الفاطميون يظنون أن الصليبيين سيكونون أعوانًا لهم ضد السلاجقة المسلمين، ولم يعلموا أن الصليبيين قد قدموا من بلادهم للقضاء على جميع المسلمين سواء كانوا سلاجقة أو فاطميين أو شيعة أو سنيين عربًا كانوا أو أتراكًا، المهم المسلمين.

١٠ ـ الفاطميون وعدم مساعدة أرسوف والمدن التابعة لهم مساعدة فعالة

كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية، وقد قام (جودفري) الصليبي بإرسال حملة إلى أرسوف للاستيلاء عليها في ديسمبر ١٠٩٩م، وطلبت أرسوف من الفاطميين معونتهم لصد غارات الصليبيين عليها، ولكن الفاطميين أرسلوا إليها قوة صغيرة مكونة من ٣٠٠ ثلاثمائة جندي عن طريق البحر وهي قوة صغيرة بالطبع لا تسمن ولا تغني من جوع أمام قوات الصليبيين المتفوقة عددًا وعدة، وقد وقعت هذه القوة الفاطمية في كمين أعده لها الصليبيون.

وحينئذٍ أدرك أهل أرسوف عدم جدوى المساعدة الفاطمية فلم يجدوا بدًا من التسليم والدخول في تبعية الصليبيين ودفع جزية مالية لهم، (فاحكم بنفسك) أيها القارئ الكريم على أن يقوم المسلمون وهم في بلادهم بدفع جزية للصليبيين الذين يعتبرون محتلين لبلادهم.

ولم يقتصر الأمر على أرسوف فقد دخل في تبعية الصليبيين حكام عسقلان وقيسارية وعكا وذلك لعجز الفاطميين عن حمايتهم لأنهم ضمن ممتلكاتهم فالفاطميون ليسوا وحدهم الخونة بل حكام هذه المدن أيضًا يشاركونهم في الخيانة لأنهم فضلوا الاستسلام والتبعية للعدو الصليبي على الجهاد والدفاع عن بلادهم ومقاومة هذا العدو الصليبي اللص، فلو قاومت كل هذه المدن والبلاد لاربكوا العدو الصليبي وهزموه كما فعل أهل رشيد بحملة فريزر عام ١٨٠٧م وكما فعل أهل بور سعيد في عدوان ١٩٥٦م وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

١١ - أهل بيروت وعكا وحكامهم، والطامة الكبرى في الرملة

ليست المدن السابقة أرسوف وعسقلان وعكا وقيسارية وحدها هي التي دخلت في تبعية الصليبيين وخضعت لهم دون مقاومة، فقد سبقتهم بيروت في ذلك، حيث تعهد أهلها بالدخول في تبعية الصليبيين وطاعتهم إذا نجحوا في احتلال بيت المقدس، وكذلك فعل حاكم عكا الخائن مثل حاكم بيروت فقد تعهد للصليبيين بالدخول في تبعيتهم وطاعتهم إذا احتلوا بيت المقدس، وكأن هؤلاء الخونة كانوا يشجعون أسيادهم الصليبيين على احتلال بيت المقدس، أما (صيدا) فقد أبدت بعض المقاومة وحدها مما دفع الصليبيين إلى إتلاف مزارعها، ولو شاركتها المدن السابقة وحكامها في المقاومة لتغير الوضع لصالح المسلمين، أما الطامة الكبرى في الرملة فهي: أن أهلها الخونة قد تركوها وهجروها، فاحتلها الصليبيون لقمة سائغة.

ونحن نتعجب من قوم بلغ بهم الجبن والهلع هذا المبلغ فيتركون بلدهم ليحتلها العدو الصليبي دون بذل قطرة دماء واحدة، فكان الأكرم لهم أن يموتوا شهداء ويدفنوا في أرضهم وبلدهم ويظل ذكرهم عاطرًا على مر التاريخ دون أن تلحقهم وصمة العار والخيانة والجبن، فلا نامت أعين الجبناء.

١٢ ـ شيوخ القبائل العربية

مهدت خيانة المدن السابقة وحكامها الطريق للصليبيين إلى القدس وسهلوا لهم احتلالها، وهنا يأتي دور (مشايخ العرب وشيوخ القبائل) في الخيانة، فقد سارعوا إلى عقد الاتفاقيات مع حكومة القدس الصليبية لتأمين قوافلهم وتجارتهم مما جعل البضائع المختلفة تتدفق على القدس ويافا وتوفر للدولة الصليبية في فلسطين الاستقرار والأمان، وأصبحت هذه الاتفاقيات ضررًا فادحًا على العرب والمسلمين وساعدت على إضعافهم لأن الدولة الصليبية حرمت على عرب فلسطين التجارة مع العالم الإسلامي عن طريق البحر مما أدى إلى إضعاف المدن الفلسطينية وسقوطها في النهاية.

موقف مشرف للأمير (دقاق) حاكم دمشق

وحتى لا يمل القارئ الكريم من كثرة قراءته للخيانة نقدم له هذه الاستراحة القصيرة، فقد اتجه الصليبيون إلى السيطرة على إقليم السواد (سواد طبرية) فخرج (تنكرد) الصليبي في مايو عام ١١٠٠م، للإغارة على هذا الإقليم بغارات شديدة لمدة ثمانية أيام، فأرسل حاكم السواد إلى الأمير دقاق حاكم دمشق يطلب النجدة فأمده بخمسمائة فارس فهاجموا مؤخرة الصليبيين وأطلقوا سراح من معهم من الأسرى المسلمين، ولكنهم لم يتمكنوا من مواصلة الهجوم فعادوا إلى دمشق منسحبين، فشجع هذا الصليبي تنكرد على الاقتراب من دمشق نفسها، ثم أرسل تنكرد إلى (دقاق) حاكم دمشق سفارة من فرسانه تتكون من ستة أفراد ينذره باعتناق المسيحية أو ترك دمشق فورًا، وقد رد الأمير دقاق على ذلك الإنذار بانذار الرسل الستة باعتناق الإسلام أو يُقتلوا، فوافق أحدهم واعتنق الإسلام، أما الخمسة الآخرون فلم يوافقوا فأُعدِموا، فمرحى لك أيها الدقاق العظيم البطل الذي سحق الخوف والجبن والخيانة.

١٣ ـ صاحب طرابلس القاضي فخر الملك (أبو علي بن عمار) وتحالفه مع بلدوين

بينما كان الصليبي بوهمند في طريقه إلى ملطية لنجدة أميرها الصليبي ضد المسلمين تلقى هزيمة قاسية على يد الملك المسلم غازي كمشتكين بن الدانشمند، وسقط بوهمند الصليبي أسيراً في يد الملك المسلم حيث نقله إلى (نكسار) قرب شاطئ البحر الأسود فظل بها أسيراً لمدة ثلاث سنوات، وبذلك خلا الجو لبلدوين الصليبي للاستئثار بعرش بيت المقدس فأرسل له أنصاره يخبرونه بموت أخيه (جودفري) ويطلبون منه الحضور بسرعة لتسلم مقاليد الحكم فخرج في ٢ أكتوبر عام ١١٠٠ م من الرها قاصداً بيت المقدس.

ولكنه كاد يسقط بدوره أسيراً في يد الأمير (دقاق) حاكم دمشق الذي خرج وبصحبته (جناح الدولة) أمير حمص العربي المسلم لاصطياد بلدوين عند مصب نهر الكلب في مكان ضيق بين الجبال والبحر.

وهنا يأتي دور الخائن ابن عمار، حيث قام بتحذيره والتحالف معه أي مع بلدوين ونشبت معركة انتهت بهزيمة الدماشقة المسلمين، فماذا كانت نتيجة خيانة ابن عمار؟ كانت النتيجة كما يلي:

١ ـ هزيمة المسلمين كما قلنا.

٢ ـ نجاح بلدوين في الوصول إلى بيت المقدس في نوفمبر ١١٠٠م حيث نودي به ملكا في يوم عيد الميلاد.

٣ ـ وضع بلدوين مخططًا يستهدف ضم جميع شواطئ فلسطين المواجهة لمملكته في القدس ونجح في ذلك.

٤ ـ استطاع الاستيلاء على أرسوف في أواخر أبريل ١١٠١م .

٥ ـ استولى على قيسارية في ١٧ مايو ١١٠١م.

٦ - ارتكب الصليبيون في قيسارية مذبحة وحشية أخرى فقتلوا كثيراً من أهلها الأبرياء، ولاحقوا من احتمى منهم في الجامع وقتلوهم عن آخرهم حتى تحول المسجد إلى بركة من الدماء، وقد بلغ من حقد الصليبيين أن أحد كلابهم المسمى (جودفوي) أقسم أن يطهر الدين المسيحي والقدس بدماء المسلمين.

١٤ - خيانة رضوان ملك حلب

رفض هذا الخائن الاشتراك في الحلف الإسلامي الكبير تحت قيادة (كربوغا) المسلم للعمل على استرداد إنطاكية وامتنع عن المشاركة في الحصار الذي فرضه الجيش السلجوقي المسلم الكبير على هذه المدينة، والذي كاد يكون نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية وذلك بسبب عدائه لأخيه دقاق حاكم دمشق، برغم أن تأمين مستقبله ومستقبل إمارته حلب كان يحتم عليه هذا الاشتراك لأن حلب كانت واقعة بين الرها في الشرق وإنطاكية في الغرب وكلتاهما كانتا في يد الصليبيين.

١٥ - الخليفة العباسي المستظهر وتقاعسه عن الجهاد

تراخى هذا الخليفة عن الجهاد ومقاومة الصليبيين وماطل في الجهاد وفي الدعوة إليه ولم يستطع أن يعبئ الأمة الإسلامية التي يحكمها للجهاد، ولم يستطع أن يقوم بين المسلمين بالدور الذي قام به البابا إيريان الثاني بين النصارى الصليبيين الأوربيين ففقدت الخلافة بهذا الموقف دورها التاريخي في الصراع بين المسلمين وأوروبا.

وفي ذلك الحين أخذ العالم الإسلامي يضج بالدعوة إلى الجهاد والتوحد لطرد الصليبيين، وأرسل أهالى حلب إلى الخليفة العباسي وسلطان سلاجقة فارس يشكون من سياسة الاستكانة التي يتبعها حاكمهم رضوان إزاء (تنكرد) حاكم إنطاكية الصليبي، ويطلبون الجِدَّ في جهاد الصليبيين وبلغت الأمور ذروتها المأساوية حين اشترك الأمبراطور البيزنطي (الكسيس كومنين) نفسه في مطالبة الخليفة العباسي

والسلطان السلجوقي بالتصدي للصليبيين في إنطاكية وأرسل سفارة للخليفة بذلك في بغداد، وقد أدى ذلك إلى اشتعال الثورة في بغداد ضد الخليفة المستظهر والسلطان محمد السلجوقي، يقول ابن الأثير: صالح الناس في سلطانك أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام حتى أرسل إليك في جهادهم؟!

١٦ ـ خيانة أخرى لرضوان ملك حلب

أثناء الثورة السابقة التى اشتعلت في بغداد أرسل الخليفة إلي السلطان محمد السلجوقي يدعوه إلى القيام بعمل ضد الصليبيين، فكلف السلطان مودود أتابك الموصل بالخروج على رأس حملة لهذا الغرض وكان ذلك في إبريل ١١١١م، فسارع إلى تنفيذ الأمر مستعينًا بأمراء (ميافارقين ومراغه وأربل وهمدان) وغيرهم، وقد أحدث خروجه الفزع في صفوف الصليبيين الذين جمعوا صفوفهم وتماسكوا في مواجهة الجيش الإسلامي، وحاول الأمير مودود أتابك الموصل عقد حلف مع الخائن رضوان ملك حلب في مواجهة الحلف الذي كونه الصليبيون من قوات بيت المقدس وطرابلس وإنطاكية والرها، ولكن هذا الخائن رضوان رفض التعاون وأغلق باب مدينته في وجه الأمير مودود في خيانة بالغة، فدعا مودود أتابك دمشق (طغتكين) للتحالف معه فقبل على خوف وشك، يقول ابن الأثير: «وبقى مودود في نهر العاصي مع (طغتكين) حليفه غير الوفي، في حين توفي (سكمان) صاحب (ميافارقين) فجأة فانسحبت قواته عائدة بجثمانه، وكذلك اختار أحمد بك الثاني صاحب مراغة العودة إلى إمارته لبعض المشاغل الداخلية، وهكذا رأى مودود حلفاءه ينفضون من حوله، وكان قد دخل (مدينة شيزر) على رأس جيوشه بينما كانت تواجهه قوات الصليبيين التى تزايد عددها، وأحس أنه لا يقوى على منازلة الجيش الصليبي فعاد إلى الموصل وعاد (طغتكين) إلى دمشق».

وهكذا أدى التخاذل والخيانة إلى عدم خوض معركة فاصلة مع الصليبيين، وتُرِكوا يرتعون في بلاد المسلمين، ولم يكن لهذه الحملة الإسلامية من نتائج سوى أنها أدت إلى تفكك الجبهة الإسلامية فازدادُ الصليبيون شراسة وازدادُوا اطمئنانًا.

١٧ ـ الخيانة الباطنية التى قتلت الأمير المجاهد (مودود)

تمكن أحد الخونة الباطنية المسلمين من قتل هذا المجاهد (مودود) في الجامع الأموى في دمشق بينما كان يستعد لاستئناف الحرب ضد الصليبيين، وقد اتهم الرأى العام الإسلامي (طغتكين) بتدبير قتله خوفًا من سيطرته على دمشق، ففقدت الأمة الإسلامية بمصرعه مناضلاً صلبًا . ولم يجد (طغتكين) حليفًا يطمئن إليه سوى الصليبيين.

١٨ ـ (إيلغازي) و (لؤلؤ الخادم) و (طغتكين)

في عام ١١١٥م وقع جدل كبير دمر ممتلكات الصليبيين من (إنطاكية والمصيصه) إلى (مرعش والرها)، فانتهز السلطان محمد السلجوقي الفرصة وأرسل حملة بقيادة (برسق) إلى الشام لمحاربة الصليبيين، ولكن هذه الحملة لقيت مقاومة من الإمارات الإسلامية والصليبية على السواء، فقد قاومها من الخونة المسلمين كل من: إيلغازي بن أرتق أمير ماردين ـ ولؤلؤ الخادم الوصى على حلب ـ وطغتكين أمير دمشق ـ بينما قاومها من أسيادهم وحلفائهم الصليبيين كل من: (روجر الصقلي) أمير إنطاكية ـ (وبونز) أمير طرابلس.

١٩ ـ خيانة غريبة بتحالف أمراء عرب مع الصليبيين

بعد ان لقيت حملة السلطان محمد السلجوقي بقيادة (برسق) السابقة، هذه المقاومات من كل من الخونة العرب السابقين والصليبيين على السواء، فكان من نتائج هذه الحملة حدوث التقارب والتحالف بين كل من أتابك دمشق والوصي على حلب

الخائنين السـابقين من جهة، وبين ملك بيت المقدس الصليـبي وأمير إنطاكيـة الصليبي وغيرهما من شياطين الإفرنج من جهة أخرى، وتم عقد اتفاقية بينهم، واستهدف ذلك الحلف الإسلامي الصليـبي الخائن مقـاومة السلاجـقة المسلمين ومنعـهم من غزو بلاد الشام لتحريرها مـن أيدي الصليبيين ، واحتشدت بالفعـل قوات دمشق وقوات حلب الإسلامية جنبًا إلى جنـب مع قوات بيت المقدس وإنطاكية الصليبية عند أفـامية التابعة لإدارة إنطاكية الصليبية.

النتيجة المحزنة لهذه الخيانة

من أهم النتائج المؤلمة والمحزنة لهذه الخيانة العجـيبة أنها أتاحت الفرصة للصليبيين الحاقدين خاصة لقائدهم المعروف باسم (بلدوين الأول) أبرز الصليبيين على الإطلاق، فأتاحت هذه الخيانة له الفرصة لكي يوسع حدود مملكته الصليبية التى أنشأها في أرض المسلمين بعد أن تمكن بواسطة الخـيانة من التخلص من السلاجقـة المسلمين والتحالف مع أمراء الشـام الخونة السابقين، وبقى أمـامه الفاطميـون في مصر بعد أن أفـاقوا من سباتهم ودفـعوا ثمن خيانتهم السابـقة، بعد فوات الأوان استيـقظوا من غفوتهم ومن سباتهم العـميق فعملوا على تهديد مملكة بلدوين من ناحـية الجنوب الغربي عن طريق البحر الأبيض المتـوسط وسيناء، ومن طريق الجنوب الشرقي عن طريق البحـر الأحمر وإيلات ووادي عربة، فـضلاً عن حامـياتهم في صور وعـسقلان (غـزة)، لذلك عزم بلدوين علي حمـاية نفسه من هذا الخطر بمد حدود دولته مـا أمكن في تلك الأنحاء، وقد كانت الخطة التي وضعها هي الوصول إلى البحر الأحمر عن طريق الاستيلاء على وادي عربة جنوب البحر الميت ثم احتلال (أيلة) أي (إيلات) على ساحل خليج العقبة ليقطع بذلك الطريق البـحري بين مصـر وبين الشام والعراق والحجـاز، ويقسم بذلك العالم العربي إلى قسمين يفصلهما الكيان الصليبي.

ونلاحظ أن هذه الخطة هي التي اتبعها اليهود فيما بعد بحذافيرها أثناء الحرب العربية الإسرائيلية الأولى عام ١٩٤٧م، وترتب عليها إنشاء ميناء إيلات والنفاذ إلى البحر الأحمر وفتح أبواب أفريقيا وأسيا ففي عام ١١١٥م تقدم بلدوين الأول فاستولى على وادي عربة وشيد حصن الشويك كقاعدة للسيطرة على المنطقة بأسرها . وفي عام ١١١٦م تقدم بقواته حتى وصل إلى إيلات على ساحل خليج العقبة فاستولى عليها وشيد فيها قلعة حصينة للتحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام، ثم استولى على جزيرة فرعون أمام إيلات في خليج العقبة وشيد فيها قلعة أخرى، وبذلك أصبح الصليبيون في الوضع الذي يمكنهم من تهديد قوافل الحج إلى الحرمين والسيطرة على الضفة الشرقية للأردن وإقامة حاجز بري بين القاهرة والشام والعراق وشبه الجزيرة العربية والمملكة العربية السعودية.

ثم أراد بلدوين بعد ذلك التخلص من الجيوب المصرية في صور وعسقلان لقطع الصلة البحرية بينها عن طريق البحر الأبيض المتوسط فهاجم مدينة صور التى كانت مأوى للسفن المصرية التي تهدد الأساطيل الصليبية التي لا تنقطع من أوروبا إلى الشام، ولما عجز عن اقتحامها شيد قلعة حصينة جنوبها لإحكام الحصار عليها سنة ١١١٦م.

فانظر كيف لعبت الخيانة وكيف لعب تفكك المسلمين وانقسامهم هذا الدور الخطير الذي قام به بلدوين والصليبيون في هذه المنطقة الحساسة من العالم ومن بلادنا الإسلامية، وإعطاء المقدمة لإسرائيل بأن تقوم بنفس الدور في نفس المنطقة، وأصبحت اليهودية هي وريثة الصليبية في هذه المنطقة على حساب العروبة والإسلام والمسلمين، وكما سنرى فيما بعد فإن الخيانة العربية هي التي لعبت الدور الأكبر في حرب عام ١٩٤٧م ومكنت اليهود من احتلال هذه الأرض العربية الحبيبة.

٢٠ ـ خيانة الصليبي بلدوين بحرق الجوامع والمساجد في مصر

لم يتنازل الصليبيون عن حقدهم الدفين للإسلام والمسلمين، فهم دائمًا وأبدًا يصبون جام غضبهم ودفين حقدهم على المساجد والأماكن الإسلامية المقدسة، وكأن هذه المساجد وهذه الأماكن المقدسة هي التي تحاربهم وتصارعهم وتقتلهم، ولكنه الحقد الدفين والبغض الشديد الذي زرعه وبذر بذوره قادتهم (إيريان الثاني) و(بطرس الناسك) (والتر المفلس) غرسوا الكراهية للإسلام والمسلمين ولكل ما يمت للإسلام بصلة، فنتيجة للخيانات السابقة وللانقسامات الحادة بين المسلمين، لم يقنع بلدوين الصليبي بما حققه من مكاسب ومن إقامة كيان صليبي شطر العالم العربي والإسلامي بل قسموه وجزءوه كما سبق، فازداد حقده وطمعه الصليبي في الأراضي الإسلامية والعربية، فعبر الصحراء الممتدة من غزة حتي العريش والفرما دون مقاومة من الدولة الفاطمية التي كانت تحكم مصر في ذلك الوقت حتى وصل إلى الفرما في ٢١ مارس ١١١٨م، وهي أول المراكز الأمامية في الأراضي المصرية، فوجدها خالية تمامًا من السكان الذين هجروها فصب حقده وصب نصرانيته وصليبيته على المساجد والجوامع فأحرقها ودمرها.

بينما لم يحدث إطلاقًا أن المسلمين قد أحرقوا أو دمروا أي كنيسة أو معبد أثناء فتحهم لهذه البلاد بل بالعكس كانوا يحترمونها ويحافظون عليها، حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ قد قام بتنظيف كنيسة القمامة التي جعلتها الإمبراطورة هيلانه أم قسطنطين مقلبًا للزبالة والقمامة في بيت المقدس، حيث قام عمر بن الخطاب ﷺ بتنظيفها وإزالة القمامة منها أثناء تسلمه لبيت المقدس بعد فتح القدس وباقي البلاد على يد عمرو بن العاص ﷺ، وسميت هذه الكنيسة بعد ذلك (كنيسة القيامة) بدلاً من القمامة، فها هي سماحة الإسلام سموه وطهارته وترفعه عن العبث بالمقدسات حتى ولو كانت نصرانية أو يهودية.

إحدى الأشعة التي انبثقت خلال الحروب الصليبية

ولا يظن القارئ المكرم أن جميع المسلمين (حاشا لله تعالى) كانوا خونة، بل قد ظهر منهم أبطال كثيرون ومجاهدون عظام يضيق المجال بذكرهم، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر ذلك المجاهد المسلم (بلك بن بهرام الأرتقي)، فقد تولى (جوسلين دي كورتناي) (إمارة الرها سنة ١١١٨م)، وسرعان ما نشط لمهاجمة المسلمين فتصدى له ذلك المجاهد المسلم الأمير (بلك بن بهرام الأرتقي) ودارت معارك حامية بين الجانبين تغلبت فيها كفة الصليبيين في البداية نظراً لكثرتهم، ولكن هذا التفوق انتهى حين سقط الصليبي جوسلين في الأسر في يد الأمير (بلك بن بهرام الأرتقي) يوم ١٣ سبتمبر ١١٢٢م، فبدأت الدائرة تدور على الصليبيين، يقول ابن الأثير: أن بلك الأرتقي قد وضع (جوسلين)، في جلد جمل وخيط عليه وطلب منه أن يسلم الرها، ولكن جوسلين رفض وعرض فداء نفسه بفدية كبيرة، ولكن بلك الأرتقي رفض الفدية وحمله إلى قلعة (خرتبرت)، في أقصى الشمال ومعه ابن خالته (وليم) وجماعة من فرسانه المشهورين الذين وقعوا في الأسر .

ولم يلبث بلدوين الثاني ملك بيت المقدس أن تبع جوسلين في الأسر حيث عبأ جيشه لإطلاق سراحه بالقوة، ولكن البطل المجاهد بلك الأرتقي كان له بالمرصاد فقد تربص له عند موضع اسمه (أورش) بالقرب من قنطرة (سنجه) وانقض عليه بجيشه فسقط بلدوين الثاني أيضًا في الأسر في ١٨ أبريل ١١٢٣م، وحمله (بلك) كذلك إلى قلعة (خرتبرت) ليستأنس به زميله في وحدته، وهناك بطولات أخرى إسلامية كثيرة يضيق المجال بذكرها، تمكنت من إبادة حملات صليبية وجيوش صليبية بأكملها[1] .

---

(١) انظر: كتاب (الصراعَ بين العرب وأوربا) للدكتور عبد العظيم رمضان.

٢١ ـ سليمان ابن عم بلك الأرتقي

بينما كان ذلك المجاهد بلك الأرتقي يحقق الانتصارات على الصليبيين في الشمال فاستولى على حران إذا بابن عمه سليمان يقوم بتسليم قلعة (الأثارب) للصليبيين، فما كان من بلك إلا أن انتزع منه حلب عقابًا له على خيانته.

٢٢ ـ خيانة الأرمن بفك أسر (جوسلين)

تستمر الخيانة النصرانية الأرمنية في طريقها المعهود، فلم يكفهم ما لاقوه على أيدي الصليبيين من إذلال واستعباد، فقد قاموا بإطلاق سراح جوسلين الذي كان في قلعة خرتبرت أسيرًا في يد بلك الأرتقي، وكان جوسلين متزوجًا من امرأة أرمنية وكانت هذه القلعة في منطقة أرمنية، ولكنهم لم يفلحوا في إطلاق سراح (بلدوين الثاني) فعاد بلك الأرتقي ونكل بهم وكان عددهم خمسين أرمنيًا، ثم نقل بلدوين إلى قلعة حران ثم قلعة حلب، وقد استشهد ذلك المجاهد المسلم بلك الأرتقي بسهم طائش فكان ذلك خسارة كبيرة للمسلمين.

٢٣ ـ دبيس بن صدقة الشيعي وبني مزيد، وسلطان شاه بن رضوان

هؤلاء الخونة عملوا على التفرقة بين المسلمين لإضعاف شأنهم وتماسكهم طاعة لسيدهم بلدوين الثاني الذي افتدى نفسه من الأسر بثمانين ألف دينار بعد موت بلك الأرتقي، وقد عمل على ضرب العرب بالأتراك المسلمين، وضرب الشيعة بالسنة وأخذ بالمثل القائل (فرق تسُد) وكان أخطر ما يضعف المسلمين هو التفرقة بين صفوفهم.

٢٤ ـ خيانة باطنية تقتل المجاهد المسلم اقسنقر البرسقي

بعد استشهاد المجاهد المسلم بلك الأرتقي كما سبق، بزغ نجم جديد من نجوم النضال والجهاد الإسلامي هو اقسنقر البرسقي، فصارع الصليبيين وقاتلهم وجاهدهم على خير ما يرام ولكن الباطنية مدمني الخيانة اغتالوه في يوم ٢٦ نوفمبر ١١٢٦م.

٢٥ ـ خيانة معين الدين إنر المسيطر على دمشق

بينما كان المجاهد والمناضل الإسلامي عماد الدين زنكي يقوم بالدور الأكبر في الجهاد والنضال والكفاح ضد الصليبيين ويعمل جاهدًا على تطهير البلاد الإسلامية وتحريرها منهم نهائيًا، وجد ذلك لا يتم إلا باتحاد المسلمين وتماسكهم في صف واحد، وقد نجح فعلاً في توحيد العديد من البلاد الإسلامية تحت راية واحدة، وبينما يبذل جهده في سبيل وحدة الإسلام والمسلمين إذا بخائن عربي هو (معين الدين إنر) وكان مسيطرًا على دمشق يتحالف مع الصليبي (فولك) ملك بيت المقدس، في ذلك الوقت ضد عماد الدين زنكي فتسبب ذلك الخائن في تجميد الموقف الإسلامي خاصة في بلاد الشام، وشل حركة عماد الدين زنكي إلى أبعد مدى.

٢٦ ـ مزيد من الخيانة الأرمنية

كأن الخيانة الأرمنية مرض مزمن أصيب به الأرمنيون النصارى بينما هم من أهل بلاد الشرق وعاشوا ونشأوا وتربوا في رحاب المسلمين والبلاد الإسلامية، ولكنه مرض أصيبوا به.

فبينما كانت أرض الإسلام تنجب هذا البطل الجديد والمجاهد العظيم عماد الدين زنكي الذي نجح في جمع شمل الكثير من بلاد المسلمين تحت راية إسلامية واحدة وتمكن بذلك من تحرير إمارة الرها أول إمارة تسقط بأيدي الصليبيين، وأول إمارة تتحرر وتتطهر منهم على يد ذلك البطل عماد الدين زنكي في ٢٣ ديسمبر ١١٤٤م، وتم استيلاؤه على قلعتها الحصينة في ٢٥ ديسمبر ١١٤٤م، فكان ذلك قفزة كبيرة لصالح المسلمين خلال صراعهم مع الصليبيين، ولكن ذلك لم يعجب هؤلاء الأرمن مرضى الخيانة فتآمروا مع سيدهم جوسلين الثاني الصليبي في الرها وكانت معهم امرأة أرمنية، فتآمروا معه للتخلص من الحامية الصغيرة التي تركها عماد الدين زنكي في المدينة، فعاد عماد الدين إلى المدينة وأعدم الخونة الأرمن المتآمرين وطرد جزءًا من

أهلهـا، وأحل مكان المطرودين ٣٠٠ أسرة من اليـهود لعـدائهم الشديد لـلمسيـحين الأرمن، وليكونوا عيونًا له في الرها، لأنه كان متفرغًا لتحرير المزيد من البلاد العربية والإسلامية.

٢٧ ـ خيانة بشعة تتسبب في قتل المجاهد عماد الدين زنكي

تشاء المقادير أن هذا البطل المجاهد عماد الدين زنكي ينال الشهادة ويقتل على يد أحد الخونة من غلمانه، فبينما البطل يحـاصر قلعة (جعبر) على نهر الفرات، ويرابط أمامها لتحريرها، إذا بغلام له خائن يغتاله فجأة في ليلة ١٤ سبتمبر ١١٤٦م، فكانت ميـتته خســارة فادحة للإسلام والمسلمين، حـتى أن فداحة هذه الخســارة أصابت أهل (جعبر) أنفسهم الذين كان يحاصـرهم عماد الدين زنكي ، فصاحوا في القاتل قائلين (لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله).

نتيجة هذه الخيانة

كانت النتيجة البشعة لهذه الخيانة أن الجيش الإسلامي الكبير الذي كان تحت قيادة عماد الدين زنكي قد انـقسم وتفرق، فقد عاد الحلبيـون إلى حلب ومعهم نور الدين زنكي بن عماد الدين زنكي البكر وبصـحبته (شيركـوه) في حين عادت قوات الموصل إليهـا ومعها سـيف الدين غازي الابن الثاني لزنكي، وبصـحبته الوزير جـمال الدين الأصفهاني، وقد ثبَّت نور الدين زنكي قدمه في حلب، بينما ثبت سيف الدين غازي قدمه في الموصل، وبذلك انقســمت دولة الموصل وحلب مرة ثانية إلى دولتين، وكان هذا كل أمنيـة الصليـبيين الذين كـانوا يـبذلون أقـصى جهـدهم في تفـريق المسلمين وتقسيمهم إلى دويلات صغيرة لـينفردوا بكل منها على حده، وهذا ما تفعله إسرائيل الآن بحذافيـره، فقد قدم هذا الغـلام الخائن أكبر خدمـة لأسياده الصليبـيين ما كانوا يحلمون بها.

٢٨ ـ الأرمن يواصلون خيانتهم

استمر مدمنوا الخيانة الأرمن في مسلسلهم الخياني بصورة أفظع في هذه المدة، فقد هب جوسلين الثاني الصليبي لاسترداد الرها، وهب الخونة الأرمن فيها (أى في الرها) بمساعدته حتى تمكن فعلاً من استردادها من أيدي المسلمين، وكان معه بلدوين حاكم مرعش الصليبي، بينما بقيت الحامية الإسلامية في القلعة تدافع عنها، فكان ذلك طامة كبرى بالنسبة للمسلمين، وفرحة كبرى بالنسبة للصليبيين، ولكن نور الدين زنكي ابن عماد الدين زنكي ما لبث أن تقدم بجيشه لمحاصرة المدينة، بينما كان جيش (جوسلين الثاني) بداخلها فأصبح جوسلين محاصراً مع جيشه بين القلعة من جهة،وبين قوات نور الدين من جهة أخرى، ولم يجد بداً من الفرار بجيشه من المدينة، ولكن قوات نور الدين زنكي لحقته وقضت على نحو ثلاثة أرباع جيشه، وسقط (بلدوين) أمير مرعش قتيلاً، وجرح جوسلين في رقبته ووصل هاربًا إلى (سميساط) بصعوبة بالغة، وعادت الرها مرة ثانية إلى أيدي المسلمين.

وهكذا أثبت نور الدين زنكي أنه جدير بحمل رأية الجهاد الإسلامي بعد أبيه، أما جزاء الخونة الأرمن: فسرعان ما أخذ نور الدين زنكي يلقنهم درسًا قاسيًا لا ينسوه، فأعمل السيف في رقابهم، ولم يفرق في هذه المرة كما فعل والده من قبل بين الصليبيين والسكان الأرمن الخونة المسيحيين المحليين، بل أعمل السيف في رقاب الجميع، وساق النساء والأطفال أسرى إلى حلب، حتى خلت الرها من أهلها تقريبًا، . وكان لعودة الرها مرة ثانية لأيدي المسلمين سنة ١١٤٦م، وقع الصاعقة على الصليبيين، أما بالنسبة للمسلمين فكانت فرحتهم تفوق فرحتهم بعودتها في المرة الأولى عام ١١٤٤م.

٢٩ - خيانة علي بن وفا - زعيم الباطنية

خرج الصليبي (ريموند دي بواتيه) أمير إنطاكية على رأس جيش لمحاربة نور الدين زنكي والتصدي لـه، وتطوع الخائن الباطني زعيم البـاطنية علي بن وفا بخدمـة سيده الصليبي ريموند، وقام بمساعدته واصطحابه والتوجه معه في ركابه ودارت معركة هامة قـرب (إنب) في ٢٩ يونيه ١١٤٩م، تمكن فـيهـا نور الدين زنكي من هزيمة الجـيش الصليبي هزيمة ساحقة، وسقط (ريموند دي بواتيه) قتيلاً وسقط كذلك (رينو الصليبي) صاحب كيـسوم ومرعش الذي اشترك مع ريموند ضـد المسلمين فسقط قتـيلاً، وسقط أيضًا زعيم الخونة الباطني علي بـن وفا قتيلاً، وأرسل نور الدين زنكي رأس (ريموند) وذراعه اليمني إلى الخليفة العباسي في صندوق كهدية يفرح بها الخليفة.

٣٠ - البيت البوري في دمشق وتحالفه مع الصليبيين

كان يحكم دمشق بيت أو (عائلة) من البيوت الخائنة، فقد تحالف أهل هذا البيت مع الصليبـيين، وكانوا شوكـة في ظهر المسلمين عـامة وفي ظهر نور الدين خـاصة، فكان لابد لنور الدين زنـكي من إزالة هذا البيت الخائن مـن طريقه، وكـان البـيت البوري هذا يقف عقبة صلبـة في طريق نور الدين وفي طريق جمع شمل المسلمين في مواجـهة الصليـبيين. فكان مـن ذلك أن بلدوين الثالث ملك بيت المقـدس في ذلك الوقت قد تمكن في ١٩ أغـسطس ١١٥٣ من دخول عـسقلان (غزة) بعد حـصار دام بضعة شهور، وقـد طلب الفاطميون منه المساعدة بعد أن دفعوا ثمن خـياناتهم السابقة وبعـد مـا أفاقـوا من سـباتـهم، ولكن نور الدين زنكي لم يتـمكن من إمـدادهم أو مساعدتهم خوفًا من التحالف القائم بين دمشق وبلدوين في مملكة بيت المقدس، ورأى أنه سوف يقع بين فكي دمشق ومملكة بيت المقـدس، فحين أرسل إليه الوزير الفاطمي ابن السلار الأميـر أسامة بن منقذ لطلب المسـاعدة ضد مملكة بيت المقدس وحاكـمها بلدوين الصليبي، اعتذر نور الدين زنكي قائلاً: (أهل دمشق والإفرنج أعداء، ما آمن

منهمـا إذا دخلت بينهما). لذلك قام نور الـدين زنكي بالزحف على دمشق في ١٨ أبريل ١١٥٤م ودخلها يوم ٢٥ أبريل، وبـذلك أنهى الوصاية الصليبيـة على دمشق، ووحد بلاد الشام تحت قيادته من الـرها شمالاً حتى حوران جنوبًا حيث قـامت دولة إسلامـية واحـدة مـركزها دمـشق، وكـانت تلك هي النواة الأولى والخطوة المباشـرة في تكوين الجبهة الإسـلامية التي امتـدت من الفرات إلى النيل لتتصدى لتصفية الخطر الصليبي.

٣١ - خيانة (إرناط) الصليبي لبني جنسه

تولى إمارة إنطاكية منذ عام ١١٥٣م قائد من الفرنسيين الصليبيين يسمى (رينودي شاتيـون) وقد عرفـه العرب باسم (إرناط) وتزوج من أرملة ريمونـد دي بواتيه، الذي قتل في المعركة مع نور الدين زنكي كما سـبق، وكان إرناط هذا على جانب كبير من الانحطاط والأخلاق الدميمة وحب القسوة وسفك الدماء والوقاحة التي لا نظير لها، وكان حقده وكراهيته للمـسلمين تغلي في صدره كالمرجل، وسوف نعود للحديث عنه وقتله على يد صـلاح الدين الأيوبي فيما بعـد، ويهمنا هنا أن خيانتـه لم يسلم منها حتى بني جنسه الصليبيين مثله، فـقد أغار على قبرص للنهب والسلب عام ١١٥٦م، وقطع أنوف رجال الكنيسـه وآذانهم وألـسنتهم مما أثار المسيحيين بوجه عـام، فهو بهذا العمل وإن كان يعتبر محق أحيانًا فإنه في هذه العملية تعدى على صليبيين مثله إلا أن أخلاقنـا الإسلاميـة وديننا الإسلامـي الحنيف ينهى عن ذلك، ولم نسمع عـلى مدى التاريخ أن أحد القـادة المسلمين قد فعل ذلك بأعدائه سواء من النصـارى أو اليهود أو من أى جنس آخر.

٣٢ - خيانة فاطمية تذكرنا بالعهد العباسي

وصلت الدولة الفاطمية في مصر إلى حـالة الاحتضار في تلك الأيام، فقد انتزع الوزراء كل ما كان للخلفاء الفاطميين من سلطان تماما كما كان يحدث أيام العباسين،

وعندما يئس الخليفة (الحافظ) الفاطمي من هؤلاء الوزراء عين ابنه وزيراً له، ولكن الابن الخائن تآمر على أبيه الخليفة، فقام الأب بدس السم لابنه للتخلص منه، وهذا يذكرنا بالخليفة العباسي المتوكل وابنه، وكانت هذه الأحداث تجري في أيام المجاهد نور الدين زنكي، فهذه هي الخيانة التي تجعل الابن العاق يخون أباه بعد ما جعله وزيراً، وتجعل الأب الخليفة يرد على خيانة ابنه بخيانة أشد وهي قتله بالسم، بينما الصليبيون يعيثون في البلاد فساداً.

٣٣ ـ خيانة الخليفة الظافر الفاطمي

في عام ١١٥٤م قُتِلَ هذا الخليفة بسبب شذوذه الخلقي، فها هم الفاطميون الذين يدعون أنهم من سلالة بيت النبوة الطاهرة، ونترك التعليق للقارئ المكرم، خاصة في وجود الصليبيين في البلاد الإسلامية في ذلك الوقت.

فليس الوقت وقت التعلق بالماضي ولكن الأمر محتاج إلى رجال ولله در القائل:

ليس الفتى من قال أبي ** ولكن الفتى من قال ها أنا ذا

٣٤ ـ خيانة الوزير الفاطمي ضرغام

أصبحت مصر في سنة ١١٦٣م وما بعدها محور صراع بين المجاهد المسلم نور الدين زنكي وبين الصليبيين وفي مقدمتهم (عموري الأول) الملك الجديد لبيت المقدس والذي خلف بلدوين الثالث فقام بحملة كبيرة على مصر مخترقاً سيناء حتى وصل إلى بلبيس والتقى بالجيش الفاطمي وهزمه في سبتمبر ١١٦٣م ثم تقدم على الفور لغزو الدلتا، فانتهز الوزير الفاطمي ضرغام فيضان النيل فكسر السدود وأغرق الدلتا، فلم يجد عموري الأول أمامه بُدّاً من الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس فاشلاً. فقرر عندئذ نور الدين زنكي الاستيلاء على مصر ليرجح بها كفته ضد الصليبيين وليضعهم بين فكي الكماشة الشام ومصر، فأرسل حملة كبيرة يقودها نائبه في دمشق

وقائده العظيم أسد الدين شيركوه في أبريل ١١٦٤م وبصحبته شاور الوزير الفاطمي المطرود والذي كان قد لجأ إلى نور الدين زنكي، وأراد نور الدين زنكي بذلك أن يسبق الصليبيين وألا يتيح لهم الفرصة ثانية للاستيلاء على مصر، واصطحب أسد الدين شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي وكان في السابعة والعشرين من عمره، وهو الذي لعب الدور الأكبر في تطهير بلاد المسلمين من الصليبيين كما سنرى فيما بعد، وهنا تظهر خيانة هذا الوزير الفاطمي ضرغام فاستنجد بعموري الأول الصليبي ملك بيت المقدس ودعاه إلى مساعدته ضد أسد الدين شيركوه القائد المسلم، وذلك مقابل عقد معاهدة معه تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين، وفعلاً تحرك عموري الصليبي ملك بيت المقدس على رأس حملة صليبية أخرى ليسبق حملة نور الدين زنكي بقيادة شيركوه، ولكن أسد الدين شيركوه قطع خط الرجعة على هذه المحاولة وسارع إلى قطع الصحراء رغم كبر سنه، في وقت قصير وصل إلى الدلتا قبل الصليبيين وألحق الهزيمة بالجيش الفاطمي الذي أرسله الخائن ضرغام عند تل بسطا، ووصل إلى القاهرة في أول مايو ١١٦٤م، أما جزاء ضرغام: فهو أن الناس والجيش والخليفة تخلوا عنه لخيانته، فحاول الفرار، ولكنه قتل أثناء فراره، وتولى عدوه اللدود شاور الوزارة.

٣٥ ـ خيانة الوزير الفاطمي شاور

بعد أن تولي الوزير الثاني الفاطمي الخائن شاور الوزارة بدلاً من ضرغام الذي قتل، أحس أن أسد الدين شيركوه قائد الجيش المسلم الزنكي لن يخرج من مصر، وأنه أتى ليبقى، فلما طلب منه الخروج من مصر رد عليه باحتلال بلبيس والشرقية، وهنا ارتكب شاور نفس الخيانة التي ارتكبها ضرغام فطلب من عموري الأول ملك بيت المقدس المعاونة والمساعدة ضد الزنكيين، فلبى عموري الدعوة ووصل إلى فاقوس

الحالية سنة ١١٦٤م حيث انضم إلى قوات شاور، وتقدم الاثنان إلى حصار قوات شيركوه في بلبيس فأصبحت القوات الفاطمية تقف جنبًا إلى جنب مع القوات الصليبية ضد قوات إسلامية أخرى، بسبب الخيانة التي ارتكبها الوزير الفاطمي (شاور)، ولكن نور الدين زنكي لم يقف مكتوف الأيدي في الشمال في الشام، فضغط ضغطًا شديدًا على الصليبيين الموجودين في الشام لحمل عموري على الانسحاب من مصر، وقام نور الدين زنكي بالتحالف مع الأمير المسلم فخر الدين إلبي، صاحب ماردين، ومع قطب الدين مودود، وأتابك الموصل، وهو الأخ الثالث لنور الدين زنكي، واستولى على (حارم) من إمارة إنطاكية، فكون الصليبيون تحالفًا ضده، وساروا إلى حارم، واستدركهم إلى (أرتاح) حيث هزمهم هزيمة منكرة في يوم ١١ أغسطس ١١٦٤م، وأسر منهم عددًا لا يحد، ووقع في الأسر جميع ملوك الصليبيين: (بوهمند الثالث) أمير إنطاكية، و(ريموند الثالث) أمير طرابلس، و(جوسلين الثالث) و(هيولوزجنان)، وحاكم (كيليكيا) البيزنطي المتحالف معهم، ثم انطلق إلى حارم واستولى عليها مرة أخرى في ١٢ أغسطس ١١٦٤م، ثم اتجه إلى (بانياس) التابعة لمملكة بيت المقدس واستولى عليها في أكتوبر ١١٦٤م.

وبذلك سلب كل من إمارة إنطاكية ومملكة بيت المقدس موقعين لهما أهميتهما الإستراتيجية الكبرى، فضلاً عن أسر أمير إنطاكية وأمير طرابلس وبقية زملائهما، أما عموري الأول ملك بيت المقدس فقد تلقى أنباء هذه المصيبة وهو يحاصر القوات الزنكية بقيادة شيركوه في بلبيس بمصر، ويشاركه في الحصار الخائن شاور كما سبق، فتم الاتفاق على انسحاب كل من القوات الصليبية والزنكية المسلمة من مصر، وكانت هذه الحملة الزنكية الإسلامية على مصر تمهيدًا غير مباشر لوحدة مصر والشام، وتوجيه الضربة القاضية للصليبيين وتطهير البلاد الإسلامية منهم بعد أن أصبحوا بين فكي الكماشة (مصر والشام)، كما سيأتي فيما بعد.

٣٦ ـ مزيد من خيانة الوزير الفاطمي

بعد ما عاد أسد الدين شيركوه من مصر أخذ يلح متحمسًا على نور الدين زنكي لإعداد حملة ثانية حتى لا تسقط بأيدي الصليبيين فاقتنع نور الدين وأسند إليه قيادة حملة أخرى في يناير عام ١١٦٧م، رافقه فيها أيضًا ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، ووصلت الحملة إلى الدلتا وعسكر شيركوه في الجيزة في مواجهة الفسطاط، وهنا يأتي دور مُدْمِنْ الخيانة شاوز فسرعان ما استنجد بالصليبيين، فسارع عموري الأول ملك بيت المقدس الصليبي بجيشه في نهاية يناير لتلبية نداء شاور، وسار في الطريق المألوف من غزة إلى العريش إلى بلبيس حيث استقبله شاور صديقه العزيز وحبيبه الحميم بجيشه، وعسكر الجيشان على الضفة الشرقية للنيل، وأبرم معه تحالفًا يخول للصليبيين حق حماية مصر والخليفة الفاطمي من شيركوه والزنكيين المسلمين مقابل دفع شاور مبلغ أربعمائة ألف دينار يدفع نصفها فورًا، ثم عبر الجيش المصري، الصليبي، جيش الخائن شاور الفاطمي وجيش عموري، عبر جزيرة الروضة لمهاجمة شيركوه الذي انسحب إلى الصعيد فلحق به عموري الأول وشاور قرب الأشمونين في المنيا وهناك دارت معركة غير متوقعة كان قوة شاور فيها ألف فارس فقط وانتهت نهاية غير متوقعة وهي هزيمة الجيش الفاطمي الصليبي أمام شيركوه وصلاح الدين، ومرة أخرى يقف الجيش الفاطمي جنبًا إلى جنب مع الجيش الصليبي ضد جيش مسلم آخر، وذلك بسبب خيانة هذا الوزير العميل شاور.

دور مشرف لأهالي الإسكندرية أثناء حصارها بواسطة الجيش الفاطمي الصليبي المتحالف

بعد انتهاء المعركة السابقة توجه شيركوه شمالاً إلى الإسكندرية حتى أدركها فاستقبله أهلها استقبالاً عظيمًا ورحبوا به ترحيبًا كبيرًا بسبب سخطهم على تحالف الخائن شاور مع الصليبيين، وترك شيركوه ابن أخيه صلاح الدين في الإسكندرية وعاد

إلى الصعيد حيث فتح معظم بلاده، فانتهز الجيش الفاطمي الصليبي بقيادة شاور وعموري فرصة غياب شيركوه في الصعيد وقاما بحصار الإسكندرية فقام شيركوه بحصار القاهرة لفك الحصار عن الإسكندرية التي لم تستسلم وقاومت الحصار في بسالة مع صلاح الدين الأيوبي، وإزاء هذا الموقف المتوازن لم يـر الطرفان بدًا من التفاوض من أجل الصلح، وتم الاتفاق بالفعل على انسحاب الطرفين كما حدث في المرة السابقة، ولم يقف نور الدين زنكي مكتوف الأيدي في هذه الأثناء فحقق مكاسب هامة في الشام حيث استولى على قلعتي العريمة وصافينا من إمارة طرابلس وهاجم مملكة بيت المقدس من الشمال الشرقي وضرب قلعة هونين ثم هاجم بيروت.

٣٧ ـ خيانة مخزية للخلافة الفاطمية

لم يعجب عموري ملك بيت المقدس أن يعود من مصر هذه المرة بخفى حنين، فعقدت معه الخلافة الفاطمية اتفاقًا يقضي بدفع جزية سنوية له مقدارها مائة ألف دينار وبقاء قوة من فرسان الصليبيين تحمي القاهرة فضلاً عن إقامة مندوب صليبي في القاهرة ممثلاً لعموري ملك بيت المقدس، وهكذا تسببت الخيانة الفاطمية سواء خيانة شاور أو خيانة الخلافة الفاطمية نفسها في أن يدفع المسلمون الجزية للصليبيين النصارى ويعطوها لهم عن يد وهم صاغرون.

ولم يلبث الفاطميون أن أدركوا حجم المصيبة والورطة التى أوقعوا أنفسهم فيها بدعوة الصليبيين لحمايتهم من نور الدين زنكي، فقد أخذ المندوب الصليبي في القاهرة يتدخل في شئون الحكم، في الوقت الذي كان فيه وجود حامية صليبية لحراسة أبواب القاهرة قد أخذ يثقل على الضمير الإسلامي للمصريين، فأخذوا يتحرشون بالصليبيين، وانقلب الصليبيون من حراس وحماه إلى غزاة وفاتحين، فأخذوا يسيئون إلى أهل القاهرة ويؤذونهم.

٣٨ ـ فرسان الاسبتارية الصليبية

هذه فرقة صليبية من أشد الفرق حقدًا وكراهية للإسلام والمسلمين فبعد انسحاب عموري من مصر ضغط عليه الصليبيون من جديد وعلى رأسهم هذه الفرقة الاسبتارية الحاقدة لمعاودة غزو مصر، ولكنه خاف هذه المرة من مقاومة الشعب المصري بأسره ورد على أصحابه قائلاً: «إن صاحب مصر وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها»، وقد علق بعض المؤرخين على ذلك بقولهم: «إنه مما شرف مصر وتاريخها أن الملك عموري والصليبيين قد عملوا حسابًا لعامة أهل مصر وفلاحيها، بينما كانوا يعلمون مَدى انحلال حكام مصر الفاطميين وضعفهم».

ولكن هذه الفرقة الاسبتارية الحاقدة صممت على إعداد حملة لمعاودة غزو مصر فرضخ لهم عموري وأعد حملة صليبية في أواخر أكتوبر ١١٦٨م متجهة إلى دلتا النيل للمرة الرابعة وعلى رأسها الاسبتارية الصليبية فحاصرت بلبيس وهاجمتها واستولت عليها عنوة في ٤ نوفمبر ١١٦٨م

ولم تكن بها حامية تدافع عنها، فأعملت سيوفها الصليبية الحاقدة في الأهالي بطريقة خيانية اسبتارية صليبية لدودة، وقتلت من الأهالي الأبرياء العزل خلقًا كثيراً، وارتكبت جرائم منكرة ومنفره، إذ لم تفرق بين رجال أو نساء أو أطفال أو جنس أو دين، ثم زحفت إلى القاهرة لاحتلالها.

وبدلاً من أن يقوم الخائن شاور بالدفاع عن الفسطاط قام بإحراقها لكي لا يستفيد منها حليفه السابق عموري الصليبي، واستمرت النار مشتعلة فيها لمدة أربعة وخمسين يومًا وأخذ في تحصين القاهرة للدفاع عنها.

٣٩ ـ شاور يواصل خيانته

في هذه الأثناء لم يجد الخليفة الفاطمي في مصر بدأ من الاستنجاد بنور الدين زنكي بطريقة تدعو إلى الشفقة والرثاء، فقد بعث مع الرسائل خصلات من شعر سيدات البلاط الفاطمي ليثير حمية نور الدين للدفاع عن حرمات المسلمين المهددة بالانتهاك، وعرض عليه (ثلث بلاد مصر) إذا هو أنقذه من الصليبيين، هنا فقط أفاق الخليفة الفاطمي من غفوته وسباته العميق وأخذ يبكي علي انتهاك حرمات المسلمين . على أن نور الدين زنكي لم يكن بحاجة إلى هذه الاستغاثات فسرعان ما جهز حملة للزحف على مصر للمرة الثالثة بقيادة شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبي في ديسمبر ١١٦٨م، وخلال ذلك وصل إلى بحيرة المنزلة وتحرك الأسطول الصليبي وحاول التقدم إلى القاهرة لمساعدة عموري.

ولكن المصريين وضعوا العقبات في مجري النيل فعطلوا حركة الأسطول الصليبي، فلم يتمكن من مساعدة عموري أمام القاهرة، وهنا يظهر من جديد دور الخيانة الذي ظهر في موقف شاور حيث عرض على عموري الأول مائة ألف دينار في سبيل التراجع عن القاهرة، وقد قبل عموري ذلك لسماعه باقتراب جيش شيركوه وصلاح الدين الأيوبي، ولإدراكه صعوبة الاستيلاء على القاهرة ولخوفه من مقاومة الشعب المصري، فانسحب جهة سرياقوس لمباغتة شيركوه.

ولكن شيركوه قد اخترق الصحراء ووصل إلى القاهرة حيث استقبله أهلها استقبال المنقذ والتفوا حوله، وبذلك توحد الجيش الشامي والجيش المصري ضد الصليبيين، وكان هذا هو الهدف الأول والأساسي لنور الدين زنكي، وانسحب الصليبي عموري مرة أخرى إلى بيت المقدس بخفي حنين يجر أذيال الخيبة.

وقام الخليفة الفاطمي باستدعاء أسد الدين شيركوه إلى القصر وخلع عليه خلعة الوزراء فأصبح وزيراً لمصر وبدأت تتأسس عمليًا الوحدة بين مصر والشام التي كانت أمل نور الدين زنكي وهدفه الذي يستطيع بمقتضاه القضاء على الصليبيين وتطهير البلاد الإسلامية منهم.

٤٠ ـ الخيانة الأخيرة لشاور
والقضاء عليه، وموقف مشرف لابنه

ظل إدمان الخيانة يسيطر على أعصاب شاور فلم يلبث أن عاد إلى سيرة المراوغة والخداع بعد انسحاب الصليبيين من مصر، فحاول تدبير مؤامرة للقبض على شيركوه وقادته، ولكن (الكامل) ابن شاور اعترض عليه قائلاً: (والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرِّفن شيركوه بذلك)، فرد أبوه قائلاً: (والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعًا)، فقال الكامل: *(صدقت، نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من ان نقتل وقد ملكها الفرنج).*

ولما أحس صلاح الدين برائحة الخيانة تفوح من شاور الذي أخذ يماطل في تنفيذ الوعود التي قطعها الخليفة الفاطمي العاضد إلى نور الدين زنكي وهي ثلث الأراضي المصرية وتوزيع إقطاعات على الجيش قرر اعتقاله، ووثب عليه وهو في الطريق، ويقال إن الخليفة الفاطمي العاضد شارك في ذلك، ولذا فقد أمر بعد اعتقال شاور بقطع رأسه، وأصدر مرسومًا عين فيه شيركوه قائدًا عامًا للجيوش المصرية.

ودخل شيركوه وصلاح الدين القاهرة دخول الظافرين حيث أباحوا للأهالي نهب قصر شاور فكانت هذه هي النهاية الحتمية لهذا الخائن وأمثاله، ثم توفى شيركوه بعد ذلك بشهرين في مارس ١١٦٩م، فخلفه في الوزارة صلاح الدين الأيوبي حيث استوزره الخليفة الفاطمي ولقبه بالملك الناصر صلاح الدين[١].

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي د/ أحمد شلبي.

وبذلك أخذت تتهيأ مصر لتصبح مركز المقاومة الإسلامية في الشرق العربي ضد الصليبيين وأصبحت مصر والشام تحت قيادة واحدة، وذلك كان الأمل المنشود لنور الدين زنكي.

٤١ـ خيانة نجاح السوداني قائد الفرقة السودانية في مصر

بمجرد أن تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة في مصر أخذ يسيطر على الأمور بحزم فاستمال قلوب المصريين وأخضع مماليك شيركوه وسيطر على الجند وأصبحت مصر في عهده قلعة النضال والصراع ضد الصليبيين وأصبحت قادرة على توجيه الضربات القاصمة لهم، ولكن ما زالت للخيانة في مصر أذناب ممثلة في الفرقة السودانية التي كان الخليفة الفاطمي العاضد يعتمد عليها، وكان رئيس هذه الفرقة يسمى نجاح ويلقب بمؤتمن الخلافة، وكانت تشبه ما يعرف اليوم بالحرس الملكي أو الحرس الجمهوري، فتآمر نجاح هذا على صلاح الدين الأيوبي وأراد الاتصال بالصليبيين مثل شاور ولكن صلاح الدين لم يترك له الفرصة ليكون مثل شاور فأعدمه لأن الموقف مع الصليبيين كان يتطلب ذلك ولم يحتمل أى خيانات أخرى.

فغضبت فرقته السودانية لإعدامه وقامت بثورة عارمة في الفسطاط اشترك فيها منهم نحو خمسين ألفا، فأشعل صلاح الدين النار في محلتهم حتى انتقلوا إلى الجيزة، فأرسل إليهم أخاه توران شاه بن أيوب فأبادهم بالسيف، ثم عمد إلى حرس الخليفة من الأرمن فأشعل النار في ثكناتهم وقضي عليهم حتى لا يعطيهم الفرصة للقيام بمثل ما قامت به الفرقة السودانية، ولما يعرفه عن الأرمن من ميلهم الشديد للخيانة، ثم تخلص من كبار الإقطاعيين وملاك الأراضي وبذلك خلص له الأمر.

٤٢ ـ خيانة الشيعة أتباع الفاطميين في مصر والباطنية الحشيشية في الشام

بوفاة نور الدين زنكي في عام ١١٧٤م، انتهى الدور التاريخي لقيادة الشام لحركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين وانتقل هذا الدور إلى مصر تحت حكم صلاح الدين الأيوبي، وبدأ الخلاف والتنافس بين أمراء نور الدين زنكي للوصاية على ابنه القاصر الصالح إسماعيل، فهدد ذلك الدولة الزنكية وأذن بتقسيمها، بينما كانت مصر موحدة تحت حكم صلاح الدين الذي كان يبدو أقوى أمراء الدولة الزنكية فأرسل إلى الشام يعلن حقه في الوصاية على الصالح إسماعيل وأملاكه.

وفي ذلك الوقت تواطأت على صلاح الدين عناصر الشيعة في مصر من أتباع الفاطميين، والباطنية (الحشيشية) في الشام، والصليبيين في بيت المقدس، وتم الاتفاق على الاستعانة بالأسطول الصقلي على أن يشعل الشيعة في مصر الثورة في القاهرة في الوقت الذي يهاجم فيه الأسطول الصقلي الإسكندرية، ويدهم الصليبيون في بيت المقدس مصر من الشرق، وبناء على هذا التحالف وصلت الأساطيل الصقلية إلى الإسكندرية في ٢٨ يوليو ١١٧٤م، وكان عددها ٦٠٠ وتحمل ثلاثين ألف مقاتل، على أن صلاح الدين قد أجهض المؤامرة في مصر بالقبض على زعمائها من الشيعة وبالطبع نكل بهم كما يجب مما أدى إلى عدم اشتراك بيت المقدس بقواته في المعركة وتوفى عموري الأول مقهوراً إلى الجحيم في ١١٧٤م، وتفرغ صلاح الدين للأسطول الصقلي الذي لم يستطع الصمود أكثر من يومين فانسحب طالبًا النجاة في البحر بعد أن تكبد خسائر فادحة على يد جيش صلاح الدين والمقاومة الشعبية المصرية.

٤٣ ـ كمشتكين المستبد بأمور حلب ومعه الحشاشين (الباطنية)

بعد انتهاء الخطر الداخلي الشيعي في مصر اتجه صلاح الدين لتأمين الوحدة الإسلامية التي يستطيع بواسطتها القضاء على الصليبيين وتطهير البلاد الإسلامية منهم وحمل الراية التي تركها نور الدين زنكي، وكانت الخلافات بين خلفاء نور الدين زنكي قد كشرت عن أنيابها فاستنجد أمير دمشق بصلاح الدين فخرج من مصر على رأس جيش من ٦٠٠ فارس ووصل إلى دمشق في أواخر نوفمبر ١١٧٤م فاستقبل في دمشق استقبالاً طيبًا، وبعد أن استمال قلوب الأهالي اتجه إلى حمص فاستولى عليها في ديسمبر في نفس العام ثم استولي على مدينة حماه في نهاية الشهر نفسه، وبذلك أصبحت حلب محور الصراع ففرض عليها صلاح الدين الحصار وبدأت الخيانة تظهر من جديد وتطل من جحرها، وكانت الخيانة في هذه المرة من كمشتكين المستبد بأمور حلب وأصحابه الحلبيين فاستعانوا بالحشيشية (الباطنية) الذين أرسلوا إلى معسكر صلاح الدين جماعة من الفداءيين لقتله ولكنهم فشلوا في ذلك.

فأرسل الخونة الحلبيون إلى ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبي يستعينون به ضد صلاح الدين، وقد رحب ريموند بهذه الفرصة لأنها تحقق أمله وهدفه في انقسام صفوف المسلمين، فهاجم مدينة حمص التي كان صلاح الدين قد استولى عليها فاضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن حلب مؤقتًا في أوائل فبراير ١١٧٥م، لنجدة حمص وظهر على المسرح غازي الثاني أمير الموصل فعبأ جيوشه مع جيوش حلب ضد صلاح الدين، ودارت موقعة هامة عند (قرون حماه) في أواخر أبريل ١١٧٥م، انتصر فيها صلاح الدين على هؤلاء الخونة، وأعلن تحرره من التبعية الزنكية عقابًا للصالح إسماعيل ابن نور الدين زنكي، ولقب نفسه باسم (ملك مصر والشام) وأرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد طالبًا إقرار الوضع الجديد فأقره، وبذلك اكتسب وضعه شكلاً شرعيًا.

وهكذا عرف هذا البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبي كيف يستفيد من الخونة في هذه المرة في الشام كما استفاد منهم في المرة السابقة في مصر.

٤٤ ـ خيانة أخرى لسيف الدين غازي ملك الموصل

لم يقنع ملك الموصل بهـزيمة جيوشـه وجيوش حلب وجـيوش حليـفهم ريموند الثالث الصليبي أمام صلاح الدين في موقعـة (قرون حماه) السابقة في عام ١١٧٥م، فتحالف مـرة أخرى مع ذلك الصليبي ريموند الثالث صاحب طرابلس على مـهاجمة صلاح الدين والـتقوا به على الـطريق بين حماه وحـلب في أبريل ١١٧٦م، فانتـصر عليهم صـلاح الدين انتصـاراً كبيـراً واستـولى على غنائم ضخمـة منهم، وللأسف الشديد فإن الزنكيـين خلفاء نور الـدين زنكي قد انقلبـوا على ماضـيهم النضـالي، ثم شرع صلاح الدين في مهاجمـة بعض المواقع الهامة شرق حلب لقطع الصلة بينها وبين الموصل.

٤٥ ـ الخيانة الباطنية واستمرار خيانة الزنكيين

حاول هؤلاء الخونة (البـاطنية) اغتيال صلاح الدين في صـيف ١١٧٦م، ليقدموا بذلك أكبـر خدمـة لأسيادهم الصلـيبيين فـاتجه صلاح الـدين إلى قلعة الباطـنية في (مصياف) وفرض عليها الحصار وقتل منهم كـثيرين ولـم يتركهم إلا بعد أن شفع فيهم خال صـلاح الدين، ومما يؤسف له أن الزنكيين خلفاء نور الدين زنكي قد نسـقوا مع الصليبيين في الهجوم علـى أعمال دمشق وحوان واستمروا في الأعمال الخـيانية فعاد صلاح الديـن لحصار حلب ونجح فـي فتحـها ثم حـاصر الموصل للمـرة الثانيـة عام ١١٨٥م، ولكن تم الصلح بينه وبين صـاحبها عـز الدين مسعـود على أن يكون تابعًا لصـلاح الدين ويخطب باسمـه على المنابر ويضـرب النقود باسـمه، وبذلك عـادت الوحدة الإسـلامية مـرة أخرى تحت راية واحدة هي راية صـلاح الدين الأيوبي الذي أصبح يحكم المنطقة من الفرات إلى النيل.

٤٦ ـ خيانة أخرى لكمشتكين حاكم حلب وحليف الصليبيين

قام هذا الخائن بإطلاق سراح (إرناط) الصليبي الذي سبق الحديث عنه والذي قطع أنوف وآذان وألسنة رجال الكنيسة في قبرص كما سبق، وكان إرناط هذا قد وقع في أسر (مجد الدين ابن الداية) نائب نور الدين في حلب سنة ١١٦٠م، وظل في الأسر في حلب مدة ستة عشر عامًا حتى عام ١١٧٦م، ولكن أطلق الخائن (كمشتكين) حاكم حلب سراحه وسراح (جوسلين الثاني الصليبي)، اعترافًا بجميل أسياده وحلفائه الصليبيين في إنطاكية الذين تحالف معهم ضد صلاح الدين الأيوبي.

٤٧ ـ الصليبي إرناط واعتدائه على الحجاج المسلمين

عمد هذا الصليبي إرناط إلى شن الاعتداءات على قوافل الحجاج والتجار بين مصر والشام والحجاز بغرض السلب والنهب وذلك رغم الهدنة المبرمة بين مملكة بيت المقدس وبين صلاح الدين، فقد أسر عام ١١٧٩، قافلة برمتها قدرت قيمتها بمبلغ ٢٠٠ ألف دينار، وأخذ يكرر أعمال اللصوصية والسلب والنهب، ثم عمد إلى الزحف إلى المدينة المنورة ومكة لطعن الإسلام في قلبه ولتحقيق سيادة الصليبيين على البحر الأحمر والوصول إلى عدن وإغلاق البحر الأحمر في وجه المسلمين واحتكار تجارة الشرق.

ففي عام ١١٨٢م، بدأ بالاستيلاء على إيلات التي كان صلاح الدين قد استردها من مملكة بيت المقدس عام ١١٧١م، وبذلك تخلص من خطر وجود المسلمين في هذا الموقع الذي كان يهدد الشوبك والأراضي الصليبية في وادي عربة ثم استولى على جزيرة فرعون المواجهة في خليج العقبة، ثم أخذ يغير على الموانى المصرية التي على البحر الأحمر.

ولم يلبث هذا الخائن الذي خان الهدنة وهي العهد بين مملكة بيت المقدس وبين صلاح الدين الأيوبي،أن أخذ في تنفيذ مشروعه الخياني الإجرامي ضد الآمنين وضد الحرمين الشريفين، فأغار بأسطوله على ميناء عيذان في البحر الأحمر في مواجهة جده وكان هو الميناء الرئيسي للتجارة المصرية الدولية بين الشرق والغرب فقام بتخريبه ونهب ما به من متاجر وقوافل وسفن تجارية، ثم انتقل إلى شاطئ الحجاز نفسه حيث نزل على ساحل (الحوراء) قرب ينبع وأصبح على مسيرة يوم واحد من (المدينة المنورة) ثم أبحر منه إلى رابغ من مواني مكة وأحدث به التخريب والسلب والنهب وعادت سفنه محملة بالغنائم، وقد أحدث هذا الزحف صدى عظيمًا ودويًا هائلاً في العالم الإسلامي ورأى فيه المسلمون نذيراً بقيام الساعة وعلامة على غضب الله تعالى لفناء بيته المحرم فانظر كيف تسببت خيانة كمشتكين حاكم حلب بإطلاق سراح هذا الصليبي إرناط، وفي كل هذه المصائب التي حلت بالإسلام والمسلمين وأفظعها وأفجعها تدنيس الأراضي الحجازية المقدسة.

فلو لم يطلق سراحه بخيانته فهل كان قد حل كل هذا بالمسلمين على يديه وعلى كل حال فقد سارع العادل أخو صلاح الدين الأيوبي بإرسال الحاجب لؤلؤ في أسطول مصري قوي إلى البحر الأحمر حيث حاصر إيلات وأحرق ما فيها من سفن وأسر بحارتها الصليبيين، ثم تعقب سفن إرناط عند عيذاب وشواطئ الحجاز، ودهمها على ساحل الحوراء ودمرها وأسر من فيها من الصليبيين، وقد استطاع البعض الفرار إلى الشاطئ ولاذوا بالجبال، ولكن حسام الدين لؤلؤ تعقبهم على خيل العربان إلى الجبال وأسرهم جميعًا، ثم أرسل أسيرين صليبيين منهم إلى منى حيث كان موسم الحج فنحرا كما تنحر البُدْن (الإبل) ليكونوا عبرة لمن لا يعتبر.

وعاد حسام الدين لؤلؤ ومعه بقية الأسرى الصليبيين إلى مصر حيث أمر صلاح الدين بقتلهم جميعًا لأنهم اعتدوا على حرم الله تعالى وحرم رسول الله ﷺ، وقد

تم قتلهم بعد استعراضهم في شوارع القاهرة والإسكندرية، أما إرناط فلم يكن قد حان أجله بعد، ونذر صلاح الدين دمه حين يقع في يده كما سنرى فيما بعد، ويستمر هذا الحاقد إرناط اللص الذي لا يستطيع الحياة دون أن يسرق وينهب كما يسميه قومه، واستمر في خيانته وغدره فلم يستطع احترام الهدنة وخان العهد فانقض فجأة على قافلة من قوافل الحجاج الإسلامية وكانت قافلة ثقيلة ومعها نعم جليلة في طريقها إلى دمشق في أواخر ١١٨٦م، وأوائل ١١٨٧م، واستولى علي ما فيها من ثروة وبضائع وساق رجالها إلى حصن الكرك أسرى ليسومهم العذاب، وبلغت به الوقاحة والخسة أن قال لرسل صلاح الدين (قولوا لمحمد يخلصكم).

وبذلك لم يبق أمام صلاح الدين سوى القصاص والحرب، وأعلنها حربًا شاملة ليس على هذا الكلب إرناط فقط وإنما على كل الصليبيين فكتب إلى جميع البلاد الإسلامية يستنفر الناس للجهاد، فهاجم الكرك وعكا وغيرها ودارت بينه وبين الصليبيين قرب صفورية معركة كبرى في أوائل شهر مايو عام ١١٨٧م سقط فيها معظم الصليبيين بين قتلى وأسرى، وكان في مقدمتهم الخائن مقدم الاسبتارية الصليبية وعدد كبير من فرسانهم، وعندما جاءت قوة من الصليبيين إلى صفورية لنجدة إخوانهم كانت المعركة قد انتهت فسقطوا جميعًا أسرى.

وقد هزت هذه المعركة الصليبيين هزًا عنيفًا حتى إن ريموند الثالث أمير طرابلس نقض الهدنة التي كانت بينه وبين صلاح الدين وهذه تعتبر خيانة منه لأنه نقض العهد ونقض العهد يعتبر خيانة ولكنها ليست غريبة من الصليبيين، واحتشد الصليبيون ومعهم صليب الصلبوت (الصليب الأصلي) لحرب صلاح الدين، فاقتحم صلاح الدين مدينة طبرية وأحرقها، وقد أحرقها عقابًا لريموند الثالث الخائن ولإجبار الصليبيين على القدوم إليه لملاقاته في المكان الذي اختاره للمعركة عند طبرية، وقد أقنعهم بذلك الخائن إرناط (وجيراردي ريدمورت) مقدم الداوية الصليبية.

ووصل الصليبيون إلى هضبة طبرية يوم ٣ يوليو ١١٨٧م، وكان يومًا شديد الحرارة واشتد بهم العطش، وهناك في أسفل الهضبة كانت تقع بحيرة طبرية بمائها الوفير ولكن جنود صلاح الدين كانت ترابط بينهم وبين الماء، واضطر الجيش الصليبي إلى قضاء ليلته فوق الهضبة يئن من العطش والإنهاك، واستغل صلاح الدين غطاء الليل ليحيط بهم إحاطة كاملة، ودارت معركة (حطين) الشهيرة التي كُسِرَ فيها الصليبيون كسرة شديدة فأخذتهم سهام المسلمين وسيوفهم ولم ينج سوى ريموند الثالث أمير طرابلس الخائن وسقط أسقف عكا قتيلاً إلى الجحيم وسقط من يده صليب الصلبوت الأصلي فاستولى عليه المسلمون وأخذوا يبولون عليه فأزالوا قداسته، وبقي ملك القدس حوله مائة وخمسون فارسًا فأسرهم المسلمون جميعًا.

وكانت نهاية هذا الخائن الحاقد إرناط: أنه قد وقع خلال هذه الموقعة فى أسر المسلمين، وبعد انتصار المسلمين وانتهاء المعركة أمر صلاح الدين الأيوبي بإحضار هذا الكلب إليه في خيمته ثم كلمه وأخذ يقرعه ويذكره بذنوبه وعربدته وخياناته ولصوصيته ثم قام إليه فضرب عنقه وأذهبه إلى الجحيم، وكانت خيانة هذا الكلب وغدره وأفعاله السابقة هي السبب فيما ذكرناه.

ثم قام صلاح الدين الأيوبي بعد ذلك بالاستيلاء على عكا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفوله والطور والمجدل ويافا وسبطيه وفيها قبر سيدنا زكريا على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتم السلام، ثم استولى على صرفند وصيدا وقلعة تبنين، وفي عام ١١٨٧م، سقطت بيروت في يده وجبيل وأسر قائدها (هيو الثالث الصليبي) ثم استولى على الرملة والدارون وغزة والنطرون وبيت جبرين وعسقلان ولم يبق أمامه سوى القدس التي استولى عليها في ٢ أكتوبر عام ١١٨٧م، الموافق ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ والموافق ذكرى الإسراء والمعراج فكان ذلك فرحة كبرى وعظمى للإسلام والمسلمين، ورد اعتبار المسلمين بتحرير القدس والمسجد الأقصى من أيديهم بعد أن ظل أسيرًا لمدة تسعين عامًا.

٤٨ ـ خيانة صليبية من ريتشارد قلب الأسد

قام ريتشارد قلب الأسد الصليبي ملك إنجلترا وفردريك بارباروسا إمبراطور ألمانيا وفيليب أغسطس ملك فرنسا بحملة صليبية شرسة من أكبر الحملات لمحاربة صلاح الدين الأيوبي في مايو ١١٨٩م، وتمكنوا من فرض الحصار على عكا في أغسطس ١١٨٩م، وكان بها حامية إسلامية واستمر الحصار إلى يوليه ١١٩١م، وقد حاصر صلاح الدين الصليبيين من الخارج فأصبحت عكا محاصرة بثلاثة جيوش: أولها الجيش المسلم من الداخل والثاني الجيش الصليبي من الخارج والثالث جيش صلاح الدين الأيوبي الذي حاصر الجيش الصليبي، وأصبح الجيش الصليبي محاصراً بين الجيش المسلم من الداخل وجيش صلاح الدين من الخارج.

واستمرت المعارك الشرسة بين المسلمين والصليبيين وكانت أهمها معركة بعد خمسين يومًا من الحصار انتهت بهزيمة كبيرة للصليبيين وقتل سبعة آلاف منهم.

ثم معركة أخرى كان بطلها الملك العادل أخو صلاح الدين وتعرف بالموقعة العادلية وقتل فيها من الصليبيين ثمانية آلاف (٨٠٠٠) صليبي أيضًا، ولكن الموقف تغير لصالح الصليبيين لكثرة الإمدادات الهائلة التى كانت تأتيهم من البحر باستمرار، فاضطر المسلمون المحاصرون داخل المدينة إلى التسليم بعد ما أبدوا من بطولات يعجز عنها الوصف، ولكن قلة المون والطعام اضطرتهم إلى ذلك بعد أن قاوموا الحصار الصليبي لمدة عامين، وتم الاتفاق على أن يقوم المسلمون المحاصرون بدفع فدية معينة في وقت محدد لكي يتم إطلاق سراحهم، وكانت هذه الفدية مائتي ألف دينار لإطلاق هؤلاء الأسرى المسلمين.

وهنا تأتي خيانة هذا الصليبي ريتشارد قلب الأسد، فلما عجز الأسرى المسلمون عن دفع الفدية في الوقت المحدد جمعهم وكان عددهم ٢٧٠٠ أسير مسلم وأمر

بذبحهم على مشهد من أقاربهم في عمليـة صليبية بشعة إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى تعطش الـصليبيين للدم المسلم، ولـم يـتأخر أتبـاعه الصليبـيون الأنذال عن تنفيـذ الذبح فقد قـفزوا على المسلمين وهم تواقون ومـشتاقون لتنـفيذ الذبح ليشـفوا غليلهم ويرووا عطشـهم من الدم المسلم، فعلوا ذلـك رغم ما فعله صـلاح الدين مع أسراهم في القدس وغيرها فلم يقتل من الأسـرى الصليبيين أحد بل يطلقهم بالآلاف رأفة ورحمة بهم ويعـاملهم كقائد مسلم منتصر معاملة العـفو عند المقدرة، ولكن ماذا تقول للحـقد الصليبي الدفين وللخـيانة العفنة، ثم مـات البطل صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٩٣م، بعـد أن حرر القدس والمسـجد الأقـصى من أيدي الصليبـيين وبعد أن أذاقهم مرارة الهزائـم المتلاحقة التى لم يذوقوها على يد أحد من قـبله، ومهد الطريق لطردهم نهائيًا من بلاد المسلمين وتحريرها بالكامل منهم بعد غسلها بدمائهم النجسة.

٤٩ـ التآمر ضد الملك الكامل الأيوبي وخيانة صليبية ضـد أهالي دمياط

بعد موت البطل صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٩٣م، ظن الصليبيون أنهم يمكنهم معاودة الكرة ضد المسلمين فلم يكونوا قـد ارتدعوا بكثرة من هلكوا وأبيدوا منهم ولا بكثرة ما سُفك من دماء من الطرفين فقاموا بحملة صليبية أخرى للمرة الخامسة اتجهت إلى عكا ومنهـا إلى مصر بدلاً من بيت المقـدس لأنهم علموا أن مـصر قد أصـبحت مـركز المقـاومة الإسـلاميـة لهم وقـد أصبـحت الصخـرة التي تحطم عليـها أمـالهم وأحلامهم. فـبدون القضاء عليـها لا يمكن استرداد القـدس ثانية من أيدي المسلمين، وتمكنوا من الاستـيلاء على دمياط، وقد تـصدى لهم الملك الكامل الأيوبي ابن الملك العادل شقيق صلاح الدين، وأخذ في مواجهـة الصليبيين، ولكن مؤامرة خيانية دبرت ضده في داخل البلاد فترك المعسكر ليلاً واتجه للقضاء على هذه المؤامرة فتبعه الجيش.

وهنا تمكن الصليبيون من الاستيلاء على المدينة بعد مقاومة شديدة باسلة استمرت بضعة أشهر لقيت فيها المدينة عنتًا شديدًا حتى امتلأت الطرقات والمساكن بالموتى والجوعى، وبالطبع فقد كشرت الخيانة الصليبية عن أنيابها كما هو معتاد، فوضع الصليبيون السيف في رقاب أهلها وأسرفوا في قتلهم والاستيلاء على أقواتهم .

وفي الظروف الصعبة أدرك الملك الكامل أن ضياع مصر سوف يترتب عليه ضياع كل شيء فأراد أن يضحي بالقدس وفلسطين في سبيل الاحتفاظ بمصر فعرض عليهم الانسحاب من دمياط في مقابل التنازل لهم عن القدس ومعظم البلاد الفلسطينية التي استولى عليها عمه صلاح الدين منهم، ولكنهم رفضوا هذا العرض السخي لأنهم علموا أنه طالما بقيت مصر خارج أيديهم فلن تتركهم ينعمون بالقدس وفلسطين أو غيرها.

فصمموا على احتلالها وتورطوا بالفعل في الدخول إلى طلخا والمنصورة عن طريق النيل، ولم تلبث البحرية المصرية أن استولت على بضعة سفن صليبية كبيرة محملة بالمؤن والرجال وأسرت معظم رجالها الصليبيين وأبحر عدد من السفن المصرية في بحر المحلة الذي يلتقي بالنيل عند فارسكور فحالت بين الصليبيين وبين أى نجدات تصل إليهم من دمياط وقطعت خط الرجعة على السفن الصليبية، ثم أمر السلطان الكامل بقطع جسر النيل شمال طلخا فضلاً عن الجسر الفاصل بين النيل وبحر المحلة ففاض الماء وغطى مساحة كبيرة من الأرض شمال مواقع الصليبيين عدا طريق ضيق سده الكامل بقوات برية وبهذا انحصر الصليبيون وسدت عليهم المنافذ وأدركوا مدى شدة ضعف موقفهم فأحرقوا خيامهم ومجانيقهم وسائر أدواتهم الثقيلة وأرادوا الانسحاب في الظلام ليلة ٢٦ أغسطس ١٢١٢م، ولكن الماء والقوات البرية المصرية حالت دون تقهقرهم إلى دمياط وباتت تصفيتهم مسألة وقت.

وهنا طلب الصليبيون من الملك الكامل أن يسمح لهم بالعودة إلى دمياط للجلاء عنها دون قيد أو شرط، وكان المفروض ألا يقبل الملك الكامل ذلك ويقوم بتصفيتهم وإبادتهم ولكنه من باب العفو عند المقدرة، وافقهم على ذلك لكسب الرأى العام العالمي، وبالرغم من أن العفو عند المقدرة لا يصلح مع هؤلاء، فهم لم يستخدموا العفو عند المقدرة مع المسلمين ولا مرة واحدة طوال تاريخهم وحياتهم، وغادر الصليبيون دمياط وعادت إلى المصريين بعد أن دنسها الصليبيون لمدة سنتين بسبب المؤامرة التي دبرت ضد الملك الكامل واضطرته إلى ترك مواجهة الصليبيين ليتمكن من إخماد هذه المؤامرة . وكانت ستؤدي هذه الخيانة إلى فقد القدس وفلسطين ووقوعها مرة ثانية في أيدي الصليبيين.

٥٠ ـ أبشع خيانة خلال الحروب الصليبية

إنها خيانة الملك الكامل ابن الملك العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي والذي سبق الحديث عنه والذي كان يحكم مصر في تلك الفترة، فأولاً حينما تمكن الجيش المصري الباسل والبحرية المصرية العظيمة من حصار الصليبيين داخل المصيدة في المنصورة وطلخا في ٢٦ أغسطس ١٢٢١م كما سبق وأصبحت تصفيتهم مسألة وقت وباتت أكيدة ومؤكدة، كان من المفروض أن يصفيهم انتقامًا لما فعلوه بالمسلمين سواء في القدس أو عكا أو دمياط أو غيرها، وفي كل بلد كانوا يحتلونه من بلاد المسلمين منذ قيام الحروب الصليبية كما سبق، فكانت هذه فرصة للانتقام منهم ولأخذ بعض الثأر بل لأخذ جزء يسير جدًا من الثأر، ولكن هذا الحاكم الملك الكامل قد أخذته الشفقة والعطف عليهم، فأطلقهم يخرجون دون سفك قطرة دم واحدة منهم رغم ما سفكوه من دماء المسلمين ورغم الآلاف المؤلفة التى قتلوهم من المسلمين وأقربها ما فعلوه بأهل دمياط بعد استيلائهم عليها، وفي القدس وحدها كما قدمنا قتلوا سبعين ألفا من المسلمين، وفي عكاعلى سبيل المثال لا الحصر ذبحوا ألفين وسبعمائة أسير مسلم أمام

أقاربهم كما سبق، وغيرها من المذابح والمجازر التي فعلوها بالمسلمين، وإذا كان البعض يقدم العذر والمبرر لهذا الحاكم الملك الكامل بفعلته هذه، فإن أحدًا على الإطلاق لا يستطيع تقديم أي مبرر لهذه الخيانة البشعة التي قام بها والتي فعلها وأضاع جهود عمه البطل صلاح الدين الأيوبي وجهود أبيه الملك العادل وجهود بقية المسلمين حتى تم تحرير وتطهير القدس وفلسطين والشام وسائر بلاد المسلمين من أيديهم، ولم يبق لهم سوى عكا التي كانت أيضًا في طريقها إلى التحرر والتطهير منهم، وحتى لا نتجنى على هذا الرجل ننقل ما جاء حرفيًا عن خيانته يقول الدكتور/ عبد العظيم رمضان:[1] (وكان لفشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر دوي عظيم في أوروبا، فقد هالها انسحاب الصليبيين من دمياط بعد استيلائهم عليها، وهالها أكثر من ذلك رفض الصليبيين مرة بعد أخرى عروض السلطان الكامل بتسليمهم معظم مملكة القدس في مقابل الانسحاب من دمياط، واضطرارهم في نهاية الأمر إلى تسليم دمياط والجلاء عن الشواطئ المصرية دون قيد ولا شرط، وتندر المتندرون بغفلة قادة الحملة، وأخذ دعاة الفكرة الصليبية في إثارة أوروبا لإعداد حملة أخرى، في ذلك الحين كان (فردريك الثاني) إمبراطور على الدولة الألمانية الغربية وكان قد نذر عند اعتلائه العرش الإمبراطوري سنة ١٢١٥م، أن يذهب في حملة صليبية ألمانية إلى الشرق، وسنحت له الفرصة حين تزوج في سنة ١٢٢٥م من ابنة الملك (حنّابرين) قائد الحملة الصليبية الخامسة السابقة الفاشلة فأصبح بحق هذا الزواج زواجًا نفعيًا، وأعد بالفعل حملة صليبية ألمانية في عام ١٢٢٧م، أبحرت من ثغر (برنديزي) بإيطاليا.

ولكنها عادت بسبب إصابته بالحمى، فاعتبرت البابويه المرض تمارضًا وأصدرت قرارًا بقطع فردريك من رحمة الكنيسة، على أن فردريك استطاع مع ذلك أن يحقق للصليبيين ما عجزت عنه الحملة الصليبية الخامسة الفاشلة، فقد دخل في مراسلات

---

(١) انظر: د./عبد العظيم رمضان الصراع بين العرب وأوربا ص٥١٤.

مع السلطان الكامل الأيوبي حاكم مصر أسفرت عن اتفاق يقوم على شروط مماثلة لما عرضه السلطان الكامل على الصليبيين في الحملة الصليبية الخامسة، وهي أن يتسلم فردريك مدينة بيت المقدس وبيت لحم، وأن يكون للصليبيين ممر من الأرض يصل بين عكا وبيت المقدس بما في ذلك: اللد والناصرة والجليل، على أن يبقى المسجد الأقصى وقبة الصخرة وقرى بيت المقدس في يد المسلمين وذلك مقابل هدنة تستمر عشر سنوات يتعهد فيها فردريك بمنع أية حملة أوروبية صليبية جديدة على السواحل المصرية والشامية، وقد تم توقيع هذه الهدنة بالفعل في سبتمبر ١٢٢٨م. في فلسطين عند مدينة عكا، وقد أعقب هذه الهدنة، أو بمعنى أصح هذه الخيانة، أن قام فردريك بزيارة المسجد الأقصى ، وتوج نفسه ملكًا على مملكة بيت المقدس وتم ذلك بكنيسة القيامة ثم عاد إلى عكا.

وقد أغضبت تلك الاتفاقية كلا من الصليبيين والمسلمين على السواء، فقد حنقت البابوية على فردريك لأنه صالح المسلمين بدلاً من مقاتلتهم حتى النهاية أما بالنسبة للمسلمين فقد امتلأت مساجد القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها بالناقمين والساخطين على الملك الكامل الذي سلم بيت المقدس وبيت لحم وبقية الأماكن الأخرى لفردريك الثاني في مقابل هدنة عشر سنوات قابلة للتجديد (أي أن الخيانة قابلة للامتداد والتجديد)، ولم يفلح هذا الكامل في إقناع أي أحد بمزايا ما فعله من خيانة، وقد تبدى غضب وسخط المعاصرين على هذا الخائن السلطان الكامل في عبارة الفقيه المعاصر ابن الأهدل التي أوردها المؤرخ الكبير الدكتور/ محمد مصطفي زيادة وفيها يقول: «وللكامل هفوة جرت منه عفا الله عنه وذلك أنه سلم بيت المقدس إلى الفرنج اختياراً. نعوذ بالله من سخط الله تعالى وموالاة أعداء الله»، وهذا الكلام للفقيه ابن الأهدل مؤدب ومهذب جداً فهو لا يعبر عن خيانة هذا الرجل الشنيعة بما تستحق،

وكيف يعتبرها هفوة وهي خيانة عظمى وخيانة كبرى لو فعلها أحد الصليبيين لمزقوا جسده، ولكننا للأسف في بلاد الشرق بلاد الإسلام تأخذنا الشفقة والرأفة والرحمة أحيانًا بالخونة وهم أصل الداء وسبب البلاء.

فقد أضاع هذا السلطان الخائن أمجاد وجهود عمه البطل صلاح الدين الأيوبي وأضاع كذلك أمجاد وجهود عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي وأسد الدين شيركوه وأبيه العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي وغيرهم من الأبطال والمجاهدين والشهداء المسلمين الذين ساروا على طريق الكفاح ودرب الجهاد والنضال حتى تم تحرير وتطهير بيت المقدس وسائر البلاد الإسلامية من الصليبيين ما عدا عكا التي كانت أيضًا في طريقها للتحرير، فيقوم هذا الخائن بكل بساطة بتسليم بيت المقدس والأماكن الأخرى في مقابل معاهدة عفنه، ويضيع دماء الآلاف المؤلفة من الشهداء.

٥١ - الصالح إسماعيل صاحب دمشق وتحالفه مع الملك (تيبالد الصليبي)

بعد موت الملك الكامل المذكور في مارس ١٢٣٩م، انفرط عقد الدولة الإسلامية وشب الصراع ودب النزاع بين آمرائها، وتولى السلطنة بالقاهرة العادل الثاني ابن الكامل، وتولى أخوه الأكبر الصالح أيوب في دمشق مستعينًا بالخوارزمية، ولكن عمه الصالح إسماعيل طرده من دمشق، وكانت المعاهدة السابقة التي عقدها الكامل مع الصليبيين قد دنا أجلها وقاربت على الانتهاء، وكانت البابوية تترقب انتهاء هذه الهدنة لإرسال حملة صليبية أخرى إلى الشرق وتكونت بالفعل حملة صليبية في عام ١٢٣٩م. بقيادة (تيبالد) الصليبي ملك (نافار) وانضمت إليها جيوش فرنسية أخرى من كل من :(برجندي ونيفر وبريتاني وغيرها)، وأبحرت من مينائى (ايجمور) و(مرسيليا) بجنوب فرنسا في أغسطس ١٢٣٩م، حيث أنزلت جيشًا عدته بضعة آلاف من الصليبيين عند عكا في يوم انتهاء الهدنة السابقة.

ولم يكد يقترب (تيبالد) من غزة حتى كان في انتظاره جيش مصرى يكمن في المدينة، ولذا عندما أرسل إلى المدينة فرقة لاحتلالها عند الفجر سقط معظم رجالها أسرى وتقهقر (تيبالد) بزحفه الصليبي نحو الشمال إلى عكا، ولكن الملك الناصر داوود حاكم الكرك وعموم فلسطين زحف على بيت المقدس فجأة فاحتلها بعد تسليم حاميتها الصليبية له في ديسمبر ١٢٣٩م، وهدم تحصينات بيت المقدس الجديدة ورجع عنها إلى عاصمته بالكرك وتحول الصليبي تيبالد شمالاً نحو إمارة طرابلس الصليبية حيث بقيت قواته حائرة فيها حتى صيف عام ١٢٤٠م.

فبعد أن أتى ليجرب حظه مثل من سبقوه من أمراء وملوك الصليبيين أصبح حائراً بمن بقي معه من الصليبيين . وفي هذه الأثناء تمكن الصالح أيوب من أن يصبح سلطانا في القاهرة في يونية ١٢٤٠م، فتدهورت العلاقات بينه وبين عمه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وأحس الصالح إسماعيل هذا بقرب الهجوم عليه من قبل الصالح أيوب وحليفه الناصر داوود صاحب الكرك الذي أعاد بيت المقدس إلى قبضة المسلمين.

وهنا تظهر خيانة الصالح إسماعيل فقد تحالف مع ملك الصليبيين تيبالد المذكور لمساعدته ضد الصالح أيوب في مقابل تسليم صفد وما حولها من الحصون للصليبيين، وبذلك صار خائنًا من الطراز الأول وسجل اسمه في سجل الخيانة.

ولكن الصالح أيوب استطاع بالدعاية الدينية تأليب أهل دمشق ضد هذا التحالف وهذه الخيانة ولكنه في الوقت نفسه، وعد الملك الصليبي تيبالد بإطلاق سراح أصحابه من أسرى موقعة غزة إذا نكث عهده مع الصالح إسماعيل، وقد قبل تيبالد هذا الاتفاق مما أغضب عليه الصليبيين المحليين فرجع بحملته الفاشلة إلى أوروبا في أواخر سبتمبر ١٢٤٠م، وهكذا نرى أن الخيانة في هذه الفترة مازالت

تشرئب بأعناقهـا، وبينما المسلمون المخلصون يجاهدون ويحـاولون تخليص بقية المواقع الإسلامية المتبـقية من أيدي الصليبيين إذا بهذا الخائن إسمـاعيل يقدم لهم صفد وما حولها من الحصون على طبق من ذهب دون أي مقابل، ويظهر أن الخونة يجدون في الخيانة لذة ومتعة يشعرون بها وحدهم دون أن يشعر بها غيرهم.

٥٢ - خيانة أخرى جماعية يتزعمها الصالح إسماعيل

لم يكتف الصالح إسماعيل بخيانته السابقة فقام في سنة ١٢٤٣م. بتكوين حلف خيـاني جمـاعي آخر يتكون منه شـخصيًـا ومن الفرسـان الداوية الصليبـية في عكا وفلسطين ومن الناصر داوود صـاحب الكرك ومن المنصور إبراهيم صـاحب حمص، وتكون هذ الحلف الصليبي العربي ضد الملك الصالح أيوب سلطان مصر.

وفي هذا الحلف الغريب تنازل الصالح إسماعـيل لحلفائه الصليبيين عن منطقة المسجد الأقصى وقبـة الصخرة المنصوص عليها في الهدنة الخيـانية التي عقدت بين الكامل وفردريك كما سبق على أن تبقى بأيدى المسلمين، ولكن الصالح إسماعيل أبت عليه خـيانته إلا أن يتنازل عنـها هي الأخرى للصليـبيين وكأن الصليـبيين من لحمه ودمه.

وقام فـعلاً فرسان الداوية باحـتلال هذه المنطقة (منطقـة المسجد الأقصى وقـبة الصـخـرة) في أواخـر ١٢٤٣م، ولكن الصــالح أيـوب سلطان مـصـر أرسل إلى الخوارزمية الذين أدخلهم في خدمته وكلفـهم بالاستيلاء على بيت المقدس من جديد من أيدي الصليـبيين وعلى دمـشق تأديبًا لذلك الخـائن الصالح إسـماعـيل فعـبرت جيوشـهم نهر الفرات تريد الاسـتيلاء بسرعة على دمـشق ولكنها اكتـشفت ضرورة حصارها لأن دمشق لا شك أنها كانت قوية وكـانت إحدى قلاع المسلمين ومواقعهم الأساسيـة منذ عهد الزنكيين، وبسـبب أن الخوارزمية لم يكن لديهـم أدوات حصار فقد زحفوا بسرعة نحـو بيت المقدس واحتلوا طبرية ونابلس وتمكنوا من دخول بيت

المقدس في ١١ يونيه ١٢٤٤م، وأعطوا الأمان للصليبيين فخرجوا منها إلى يافا في أواخر أغسطس ١٢٤٤م، وبذلك فقد الصليبيون مدينة القدس مرة أخرى وعادت بحمد الله تعالى إلى قبضة المسلمين.

وهكذا فقد استطاع الصالح أيوب سلطان مصر تصحيح الخطأ والخيانة التي ارتكبها الملك الكامل بتسليمه القدس للصليبيين عام ١٢٢٨م وكذلك تصحيح الخطأ والخيانة التي ارتكبها الصالح إسماعيل بتسليمها لهم أواخر عام ١٢٤٣م، كما سبق.

٥٣ ـ الصالح إسماعيل يعاود خيانته

لا شك أن الخيانة مرض عضال من يبتلى به من الناس من العسير شفاؤه منه والذي يخون بلده ودينه ويتعود على ذلك أكثر من مرة، إنما هو مريض، مثال ذلك هذا الخائن الصالح إسماعيل والذي أصبحت الخيانة مختلطة بدمه ولحمه وعظامه، فلم يرد أن ينتهي عن الخيانة، فكوّن حلفًا آخر ضد الصالح أيوب مكونًا من الصليبيين ومنه ومن أذناب الصليبيين: المنصور إبراهيم صاحب حمص، والناصر داوود صاحب الكرك، وكونوا أخطر جيش عربي صليبي منذ وقعة حطين .

وزحفت جيوش الخونة في أوائل أكتوبر ١٢٤٤م، من عكا إلى عسقلان لمنع الجيش المصري المجاهد، وكان مع الجيش المصري الخيالة الخوارزمية، فزحف الخونة لمنع الجيش المصري من الزحف شمالاً، واصطدم الجيش المصري بجيوش الخونة المتحالفين من العرب وحلفائهم الصليبيين اصطدامًا عنيفًا عند قرية (حيربيا الحالية) والتي كانت مسماة (لافوربي) زمن الصليبيين، فاصطدم الجيشان: الجيش المصري والجيش العربي الصليبي في منتصف الطريق بين غزة وعسقلان وذلك في يوم ١٧ أكتوبر ١٢٤٤م، وألحق المصريون بالصليبيين وأذنابهم الخونة هزيمة ساحقة سقط فيها من الصليبيين وحدهم خمسة آلاف قتيل ولم ينج منهم سوى عدد قليل فر عائدًا إلى يافا.

ثم أسرعت الجيوش المصرية الخوارزمية إلى ممتلكات الناصر داوود الخائن صاحب الكرك فاستولت على جبرون وبيسان ونابلس، فكان على هذا الخائن أن يدفع ثمن خيانته، ثم زحف الجيش المصري إلى دمشق في أبريل ١٢٤٥م، فسقطت في يده بعد أن استعصت على الخوارزمية كما سبق، وكانت من أقوى المعاقل الإسلامية، وكان على زعيم الخيانة الصالح إسماعيل صاحب دمشق أن يدفع ثمن غدره وخيانته، وهكذا أحدثت وقعة (حيربيا) التي تعرف في الحروب الصليبية باسم (وقعة غزة) أحدثت بالقوات الصليبية ما أحدثته معركة حطين من قبل، وذلك كما يقول الدكتور: محمد مصطفي زيادة الذي حقق مكان الوقعة.

٥٤ ـ خيانة الخوارزمية بانقلابهم على الصالح أيوب

كان الخوارزمية مسلمين مجاهدين وكانوا حلفاء للصالح أيوب وخاضوا معه المعارك كما سبق، ولكنهم انقلبوا عليه في عام ١٢٤٧م، والمقصود هنا بالخوارزمية ليس الجيش والجنود ، وإنما المقصود الزعماء والقادة منهم، ولا شك أنهم وقعوا تحت تأثير إغراءات خيانية من الأعداء فقام الصالح أيوب بالتخلص منهم.

بطولة إسلامية للجيش المصري

في سنة ١٢٤٧م، خضع للصالح أيوب سلطان مصر وصار تحت إمارته (الشام والبلاد الفراتية) أي التي على شاطئ نهر الفرات، ما عدا إمارتي حمص وحلب وكان معها إمارات أيوبية تعترف له ولمصر بالصدارة والزعامة، وذلك بعد تخلصه من الخائن الصالح إسماعيل ومن الخوارزمية الذين اتبعوا طريق الخيانة وانقلبوا عليه، وتفرغ لقتال الصليبيين فاستطاع الجيش المصري استرداد مدينة طبرية من أيدي الصليبيين في يونيه عام ١٢٤٧م، ثم زحف نحو عسقلان بينما كانت تحاصرها سفن الأسطول المصري، ولم تجد عسقلان بدًا من التسليم في النهاية، فدخل جيش الأبطال المصري

المدينة في يوم ١٥ أكتوبر ١٢٤٧م، وهدم حصونهـا القوية التي استعصت على كل المحاولات السابقة للاستيلاء عليها منذ أيام صلاح الدين الأيوبي، وزار الصالح أيوب مدينة بيت المقـدس حيث أمر بتـجديد أسوارهـا تجديدًا تامًا، وهكذا يضـيف الجيش المصري الباسل مجدًا حربيًا آخر إلى أمجاده السابقة.

٥٥ ـ فخر الدين يوسف وحملة لويس التاسع ملك فرنسا

مازالت الصليبية الأوروبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين تتكالب على غزو بلاد المسلمين بتـحريض من الأفعى الصليـبيـة في جحرها المعـروفة بالبابـوية، ولم تشبع البابوية وثعابيـنها من الدماء التي سُفكت من الجانبين ومن الآلاف المـؤلفة التي قتلت فكأنها استـمـرأت واستطعمـت بهذه البحـار من الدماء المسلمـة، وأصبحـت كالنار المستعرة.

فلم يعجـبها بأي حـال من الأحوال أن ينتصـر المسلمون خاصـة المصريين، ولم يعجبهم أن تعود القدس إلى قـبضة المسلمين مـرة بعد مرة، وأصبـحت القدس هي (مسمار جحا) الذي تستخدمه البابوية في تحريض أتباعها الصليبيين في إعداد حملات صليبيـة أخرى، فكلما أبيدت حـملة على يد المسلمين تظهر مكانها فـي الحال حملة أخرى أشد ضراوة وشـراسة وتصميمًا من سـابقتها، وكان للجُحـر الصليبي المعروف بالبابويـه مصلحة في تجـدد هذه الحملات وفـي بقاء الحروب الصليـبية مـستـعرة مع المسلمين، ففي بقـائها بقاء للبابوية، ولكن بانتـهائها تنتهي وتندثر البـابوية، ولم يعد يحسب لها أي حـساب ولا يوضع لها أى اعتبار، ومـا أكثر الكنائس في أوروبا التي تبث فيـها هذه البابوية سـمومها بأسلـوب مخادع يؤثر على القلوب المريضـة، فكلما أبيدت وسحقت حملة صليبية سرعان ما تتكون حملة أخرى لتحل محلها.

ففي سنة ١٢٤٨م، تكونت حملة صليبية جديدة كان بطلها هذه المرة الحاقد على الإسلام والمسلمين والمعروف بلويس التاسع ملك فرنسا التي تعتبر أشد البلاد الصليبية على الإطلاق بعد انجلترا حقداً وبغضاً للمسلمين، فهذه الدولة الفرنسية الصليبية هي التي تحملت العبء الأكبر في الحملات الصليبية ضد المسلمين منذ بداية الحروب الصليبية وحتى انتهائها.

وتجمعت هذه الحملة الشرسة في قبرص وكانت تتكون من جيوش فرنسية حاقدة وانضمت إليها جيوش إنجليزية وإقطاعيون صليبيون من الفرنسيين والإنجليز والصليبيين القدامى في فلسطين، وبقيت سنة كاملة في قبرص قبل أن تبحر من ميناء (ليماسول) في أول مايو ١٢٤٩م، متجهة إلى الشواطئ المصرية، رغم أن الحجة التي حركت بها البابوية هذه الحملة كانت استرداد بيت المقدس من قبضة المسلمين، فلماذا تتجه إذن إلى الشواطئ المصرية؟

ورست الحملة خارج دمياط كما فعلت الحملة الصليبية الخامسة السابقة ، وتعرضت لرياح عاصفة شديدة بددت الكثير من سفنها فلم يصل منها سوى سبعمائة سفينة، ورسى لويس التاسع بجنوده على الشاطئ الغربي لدمياط مرتكباً نفس أخطاء الحملة السابقة الخامسة الفاشلة وكان السلطان الصالح أيوب قد تلقى بعض أركان الخطة الصليبية وهو في (أشموم طناح) وتوقع قادته نزول الصليبيين على الشاطئ الغربي للنيل قبالة دمياط كما فعلت الحملة السابقة فأعد لها العدة بجيش كبير تحت قيادة الأمير فخر الدين يوسف عبر النيل عند عزبة البرج الحالية وعسكر على طول الشاطئ الغربي، وفي الوقت نفسه ملأ دمياط وأبراجها وأسوارها بالعسكر والأسلحة والأقوات استعداداً لحصار طويل إذا لزم الأمر.

ويذكر (جوانفيل) مؤرخ هذه الحملة الصليبية وأحد قادتها أن منظر الجيوش المصرية في أسلحتها الذهبية والجلبة التي كانت تحدثها بصنوجها وأبواقها الشرقية كانت تُدخل الرعب في قلوب الصليبيين، وبدا حتمًا أن الهزيمة ستكون من نصيب الجيوش الصليبية.

وهنا تظهر خيانة القائد فخر الدين يوسف الذي كان متقدمًا في السن فقد اعتقد أن السلطان الصالح أيوب الذي كان في ذلك الحين يعاني مرضًا خطيرًا قد مات، فانسحب بقواته تحت ستار الظلام إلى (أشموم طناح) حيث يوجد المعسكر السلطاني، وباتت دمياط دون جيش يحميها سوى حامية صغيرة، مما دعا أهل دمياط إلى مغادرتها خوفًا على أرواحهم، ولحقوا بالمعسكر ثم فروا هاربين إلى القاهرة ، وهكذا دخل الصليبيون دمياط دون مقاومة بسبب هذه الخيانة التي ارتكبها ذلك القائد الخائن فخر الدين، فقد كان عليه أن يبقى بالجيش للدفاع عن دمياط ومواجهة العدو وسواء مات السلطان أو عاش، فهو مسئول فقط عن الناحية العسكرية وعن حماية البلد من الاحتلال ومسئول عن هزيمة العدو الصليبي وسحقه ودحره، وليس مسئولاً عن الناحية السياسية المتعلقة بموت السلطان، وكان عليه على الأقل عندما تحقق من عدم موت السلطان أن يسرع بالعودة بجيشه إلى دمياط لحمايتها قبل أن يحتلها العدو الصليبي وكان لهذا الانسحاب الخياني وقع الكارثة على الصالح أيوب فأنزل عقوبة الإعدام شنقًا بحامية دمياط المنسحبة، وكاد أن يأمر بإعدام القائد فخر الدين يوسف نفسه لولا كبر سنة.

٥٦ ـ خيانة أحد العربان بمساعدته للصليبيين في بحر أشموم طناح، وموقف مشرف لشجرة الدر، وبطولات فذة للمصريين

قرر الصالح أيوب الانسحاب بالجيش جنوبًا إلى مدينة المنصورة وبدأ في تحصينها تأهبًا للقاء الصليبيين، وساعده الحظ بتلكؤ لويس التاسع ستة أشهر انتظارًا لوصول بقية سفنه مما أتاح الفرصة للصالح أيوب للاستعداد الكامل، ولم يكد الصليبيون بقيادة لويس التاسع يبدءون الهجوم من دمياط على المنصورة في نوفمبر ١٢٤٩م، حتى توفى ذلك البطل المجاهد ابن الإسلام الصالح أيوب رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وهنا أدركت زوجته الوفية المخلصة شجرة الدر ما يمكن أن يؤدى إليه علم جيشه بهذا الموت من تفرق الشمل وضعف الروح المعنوية فأخفت الخبر وأرسلت إلى ابنه توران شاه في حصن (كيفا) بالموصل للحضور لتسلم العرش، فقد قامت شجرة الدر بعمل عظيم يعجز عنه أعظم الرجال بحسن تدبيرها وحسن تصريفها للأمور، قامت وهي في خدرها المصون بعمل يعجز عنه أكابر الرجال وخاصة في هذه الظروف الصعبة من القتال بحسن سياستها والقبض على دفة المركب وتسييرها بإحكام دون تعرضها للغرق حتى حضر ابن زوجها توران شاه من الموصل ليتسلم دفة المركب ويتولى قيادتها.
(وحتى لا يتشدق المتشدقون بأن المسلمين يظلمون النساء فنقول: إن هذه سيدة أعطاها الإسلام الفرصة فأثبتت نفسها في تاريخ مصر وفي التاريخ الإسلامي في فترة من أصعب وأدق الفترات التي مرت بمصر)، وأثبتت بحق أنها حفيدة أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها، حيث وقفت مع الرسول ﷺ بكل جهدها ومالها في أصعب أوقاته، ويحق لمصر دون جدال أن تفخر بأنها أنجبت شجرة الدر، فلتتخيل أنها لم تقم بهذا العمل العظيم الذي قامت به فلو لم تقم بهذا الدور، فماذا ستكون النتيجة حينئذ؟ كانت بكل تأكيد ستقع مصر فريسة سهلة في يد ذلك الصليبي الحاقد لويس التاسع ومنها كان سينطلق وينقض على القدس وفلسطين وبقية البلاد الإسلامية الأخرى ويتخذ مصر قاعدة للانطلاق إلى بقية بلاد المسلمين كما كان يخطط لأن الجيش

المصري وفي هذه الأثناء مرض الصالح أيوب ثم توفى وكاد الجيش المصري أن يتفرق ويتشتت ولا يجد من يقوده ويوجهه وكان الذعر والخوف سيدب في صفوفه، وطالما دب الخوف في صفوفه انتهى كل شيء سواء في مصر أو في بقية البلاد الإسلامية الأخرى، ولكن أبقت شجرة الدر خبر موت زوجها الصالح أيوب مكتومًا عن الناس ولم تُعلم به أى أحد، فظل الجيش متحدًا ومتكاتفًا كما هو، وظل يوجه الضربات القاصمة للصليبيين فقد حاول لويس التاسع نصب جسر من الخشب في عرض البحر الصغير ليعبر منه إلى المعسكر المصري، ولكن القذائف النارية المصرية المستمرة أبادت معظم الجنود العاملين في الجسر من الصليبيين الفرنسيين.

بينما كانت المجانيق المصرية والمقاليع تمطر الصليبيين الفرنسيين وأبراجهم بقذائف من النار المصرية التي أنزلت الرعب بقلوب الفرنسيين الصليبيين، وقد روي المورخ (جوانفيل) أن لويس التاسع كلما سمع أن النار المصرية قد صوبت نحو جنوده انتصب واقفًا رافعًا يديه إلى السماء مبتهلاً وعيناه مخضبتان بالدموع قائلاً: (أيها الإله الطيب، احفظ لي شعبي).

وهنا وفي هذه الظروف الدقيقة الصعبة التي لعبت فيها المرأة المسلمة دورًا عظيمًا وباهرًا خلده التاريخ تظهر الخيانة الوضيعة، وكان صاحب هذه الخيانة أحد العربان، فبعد أن عاش هذا الأعرابي فوق أرض مصر وتربي من خيراتها وشرب من نيلها، إذا به يخون بلده مصر التي حمته وحفظته، فكانت مكافأتها منه أن يخونها في أصعب أوقاتها وأدق ظروفها، فقام باكتشاف مخاضة في بحر (أشموم طناح) يستطيع الفرسان العبور عليها بخيولهم، فبدلاً من أن يدل المصريين المسلمين عليها، إذا به يدل الصليبيين الفرنسيين أسياده عليها، فماذا كانت النتيجة لهذه الخيانة الخطيرة؟ كانت النتيجة أن الكونت (آرتوا) الصليبي شقيق لويس التاسع قام بالعبور على رأس فرقة كبيرة من الجيش الصليبي الفرنسي في يوم ٥ ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ، فبراير ١٢٥٠م، واشتبك مع المصريين وشغلهم عن تدمير الجسر الذي يحاول لويس التاسع

إقامته في عرض البحر الصغير ليعبر عليه بقية الجيش الصليبي الذي كان معسكر عند بلدة (اليرمون) على البحر الصغير في مواجهة الجيش المصري، فسبب بذلك متاعبًا كثيرة للمصريين. وفرح الصليبي (آرتوا) بما حقق من نصر بسبب المباغتة التي مكنته منها خيانة ذلك الأعرابي، واندفع آرتوا بفرسانه إلى المنصورة فدخلها، وتقدم حتى وصل إلى قصر السلطان.

فانظر كيف تسببت هذه الخيانة من ذلك الأعرابي في تمكين الصليبيين من تدنيس مدينة المنصورة المصرية المسلمة ووصوله إلى قصر سلطان مصر، فلو نجح هذا الصليبي في اقتحام القصر وبه حريم السلطان وتمكن من أسرهم وسبيهم، وأعلن للمصريين أن سلطانكم الصالح أيوب قد مات وهذا هو جثمانه، فماذا كان سيحدث للمصريين وللجيش المصري؟ بالطبع كانت النتيجة ستكون وخيمة وكانت الروح المعنوية للشعب والجيش ستنخفض وتحل الهزيمة بالجيش المصري ويسيطر الصليبيون على مصر ومنها ينطلقون إلى بقية البلاد الإسلامية كما قدمنا وكما كان مخططًا له من قبل الصليبيين وملكهم لويس التاسع، ولكن المولى عز وجل سلم من وقوع هذه الكارثة وحفظ مصر الحبيبة وشعبها المسلم وجيشها الباسل فاندفعت فرقة من الجيش المصري بقيادة البطل المجاهد (الظاهر بيبرس البندقداري) وسحقت الصليبيين وقتلت قائدهم آرتوا، وأبادت منهم ألفا وخمسمائة صليبي، ثم التقى الجيش المصري الإسلامي بالجيش الصليبي بقيادة لويس التاسع ودار بين الجيشين قتال عنيف عبّرت فيه العسكرية والبطولة المصرية عن نفسها بكل فخر واعتزاز.

فأبادت من الصليبيين آلافًا كثيرة، وبالطبع سقط من جيشنا أيضًا شهداء كثيرون ولكن المعركة لم تحسم لصالح أحد الطرفين. وهنا وصل توران شاه بن الصالح أيوب والذي استدعته شجرة الدر من الموصل كما سبق، وصل في هذه الظروف إلى المنصورة تلك المدينة الباسلة وقام ببناء عدة سفن خفيفة وحملها على الجمال إلى بحر المحلة حيث أعاد المصريون تركيبها وقاموا بتعويمها في النيل، وقطع على الصليبيين

الطريق بينهم وبين دمياط واشتدت الضائقة على جيش لويس التاسع فأصبح تائهًا بجيشه لانقطاع المئونة عنه من دمياط، ووقع بجيشه في مصيدة مصرية جعلته يعرف أن المقاتل المسلم يستمد قوته وعزته من الإسلام ، فعرض على المصريين الانسحاب إلى بيت المقدس ولكن توران شاه رفض، فقرر التقهقر بجيشه الصليبي إلى دمياط في أبريل سنة ١٢٥٠م، ولكن الجيش الإسلامي المصري أطبق عليه عند (فارسكور) وألحق به هزيمة ساحقة وسقط فيها لويس التاسع نفسه أسيرًا، وحمل مكبلاً إلى المنصورة، وزج به في ظلام سجن ابن لقمان بالمنصورة وقد افتدى نفسه بدفع مائتي ألف قطعة ذهبية إمبراطورية ومعه أخويه وكبار الأسرى، مع جلاء الصليبيين عن دمياط وعن جميع الأراضي المصرية دون قيد أو شرط، وتم تسليم دمياط للمصريين وإطلاق سراح لويس التاسع وأخويه وكبار الأسرى يوم الجمعة ٢ صفر سنة ٦٤٨هـ الموافق ٦ مايو ١٢٥٠م، وانتهت حملة لويس التاسع بالفشل الذريع وخرج مدحورًا من مصر وفي ركابه مائة جندي هم كل ما تبقى من ثمانين ألف مقاتل صليبي تكونت منهم حملته الصليبية الفرنسية الفاشلة تاركًا عشرة آلاف أسيرًا في مصر ضمانًا لتنفيذ معاهدته مع مصر بدفع ما تبقى من الفدية المقررة.

هذا وقد قام كل من الظاهر بيبرس وقلاوون بجهود كبيرة جدًا وصراعات عنيفة وجهاد كبير ضد من تبقى من الصليبيين في بلاد المسلمين بالشام، فاستولى المصريون بقيادة الظاهر بيبرس في عام ١٢٦٥م، على قيساريه وعيتتاب وحيفا وأرسوف من الصليبيين، وفي عام ١٢٦٦م، هاجموا المدن الصليبية على امتداد الشام واستولوا على صفد بعد حصارها ثلاثة أسابيع ثم انتقلوا إلى دمشق وزحفوا على أرمينية الصغرى وخربوا عاصمتها (سيس)، وفي سنة ١٢٦٨م، شددوا الضغط على إنطاكية حتى سقطت في أيديهم فكان نصرًا مدويًا ارتجت له أنحاء العالم الإسلامي، وفي ١٢٧١م، استولوا على (صافيتا) وحصن الأكراد وعكا والقرين، وفي عام ١٢٧٥م، عادوا إلى غزو أرمينيا الصغرى ،واستولوا على (سيس) و(إياس) .

وفي عام ١٢٨٥م، في عهد قلاوون هجموا على حصن الاسبتارية الصليبية عند الطرف الشمالي لإمارة طرابلس وبعد حصار استمر ثمانية وثمانين يومًا استسلم الفرسان الاسبتارية، ثم اتجهوا إلى (مرقية) التابعة للكونت (بوهمند السابع) أمير طرابلس، وهدد قلاوون بشن الحرب على طرابلس ذاتها إذا لم تسلم له القلعة فاضطر بوهمند إلى تسليمها للمصريين سنة ١٢٨٦م.

وعندئذ اضطرت (مرجريت) الصليبية أميرة صور إلى شراء الصلح من قلاوون قائد المصريين بشروط مهينة، وتعهد (ليو الثالث) ملك أرمينية الصغرى بدفع جزية سنوية للمصريين، ثم استولى المصريون في عام ١٢٨٩، بقيادة قلاوون أيضًا على إمارة طرابلس الصليبية نتيجة اعتدائهم على بعض التجار المسلمين ثم استولوا على قلعة البطرون جنوبي طرابلس بعد أن خربوها تخريبًا شاملاً، ولم يبق للصليبيين ببلاد المسلمين سوى عكا التي انتزعها المصريون منهم بعد موت قلاوون وذلك بقيادة ابنه البطل الأشرف خليل بن قلاوون في ١٨ مايو ١٢٩١م، بعد أن بقيت أسيرة في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة، وسرعان ما تساقطت المدن الساحلية الصليبية القليلة في أيدي المصريين فسقطت صور وصيدا وعثليث وأنطوطوس وبيروت وهدمت جميعًا ما عدا بيروت التي اختارت التسليم للمصريين للنجاة من الهدم والتدمير. هذا وتوجد خيانات أخري كثيرة أعرضنا عن ذكرها لعدم الإطالة[1].

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، للدكتور احمد شلبي.

الباب السابع

عصر المماليك

المماليك فئة من أشجع فئات المسلمين المصريين تم شراؤهم صغاراً من مختلف بلاد آسيا على أيدي سلاطين الدولة الأيوبية وقاموا بتربيتهم تربية إسلامية بحتة وتربية عسكرية خالصة وكونوا منهم جيوشًا قوية، وقد نشأ المماليك منذ صغرهم في أحضان مصر وبعضهم كانوا أطفالاً فلم يعرفوا لهم وطنًا ولا بلدًا غير مصر، ولذلك فهم يعتبرون مصريين بحكم نشأتهم ولم يعرفوا لهم أبا أو أما أو شعبًا غير الشعب المصري، فمثلهم كمثل طفل في أي دولة، سافر به أبواه إلى أمريكا مثلاً ثم ماتا وتركا الطفل فنشأ وتربي وترعرع في أمريكا ولم يعرف من هما والديه فهو يصبح أمريكيًا بحكم النشأة وإن كان أبواه وأمه غير أمريكيين، وبالمثل هؤلاء المماليك نشأوا لا يعرفون لهم وطنًا غير مصر ولا أهل غير الشعب المصري فاعتبروا لذلك مصريين كباقي طوائف الشعب الذين قدموا من بلاد أخرى واستوطنوا في مصر.

ثم تكاثر هؤلاء المماليك واختلطوا بالشعب المصري وتزوجوا منه وأنجبوا حتى أصبحوا من صميم الشعب المصري، ولا يستطيع أحد أن يقول إن قطز أو بيبرس أو قلاوون، أو الأشرف خليل بن قلاوون، أو أقطاي أو شجرة الدر أو قنصوه الغوري أو غيرهم من المماليك كانوا غير مصريين، لأنهم لم يعرفوا لهم وطنا سوى مصر ولا أهلاً سوى الشعب المصري، ونظراً لأن الأيوبيين قد جعلوهم عماد الجيش المصري وكلفوهم بالدفاع عن البلاد فأصبحوا هم المسئولون عن الناحية العسكرية، وتمكنوا بعد انتهاء الحكم الأيوبي في مصر بموت توران شاه ابن الصالح أيوب، تمكن المماليك من حكم البلاد وقيادتها من نصر إلى نصر حتى جاء الحكم العثماني التركي لمصر على يد السلطان سليم الأول بعد هزيمته للجيش المصري بقيادة قنصوه الغوري في

موقعة مرج دابق ثم تطورت الأمور إلى أن تمكن محمد علي من حكم مصر سنة ١٨٠٥م ووجد أن المماليك هم بالنسبة له العقبة الكئود فهم المنافسون له في الحكم وفي السيطرة على الجيش والبلاد فقضى عليهم في مذبحة القلعة الشهيرة في عملية خيانية ليتمكن من حكم البلاد والانفراد بها، وبالطبع أخذ يشوه تاريخهم، مثله كمثل كل من ينتصر على عدوه ويحل محله كما شوه العباسيون على سبيل المثال تاريخ الأمويين، وربما يكون المماليك في أواخر أيامهم قد ارتكبوا العديد من العمليات الإجرامية فهم ليسوا أتقياء تمامًا، بل السلب والنهب كان موجودًا عند البعض منهم، ولكن ذلك لا يبرر تدبير مذبحة جماعية لهم في القلعة كما فعل بهم محمد علي، أما في بداية عهد المماليك فلا أحد ينكر أنهم قدموا لمصر كثيرًا من البطولات والتضحيات والأمجاد واستشهد منهم الآلاف المؤلفة في سبيل الدفاع عن البلاد، فلم يفرق الجيش المصري بين جندي من المماليك وجندي من القاهرة أو الإسكندرية أو الصعيد، فالكل كانوا سواسية يدافعون عن وطنهم وقد حدثت في عهدهم بعض الخيانات منها:

١ـ تآمر شجرة الدر على توران شاه بن الصالح أيوب وقتله

بعد أن قضى توران شاه على الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع بهزيمته الساحقة عند فارسكور كما سبق، أساء إلى المماليك وإلى زوجة أبيه شجرة الدر، فكانت النتيجة أنها تآمرت عليه مع المماليك وتم اغتياله، وكان هو السبب في ذلك فبدلاً من أن يحسن إليها ويشكر لها حسن صنيعها بكتمانها خبر موت أبيه ثم استدعائه لتسلم البلاد له بعد أبيه أساء إليها وإلى المماليك وعاملهم أسوأ معاملة فما كان له جزاء إلا القتل.

٢ - تآمر عز الدين أيبك على فارس الدين أقطاي وقتله

تزوجت شجرة الدر من عز الدين أيبك وصار سلطانًا للبلاد، وكانت شجرة الدر تقصد بهذا الزواج أن تحكم البلاد بصفة شرعية من وراء ستار حيث لا يجوز للبلاد أن تحكمها امرأة في ذلك الوقت، وكان فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية منافسًا خطيرًا له، فاحتال عليه وتآمر عليه حتى قتله، بالرغم من أن أقطاي هذا كان بطلاً شجاعًا وقد أبلى بلاء حسنًا وجاهد جهادًا كبيرًا ضد الصليبيين حتى تم سحقهم وإبادتهم، وساعد عز الدين أيبك مساعدة كبيرة في غزواته وحروبه إلا أنه خانه ودبر اغتياله لينفرد بحكم البلاد.

٣ - شجرة الدر تقتل زوجها عز الدين أيبك

واضح أن المماليك كان كل منهم يحاول الانفراد بالحكم والسلطة وأن يكون هو وحده المسيطر على مقاليد الأمور، وقابضًا على زمام البلاد، فهذه السيدة شجرة الدر، وهي ليست ككل السيدات كان لها طموحها لما قامت به من دور بارز سبق الحديث عنه، أرادت أن تحكم البلاد من وراء ستار بواسطة عز الدين أيبك، وتتخذه سلمًا للسيطرة على عرش البلاد فتزوجته لا لغرض الزواج وإنما تزوجته زواجًا سياسيًا، وكيف ترضى به زوجًا عاديًا مثل كل الأزواج وهي كانت متزوجة بسيده الصالح أيوب؟!

فكان أملها أن تدير شئون البلاد وتصرف أمورها من خلال عز الدين أيبك وتجعله ليس له دور فعلي ولكن عز الدين أيبك كان أيضًا له طموحه فلم يمكّن شجرة الدر من التدخل في شئون الحكم، ولم يكتف بذلك بل حاول الزواج بامرأة أخرى غير شجرة الدر، وأساء التصرف معها، وقيل أنه عزم على قتلها، وأظهر لها أنها إذا كانت هي شرسة متنمرة، فهو أيضًا خطير ماكر، وصار كل منهما يتربص بالآخر، فما كان من هذه المرأة المتنمرة (شجرة الدر) إلا أنها تمكنت من قتل ذلك القائد الماكر (زوجها عز الدين أيبك)، وهو يستحم في الحمام بواسطة بعض خدمها وغلمانها.

٤ ـ الدوائر تدور على شجرة الدر

شربت شجـرة الدر من نفس الكأس التي سقت منه زوجها عـز الدين أيبك بعد أيام قـلائل، فقـامت زوجتـه الأولى (أم ولده علي) بقـتلها أيضًـا بواسطة جواريهـا وخدمها.

٥ ـ الظاهر بيبرس يقتل سيف الدين قطز

إن هذين الرجلين قطز وبيـبرس، يعـتبـران من أعظم الرجال والمجـاهدين الذين أنجبتـهم الأمة الإسلامية فكل منهمـا كان علمًا كبيرًا ونجـمًا مضيئًا من أعـلام الجهاد الإسلامي فـكانا أسدين تحمـلا عبء القتـال والجهـاد والدفاع عن البـلاد الإسلامـية وحمايتهـا بعزيمة حديدية صلبة في فترة من أصعب وأخطر مـا مرت به البلاد المصرية والإسلامـيـة فقاما معـا بدحر المغول والتـتـار في موقعة (عين جـالوت) الخالدة، وقادا الجيش المصري من نصـر إلى نصر حتى تم دحر التتـار وإبادتهم وتخليص العالم من شرهم المستطير، وبعـد مقتل قطز قام بيبرس بقيادة الجيش المصـري وسحق الصليبيين وأذاقهم مـر الهزائم المتـتاليـة والمتلاحقـة وحرر وطهـر من أيديهم الكثيـر من البلاد الإسلامية.

والخيـانة التي ارتكبت هنا، ومـا كان لهـا أن ترتكب، قد تمت باغـتيـال البطل المجاهد سيف الدين قطز قـائد الجيش المصري في موقعـة عين جالوت الخالدة، والتي كان فيها بيـبرس بمثابة أركان الحرب، فقد أبلى كل منهما فيـها أحسن البلاء، وجاهد كل منهما خير الجهاد، ولكن بعد انتهـاء المعركة ودحر التتار، أخذ الشيطان يوقع بين قطز وبيبرس، فـقام الأخير بتدبيـر قتل رفيق كفاحـه البطل المسلم سيف الدين قطز، ونكتفي بهذا من عـهد المماليك لعدم الإطالة ويكفي أننا لم نسـمع عن أحد منهم أنه قد تحـالف مع أعداء البـلاد من التتـار أو الصليبـيين ضد بقيـة المسلمين فهـذا يكفي تاريخهم فخرًا ومجدًا.

الباب الثامن

الاحتلال التركي العثماني للشام ومصر

أتعجب كثيراً كلما أقرأ عن الاحتلال التركي العثماني للشام ومصر، وكيف أن مصر التي قهرت التتار في عين جالوت، والذين لم يهزموا في أي معركة قبل ذلك بل اكتسحوا معظم قارة آسيا كالسيل الجارف، ولم يقف أمامهم وينتصر عليهم سوي جيش مصر في عين جالوت، أول معركة يهزم فيها التتار، فكيف ينهزم المصريون أمام سليم الأول العثماني التركي في (مرج دابق) ثم في (الريدانيه)؟ وهل كانت مصر من الضعف بحيث يهزمها سليم الأول العثماني مرتين؟ وهل كان هذا الرجل من القوة بحيث يتغلب على مصر وهي في أوج قوتها ومجدها، فلم يفلح التتار والصليبيون في أن ينالوا منها قيد أنمله، ثم هل كان هذا الرجل يستطيع أن يهزم (هولاكو) لو قُدّرَ له لقاؤه؟ أو كان في مقدوره أن يهزم لويس التاسع ويأسره بل ويسجنه؟!

كل هذه الأسئلة دارت بخلدي بسبب انتصار هذا الرجل على مصر، كيف ينتصر عليها مرتين متتاليتين في مرج دابق ثم في الريدانية، وقلتُ لنفسي بعد طول تفكير: لابد أنه كانت في المرتين خيانة وضيعة أدت إلى هزيمة مصر وتسببت في احتلال الأتراك العثمانيين لها، وليتهم عملوا على نهضتها ورقيها فكنا في هذه الحالة سنتقبل الأمر وإن كان على مضض، بل إنهم بكل أسف عملوا على فقرها وتخلفها فكان عهدهم أسوأ عهد مرت به البلاد المصرية منذ عهد الرومان، فقد عمل الاثنان الرومان والأتراك كل ما في وسعهم لإذلال شعب مصر وتخلفه لكي يستطيعوا السيطرة عليه لأنهم يعلمون جيداً أنه شعب لا يقبل الضيم ولا يخضع للذل والهوان فمتى أتيحت له القوة سوف يهب ثائراً في وجه كل محتل وكل غاصب سواء كان رومانيًا أو تركيًا أو فرنسيًا أو إنجليزيًا أو غير ذلك، وقد كانت مصر بالنسبة لكل من الرومان والأتراك مجرد مزرعة للقمح والقطن وبقية المحاصيل الأخرى، واعتبروا المصريين مجرد خدم

عندهم لفلاحة الأرض وإنتاج المحاصيل والثمار والخيرات التي ينهبونها ولا يتركون منها للمصريين الذين أنتجوها إلا أقل القليل، والكرباج التركي جاهز بيد الوالي وأذنابه وبطانته لكل فلاح مصري يريد أن يأخذ شيئًا من المحاصيل التي ينتجها سوى ما يتكرم به عليه الوالي التركي وأذنابه فامتصوا دماء الشعب المصري بغير شفقة أو رحمة، يقول د. محمد صبري: «كان الشعب المصري في أتعس حال من الجهل والشقاء فنسى ذكر ماضيه المجيد وما خلف من آثار، وانقطع ما بينه وبين العالم الخارجي، وانصرف إلى العرافة والتنجيم والسحر والخرافات والبطالة وكان كما يقول (شارلي مري): يرزح تحت كلاكل الظلم والاستعباد، لا يأمن أحد على أملاكه إلا السناجق وحملة الشرع وليس لأحد حق في الوراثة بل الحكومة هي المالكة لكل شيء وكانوا لا يسمحون للفلاح إلا بمسكة الرمق وبلغة العيش»[1].

وكان حديث القوم في أسواقهم الخربة وحاناتهم المتهدمة لا يدور إلا حول ما حل بالبلاد من الفتن الداخلية وما يئن تحت أعبائه الأهلون من التعس والشقاء إذ كانت الأفراد تطرح أرضًا فتجلد أو تقتل بدون أية محاكمة، ولا يفلت من ذلك شيخ أو امرأة، وكان الضباط يطوفون الشوارع ليلاً ونهاراً وبرفقتهم زمرة من الأشقياء يحملون حقائب جلد يضعون فيها ما يحزه (أي يقطعه) أولئك الضباط السفاحون من الرؤوس أثناء طوافهم، وكانوا لا يرون أنه من الضروري عدم توقيع عقوبة الإعدام قبل قيام الدليل أو شبه الدليل على إجراء التهم، وإنما يكتفون في إثبات إجرامه بما قد يكون في حيازته من الثراء أو الغنى، لذلك لم ير الأغنياء وسيلة للاحتفاظ بما لديهم من المال إلا التظاهر بالفاقة والمتربة، (ولا يخفي أن الاحتلال التركي البغيض لبلادنا الحبيبة هو الذي مهد للحملة الفرنسية وللاحتلال الإنجليزي) لأنه حرم الشعب من امتلاك أو صناعة أى أسلحة حتى يظل ضعيفًا ليمكن السيطرة عليه، وحرموا البلاد

---

(١) انظر: كتاب تاريخ مصر للدكتور محمد صبري.

من تكوين أي جيش مصري حديث مدرب على الحروب الحديثة، ولو ساعدوا البلاد على امتلاك الأسلحة الحديثة وتكوين جيش مصري مسلح ومدرب لما استطاع الفرنسيون أو الإنجليز تدنيس شبر واحد من أرضنا الحبيبة، وعلى مر التاريخ فإن الهزيمة في أي معركة أو أى حرب كان سببها الخيانة القذرة أو مجموعة من اللئام الذين باعوا وطنهم وبلادهم كما حدث في موقعتي مرج دابق والريدانية كما سنوضح ذلك إن شاء الله تعالى.

أولاً - معركة مرج دابق سنة ١٥١٦م: كانت مصر والشام منذ عهد صلاح الدين الأيوبي دولة واحدة، فقد وحد هذا المجاهد بين الدولتين وجعل منهما دولة واحدة وكسر بها شوكة الصليبيين وظلت هكذا طوال حكم الأيوبيين والمماليك فكان الحال في تلك الأيام بالنسبة لمصر والشام كما هو الحال الآن في مصر بالنسبة للدلتا والصعيد حتى تولى الحكم من المماليك السلطان قنصوه الغوري وكان قد ظهر في نفس الوقت السلطان التركي سليم الأول الذي طمع في حكم الشام ومصر.

ولما وجد أنه لا قبل له بجيش المماليك في مصر والشام وجد أن أسهل طريق له هو استغلال أسلوب الخيانة لصالحه، فماذا فعل؟ عمل على جذب ولاة الشام في صفه لقتال المماليك ووعدهم بالإبقاء عليهم في إماراتهم إذا ما تم له النصر، ودارت الاتصالات السرية بينه وبينهم ثم سار بجيشه لملاقاة جيش الشام ومصر والمماليك بقيادة قنصوة الغوري، وكان بدوره قد أعد العدة لملاقاة العثمانيين الأتراك، والتقى الجمعان في موقعة مرج دابق واحتدم القتال العنيف بينهما وكان النصر في بداية المعركة حليف المصريين، ولكن حدثت المفاجأة الخيانية التي لم يكن قنصوه الغوري يتوقعها، فتسلل ولاة الشام الخونة بجيوشهم وانضموا للعثمانيين الأتراك كما كانوا قد اتفقوا مع سليم الأول فضعف بذلك أمر المصريين والمماليك وهُزموا في المعركة وقتل

السلطان قنصوة الغوري تحت سنابك الخيل ففضل الموت على الاستسلام لعدوه، وهكذا أصبحت الشام في قبضة سليم الأول أي ما يعادل نصف دولة المماليك وغدت الأناضول بأكملها تحت سلطان الأتراك العثمانيين.

ثانيًا - موقعة الريدانية سنة ١٥١٧م: تولي السلطان طومان باي مكان قنصوة الغوري فعرض عليه السلطان سليم الأول أن يعترف بسيادة الأتراك العثمانيين ودفع خراج سنوي لهم فأبى طومان باي ذلك فبرز إليه السلطان سليم الأول وكان الجيش المصري مازال جريحًا من أثر موقعة مرج دابق فانهزم طومان باي على حدود الشام الجنوبية فتتبعه السلطان سليم الأول حتى مدينة القاهرة حيث التقى الفريقان في موقعة الريدانية (العباسية الآن) وهنا برزت خيانة أحد أتباع طومان باي التي كان من نتجيتها وقوع طومان باي أسيرًا في أيدي العثمانيين فارتفعت روحهم المعنوية بينما انخفضت الروح المعنوية للمماليك والمصريين.

فانتصر الأتراك العثمانيون برغم القتال المستميت للماليك والمصريين، وحتى يضمن سيلم الأول عدم مقاومة المصريين والمماليك له من جديد قام بكل نذالة وحقد بإعدام البطل الأسير طومان باي وتعليقه على باب زويلة متخليًا عن كل معاني الشهامة والرجولة فالأسير في قوانين الحروب لا يُقتل بل يكرم ولكن سليم الأول حطم التقاليد المتعارفة والمتفق عليها لأنه علم أن في بقاء طومان باي حيًا اشتعال النار عليه من جديد فالمصريون لم يكونوا ليستسلموا بسهولة إذا ما وجدوا من يلم شعثهم ويقودهم من جديد، وهكذا بسبب الخيانة الدنيئة وقعت مصر والشام تحت سيطرة الأتراك العثمانيين.

الباب التاسع
الخيانة في العصر الحديث
الحملة الفرنسية على مصر

اتفق المؤرخون على أن يبدأ العصر الحديث لمصر بالحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م، وكان هناك سباق محموم بين إنجلترا وفرنسا على امتلاك مصر، وكأنها تركة موروثة لهم.

وقد لعبت الدولتان خاصة فرنسا الدور الأكبر في الحروب الصليبية، كما مر بنا سابقاً أثناء الحديث عن الخيانة في العصور الإسلامية.

ونحن لا نتعرض في حديثنا هذا للأحداث التاريخية، وإنما نتعرض فقط للأحداث الخيانية، فقد استمر مسلسل الحقد الصليبي الفرنسي حيال الإسلام والمسلمين والعرب، بل حيال مصر بالذات منذ الحروب الصليبية ومنذ أسر لويس التاسع وسجنه في دار ابن لقمان بالمنصورة وخروجه ذليلاً مهانًا كسيرًا من مصر بفدية مالية كبيرة، فلم تغفل هذه الدولة الصليبية عن حلمها بامتلاك مصر، وكأنها تركة موروثة لها وكأنها يحق كل الحق بل يجب كل الوجوب وراثتها عن آبائهم وأجدادهم.

فظهر في الأفق نابليون بونابرت، ذلك الثعلب الماكر الذي استغل بُعد المسلمين عن المولى - عَزَّ وجَلَّ - وتركهم لأسس الدين والتوحيد الصحيح، وانغماسهم في البدع واللهو والفجور، فقام بحملته المشهورة على مصر عام ١٧٩٨م، وكانت حالة المسلمين في ذلك الوقت وبالتالي حالة مصر يرثى لها، وفي وضع يندى له الجبين، فكانت لا تعرف لها حاكم محدد، فهل كان الحكام هم الأتراك ممثلين في الوالي التركي العثماني وبطانته، أم كانوا هم المماليك الذين دنسوا في هذه الحقبة أمجاد أسلافهم العظماء كالظاهر بيبرس وقطز وقلاوون والأشرف خليل بن قلاوون وغيرهم

من أماجد وأبطال المماليك الذين قادوا جنود مصر وقهروا بها الصليبيين والتتار في المنصورة وعين جالوت وغيرها. فكانت البلاد في هذه الحقبة المظلمة تموج بعضها في بعض كباقي البلاد العربية والإسلامية، فكانت كقشة في مهب الريح أو كقارب صغير تتلاطمه الأمواج.

أما أهالي البلاد الأصليين من المصريين فكانوا كأنهم هم الأجانب عن هذه البلاد، وكأن الأتراك والمماليك هم أصحاب البلاد الأصليين، فالإقطاعيات الكبيرة المكونة من آلاف الأفدنة الزراعية يتقاسمها الأتراك والمماليك، أما المصريون فعليهم فقط زراعة الأرض وجني المحاصيل وتقديمها للأتراك والمماليك، ولا يجرؤ أي فلاح أن يأخذ شيئًا مما زرعه وجناه من هذه المحاصيل إلا بما يتكرم به عليه أسياده من الأتراك والمماليك، وإلا فالكرباج جاهز ليلهبوا به ظهره في غير رحمة أو شفقة.

أما البعد عن المولى - عَزَّ وجَلَّ - فحدث عنه ولا حرج، فكل ما يعرف عن الدين هو البدع والدجل والشعوذة والمباخر والموالد وزيارة الأضرحة والقبور، وعبادة المشايخ والأولياء المدفونين في هذه الأضرحة وتقديم النذور لهم وطلب الرضا والعفو والصفح والبركة منهم والتبرك بهم باستمرار ولبس الأحجبة المباركة من خدام هؤلاء المقبورين وحفلات الزار . . . إلخ.

فكان الفقر والمرض والجهل والضعف والتخلف هو سمة هؤلاء، بل سمة جميع البلاد العربية في ذلك الوقت، فقد عملت تركيا على إضعاف هذه الدول جميعها وخاصة مصر والعمل على تخلفها بشتى الوسائل، وكذلك العمل على هدم الدين الصحيح وعدم تكوين أي جيش أو قوة مصرية تحمي البلاد من العدو الخارجي، وذلك لتضمن هي السيطرة الكاملة على مصر وشعبها، فلم تُمكن المصريين من صنع أو امتلاك أي أسلحة حديثة للدفاع بها عن نفسها وحفظ كيانها ومكانتها بين الدول.

فانتهز ذلك الثعلب الماكر، بل ذلك الصليبي الحاقد نابليون بونابرت هذه الظروف السائدة، وأتى بأسطوله في عام ١٧٩٨م، ونجح في تدنيس أرض مصر العزيزة الطاهرة لمدة ثلاث سنوات، وعاث بخيوله في الأزهر الشريف وحوَّل منبره إلى إسطبل، وحول ساحته إلى كباريه وإلى حمام شعبي لقضاء الحاجة، وقام الجنود الفرنسيون بتمزيق المصاحف وكتب التفاسير والشريعة والعلم وتحولوا من جنود إلى لصوص وقطاع طرق.

يقول الجبرتي عن ذلك: دخل الجنود الفرنسيون الأزهر الشريف وهم راكبون الخيول وربطوها بقبلته وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ونهبوا متاعهم وشتتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيها وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الخمر وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عَرُّوه، ومن ثيابه أخرجوه[1].

وتفاصيل الحملة الفرنسية يطول المقام بذكرها تاريخيًا، فقد حدثت بين المصريين والفرنسيين معارك هامة مثل معركة الأهرام وإمبابة وشبراخيت ودمنهور، وثورات متعددة مثل ثورة القاهرة الأولى والثانية وفي باقي الأقاليم، كما استشهد الكثير من الأبطال المصريين والمسلمين المجاهدين وعلى رأسهم المجاهد محمد كريم والبطل سليمان الحلبي قاتل كليبر خليفة نابليون وساعِدُه الأيمن، إلى جانب العديد من آلاف الشهداء والمجاهدين المصريين، حتى نجحوا أخيرًا في تطهير أرض الكنانة من الأقدام النجسة والقذرة للجنود الفرنسيين بعد أن دفنوا الكثير من جثثهم في أرض مصر الطاهرة، فقد كالَ لهم المصريون العُزَّل الضربات الموجعة والقاصمة بعد ما رأوا من تقاعس الأتراك الخونة الذين كانوا يحكمون البلاد ويسيطرون عليها باسم الإسلام وامتصوا خيراتها وحرموا الشعب المصري من امتلاك او صنع أي أسلحة حديثة، فلو

---

(١) انظر: كتاب (صلاة الجواسيس) للأستاذ / عادل حمودة.

كان مع المصريين عشر معشار ما كان مع نابليون وجيشه من أسلحة حديثة لأغرقوه بأسطوله في مياه البحر الأبيض المتوسط وجعلوه طعامًا شهيًا لأسماكه وحيتانه قبل أن يصل إلى ميناء الإسكندرية[١] .

ويهمنا هنا سرد الأحداث الخيانية التي وقعت خلال هذه الحملة الصليبية المسعورة، ومن هذه الخيانات ما يلي:

أ ـ خيانة يعقوب فام:

هذا النصراني الذي خان مصريته وخان بلده التي نشأ في أحضانها وتربى من خيراتها وشرب من نيلها وترعرع فوق أرضها وربوعها وتمتع بهوائها وشمسها، قام بخيانة بشعة، فقد قام هذا العميل الذي كان يعرف باسم: «المعلم القبطي يعقوب فام» بالتعاون الشديد مع الفرنسيين، فكان يصحبهم في حملاتهم داخل القطر ويسهل لهم مهامهم ويدلهم على ثغرات وعورات البلاد، يقول عنه الجبرتي: سافر عدد كبير من عساكر الفرنساوية إلى جهة الصعيد بصحبة يعقوب القبطي ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المجبئات، إنها خيانة لا يغفرها له التاريخ، ومما يذكر: أن رجال الدين المسيحي لم يكونوا راضين عن هذا الخائن، وكان بينه وبينهم مشاحنات كثيرة.

ويقول عنه الأستاذ / محمد حسنين هيكل: «إن هذا الخائن يعقوب فام شكل ما عرف باسم (اللواء القبطي) الذي عمل في خدمة الفرنسيين ومنح الفرنسيون يعقوب لقب (جنرال)، وأصبح فيما بعد قائدًا مساعدًا للجنرال الفرنسي دوسيه، على رأس القوة الفرنسية التي اتجهت إلى الصعيد لتقاوم بعض صور النشاط العسكري المصري في الصعيد»[٢] .

---

(١) انظر: تفاصيل ذلك في موسوعة التاريخ الإسلامي د. أحمد شلبي.

(٢) انظر: كتاب خريف الغضب للأستاذ محمد حسنين هيكل.

ويذكر الأستاذ/ محمد حسنين هيكل: أن البطريرك عارض الدور العسكري الذي قام به يعقوب قام ورفاقه، وكانت نتيجة الخيانة طبيعية، فإن الفرنسيين الذين استعانوا بالخائن المذكور كانوا يحتقرونه، وقد كان الخائن يظن أنهم سيكافئونه على خيانته، فانسحب معهم عندما انسحبوا من مصر عام ١٨٠١م ومعه بعض رفاقه من الخونة، وتذكر الرواية أنهم دبروا نهايته وقتلوه على الباخرة التي تقله إلى فرنسا، فإن من يخون بلده لن يتورع عن خيانة عدو بلده، أما باقي الخونة الذين بقوا في مصر فقد باءوا بلعنة الله ثم التاريخ التي ظلت تلاحقهم حتى نهايتهم[(١)].

٢ ـ متطوعوا الأروام وبعض العناصر المسيحية المصرية:

من الظواهر الخيانية الصليبية في هذه الفترة والتي تثبت أن الكفر ملة واحدة: هذه الخيانة البشعة، فقد قام متطوعوا الأروام وبعض العناصر المسيحية المصرية التي تعاونت مع العدو بتكوين فرق عسكرية من أنفسهم تساعد العدو الفرنسي ضد مصر بلدهم ووطنهم وضد أبناء وطنهم من المصريين، وكان يعقوب قام ذلك الخائن على رأس هذه الفرق الخائنة.

٣ ـ مظهر آخر من مظاهر خيانة الأقباط واليهود المصريين:

لم يجد نابليون أفضل من بعض الأقباط للقيام بالمهام الحكومية البغيضة التي كره الفرنسيون والمصريون المسلمون الاضطلاع بها، مثل جمع الضرائب والبوليس، ويبدوا أنهم أحسوا بمزيد من القوة لوجود سلطة غير مسلمة في البلاد، فعوضوا ما فاتهم وعاثوا في البلاد فساداً يحبسون ويضربون ويشددون في الطلب، ثم ما لبثوا هم واليهود أن أحسوا بالتميز، فراحوا يتصرفون بتكبر وخيلاء، فركبوا الخيل وحملوا

---

(١) انظر: المرجع السابق.

السلاح ولم يعودوا يتوارون عن الأنظار، وقلدت نساؤهم نساء الفرنساوية، ولما اشتكى المسلمون لنابليون الذي يدعي الإسلام ووضعوه في اختبار حرج (لمن ينحاز)، فأصدر أوامره لليهود والمسيحيين بأن يعودوا إلى ارتداء عمائمهم السوداء القاتمة وأحزمتهم غير المزركشة، وكتب لكليبر يقول: «مهما فعل المسيحيون فسيظلون دائمًا أصدقاءنا، فيجب أن تمنعهم من أن يشتطوا في وقاحتهم»[1].

٤ ـ خيانة بعض المشايخ وتعاطفهم مع نابليون:

ومنهم الشيخ البكري نقيب الأشراف، فبعد أن نزل الفرنسيون بكل قوتهم لسحق ثورة القاهرة وأطلقوا مدافعهم على الشعب، وبعد ما فعلوه بالأزهر الشريف، ذهب المشايخ إلى نابليون يعتذرون إليه، فقبل اعتذارهم وأمر برفع الرمي عنهم، وكان هذا الاعتذار هو أول خيانة للثورة، أما أفراد الشعب فاستمروا في القتال والمقاومة والتضحية.

أما عن الشيخ البكري نقيب الأشراف: فقد استضاف نابليون في حلقته ليلة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، واستضافه للصلاة والذكر، وفي اليوم التالي أمر بتحويل مسجد الصالحية إلى قلعة عسكرية، وفي بيت الشيخ البكري استمال نابليون ابنته زينب البكري واتخذها عشيقة له، وكان عمرها ١٦ عامًا، وتوصف بأنها كانت النسخة المصرية من (جوزفين) عشيقة نابليون وزوجته، وقد اغمض الشيخ البكري عينيه وسد أذنيه وراح وهو يحتسي البراندي الفرنسي كل ليلة يحلم بأن يصبح (حَمي) نابليون السلطان الأكبر، وعندما اضطر الفرنسيون للجلاء عن مصر عام ١٨٠١م أراد غلاة المؤمنين معاقبة النساء اللاتي عاشرن الكفار، وكانت زينب البكري

---

(١) انظر: (صلاة الجواسيس) للأستاذ عادل حمودة.

إحدى ضحاياهم، وقد عرفت في أيام عزها بفتاة القائد المصرية، ولابد أن صلتها بنابليون كانت قصيرة، وكذلك حياتها.

ويقول الجبرتي: وفي يوم الثلاثاء الرابع والعشرين طُلِبَت ابنة الشيخ البكري وكانت ممن تبرج مع الفرنسيين، فطُلِبَت بواسطة رجال من طرف الوزير، فحضروا إلى دار أمها بالجودرية بعد المغرب، وأحضروا والدها وسألوه عما كانت تفعله فقالت: إني تبت عن ذلك، فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: أقول: إني بريء منها، فكسروا رقبتها[1]. وقد ترددتُ كثيراً في نقل هذه الواقعة لأنها فضيحة وعار، ولكن وجدتُ أنه لا حرج من نقلها لأنها منشورة قبل ذلك، وحتى لا نأمن لأعداء ديننا ونأمنهم على أعراضنا وشرفنا، ونكون قد خالفنا قول المولى ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ (آل عمران: ٧٣).

---

(١) انظر: كتاب (صلاة الجواسيس) للأستاذ عادل حمودة.

الباب العاشر

عهد محمد علي

شاء الله تعالى أن يتولى هذا الرجل حكم مصر لمدة خمسة وأربعين عامًا من ٩ يوليه عام ١٨٠٥م إلى ٢ أغسطس عام ١٨٤٩م، وكان تاجرًا للطباق (الدخان)، ثم تولى الحكم من بعده أبناؤه وأحفاده حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م، فطَرَدَت آخر أحفاده (الملك فاروق).

وحياة هذا الرجل الداهية الطموح كانت مملوءة بالحروب، وقد انتصر في معظمها بقيادة ابنه إبراهيم انتصارات باهرة مدوية، ولكنه هزم في القليل منها هزائم منكرة، ورغم أن انتصاراته كانت أكثر بكثير من هزائمه إلا أن هزائمه القليلة غطت على انتصاراته الكثيرة وأضاعتها وجعلتها جميعها كأنها لم تكن، فياليت لم تكن هناك لمصر على يديه هذه الانتصارات الكثيرة بحيث لم تكن لها أيضًا هذه الهزائم القليلة.

أتدري لماذا؟ لأن انتصاراته الكثيرة المدوية كانت على المسلمين، ابتداءً بالحروب التي عرفت في التاريخ باسم الحروب الوهابية، ثم حروب السودان والشام وتركيا وغيرها من بلاد العرب والمسلمين، أما هزائمه القليلة المنكرة، فكانت ضد دول الكفر الصليبية الأوروبية وعلى رأسها إنجلترا ألد أعداء مصر على مر التاريخ وروسيا والنمسا، فقد تحالفت هذه الدول ضده، وكان لإنجلترا الدور الأكبر في نقل أساطيلها إلى الشام مع القليل من سفن النمسا، ونزلت القوات المتحالفة بيروت واستطاعت أن تحرز انتصارًا كبيرًا على جيوشه بقيادة ابنه إبراهيم باشا، فاضطر إلى الانسحاب إلى مصر، وقُضي على الكثير ممن معه أثناء العودة حيث انقضت عليهم القبائل العربية في الطريق[1].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ص٦٧٤.

وكانت إنجلترا حينئذٍ بالذات حريصة كل الحرص على حرمان محمد علي وبالتالي مصر من ثمرة أي انتصار من انتصاراته الكثيرة، وأما الهزيمة المنكرة التي خسرت فيها مصر ثلاثين ألف رجل وعشرين مليون فرنك في حرب دامت ستة أعوام، فهي هزيمة الأسطول المصري في ميناء (نافارين)، فكانت هذه أفظع وأشهر هزيمة عسكرية لمصر على يدي هذا الرجل، وكما جاء بالمرجع السابق: «جاءت أساطيل الدول المتحالفة تحت قيادة السردار الإنجليزي (كورد نجتون) والأميرال الفرنسي (ريني) والأميرال الروسي (هيدين)، ودخلت بغتة في ٢٠ أكتوبر عام ١٨٢٧م ميناء (نافارين)، حيث كان الأسطول التركي المصري راسيًا، فاشتبكت معه وأرسلت قنابلها عليه بلا إعلان حرب، ودمرت معظم السفن العثمانية والمصرية، ثم أخذت الدول تستعد لإرسال جيش بري لطرد الجيوش التركية المصرية من اليونان، وقد تخابرت إنجلترا وفرنسا بواسطة قناصلهما مع محمد علي في مصر، واتفقت معه في ٢ أغسطس ١٨٢٨م على سحب جيوشه وإخلاء شبه جزيرة المورة، فأذعن للقوة وأمر ابنه إبراهيم بالجلاء.

وكانت أثينا قد سقطت في يونيه ١٨٢٧م في أيدي القوات المصرية والتركية التي سيطرت من قبل على (مسولنجي)، كما سيطر إبراهيم باشا على المورة في عام ١٨٢٥م، وهكذا خضعت اليونان للدولة التركية، وكان الفضل في ذلك للقوات المصرية، وكانت إنجلترا العدو اللدود الحاقد على مصر بالذات، والتي تعتبر كما قلنا من أعداء مصر يومئذٍ، تخافه ويتملكها الرعب من نمو أي قوة مسلحة مصرية، سواء بحرية أو برية، فكانت تبذل أقصى ما في جهدها لتأليب الدول باستمرار على مصر للقضاء على قواتها العسكرية البحرية والبرية، وتقوم هي بالدور الأكبر في ذلك، ولو لم يتحطم الأسطول المصري في (نافارين) لكان حارسًا قويًا للشواطئ المصرية

ومسيطرًا على شرق البحر الأبيض المتوسط، ولما تمكنت هذه الدولة الحاقدة من احتلال مصر عام ١٨٨٢م فيما بعد، بل لما تمكنت من تدنيس شبر واحد من أرض مصر وكانت هذه مقدمة موجزة لابد من توضيحها لنعلم أن الخيانة الصليبية وخاصة الإنجليزية والفرنسية منذ الحروب الصليبية لعبت الدور الأكبر في إضعاف مصر باستمرار، كما تناوبت الخيانتان الفرنسية والإنجليزية في احتلال مصر حتى اتفقا على ضربها في العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م فيما بعد.

أهم الصور الخيانية في عهد محمد علي

١ - مذبحة المماليك في القلعة:

انتهز محمد علي فرصة تجهيز ابنه طوسون على رأس حملة إلى بلاد العرب لحرب الوهابيين، فأقام احتفالاً لتوديعه، دعا إليه الأعيان وفي جملتهم المماليك، وفي يوم الجمعة أول مارس عام ١٨١١م احتشد الناس في القلعة فرحب بهم محمد علي، ولما حانت الساعة تحرك الموكب وكان المماليك في آخره نحو أربعمائة تحوطهم الفرسان والمشاة، فلما بلغ مضيقًا لا يمكن التحرك فيه أغلقت الأبواب وانحصر المماليك بين نيران بنادق الألبانيين وسيوفهم وكان المماليك عزل من السلاح، فأبادوهم عن آخرهم، ثم تعقب من بقي منهم في أطراف البلاد وقضي عليهم، وتعتبر هذه من أفظع أنواع الخيانة، فإن القوم قد ائتمنوه على حياتهم ولبوا دعوته، فخانهم وفتك بهم، فقد أؤتمن وخان، وكان يمكنه القبض عليهم وسجنهم بدل القتل إن كان في الأمر ضرورة لأمن البلاد واستقرارها كما يدعي البعض، بل كان يمكنه استقطابهم والاستفادة من خبرتهم في الحروب.

٢ ـ خيانته بحرب فريق من المسلمين هم الوهابيين والقضاء عليهم:

كان الوهابيون أناس مسلمون يعتنقون مذهب الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب الذي يدعو إلى تطهير الدين من المفاسد والبدع والخزعبلات وعبادة الأضرحة والقبور، ويدعو إلى العودة بالدين إلى التوحيد الصحيح الخالص، وكان لا يعجب تركيا لأنها كانت تريد أن يظل المسلمون في جهلهم وضلالتهم وانغماسهم في البدع والمفاسد والخزعبلات والجهل، فيستمرون بذلك في حالة ضعف شديد وبذلك يمكنها الاستمرار في السيطرة عليهم، فأوعزت إلى محمد علي الذي أطاع أمرها بالقضاء عليهم، وقد كلفت هذه الحروب محمد علي ومصر ثمنًا غاليًا ودماءً غزيرة من الجنود المصريين، وليت ذلك كان في حرب أعداء العرب والمسلمين، وإنما كانت حربًا خائنة على العرب والمسلمين.

٣ ـ مقتل أمير الدولة السعودية عبد الله بن سعود:

بعد نجاح إبراهيم بن محمد علي في الوصول إلى الدرعية قاعدة السعودية، واستلامها وعقد الصلح بعد القضاء على الحركة الوهابية، سافر الأمير عبد الله بن سعود إلى استنبول بعد أن دعاه لزيارته الخليفة العثماني التركي، ولكن ما لبث أن قُتل بمجرد وصوله، وهكذا يكون خليفة المسلمين المزعوم مضرب المثل في الخيانة، فقد أؤتمن وخان، أؤتمن على حياة ضيفه بعد الصلح ثم خانه بالقتل، فإكرام الضيف هو القتل عند أمثال هذا الخليفة.

الباب الحادي عشر

الاحتلال البريطاني لمصر

يزداد نزيف قلب كل مسلم غيور على دينه ووطنه كلما سمع عن ظلم وقع على مصر فهي أغلى من النفس ومن كل شيء، فكيف تدنسها أقدام الإحتلال البريطاني وتسيطر عليها قوته لمدة اثنين وسبعين عامًا أذلت فيها البلاد وافترست فيها مصر افتراس الذئاب اللئيمة الضارية، وكيف تظل مصر ترزح وتئن تحت أقدام الصليبية الإنجليزية؟ وأين كان الشعب المصري في هذه الحقبة السوداء التي تعتبر أحلك حقبة في تاريخ مصر، فكيف تُحطم الصليبيين وتقضي عليهم وتجعل من بلاد الإسلام مقبرة لهم في حطين والمنصورة وغيرها، وكيف تسحق المغول التتار الذين لم يهزموا من قبل في أي معركة أو في أي بلد وتبيدهم في عين جالوت وتطهر الأرض منهم ومن شرهم؟!

وكيف تطرد جيش نابليون مذمومًا مدحوراً بعد أن أذاقته ذل الهوان ومر الهزائم المتوالية حتى تركها ذليلاً خائبًا بعد أن قُبر من جنوده من قُبر ودُفن منهم من دُفن في أرضها الطاهرة وجُرح من بقي ليعود إلى بلاده في ذلة وانكسار وخزي وعار؟! وما كان له أن يرحل إلا بعد أن علم أن أرض مصر ستكون مقبرة لكل صليبي فرنسي دنسها إن لم يرحل عنها في أسرع وقت، ثم تفعل الأفاعيل بفريزر، ذلك الإنجليزي الذي أتى بحملته ليرث الفرنسيين ويأخذ حصته من أرض مصر التي ظنها فريسة سهلة، فإذا بها تفترسه وتفترس حملته وجنوده بواسطة مدينة باسلة واحدة من مدنها الشامخة هي رشيد مدينة الأبطال والمغاوير أبناء مصر أم الأبطال على مر التاريخ[1].

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الاسلامي د./أحمد شلبي.

الخيانة والرشوة المسمومة وغيرها من الأفعال الخبيثة هي التي مكنت الإنجليز من احتلال مصر عام ١٨٨٢م وأن مجموعة من الخونة قد لعبوا الدور الأكبر في تمكين الإنجليز من ذلك، فبدون خيانتهم لم يكن لهؤلاء الإنجليز أن يحتلوا ويدنسوا مصر طيلة هذه المدة، بل كانوا سيُسْحقوا كما سُحق من قبلهم من الغزاة وممن حاولوا الاعتداء على مصر أو الاقتراب منها، حيث رد تهم جميعًا خائبين مدحورين على مر العصور والأزمنة والدهور.

١ـ خيانة الخديوي توفيق: يقول د./ أحمد شلبي إن الخديو توفيق كان خائنًا كالح الوجه، وكان الشعب كله يقف منه موقف العداء؛ لأنه ألقى بنفسه في أحضان أسياده الإنجليز أعداء البلاد وأولياء نعمته، فهم الذين جاءوا به إلى العرش، فتعاون معهم تعاونًا مريبًا وخطيرًا لاحتلال البلاد[1].

٢ـ خيانة الباب العالي (حاكم تركيا): كان الباب العالي التركي يقف ضد أحمد عرابي، وكان الخديوي توفيق (ذلك الذَّنَبْ التركي) يعارض عرابي في جميع مواقفه.

٣ـ خيانة الضباط الشراكسة بالجيش المصري: أكدت الموسوعة السابقة خيانة الضباط الشراكسة والعناصر الأجنبية بالجيش والحكومة، فكانوا يناهضون عرابي ويقفون ضده ويتعاونون مع أسيادهم الإنجليز أعداء البلاد، ومن المعروف أن الشراكسة هم أذناب تركيا.

٤ـ خيانة علي يوسف: كان هذا الخائن المأجور رئيسًا للسواري في المقدمة، وقد لعب الدور الأكبر في هزيمة الجيش المصري وعرابي، فقد أخلى بخيانته الطريق للإنجليز عند التل الكبير، ومكنهم من الانتصار الدنيء على عرابي والجيش المصري البطل، الذي راح ضحية خيانة علي يوسف وهزم ظلمًا.

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي.

٥ ـ خيانة عرب الهنادي وعبد الشهيد بطرس وآخرين: كان هؤلاء من ذوي المصالح ويطمعون في إقطاعات الخديوي ومكافأة أسيادهم الإنجليز، فآزروا وعضدوا القوى المعتدية، وتعاونوا معهم نظير الرشوة المسمومة الدنيئة، فباعوا مصر من أجل الرشوة.

٦ ـ خديعة الصليبي الفرنسي ديليسبس: فقد وعد عرابي وأقنعه بحيدة قناة السويس، وأكد له أنها ستكون على الحياد، وأنه لا يمكن لأي قوة أجنبية أن تخترقها، ولكنه خانه وسمح للإنجليز بالمرور من القناة لضرب عرابي من الخلف ومن العجيب أن ينخدع عرابي بذلك ويأمن لمن لم يتبع دينه مخالفًا قول المولى ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: ﴿ وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ (آل عمران:٧٣).

فإذا جمعنا الخيانة مع الخديعة نكون قد وضحنا أهم سببين لتمكين الإنجليز من احتلال مصر، فقد تم احتلالها عن طريق القناة بعكس ما قاله ديليسبس لعرابي، فإذا أضفنا الرشوة المسمومة إلى ذلك تكون قد اكتملت الحلقة واكتملت المؤامرة لاحتلال مصر بواسطة الإنجليز.

وننتقل إلى كيفية احتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢م . . فقد أرسلت إنجلترا وفرنسا أسطولاً مشتركًا إلى مياه الأسكندرية لحماية الخديوي توفيق الذي سافر من القاهرة إلى الأسكندرية ليكون على مقربة من الأسطول وليكون في حمايته أي في حماية أسطول الأعداء الإنجليز والفرنسيين، ثم انسحب الأسطول الفرنسي وبقى الأسطول الإنجليزي، فخشى عرابي من تدخله، فأخذ يرمم قلاع المدينة ويحصنها. وتتابعت الأحداث كما يلي:

١ ـ طلب قائد الأسطول الإنجليزي من عرابي التوقف عن أعمال الترميم والتحصين ـ وكأنه قد ورث الأسكندرية وقلاعها ـ، ولما لم يستجب له عرابي، ضرب المدينة في ١١ يوليو عام ١٨٨٢م، ثم احتل الجنود الإنجليز المدينة في الثالث عشر من

نفس الشهر، وسارع عرابي لمقاومتهم وأنزل المصريون بهم خسائر فادحة، ولكن الإنجليز استداروا ليدخلوا مصر من الجهة الشرقية عند قناة السويس، ولم يكن ذلك قد غاب عن عرابي، فقد حاول ردم القناة، ولكن ديليسبس طمأنه بأن حيدة القناة لا تسمح للسفن الإنجليزية الحربية بالعبور فيها، وخدع عرابي بهذا الوعد، وركز عرابي نشاطه في الشمال، ولكن الإنجليز استداروا ودخلوا من القناة، وأسرع عرابي لمقابلتهم عند التل الكبير في أول سبتمبر ١٨٨٢، ولكنه هُزم في المعركة هناك ووقع أسيراً. فكيف يقع زعيم البلاد الفعلي عرابي أسيراً في أيدي الأعداء الإنجليز؟!

٢ ـ عضد الخديوي توفيق الإنجليز ودافع عنهم من أول زحفهم، ووصف هذا الزحف بأنه مشروع، وعزل عرابي وعده خائنًا ـ حقًا إذا لم تستح فافعل ما شئت ـ، وكان هذا من أهم أسباب هزيمة المصريين أمام الإنجليز واحتلال مصر.

٣ ـ وفي أثناء الصراع انضمت الدولة العلية (أي تركيا) إلى الخديوي وإلى الإنجليز في هذا العدوان ضد عرابي وضد الشعب المصري.

وكانت هذه الدولة العلية في ذلك الوقت مازالت تحكم مصر والدول العربية باسم الإسلام، ولم يكن العرب والمسلمون قد فاقوا من سباتهم ونومهم العميق، ولم يكونوا قد قطعوا علاقاتهم بهذه الدولة المشئومة التي تسببت أولاً وأخيراً في احتلال النصارى من الإنجليز والفرنسيين للدول العربية؛ لأنها سيطرت على هذه الدول باسم الإسلام، ولم تمكنها من صناعة أو امتلاك الأسلحة الحديثة التي يمكن بها أن تقاوم الإنجليز والفرنسيين واليهود والإيطاليين وغيرهم ممن يريد استعمار البلاد، ولتظل الدول العربية دائمًا في حالة ضعف مستمر، فيمكنها السيطرة عليها في أي وقت[1].

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الاسلامي للدكتور احمد شلبي.

وباختصار: فقد كانت كل القوى تقف ضد عرابي وضد مصر، فكان الباب العالي (حاكم تركيا والمسلمين) يقف ضد عرابي وضد مصر، وكان الخديوي توفيق الذي هو ذنب من أذناب تركيا يعارض عرابي لأنه عرف أن النهضة الوطنية سيكون فيها القضاء عليه وعلى عرشه الدخيل على البلاد، وكان الشراكسة الذين هم عناصر تركية بالجيش والحكومة يناهضونه، أما الرشوة اللعينة المسمومة، فكانت تنساب في الظلام فتقتل بسمومها بعض الضباط أمثال الخائن علي يوسف الذي أخلى الطريق للإنجليز عند التل الكبير، وكذلك عرب الهنادي وعبد الشهيد بطرس وآخرين من الخونة الذين باعوا بلادهم وضمائرهم نظير الرشوة الإنجليزية.

■ يقول الدكتور/ محمد صبري عن ذلك:

١ - في يوم ١١ يونية ١٨٨٢م، حدثت معركة الأسكندرية الشهيرة بين المصريين والأجانب، قتل فيها ١٤٠ مائة وأربعون مصريًا، ولم يقتل من الأجانب سوى ٥٧ سبعة وخمسون، لأنهم كانوا مسلحين بالأسلحة النارية التي لم يكن يمتلكها المصريون، ويقال أن هذه الحركة كانت مدبرة للقضاء على نفوذ عرابي ولتدبير الاحتلال بعناية وإرادة الخديوي الخائن توفيق والأوروبيين.

٢ - غادر الخديوي توفيق القاهرة إلى الأسكندرية في ١٣ يونية ١٨٨٢م، ولماذا؟ ليكون على مقربة من الأسطول الإنجليزي.

٣ - بدأ قائد الأسطول الإنجليزي المسمى بالأميرال (سيمور) بإطلاق قنابله على الأسكندرية في صبيحة ١١ يوليو عام ١٨٨٢م بحجة أن الاستعداد في الحصون كان قائمًا على قدم وساق، وكأنه كان يريد أن تفتح له الحصون وتفرش له بالحرير والديباج وتزين له بالورود وترش له بالعطور حتى ينزل إليها بجنوده ليحتلها دون مقاومة - وكأنه ورثها عن أبيه وجده -، فيالها من عنجهية وغطرسة صليبية حاقدة ساعدتها الظروف السوداء في تلك الحقبة القاتمة والحالكة من تاريخ بلادنا[١].

(١) انظر: كتاب (تاريخ مصر) للدكتور محمد صبري.

٤ـ في ١٥ يوليو طُلب من الباب العالي الخائن حاكم تركيا ومصر وجميع الدول العربية باسم الإسلام، إرسال جيش إلى مصر لمساعدة المصريين الذين كان يحكمهم ضمن العالم العربي باسم الخلافة العثمانية الإسلامية، ولكنه امتنع وترك المصريين وحدهم ليجابهوا الإنجليز.

٥ـ استمرت الحروب بين المصريين والإنجليز شهرين تقريبًا، وانتهت بهزيمة التل الكبير في ١٣ سبتمبر ١٨٨٢م، ودخول الجيش الإنجليزي القاهرة برئاسة الصليبي الإنجليزي المسمى (ولسلي) في ١٥ سبتمبر عام ١٨٨٢م، فيالها من كارثة ويالها من فجيعة مالها من زوال.

■ وتتلخص أسباب الهزيمة فيما يلي:

أولاً ـ انتشار الخيانة في الجيش؛ بفعل الحزب الخائن الشركسي وأعوانه ـ وهم من الأذناب التركية ـ، وأعوانهم من بعض المصريين الخونة الذين كانوا يبذرون الأموال والرشاوي لمساعدة أسيادهم الإنجليز، وممن اشتهر بالخيانة من الضباط ذلك الخائن علي يوسف الذي خدع عرابي جهة القناة أولاً، وجهة التل الكبير ثانيًا، حيث كان رئيسًا للسواري في المقدمة، ففتح الطريق للجيش الإنجليزي ومكنه من مباغتة الجيش المصري، وهذا يجعل المرء يشك في أن هذا الحقير الذي لعب الدور الأكبر في هزيمة الجيش المصري واحتلال البلاد، أنه لقيط من أب إنجليزي، وإلا فلماذا يفعل كل ذلك من أجل أسياده الإنجليز وضد بلده ووطنه؟!

ثانيًا ـ اغترار عرابي بوعود الخائن ديليسبس المتكررة؛ بعدم تعرض الإنجليز للقناة، فأهمل تحصينها، رغمًا من الرأي السائد في رئاسة الجيش بضرورة تحصينها، فلما رأى الإنجليز صعوبة الهجوم من كفر الدوار، حيث أنشأ المهندس المخلص/ محمود باشا فهمي استحكامات منيعة، قرروا احتلال القناة وإنزال جنودهم في الإسماعيلية، وقد نجحوا في خطتهم؛ لأن عرابي ترك منطقة القناة عوراء دون تحصين.

ثالثًا - نكث السلطان الخائن التركي عهوده، وطعنه الثورة في ظهرها بعد أن كان أول مشجع لها؛ وذلك أن اللورد (دوفرين) مندوب إنجلترا في الأستانة دفعه إلى عصيان عرابي في منشور تم توزيعه بالآلاف في صفوف الجيش المصري بسبب العوامل الخيانية المتعددة والتي ذكرناها من قبل[١].

وقبل أن ننهي هذا الموضوع لنا أن نتساءل ولنا أن نسأل المشككين في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م: هل لو لم تقم هذه الثورة المباركة، ويحكم البلاد أبناؤها المصريون لأول مرة منذ عهد الفراعنة، وهل لو ظلت البلاد يتوارثها الحكام الأجانب، فبعد الملك فؤاد يأتي الملك فاروق، وبعد الملك فاروق يأتي ولي العهد الأمير الفلاني، وظلت البلاد يحكمها أناس غير مصريين طامعين في خيراتها، هل كان سيتحقق الجلاء ويرحل الإنجليز عن بلادنا، ويتم تأميم قناة السويس وتعود إلى المصريين أصحابها ؟ الإجابة ستكون بالنفي طبعًا وفي الواقع لا يخلص في خدمة البلاد إلا أبناؤها وصدق المثل القائل (ما حك جلدك مثل ظفرك) فكفى هجومًا على ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

---

(١) انظر: المرجع السابق.

الباب الثاني عشر

ضياع فلسطين

أتعجب كثيراً كيف أن هذه الشرذمة من اليهود الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله تعالى، كيف ينتصرون على هذه الملايين من العرب والمسلمين، وينجحون في انتزاع قلب الوطن العربي الإسلامي، هذا القطر العربي المسلم الشقيق فلسطين من أيديهم، ويقيمون فيه الدولة اليهودية اللقيطة، دولة الحقد والغدر والكراهية العمياء الموروثة عن آبائهم وأجدادهم لكل من هو عربي ومسلم، بل لكل من هو غير يهودي؟

وأين كانت هذه الملايين العربية المسلمة الذين لو أمسك كل منهم بقطعة من الحجر وقذف بها هذه العصابة اليهودية لأبادوها من الوجود، ولكنهم أصبحوا كما أخبر الرسول ﷺ: «لكنكم غثاء كغثاء السيل»[1]، ولكني بعد أن قرأت ما قرأت من أحداث خيانية رهيبة زال عجبي وتوقف، ولكن لم يتوقف نزيف الدم الذي ينزفه قلبي بسبب ذلك.

■ بعض العرب في فلسطين خانوا بلدهم ببيعهم أراضيهم لليهود، وتعاونهم معهم قبل الاحتلال وتسببوا بذلك في ضياع فلسطين.

ولعل القارئ يتعجب من ذلك، ولكنه إذا قرأ كتاب (هذه هي الصهيونية) الذي كتبه اليهودي (إسرائيل كوهين)، والذي كتب مقدمته الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فسوف يزول عجبه، فقد جاء في هذا الكتاب ما يلي: «... وعلى الرغم

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود في الملاحم ٥، وأحمد ٥/٢٧٨.

من الثراء الفاحش الذي أصابه العرب (يقصد الفلسطينيين) من بيع أراضيهم لليهود، وما كان يجنيه ملاك البيوت من إيجارها لليهود، وعلى الرغم من ألوف العرب الذين كانوا يعملون في المستعمرات اليهودية، والمئات الذين كانوا يعملون في المصانع اليهودية .. ظل ساسة العرب على عدائهم لليهود».

كما جاء أيضًا ما يلي: «... كما أثري أصحاب الأراضي الزراعية وأراضي البناء في المدن من بيعها لليهود، علاوة على ما كان يجنيه العرب من بيع الفائض من محاصيلهم واستخدام كثير من الأيدي العاملة العربية (يقصد الفلسطينية) في المستعمرات الزراعية والمصانع اليهودية ...»[1].

ولم يكن هناك عرب سوى الفلسطينيين، فالذي يبيع أرضه كالذي يبيع شرفه وعرضه، خاصة إذا باعها لأعداء دينه ووطنه فيرتكب بذلك خيانة عظمى في حق بلده ووطنه، ولا يجوز لأي عاقل أن يبيع أرضه إلا لأحد أبناء دينه ووطنه على أن يشتري بثمنها أرضًا أخرى في مكان أفضل.

فاليهود قدموا الطعم الذي ابتلعه بعض الفلسطينيين الذين أضاعوا وطنهم وجرُّوا على أنفسهم وعلى بقية البلاد العربية وخاصة مصر شرًا مستطيرًا إلى يومنا هذا، ودفع بقية العرب خاصة مصر الثمن باهظًا من دمائهم وأموالهم، وضاع من مصر زهرة شبابها وخيرة أبطالها وعانت إلى يومنا هذا من الديون والجوع والفقر والفظائع التي لا حصر لها بسبب خيانة بعض هؤلاء الفلسطينيين الذين باعوا أرضهم، وبالتالي باعوا شرفهم وعرضهم لأعدائهم اليهود.

وقد جاء في كتاب (مذكرات في السياسة المصرية) الجزء الثالث للدكتور/ محمد حسين هيكل أثناء الحديث عن حرب فلسطين عام ١٩٤٨م ما يلي: «.. وبدأ الناس

---

(١) انظر: هذه هي الصهيونية لاسرائيل كوهين ص١٤٤.

يسمعون بعد ذلك عن تخلي بعض الجيوش العربية عن البعض الآخر، وعن تجسس بعض العرب الفلسطينيين لحساب اليهود»[١].

أتعرض هنا فقط لبعض الأحداث الخيانية العربية باختصار شديد والتي تسببت بل ولعبت الدور الأكبر في ضياع فلسطين العربية المسلمة وإقامة الدولة اليهودية اللقيطة على أنقاضها، كما تسببت في إضعاف العرب وجرت على مصر خاصة الكثير من الحروب والويلات والمصائب والتي مازالت تعاني منها حتى اليوم، ولا يعلم أحد إلا الله تعالى متى ستنتهي معاناتها منها. ومن أهم الأحداث الخيانية ما يلي:

أولاً ـ الملك عبد الله الأول ملك الأردن: فَجَّرَ الصراع الكامن في الصف العربي مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني بإعلانه في ٢٠ سبتمبر عام ١٩٤٨م عن حكومة عموم فلسطين في غزة نكاية في الملك عبد الله ملك الأردن، ولقطع الطريق عليه في ضم فلسطين إلى ملكه، وقد سماها عموم فلسطين ليؤكد أنها تشمل الضفة الغربية التي تحتلها الأردن بالإضافة إلى غزة التي تحتلها مصر، فأسرع الملك عبد الله بضم الضفة الغربية إلى شرق الأردن لتوسيع رقعة ملكه الصغير من ناحية وليتمكن العرب ـ على حد زعمه ـ من مواجهة إسرائيل وهم في حالة أفضل مما لو أقيمت دولة فلسطينية صغيرة بين الأردن وإسرائيل.

ثانياً ـ موقف عبد الله التل قائد القوات الأردنية بالقدس: في يوم ١٨ نوفمبر عام ١٩٤٨م اجتمع موشي ديان بقائد القوات الأردنية بالقدس عبد الله التل ليتفق معه على وقف إطلاق النار بينهما، ثم تكررت الاجتماعات الخيانية بينهما يوم ١١ ديسمبر ١٩٤٨م، وانضم إليها بعض الساسة من الجانبين الأردني والإسرائيلي أيام ١٣ و١٤ و٣٠ ديسمبر ١٩٤٨م، ثم ١٥ يناير ١٩٤٩م[٢].

---

(١) انظر: مذكرات في السياسة المصرية ٣/ ٤٩.

(٢) انظر: كتاب (الحرب في أرض الإسلام) للواء حسن البدري.

والأدهى والأمر من ذلك: أن الملك عبد الله الأول نفسه اجتمع بالساسة والقادة العسكرين الإسرائيلين ليلة ١٦/١٧ يناير ١٩٤٩م لنفس الغرض، بل ولأبعد منه، وأين اجتمع بهم؟ اجتمع بهم في قصره بالشونة، ومـاذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة ازدياد الخرق في الصف العربي واتساعه اتساعًا كبيرًا، ومن العجيب والغريب: أن الرئيس السادات حينما بدأ في التفاوض مع الإسرائيليين علانية وليس من وراء ستار أثناء مفاوضات السلام التي أجراها معهم، كان الأردنيون أول من هاجموا السادات وهاجموا مصر والشعب المصري واتهموا السادات ومصر بالخيانة والعمالة والتخلي والتخاذل عن القضية الفلسطينية، وملؤا الدنيا صراخًا وضجيجًا، وقالوا: إن المصريين هم دعاة الاستسلام، ونسوا أن عدد الذين استشهدوا من الشعب المصري بسبب قضية فلسطين يفوق عدد جميع الشهداء من الدول العربية مجتمعة بآلاف المرات، ونسوا أنه لا يكاد يوجد بيت واحد من بيوت الشعب المصري وعائلاته إلا وقد استشهد منه شهيد على الأقل، بخلاف الذين أصيبوا بعاهات مستديمة وإصابات خطيرة كان الموت أهون منها.

وكان الأردنيون مثل باقي العرب يريدون أن يتفاوض الرئيس السادات سرًا ومن وراء الكواليس مع اليهود كما فعل الملك عبد الله ملك الأردن وبقية الساسة العسكرين الأردنيين، أما أن يتفاوض السادات علانية وعلى مرأى ومسمع من الجميع، فهذا في شرعهم وعرفهم يعتبر خيانة وتخاذل ولا يجوز إطلاقًا!!

ثالثًا ـ وتستمر الأخطاء السياسية الأردنية في مسلسلها الطبيعي: فتتملص الأردن من بذل أي جهد أو أي معاونة للقوات المصرية المُحَاصرة في الفالوجا، ثم تتوالى الأنباء بخروج الجبهة الأردنية من الحرب، بل سرعان ما تحققت هذه الأنباء بخروج الجبهة الأردنية من الحرب فعلاً، وكذلك خروجها عن إجماع الصف العربي حيال قضية فلسطين وقيامها بتعديل دستورها يوم ١٣ ديسمبر ١٩٤٨م لتضم ما بقي

عربيًا من الضفة الغربية، وتصبح مسماة بالمملكة الأردنية الهاشمية مما فَجَّرَ الغضب في سائر الدول العربية التي أعلنت رفضها لقرار الضم الأردني الذي يجافي نصًا وروحًا ما سبق الاتفاق عليه بينهم قبل إرسال جيوشهم النظامية إلى فلسطين[1]، وكان الملك عبدالله الأول ملك الأردن، ضمه للضفة الغربية الفلسطينية ضارًا بالقضية العربية في حاضرها ومستقبلها حيث زاد الخرق اتساعًا بين العرب، بينما الحرب تسير بهم حثيثًا نحو نكبة محققة.

رابعًا ـ مزيد من السلبيات الأردنية: في ٢٧ نوفمبر ١٩٤٨م أرسل قائد القوات العراقية ببيت لحم إلى الفريق صالح صائب الجبوري رئيس أركان حرب الجيش العراقي يخطره بقبول حاكم القدس العسكري عقد الهدنة في منطقته مع إسرائيل اعتبارًا من الساعة ٨٠٠ يوم ٢٩ نوفمبر، ثم تأكد الجبوري يوم ٤ ديسمبر من أن الجبهة الأردنية بأجمعها قد خرجت من الحرب وتركت جيش العراق وحيدًا في وسط فلسطين دون أن تعني حتى بإخطاره عن عزمها على ذلك حتى لا تتركه عرضة بلا إنذار مسبق لكل ثقل القوات الإسرائيلية بهذه الجبهة المشتركة، خاصة وأن الجبهة السورية قد وافقت أيضًا على وقف إطلاق النار لمدة محددة.

خامسًا ـ حلقة أخرى من سلسلة السلبيات الأردنية: صباح يوم ٧ مارس ١٩٤٩م وصلت طلائع القوات الإسرائيلية إلى منطقة (عين ويبه)، قبل هبوط الظلام مباشرة، وبعد أن أمضت الليل فيها استأنفت التحرك جنوبًا حتى وصلت يوم ٩ مارس على سفوح جبال قطورة الذي يبعد نحو ٦٠ كم من قمة الخليج، وعندما علمت القيادة الأردنية بذلك أصدرت تعليماتها إلى عناصر بالنقب أن تترك مواقعها لتتفادى الاصطدام بمغرزتي النقب والجولاني من قوات العدو الإسرائيلي، وبهذا لم يقع قتال يذكر ليقوم دليلاً على خرق إسرائيل للهدنة، إلا أنه ذرا للرماد في العيون، أرسلت

---

(١) انظر: المرجع السابق.

الحكومة الأردنية احتجاجًا على ما ترتكبه القوات الإسرائيلية في النقب من أعمال عدائية، وكان هذا الاحتجاج مكشوفًا بالدرجة التي جعلت الدكتور (بانش) يهمله تمامًا ولا يتخذ أية إجراءات فعالة لردع القوات الإسرائيلية المعتدية، مكتفيًا بتوجيه صفعة قوية إلى حكومة الأردن بسؤالها: إذا كانت صادقة في احتجاجها، فلماذا لم توقف الزحف أو تشتبك معه؟

وشهد موشي ديان

نترك الآن سلبيات الأردن الموجودة في كتاب اللواء حسن البدري[1] وننتقل إلى مؤلف آخر هو موشي ديان يقول عن خيانة الأردن المتمثلة في:

(أ) عبد الله التل قائد القوات الأردنية بالقدس خلال الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين.

(ب) ملك الأردن في ذلك الوقت.

ـ ثم نترك لكم الحكم والتعليق على هذه الأخطاء الفظيعة التي لا يصدقها عقل.

(أ) بالنسبة لعبد الله التل وخيانته:

فقد جاء ما يلي على لسان موشي ديان: «... ولم تسجل الأردن اشتباكات جديدة بينما استمرت الاشتباكات على سائر الجبهات، وفي ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٩م وقّعتُ باسم إسرائيل وقفًا لإطلاق النار كاملاً وفعليًا، ووقّع عبد الله التل الاتفاقية عن القوات الأردنية وكافة القوات العربية الأخرى في منطقة القدس، أي القوات المصرية والقوات غير النظامية، والمحادثات التي أدت إلى الاتفاقية أتاحت لي فرصة التعرف على عبد الله التل، فقد كان شابًا نحيلاً مستحيًا نقي البشرة، ينظر إلى محدثه في عينيه مباشرة أمينًا على نفسه منفتح الابتسامة[2]».

---

(١) انظر: كتابه الحرب في أرض الإسلام.

(٢) انظر: كتاب الفاشية لموشي ديان ترجمة جوزيف صغير الباب التاسع (صديقي العدو).

وأيام غزو إسرائيل ١٩٤٨م قاد وهو برتبة مايجور سرية جنود، وفي إحدى زياراته للقدس لنشوب إحدى المعارك الأولى تعرف عليه الملك عبد الله الأول ورفعه إلى رتبة كولونيل ميداني، مع أن التل لم يكن قد حصل على رتبة مايجور إلا منذ شهرين، وبعد شهر عين قائدًا للفوج السادس ثم قائدًا لقطاع القدس، وفي نطاق المباحثات تعبتُ من وساطة ممثل الأمم المتحدة وسئمتُ من تدخلاته وتعقيداته، فتوجهت إلى عبد الله التل وعرضت عليه أن نجتمع على حدة في غرفة مجاورة فوافق، وخرجنا معًا وسط اندهاش الجميع، وبسرعة مدهشة توصلنا إلى حل جميع نقاط الخلاف، وكانت المفاجأة أن التل قد وافق على مد خط تليفوني مباشر بيننا بدون المرور عبر سنترال الأمم المتحدة، وخط التليفون الذي ربط بيتي بمقر قيادة عبد الله التل كان (الخط الأحمر) الأول والوحيد في الشرق الأوسط، وقد أثبت فائدته القصوى، فعند حدوث إطلاق نار كان اتصال تليفوني بيننا كافيًا لتسوية الحادث بسرعة، غير أن الخط أثبت فعاليته بصورة خاصة لعقد لقاءات سرية بيني وبينه في أول الأمر، ثم مع الملك عبد الله نفسه، وكانت هذه اللقاءات تتم في قلب الأردن، كما كان الخط ذا فائدة لإطلاق الذين وقعوا منا أسرى في الحرب.

وكان التل حينما ينقلني إلى مليكه عبد الله يضطر أن يقطع بنا الخطوط العربية بسيارته من غير أن ينتبه الجيش العربي للأمر، وكنا نغطي الرأس بكوفية رجال الجيش العربي ذات المربعات الحمراء التي كانت تغطي الوجه جزئيًا، وعلى كل حال كانت المجازفة التي يتعرض لها التل نفسه كبيرة، فقد حدث مرة أن مد أحد الحراس الأردنيين رأسه إلى داخل السيارة فاصفر وجه عبد الله التل الذي بدا لي وكأن الجندي قد تبينه، وفيما راح يبتعد بسيارته عند نقطة التفتيش قال لي: «.. لو عرفونا لقتلونا أولاً ثم راحوا يطرحون الأسئلة علينا».

وما كاد يقوم شيء من التوافق بيننا حتى أثرت مسألة أسرى الحرب، فكان يتجمع في معسكر المفرق الأردني ٦٧٠ إسرائيليًا أسيرًا منهم ٨٥ امرأة، وأكثرهم من

دارسي التلمود المتقدمين في السن، وزوجاتهم وأولادهم، فطلبت من التل إطلاقهم، فأجاب إلى أنه بحاجة إلى أن يفكر في الأمر، وبعد أيام أجابني بالموافقة، وقال إن الأردن بعمله هذا يتخلى عن ورقة لها فائدة كبيرة في المفاوضات القادمة، وفعلاً أطلق الأسرى قبل شهر من محادثات الهدنة في رودس، لكنه اتخذ قراره بدوافع إنسانية، وكان قد حصل على موافقة الملك عبد الله الأول، وقال إنه أوضح للملك خطورة ترك الأسرى فترة طويلة مع حراسهم العرب، فلو وقع للأسرى أي حادث لفقد الملك ماء وجهه أمام الرأي العام العالمي.

وفيما كنا نناقش تفاصيل الأمور الفنية المتعلقة بأسرى الحرب سألت التل عن أي مبالغ مالية تتعلق بالموضوع لندفعها، فقال إنه سيرسل الفاتورة بعد الانتهاء، وفعلاً أرسل الفاتورة ولكن كان بها رقمًا هزيلاً عبارة عن أجر سائقي سيارة الأتوبيس الأردنيين الذين نقلوا الأسرى من معسكر المغرق الأردني إلى القدس فشكرته بحرارة.

وبالمقابل، طلب مني طلبًا خاصًا، فماذا تتوقع أن يكون هذا الطلب الخاص؟ هو إقناع مدير جريدة (باستايين بوست) التي أصبحت فيما بعد (جروزالم بوست) الإسرائيلية بمهاجمته، أي بمهاجمة عبد الله التل من وقت لآخر بسبب عدائه المستميت لإسرائيل، أي ليظن العرب أنه شديد العداء لإسرائيل، فقد كان بحاجة إلى مثل هذا الهجوم من هذه الجريدة الإسرائيلية للمحافظة على سمعته في الأردن، وليظن العرب أنه يكره الإسرائيلين . . .»[1].

وبعد ابتعادهما عن بعض كان التل يرسل تحياته إلى موشي ديان عن طريق بعض الضباط وعن طريق أحد رجال الدين الكاثوليك الأمريكيين الذي جاءه في القدس يحمل تحيات وتمنيات التل، وأعرب رجل الدين هذا عن رغبته واستعداده

(١) انظر: المرجع السابق.

لتدبير اللقاء السري بينهما، ورسائل ومبادرات التل وتحياته تستحق الذكر لكونها آتية من ضابط عربي إلى ضابط إسرائيلي، وذلك كما قال موشي ديان، وكما قلنا: في بداية هذا الموضوع.

(ب) ملك الأردن:

كتب موشي ديان في نفس الكتاب[1] بعنوان (لقاء مع ملك عربي) عن هذا الرجل (عبد الله الأول ملك الأردن) في ذلك الوقت، جاء على لسان موشي ديان ما يلي: «بعد التوقيع على وقف إطلاق النار الكامل والفعلي مع الأردن أبلغني عبد الله التل أن الملك عبد الله أجاز له البدء بمحادثات معنا حول جميع المسائل الملحقة بقطاع القدس، وفي عدادها بيت لحم والرملة واللطرون، ومقترحاته التي كانت تعكس بدون شك رأي الملك تناولت أساسًا تبادل بعض الأراضي والرقابة المشتركة، وفي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨م عرض عبد الله التل أن يعيد الأردن إلى إسرائيل الحي اليهودي في مدينة القدس القديمة مقابل حي القطمون العربي في المدينة الجديدة، أما فيما يتعلق بطريق اللطرون بين القدس وتل أبيب فقد اقترح فتحها أمام الفريقين، ولكن بن جوريون رفض الاقتراحين، فلم يكن مستعداً للتنازل عن حي القطمون، فهو يريد الحي اليهودي في مدينة القدس القديمة بلا مقابل.

وقد أبلغنا التل بردنا الحاسم، استدادًا فقط للتحادث من أجل اتفاقية سلام، وبعد أسبوع اتصل بي التل يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٤٨ وأبلغني أنه اجتمع بالملك عبد الله وقد كلفه الملك بإعداد مشروع اتفاقية سلام معنا، على أن يحضر المباحثات مع التل طبيب الملك الشخصي، وأن الملك سيطرح المشروع على مجلس وزرائه للموافقة، وفي حالة رفض الوزراء للمشروع سيقوم بتغييرهم بناء على السلطات التي يتمتع بها،

(١) نقصد كتاب (الفاشية) مذكرات موشي ديان.

واقترح التل أن نباشر المحادثات في المساء في أحد مباني القدس، وتعقد المباحثات مرة في مبني عربي ومرة في مبني إسرائيلي، واقترح التل عقد الاجتماع الثاني مساء اليوم التالي في القطاع الأردني، وكان علينا أن نأتي بملابس مدنية[1].

وعشية اجتماع ١٣ يناير ١٩٤٩م اتصل بي التل يبلغني أن الملك يدعونا إلى لقائه في قصر الشونة ليعطينا شخصيًا الدليل على رغبته الصادقة في السلام، فكان لنا لقاءان مع الملك عبد الله: واحد في ١٦ يناير ١٩٤٩م والثاني بعده بأسبوعين بحضوري وحضور (إلياس ساسون) من وزارة الخارجية الإسرائيلية عن الجانب الإسرائيلي، وفي اللقاء الأول اشترك الملك عبد الله وعبد الله التل وطبيب الملك الخاص وانضم إليهم رئيس وزراء الأردن توفيق أبو الهدى، وقد نقلنا التل شخصيًا بسيارته إلى القصر الذي بلغناه بعد ساعة رغم السرعة التي كانت السيارة تنطلق بها، وكانت القوات المصرية تقاتل وحدها في المعركة الحاسمة التي جرت في الأسبوع الأخير من عام ١٩٤٨م والأسبوع الأول من عام ١٩٤٩م، وانتهت بهزيمة القوات المصرية، وكان لمباحثات ١٦ و ٣٠ يناير ١٩٤٩م مع الملك عبد الله طابع استكشافي غير رسمي، فلم تؤد إلى نتائج ملموسة، وقال الملك أنه بالرغم من الهوة السحيقة التي تفصل بيننا ينبغي الوصول إلى اتفاق ولابد من إجراء المباحثات علنًا لا سرًا في القدس على أن تفتح المحادثات بحفلة رسمية فيقوم الملك بقصر الشونة بدور صاحب الدعوى.

وقدم الملك مقترحات حول تشكيل وفدنا بحيث يضم وزير الخارجية (موشه شاريت) و(شارون) وأنا، وأوضح أن عليه أن يستشير الإنجليز لأن الأردن برغم تحريره من الانتداب البريطاني عام ١٩٤٦م إلا أنه أي الملك عبد الله نفسه كان ما يزال

---

(١) انظر: كتاب (الفاشية لموشى ديان الباب التاسع (صديقي العدو).

شخصيًا تحت الانتداب البريطاني بموجب اتفاقية الدفاع المشترك والمساعدة المتبادلة بين بريطانيا والأردن، وقال إنه يسعده أن يكشف لنا عن كل ذلك لأننا نشكل (عائلة واحدة)، ويستطيع أن يقول لنا الحقيقة ـ والحقيقة أن الملك عبد الله وإن كان السيد المطاع أمام شعبه، فإن الإنجليز كانوا يعاملونه كأسياد له، ولا أكاد أصدق الكلام التالي، ولكنه حدث بالفعل، فيستمر موشي ديان في كلامه هكذا بخصوص المحادثات المذكورة حيث قال: «ولما أشار أحد الحاضرين إلى المحادثات الجارية في رودس اضطرب الملك وطلب منا بحرارة متناهية عدم إعطاء مصر غزة، فإنه من المهم ألا تنتهي غزة إلى أيدي المصريين، أبقوها معكم أو أعطوها لمن تشاءون لكن لا تتركوا المصريين يأخذونها»[1]. فهذه الخيانة ليست في حاجة إلى تعليق.

ويستمر موشي ديان في كلامه فيقول: «ولم يكن الملك يخفي أمر اللقاءات عن وزرائه، فقبل محادثات رودس وبعدها كان رئيس وزرائه وبعض الوزراء والشخصيات الأردنية يحضرون حفلات العشاء والاستقبال التي تلي لقاءاتنا، فكانوا يجلسون إلى يمين الملك ونجلس نحن على يساره، وعلى مقاعد أدنى كان يجلس تجاه الملك بعض مستشاريه الأدني مرتبة،و كانت اللقاءات تبدأ بتحيات وترحيب ثم يطلب منا الملك أن ننقل تحياته إلى رؤسائنا ابتداء بحاييم وايزمان رئيس الجمهورية وانتهاء برئيس الوزراء بن جوريون ووزير الخارجية شاريت والآخرين، ولم يكن يحب جولدا مائير التي إلتقاها عشية الحرب، وحاولت إقناعه بعدم المشاركة فيها، فوضعته في موقف حرج؛ إما الخضوع لرأي وتهديد امرأة، وإما الدخول في الحرب، فاضطرته لاختيار الحل الثاني والانضمام إلى سائر الدول العربية في غزو إسرائيل حتى لا يقول عنه أحد أنه أطاع امرأة.

---

(١) انظر: المرجع السابق.

ولكنه كان يحب (موشـه شاريت) الذي كان يجيـد العربية ويبدي فائق احـترامه لصاحب الجلالة الملك، ولكن في إحدى المناقشات قال الملك: إن الصين ليست عضوا في عصـبة الأمم، فعـارضه شاريت بقـوله: إنكم تخطئون يا صاحب الجـلالة، فإن الصين عضــو في عصبة الأمم، ولما كـان الملك لا يخطئ فأصر كل منهمـا على قوله وحدث تنافر بينهما، وكنا نتناول طعام العـشاء على مائدة الملك قبل البدء بالمحادثات ثم نعود إلى الأكل بعد سـاعة أو ساعتين ونتبادل مع الأكل أحاديث الـسياسة ونلعب الشطرنج مع الملك، ونتعمد أن نخسر أمامه فيزداد حبًا لنا وإعجابًا بنفسه، ونأخذ منه كل ما نريد من تنازلات بسبب خسارتنا المتعـمدة للشطرنج، وكذلك حينما يقرأ قطعة من شِعْرِه الذي لم نفـهم منه شيئًا، كنا نظهر إعـجابنا بشدة ونعمل تأوهات عمـيقة لإظهار إعجـابنا المزيف بشعره، ونأخذ مـنه المزيد من كل ما نريد من تنازلات، لأننا جعلناه يزداد حبًا لنا بواسطة كل من الشطرنج والشِّعر.

بينما هو لا يحـصل على ما يريد في هذه الاجتـماعات السرية، وعندمـا كانت تحدث عـقدة في المناقشـات لم يكن يحيلنا على وزرائه، بل يتحـمل مسؤوليـة القرار كاملة ويلبي لنا طلباتنا.

- ثم يشـير مـوشي ديان إلى أن المباحـثات الـسرية بين الأردنين والإسـرائيليين استـؤنفت مسـاء ٢٢ مارس ١٩٤٩م، ومـثل الأردن في هذا الاجـتماع قـرب (بوابة مندليـوم) كل من وزير العدل الأردنـي (فلاح باشـا المداوحه)، والمدير العـام لوزارة الخارجيـة (حسين سراج)، و(عبـد الله التل)، ومثل إسرائيل كل من (إيتان ويـفائيل يادين وحركاوي مريني).

وفي اليوم التالي التقينا بالملك ومعه وفدًا أوسع من شخصيات أردنية نافذة، بينما بقي وفـدنا كمـا هو، وكان بين الوفـد الأردني رئيس الوزراء بالوكالة ووزير الـعدل ووزير التربـية والمدير العام لوزارة الخـارجيـة الأردنية، ويمثل الجيـش الأردني ضابط

إنجليزي، وبعد عشاء قوامه خمسة أصناف غنية، انتقلنا إلى غرفة الاجتماعات التي انتهت في الثالثة صباحًا بالتوقيع على الخرائط، وكان الملك قد انسحب في الحادية عشرة ليلاً، ثم عاد بعد ساعة ليخرجنا من المأزق الذي سببه الأردنيون بتقديم عددًا كبيرًا من المطالب مقابل تنازلاتهم.

وقبل الافتراق، قدم إتيان إلى الملك هدية من بن جوريون توراة مغلفة بالفضة، وقام الملك من جهته بتقديم الهدايا إلينا، فأعطاني شخصيًا مسدسًا، وجاء لكل منا بوردة وهو يبتسم ابتسامة صادقة وتمنى لنا رحلة سعيدة في العودة.

وأضاف: هذه اللية وضعنا نهاية للحرب وبدأنا مرحلة السلام، ثم يضيف موشي ديان قائلاً: التقيت بالملك مرات عديدة أخرى في الشونة وعمان، وكانت زياراتي لقصر الشونة قد أصبحت مسألة عادية، بينما كانت الرحلة إلى عمان البعيدة أكثر تعقيدًا، فكان عليّ أن أبقى في عمان بعد الاجتماعات ثم أعود في الليلة التالية، وحتى بعد اتفاقية الهدنة كنا كلما نجد أنفسنا في مأرق نذهب إلى الملك، وكان بن جوريون قد سمع من مراسل أجنبي التقى بالملك عبد الله وسمير الرفاعي رئيس الوزراء الأردني الجديد أن الرفاعي قد أبلغ هذا المراسل الأجنبي أن الملك مستعد للتنازل عن اللد والرملة، لكن في نطاق اتفاقية سلام. وفي ضوء ما تم الاتفاق عليه في الشونة وتم توقيعه في رودس، كان على الأردن أن يسلم لإسرائيل بعض المناطق التي كانت تحتلها القوات العراقية.

وفي إبريل ١٩٤٩م عقدت ثلاث لقاءات بين الوفد الأردني والإسرائيلي، ومن الأمور التي عالجناها: انسحاب العسكريين والمدنيين الأردنيين المتواجدين وراء الخطوط الإسرائيلية وخصوصًا في الأرض المنزوعة السلاح، وتقسيم هذه الأرض بين الأردن وإسرائيل، ولما جاء موعد التنفيذ في أول مايو ١٩٤٩م والعمل على تقسيم الأراضي

بين الطرفين الأردني والإسرائيلي وإقامة الأسلاك الشائكة على التخطيط الجديد، ظهرت بعض الصعاب القديمة بتدخل السكان هذه المرة، فإن تقسيم ضاحية (بيت صفافة) في القطاع الجنوبي من القدس تقرر على الوجه الآتي: تعطى الأبنية الواقعة في الجنوب للأردن معزولة عن القدس، والمصير نفسه تقرر بالنسبة إلى الكثير من بيوت قرية (بيتر) في الضفة الغربية، والفريق العسكري واجه الأهالي المساكين الذين اكتفوا في بادئ الأمر بمظاهرة سلمية، وقتل أحد جنودنا وجرح آخر، فلم يبقى أمامنا إلا اعتماد الوسائل الحاسمة، وابلغنا الأردنيين أننا سنعمل منفردين إذا لم يتعاونوا معنا وسنلجأ للقوة، ففضل الملك أن يتحمل مسؤولياته وأن يشارك رجاله في تطبيق الاتفاقية. وفي يوم ٢ مايو ١٩٤٩م وصل فريق أردني آخر بين أعضائه ضابطان مستعدان لتطبيق الأوامر بلا تردد، فرسمت الخطوط الجديدة ورفعت الأسلاك وانتقل إلينا موقع (زووبحار) المسيطر جنوبي القدس، ففي حال استئناف القتال تلعب المرتفعات دوراً مهماً.

■ وفي ٢٠ يوليو ١٩٥١م قتل الملك عبد الله بيد شاب فلسطيني على درج مسجد الأقصى وهو خارج من صلاة الجمعة.

وانظر إلى هذا الرجل ملك الأردن، الذي يقدم مسدساً هدية لموشي ديان الذي لعب الدور الأكبر في جميع الحروب التي وقعت بين العرب وإسرائيل، والذي يعتبر واحداً من ألد أعداء العرب والمسلمين، ويعتبر من المؤسسين الأوائل للدولة اليهودية، والذي لعب الدور الأكبر في تأسيسها، واحكم على إهداء الورود لأعضاء الوفد الإسرائيلي تعبيراً عن حبه الشديد لهم ولليهود، وكأن هناك عملية عشق بينه وبينهم. واحكم كذلك على فداحة التنازلات عن الأراضي العربية لليهود في اللقاءات السرية المتعددة بينه وبينهم في قصره المشبوه الذي دنسه اليهود بأقدامهم، فأي خسارة أكبر من ذلك.

أما عن عبد الله التل قائد القوات الأردنيـة العربية بالقدس، فلا نقول عنه إلا أنه كان عـميلاً مخلصًـا، وقد نقلنا ذلك من مذكـرات موشي ديان أعدى أعـداء العرب والمسلمين وأحـد الأعمـدة التي قامت وتأسـست عليهـا الدولة الإسرائيليـة اليهـودية اللقيطة (وشهد شاهد من أهلها).

سادسًا ـ السلبيات العراقية: ونعود إلى كتاب (الحرب في أرض الإسلام) للواء/ حسن البدري، فقد جـاء فيه أن العراق قد رفضت تمامًا إرسال أي قـوات مشتركة في فك الحصـار عن القوات المصـرية المحاصرة في الفـالوجا، ولكنهـا تبدي استـعدادها لإرسال كتيبة ضعيفة جدًا لتعمل كاحتياط لقوات بيت لحم مع الحذر التام من تكليفها بأي مهمة هجومية.

سابعًا ـ خيانة حكومة العراق: جاء في المصدر السابق: إنه بينما أعدت إسرائيل خمسـة ألوية بكاملها للقضاء على الجيش المصـري يوم ٣ يناير ١٩٤٩م كانت حكومة العراق تعتذر عن مد يد العـون لمساعدة جيش مصر في هذه الأوقات العصـيبة وتركته وحده يجابه القـوة الضاربة الإسرائيلية التي كانت تريد الانتقـام من الجيش المصري لما أنزله بها من خسـائر فادحة في بداية الحرب قبل فرض الهدنة المشبوهة.

وفي يوم ٢٨ فبراير ١٩٤٩نما إلى عـلم بن جوريون قُرب عودة القوات العـراقية إلى ديارها وانسحابها نهائيًا من الحرب، فامتلأ صدره بالرغبة في التهام شريحة أخرى من الضفة الغربية، ولهذا بدأ يخطط للاستيلاء على المثلث العربي الخصيب حتى ضفة نهر الأردن، وفي نفس اليوم ٢٨ فبراير ١٩٤٩م كان وفد الأردن قد وصل إلى رودس للاتفاق مع إسـرائيل، ولـم يكن غريبًا في هذا الجـو الخياني العـربي الأردني العراقي المتفكك أن تضرب إسرائيل وأن تكون ضـربتها لتصفية الموقف لصـالحها، وبالتالي لم يكن غريبًا في هذا الجو الخياني العربي أن تـضيع فلسطين وأن تضيع معها القدس وأن تضيع معها همة العرب والمسلمين.

■ وكما قلنا آنفًا، أن الرئيس السادات حينمـا بدأ يتفاوض مع الإسرائيليين علانية بعد انتصار مصر عليهم في حرب أكتوبر ١٩٧٣م وأثناء مفاوضات السلام التي أجراها معهم، كان الأردنيون والعراقيون أول من هـاجموا السادات ومصر، وتزعمت العراق بقية الدول العربية وعقدت مؤتمراً في بغداد وقطعت فيه الدول العربية علاقاتها بمصر.

خيبة أردنية عجيبة:

وذلك أثناء حصار القوات الأردنية المحكم للقدس، فقد أتاحت الظروف والمقادير فرصة ذهبـية للقوات الأردنية لو أتيحت لـليهود لما ترددوا في استغـلالها طرفة عين، ولسارعوا إلى اسـتغلالها في لمح البـصر، ولو استغلها الأردنـيون لتغير مـسار الحرب لصالح العرب ولقصمت ظهر إسرائيل، ولفـر اليهود من فلسطين مذعورين إلى البلاد التي أتوا منها، ولتم تحرير فلسطين من اليهود وإعـادتها لأصحابها العرب، وذلك أن القوات الأردنيـة في بداية الحرب نجحت في كـسب أهم معركة لهـا في هذه الحرب، فقـد تمكنوا في يوم الجـمعـة ٢٨ مايو ١٩٤٨م من احـتلال الحي اليـهودي بالـقدس والسـيطرة عليه وتم استسـلام (موشي روزنك) قائد الهجاناه في القـدس ومعه ١٥٠٠ يهودي من سكان الحي، وأسر ٣٤٠ جندي يهـودي كانوا مُنْدَسِّين بينهم، وقتل ٣٠٠ جندي يهودي، وجـرح ٨٠ آخرين، وتحطم بذلك كـبرياء الصـهاينة وبسـقوط الحي اليهودي تحولـت القوات الأردنية إلى تشديد الحصار على القـدس الجديدة التي يقطنها (١٠٠ ألف) مائة ألف يهودي.

وكان يمكن إبادتهم بالكامل كما فعل اليـهود في مذبحة (دير ياسين) ضد العرب في ٩ إبريل ١٩٤٨م وغـيرها، فكان يمكن أخـذ الثـأر مضـاعفـًا من اليـهود، ولكن القوات الأردنية اكتفت بالحصار ولـم تقم باستغلال هذه الفرصة الذهبية ولـم تقم بإبادة المائة ألف يهودي حتى فُرضت الهدنة المشـئومة في صباح ١١ يونية ١٩٤٨م، فكانت

بمثابة المنقذ لهؤلاء المائة ألف يهودي، وبعد هذه الهدنة التي فرضتها أمريكا ومجلس الأمن لإنقاذ إسرائيل ضاعت الفرصة الذهبية لتحرير فلسطين، فإن قتل يهودي واحد يصيب إسرائيل بالهلع والفزع، فما بالك بقتل مائة ألف مرة واحدة؟ إن ذلك كان سيجعل باقي اليهود يفرون كالفئران ويسارعون إلى ترك فلسطين والعودة إلى بلادهم التي أتوا منها في أقرب باخرة أو طائرة.

وقد تغير الموقف لصالح اليهود بعد هذه الهدنة الأمريكية والتي فرضتها بما يسمى مجلس الأمن، والمفروض أن يسمى مجلس إسرائيل، (ومن المعروف أن الأفعى إذا لم تقتلها فإنها تقتلك)، وهكذا فقد تمكنت السياسة اليهودية من قتل الآلاف المؤلفة من العرب فيما بعد؛ لأن العرب هم الذين أتاحوا لها ذلك. فعلى سبيل المثال لا الحصر لم يقم الأردنيون حتى باستغلال هذه الفرصة وأخذ الثأر ردًا على مذبحة دير ياسين وغيرها من المذابح التي ارتكبتها هذه الجيوش اليهودية الحاقدة ضد العرب والمسلمين، وردًا على بقر بطون الحوامل من نساء العرب والرهان على ما فيها من أجنة هل هي ذكر أم أنثى، فكثير ما فعل ذلك اليهود بالنساء العربيات المسلمات الحوامل العزل من أي سلاح، وكان جنودهم تتخذ من ذلك تسلية تَشَفِّيًا وحقدًا على العرب والمسلمين.

ثامنًا ـ خيانة النقراشي باشا: ظهرت خيانته في إصدار أمرًا بتجريد سرية الإخوان المسلمين من أسلحتها، فبدلاً من أن يزودها بالسلاح عمل العكس، فجردها من سلاحها التي كانت تحارب به اليهود وتجاهدهم به.

تاسعًا ـ جيش الجهاد المقدس: بدأت تناوشه عناصر مأجورة همها مناوأة المفتي، فتحولت اهتمامات هذا الجيش ومجالات عمله إلى وجهة أخرى لا خير فيها على قضية فلسطين من قريب أو بعيد.

عاشراً ـ المتاجرة بالأسلحة الفاسدة: انفجر الصراع بين الكتل والأحزاب العربية، وتزايدت العزلة بينها مع سريان تيار من الملل في الجبهات الأمامية والداخلية وانتشار مشاعر الإحباط النفسي؛ نتيجة شائعات كثيرة عن مكاسب فئة راحت تتاجر بالأسلحة والذخائر الفاسدة، فتُهدر دماء الجنود والضباط سدى، وتدفع بالهزيمة إلى صفوفهم، وذلك كما جاء في كتاب (الحرب في أرض الإسلام) للواء/ حسن البدري[١]، وعن الأسلحة الفاسدة أيضًا: فقد جاء في الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ما يلي[٢]:

وظهرت مشكلة الأسلحة الفاسدة في الجيوش المصرية، والتي قامت بريطانيا وأمريكا والغرب بتدبيرها، فانقلبت الآية ومنيت الجيوش المصرية والعربية بالهزيمة، وزادت الرقعة التي استولى عليها اليهود عما كانت عليه في تقسيم ١٩٤٧م.

وعن الأسلحة الفاسدة كذلك جاء في كتاب (القوة الثالثة ـ تاريخ القوات الجوية المصرية) للسيد اللواء طيار أركان حرب/ علي محمد لبيب، أحد القادة العسكريين الجويين، وأحد مؤسسي سلاح الطيران المصري، جاء في هذا الكتاب عن الأسلحة الفاسدة أيضًا ما يلي: «. . . بدأ تفكير الحاشية يخطط طريقًا بديلاً لكسب آخر يستغل فيه الظروف القائمة، واقترحت الحاشية على الملك فاروق أن تتولى إبرام صفقة أسلحة تحت رعاية الملكية، وكان تزايد فساد هذه الأسلحة محققًا لأرباح أكبر، وهكذا حققت الأسلحة الفاسدة أرقامًا عالية من الضحايا والشهداء فاقت بكثير خسائر العمليات الحربية ضد العدو الصهيوني، وساعدت في نفس الوقت على إلحاق الهزيمة بالجيش المصري بعد أن كان متقدمًا، وبعد أن عملت تلك الأسلحة جنبًا إلى جنب مع قوات العصابات الصهيونية المتزايدة»[٣].

---

(١) انظر: كتاب الحرب في أرض السلام ص٣٤٤.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ص٧٣٧.

(٣) انظر: كتاب (القوة الثالثة) تاريخ القوات الجوية المصرية ص٧٩.

ثم قال ما نصه: «.. وهكذا تقررت النهاية للأطراف الثلاثة: النظام الملكي وما تميز به من فساد وما أسقطه من شهداء أسلحة فاسدة، والحكم الوفدي وما حققه من ثروات شخصية أختص بها أفراد الأسرة المقربين، والاستعمار البريطاني الذي لم يكتف باستنزاف قوة الشعب فزاد من حملاته المسعورة ليزيد بها الشهداء الوطنيين . . . إلخ»[1].

الحادي عشر ـ الخيانة الصليبية البريطانية للفلسطينيين والعرب: تتلخص هذه الخيانة الصليبية البريطانية للإسلام والمسلمين في النقاط الآتية:

١ ـ وعد بلفور المشئوم: ليس هناك أدل على هذه الخيانة الصليبية البريطانية من هذا الوعد اللئيم الذي أعطاه ذلك الصليبي الحاقد على العرب والإسلام والمسلمين (بلفور)، أحد أذناب الصليبية البريطانية ألد أعداء العرب والمسلمين عبر التاريخ، فقد وعد اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، وكأن هذا الصليبي البريطاني قد ورث أرض فلسطين عن آبائه وأجداده، يفعل فيها كيف يشاء، فكانت هذه الخيانة البلفورية الصليبية البريطانية هي بداية الداء وأول خطوة على طريق انتزاع فلسطين وضياعها من أيدي العرب والمسلمين وتقديمها لقمة سائغة وفريسة سهلة لشذاذ الآفاق من اليهود أعداء البشرية.

٢ ـ تصميم بريطانيا على تثبيت دعائم الكيان الصهوني في فلسطين: كانت هذه الدولة بريطانيا هي وفرنسا وإيطاليا ألد الأعداء الصليبيين للعرب والمسلمين منذ الحروب الصليبية، فعملت بريطانيا على تثبيت دعائم اليهود عسكريًا عن طريق ترجيح كفتهم في ميزان القوى العسكرية ونزع سلاح العرب وحل منظماتهم شبه العسكرية وملاحقتها في البلاد بالقمع والتشريد والإرهاب داخل أراضيهم الفلسطينية.

---

(١) المرجع السابق ص٨٠.

٣ ـ سياسة القمع البريطانية ضد الفلسطينيين: لم يكن الجانب المدني من سياسة القمع البريطانية بأقل أثرًا من الجانب العسكري، فقد قامت السلطات البريطانية بحل الهيئة العربية العليا، بينما دعمت الوكالة اليهودية ـ فالكفر ملة واحدة ـ، كما حلت الأحزاب العربية الفلسطينية وتعقبت أعضاءها بالسجن والنفي إلى جزر المحيط الهندي، فأدى كل ذلك إلى رجحان كفة اليهود في فلسطين.

٤ ـ الأسلوب الصليبي الحاقد الذي اتبعته الدولة البريطانية في الانسحاب من فلسطين وإعلان إنهاء انتدابها عليها: كان لهذا الأسلوب أعمق الأثر على سير الأحداث في فلسطين، فَسَلَّمت للوكالة اليهودية مقاليد الأمور وتركت الحبل على الغارب للقوة العسكرية المسلحة اليهودية (الهاجاناه) للسيطرة على البلاد طبقًا لخطة عدوانية مرسومة ومشبوهة تهدف إلى الاستيلاء على فلسطين بالقوة قبل أن تدركها جيوش العرب النظامية، وأعطت لليهود الفرصة كاملة لإعلان قيام دولتهم.

الثاني عشر ـ الخيانة الصليبية الأمريكية الحاقدة على العرب والمسلمين: تفوَّق العرب على اليهود في بداية الحرب تفوقًا كبيرًا، ورجحت كفتهم في مدة القتال الأولى، وذلك لأنهم نجحوا في انتزاع المبادأة من يد العدو الصهيوني في مسرح الحرب بفضل قيامهم بالضربات الساحقة والقاصمة لليهود على كافة الجبهات، وخاصة الجبهة المصرية، فقامت جيوشهم العربية ـ ولكن بغير تنسيق وبغير قيادة مشتركة وموحدة ـ، قامت تطوي تلال فلسطين ووهادها حتى كادت أن تطبق على تل أبيب وتزهق أنفاس الدولة اليهودية وتقضي عليها في مهدها، حتى لو تركت أمام الجيش المصري وحده، وهنا أدركتها الولايات المتحدة الأمريكية بالهدنة الأولى في أحرج اللحظات وأحلكها على هذه الدولة اليهودية، فأنقذتها من الموت المحقق وأجرت لها عملية إنقاذ، فدب النبض في شرايينها من جديد بعد أن كان على وشك التوقف.

سلبيات الهدنة:

▪ تتجلى خطورة هذه الهدنة الأمريكية فيما يلي:

١ـ نصت الهدنة على عدم حصول أي من الفريقين العرب أو اليهود على أسلحة طوال فترة الهدنة.

٢ـ التزم العرب لحسن نواياهم بذلك حرفيًا، فلم يحصلوا على أي أسلحة خلال هذه الهدنة، ـ وما كان لهم أن يفعلوا ذلك، ففي ذلك مخالفة للقيم ـ.

٣ـ بينما تدفقت أحدث الأسلحة والطائرات من أمريكا ودول الغرب الصليبية الأخرى، وكذلك الاتحاد السوفيتي وتشيكوسلوفاكيا والدول الشرقية الشيوعية الأخرى على اليهود بشكل مريب وخطير وبأعداد رهيبة، مما جعل النبض العدائي يسري من جديد في صلب هذه الدولة اليهودية بعد أن أشرفت على الموت، ولو تركت أمام جيش منفرد وحده لأبادها وأفناها من الوجود.

٤ـ وليس هذا فحسب، بل تدفق المتطوعون الصليبيون واليهود من أمريكا ودول الغرب بريطانيا وفرنسا وبولندا وغيرها بل من سائر دول أوروبا الصليبية والاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية التي تسير في فلكه، تدفقوا على إسرائيل بالآلاف المؤلفة والأعداد الرهيبة، وكانوا ذوي خبرة قتالية في الحروب الحديثة والغارات الجوية التي اكتسبوها من الحرب العالمية الثانية، فأعادوا الحياة إلى هذه الدولة وإلى جيشها الذي أشرف على الإبادة التامة في الجولة الأولى.

٥ـ حينما عرضت قضية فلسطين على الأمم المتحدة ووضعت اقتراحات التقسيم ضغطت أمريكا بكل ثقلها على الدول الأعضاء لقبول قرار التقسيم الماكر والمشبوه، والذي أعطى اليهود أخصب أراضي فلسطين وأعطى للفلسطينيين أفقر أراضيها، وكأن الأرض الفلسطينية كانت ملكًا لأمريكا واليهود وليست ملكًا للفلسطينيين، وجعلت القدس والأماكن المقدسة مناطق دولية.

نموذج للتعصب الأعمى:

ولعل القارئ الكريم يعلم أن رئيس أمريكا في ذلك الوقت كان هو ذلك الصليبي الحاقد على الإسلام والعرب وأكبر محب لسفك الدماء البريئة عرفته البشرية يتضاءل أمامه جنكيز خان وهولاكو، ذلك هو (ترومان)، أول من استخدم القنابل الذرية والنووية في الحرب العالمية الثانية ضد اليابان، فأحرق بالكامل مدينتين يابانيتين هما (هيروشيما ونجازاكي) ومحاهما من الوجود بمن فيهما من سكان أبرياء مدنيين آمنين لا ذنب لهم في الحرب، فالمفروض أن تكون الحرب بين القوات العسكرية من الجانبين دون التعرض للمدنيين أو الإضرار بالأهداف المدنية، وهذا الرجل هو الوحيد في العالم الذي استخدم هذه القنابل الخطيرة، وهدد باستخدام المزيد منها إذا لم تستسلم اليابان بلا قيد أو شرط.

ولماذا استخدمها ضد اليابان ولم يستخدمها ضد ألمانيا التي أذاقتهم مر الذل والهوان في بداية الحرب ونكلت بهم أشد التنكيل أو ضد حليفتها إيطاليا؟ والإجابة واضحة، وهي أن اليابان غير نصرانية، أما ألمانيا وإيطاليا فهما نصرانيتان صليبيتان، فهذه تعتبر خيانة رهيبة من هذا الرجل لسائر الأجناس البشرية ما عدا جنسه النصراني.

الثالث عشر - خيانة الاتحاد السوفيتي برئاسة (ستالين) ضد العرب، وخيانة تشيكوسلوفاكيا: بلغ من كثرة إغداق الاتحاد السوفيتي للأسلحة والطائرات والمتطوعين لإسرائيل ما حدا بقائد اليهود الأكبر بن جوريون أن يبرق إلى (ستالين) زعيم الاتحاد السوفيتي يزجي إليه الشكر والامتنان العميق لهذه المساعدات التي سوف تذكرها له اليهود على الدوام، ويعترف له بفضل الاتحاد السوفيتي وأياديه البيضاء على إسرائيل، وكذلك الدول الشيوعية الأخرى التي تدور في فلك الاتحاد السوفيتي وأولها

تشيكوسلوفاكيا، ثم أصدر الاتحاد السوفيتي بيانًا يهاجم فيه حكومة بريطانيا لأنها أمدت العرب ببعض الأسلحة والذخائر، ويبدي امتعاضه من هذا المسلك المعيب الذي جافي روح الهدنة المشبوهة والماكرة والمفروضة من مجلس الأمن.

وكأن الاتحاد السوفيتي وستالين كان أكثر عطفًا على إسرائيل وأكثر حبًا وحنانًا لها من بريطانيا التي لعبت الدور الأكبر في إنشائها، وكأن بريطانيا كانت في انتظار هذا العطف من ستالين على إسرائيل، فقد اتضح أن هذه الأسلحة وهذه الذخائر كانت فاسدة، وقد لعبت تشيكوسلوفاكيا أهم دور في إمداد إسرائيل بالطائرات والأسلحة وإنشاء السلاح الجوي الإسرائيلي ووضع نواته الأولى بمقدار ٨٩ طائرة، كما أمد الاتحاد السوفيتي - وإلى وقتنا هذا - إسرائيل بسيل عارم من المهاجرين اليهود السوفيت، فجميع دول العالم الصليبي سواء الشرقية أو الغربية قد عشقت إسرائيل عشقًا شديدًا، بينما بغضت العرب والمسلمين بغضًا شديدًا، وجذور ذلك تمتد إلى أيام الحروب الصليبية.

الرابع عشر - تركيا وتقاعسها وعدم تدخلها لصالح العرب والمسلمين: كانت تركيا في ذلك الوقت تملك أكبر قوة حربية إسلامية، وكان لديها رصيد ضخم من الأسلحة الحديثة والسفن الحربية والطائرات، ولو تدخلت لتغير الموقف لصالح العرب، وكان يمكنها التدخل بحريًا بأسطولها وبريًا عن طريق سوريا ولبنان، وكان يمكنها على الأقل إمداد العرب بالأسلحة والطائرات خلال الهدنة المشبوهة التي فرضتها أمريكا ودول الغرب على العرب في مجلس الأمن، وكذلك بعد الهدنة، خاصة وقد اتضح إمداد جميع الدول الغربية وأمريكا والاتحاد السوفيتي لإسرائيل بالأسلحة والطائرات والمتطوعين كما سبق. وكان يمكن لتركيا كذلك على الأقل السماح للمتطوعين المسلمين الأتراك بالذهاب إلى فلسطين لمعاونة إخوانهم المسلمين العرب، فكما فعلت هذه الدول الصليبية وبذلت قصاري جهدها وأقصى طاقتها

لنصرة اليهود، كان يجب كذلك على تركيا المسلمة أكبر قوة إسلامية أن تبذل أقصى جهدها وأقصى طاقتها لنصرة العرب والمسلمين، وكان يمكنها أن تنادي بالجهاد الإسلامي.

ولنا أن نتساءل: أيهما أقرب إلى فلسطين؟ تركيا أم أمريكا وبريطانيا وفرنسا وسائر دول أوروبا والاتحاد السوفيتي؟ فقد هبوا جميعًا لنصرة إسرائيل وتدعيم كيانها وتثبيته بالسلاح والرجال، بينما تركيا التي هي أقرب منهم بكثير إلى فلسطين وقفت موقف المتفرج وموقف اللامبالاة، رغم أن فلسطين وسائر الدول العربية كانت تابعة لها من قبل، وكانت تكون قلب الإمبراطورية التركية العثمانية لعدة قرون، وكانت متزعمة للعالم العربي والإسلامي ومسيطرة عليه باسم الخلافة العثمانية وحامية حمى الإسلام والمسلمين، وقد خضع لها العرب والمسلمون لعدة قرون ولم يثوروا عليها؛ لأنهم كانوا يرون فيها وفي الخليفة العثماني التركي أنه ولي أمر المسلمين الذي يجب عليهم طاعته وطاعة أولي الأمر وعدم مخالفتهم أو التمرد والانقضاض عليهم.

- ولكن في أحلك الظروف رأيناها قابعة وخانعة فلم تحرك ساكنًا، ولو نادت على الأقل بالجهاد الإسلامي بصفتها زعيمة العالم العربي والإسلامي لهب الملايين من المسلمين من سائر بقاع الأرض لنجدة إخوانهم العرب والمسلمين في فلسطين، ولتحولت إلى حرب صليبية 'أخرى وليستشهد من كتبت له الشهادة وليبقى من كتبت له الحياة عزيزًا كريمًا محتفظًا بعروبته وكرامته وأرضه كما حدث لأجدادنا وأسلافنا أيام الحروب الصليبية.

- وليقل قائل: إن ذلك كان سيدفع أمريكا بقيادة رئيسها ترومان إلى الدخول في حرب عالمية ثالثة وتجر معها دول أوروبا وينجرف العالم إلى حرب عالمية مدمرة. **والرد على ذلك:** هو أنه كانت ستظهر وتعلوا أصوات من داخل الكونجرس الأمريكي والبيت الأبيض الأمريكي نفسه، بل ومن سائر الشعب الأمريكي تعارض مثل هذه

الحرب فهم ليسوا على استعداد لخوض حرب عالمية أخرى غير مستعدين لها وقتئذ من أجل عيون اليهود، فدماؤهم لم تجف بعد من الحرب العالمية الثانية، وأمريكا عندهم وأبناء أمريكا أهم من اليهود. فكان سيضطر مرغمًا إلى عدم التدخل وإشعال حرب عالمية ثالثة. وما كان سيحدث في أمريكا كان سيحدث أيضًا بالمثل في أوروبا والاتحاد السوفيتي.

ولينصرن الله من ينصره:

وليقل قائل آخر: ولنفترض أن هذه الأصوات الأمريكية لم تعارض ترومان وقامت حرب عالمية هذه المرة بين المسلمين وبين أمريكا وأوروبا والاتحاد السوفيتي وأصبحت حربًا صليبية، فهل كان بوسع المسلمين أن ينتصروا؟ والرد على ذلك: هو أن نسأل أنفسنا أولاً: هل الأقوى هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ أم أمريكا ودول أوروبا والاتحاد السوفيتي؟ بل وسائر الدول في جميع بقاع الأرض؟ والإجابة معروفة مقدمًا، فأي مسلم على وجه الأرض ذي عقيدة إيمانية راسخة، يعلم تمام العلم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو أقوى، وهو أقوى من أمريكا وأوروبا وجميع دول الأرض.

وهل كان الله تعالى وهو حقًا الأقوى: هل كنا نضمن أنه سينصر المسلمين؟ نعم هو حقًا قادر على نصرهم، ولكن هل كان من المضمون أن ينصرهم؟ والإجابة: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد نصرهم مرارًا من قبل على الصليبيين والتتار، فانتصروا على الصليبيين في حطين والمنصورة وغيرها حينما وحدوا كلمتهم ورجعوا إلى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ وهبوا جميعًا ليدافعوا عن أرضهم وبلادهم، فاستردوا فلسطين والقدس وطردوا الصليبيين منها وطهروا القدس وفلسطين وسائر البلاد التي استولوا عليها وحرروها منهم.

وكذلك فعلوا بالتتار في عين جالوت وغيرها وانتصروا عليهم وطهروا وحرروا منهم جميع البلاد الإسلامية والعربية التي استولوا عليها، ونحن كمسلمين أمام واحدة

من اثنتين: إما أن نكون مسلمين حقًا ونؤمن بالقرآن الكريم، وإما أن لا نؤمن بالقرآن الكريم، وبالتالي نكون غير مسلمين، وبما أننا مسلمون حقًا ونؤمن بالقرآن الكريم فعلينا أن نؤمن بقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠).

والقرآن الكريم يحتوي على الكثير جداً من الآيات الكريمة التي تؤكد نصر الله تعالى للمسلمين إذا ما رجعوا وأنابوا إليه وتوكلوا واعتمدوا عليه واعتصموا بحبله تعالى ووحدوا كلمتهم وتركوا البغضاء والنزاع فيما بينهم وتركوا الخيانة التي هي رأس الداء وأس البلاء.

الخامس عشر - إيران وهي قوة إسلامية لا يستهان بها وتقاعسها عن الجهاد ونصرة العرب والمسلمين: ما يقال عن تركيا يقال تمامًا عن إيران؛ لأنها دولة إسلامية قوية وقريبة من الدول العربية وفلسطين، فهي على حدود العراق، ولكنها مثل تركيا كذلك لم تحرك ساكنًا، ولا نرى داعيًا للتكرار لعدم الإطالة، ولو تدخلت إيران وتركيا لتبعتهم الدول الإسلامية القوية الأخرى مثل إندونيسيا وباكستان وغيرها، ولكانت حربًا ليست بين إسرائيل والعرب فحسب، بل بين الحق والباطل كما كانت من قبل بين الصليبيين والإسلام أثناء الحروب الصليبية التي انتهت بنصر المسلمين.

وليس هناك من شك أن الإسلام كما انتصر على الصليبية في النهاية أنه كان سينتصر هذه المرة أيضًا على اليهودية، وكان الأمر يتطلب فقط من المسلمين الرجوع والإنابة إلى الله تعالى والتوكل والاعتماد عليه واعتناق العقيدة الإسلامية الإيمانية الراسخة وحب الجهاد والقتال والاستشهاد في سبيل الله تعالى كما فعلوا أيام الحروب الصليبية التي انتهت بنصر الإسلام والمسلمين.

المكر اليهودي في الحرب:

■ **وهنا يأتي سؤال هام وهو:** بصرف النظر عن المساعدات الأمريكية والأوروبية لإسرائيل، فكيف انتصرت ومازالت تنتصر على العرب وكيف نجحت في انتزاع

فلسطين والقدس والجولان وغيرها من الأراضي العربية، رغم أنها دولة صغيرة ورغم الكثرة الهائلة للدول العربية التي تحيط بها من كل جانب، فانتصرت عليهم جميعًا في عامي ١٩٤٨م، ١٩٦٧م.

والإجابة: هي أن إسرائيل في جميع الحروب التي خاضتها ضد العرب كانت ومازالت لها قيادة عسكرية واحدة، فهي تعرف جيدًا كيف تحيد جميع الجبهات بقوات رمزية ضئيلة ثم تنفرد بجبهة واحدة فقط حتى تقضي عليها وتفرغ منها ثم تنتقل إلى جبهة أخرى، ولا تحارب على جبهتين في وقت واحد، وإلا كان مصيرها الهزيمة كما حدث في بداية حرب أكتوبر ١٩٧٣م، وهي بذلك تطبق نظرية الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، حيث كانت لهم قيادة عسكرية واحدة تعرف الأمور وتوجه الجيوش حسب خطة موحدة، بينما كانت لكل من دول المحور ألمانيا وإيطاليا واليابان قيادة مستقلة ومنفردة ولا تربط بينهم أي قيادة مشتركة أو أي تنسيق مشترك، أما الحلفاء فكان التنسيق بينهم كاملاً ورائعًا وجميع قواتهم لها قائد واحد، فركزوا على إيطاليا أولاً لأنها الأضعف، وأخرجوها من الحرب، ثم انفردوا بألمانيا حتى هزموها، ولم يبق أمامهم إلا اليابان التي هُزمت ولحقت بزميلتيها إيطاليا وألمانيا واستسلمت مثلهما بلا قيد أو شرط.

وحدة اليهود وتفرق العرب:

وقد أوضح ذلك قادة ومؤرخو الحلفاء في كتبهم ومذكراتهم، وكان (إيزنهاور) هو القائد الأعلى لقوات الحلفاء، وهذا هو الحال مع إسرائيل والعرب، فإسرائيل حقيقة دولة صغيرة ومحاطة بالدول العربية من جميع الجهات، ولكن إسرائيل لها قيادة واحدة فقط، أما الدول العربية فلكل دولة منهم قيادة مستقلة عن الآخرين، ولا تسمح أي دولة عربية منهم أن تقودها دولة عربية أخرى، بمعنى أن يقود جيشها قائد عربي من دولة عربية أخرى، فالكبرياء والأنانية كان سمة الدول العربية مع بعضها،

فكيف يكون لجيش لبنان مثلاً قائد سوري، وكيف يقود جيش الأردن عراقي أو مصري وإن كان عربيًا ومسلمًا.

بينما اليهود وقد أتوا أشتاتًا من جميع دول العالم ومن شتى بقاع الأرض، فمنهم الألماني ومنهم الروسي ومنهم الإنجليزي ومنهم الفرنسي ومنهم الأمريكي ومنهم الحبشي والمغربي واليمني والعراقي والمصري ومن كل دولة وجنس، ولكنهم جميعًا خضعوا لقيادة واحدة ونسوا جميع جنسياتهم وتذكروا أنهم فقط يهود، فالجندي اليهودي الألماني مثلاً لا يأنف أن يكون قائده من أي جنسية أخرى مادام يهوديًا .. وهكذا استطاعت إسرائيل بكل مهارة أن تستغل نقطة الخلاف والشقاق وعدم الوحدة والتآلف بين العرب وتنفرد بكل منهم على حدة، بينما بقية الدول العربية تقف موقف المتفرج وموقف اللامبالاة ثم تستنكر ذلك وتبدأ في الصراخ والضجيج والعويل، ثم تقدم احتجاجًا لمجلس الأمن الذي لعب الدور الأكبر في إنشاء إسرائيل.

حال الدول العربية مع إسرائيل:

فإذا ما تحرشت لبنان مثلاً بإسرائيل لأي سبب فإن إسرائيل تنزل عليها بكل ثقلها وتعطيها درسًا قاسيًا مما يجعلها لا تتحرش بها مرة أخرى، وكذلك إذا تحرشت الأردن أو فكرت حتى في التحرش أو لم تقض على الفدائيين الفلسطينيين، فإنها تعطيها درسًا تجعلها تقول «تُبت يا إسرائيل وحقك عليّ»، وتطلب منها العفو والغفران والصفح، وليس هذا فقط بل تستدير على الفلسطينيين وتعتقلهم وتشردهم تشريدًا حتى ترضى عنها إسرائيل وتصفح عنها وتغفر لها خطيئتها وذنبها.

أما العراق فحجتها أنه لا توجد لها حدود مشتركة مع إسرائيل، ولكي تشتبك مع إسرائيل في حرب وتصل إلى حدود إسرائيل لابد لها أولاً أن تشن الحرب على إيران جارتها المسلمة لمدة ثمان سنوات تأكل الأخضر واليابس من الدولتين، ثم بعد ذلك تحتل الكويت التي ساعدتها بعشرات المليارات من الدولارات ضد

إيران وتدمرها، ومن أعان ظالمًا سلطه الله تعالى عليه، فلما ساعدت الكويت العراق ضد إيران المسلمة؛ سلط الله تعالى العراق على الكويت، وكان في تقدير العراق أن الطريق إلى إسرائيل والقدس لابد أن يمر أولاً بإيران ثم الكويت، وبعد ذلك يكون الطريق سهلاً وممهدًا إلى إسرائيل، ولا يجوز إطلاقًا في عرف قادة العراق حينذاك الحرب مع إسرائيل وتحرير القدس قبل تدمير إيران والكويت ثم الاستعداد لتدمير غيرهما.

وهذه الكويت أثناء حرب أكتوبر لم تساعد مصر وسوريا بعشر معشار المليارات العديدة التي ساعدت بها العراق ضد إيران المسلمة، لكن أن تساعد مصر وسوريا ضد إسرائيل فهذا يخالف مبادئ العروبة والإسلام ويعتبر اعتداءً على إسرائيل، فيكفي أن نقذف إلى مصر وسوريا ونَمُنُّ عليها ببضعة دولارات بسيطة كأنها من الزكاة لإطعام الشعب المصري والسوري الذين جاعا بسبب الحرب مع إسرائيل.

■ معذرة فهذه هي حال الدول العربية مع إسرائيل، . . فحالها وموقفها مع إسرائيل لا يصح إلا الكتابة عنه بكل صراحة.

- ولماذا ساعدت الكويت العراق بهذا الشكل ضد إيران، بينما لم تساعد مصر وسوريا بنفس الشكل ضد إسرائيل؟

الإجابة: لأن إيران مسلمة أما إسرائيل فيهود، ومنذ أن احتلت إسرائيل فلسطين عام ١٩٤٨م، نجد أن أكبر اهتمامها بالجبهة المصرية وتحشد تسعة أعشار قوتها باستمرار للجبهة المصرية - لماذا؟ لأنها تعلم جيدًا أن الجيش المصري هو القوة المخيفة بالنسبة لها حتى لو انتصرت عليه في أي معركة فهو جيش باسل عنيد لن يستسلم للهزيمة إطلاقًا - ولما شاءت المقادير لظروف خارجة عن الإرادة أن تنتصر عليه في يونيو ١٩٦٧م - سرعان ما رد لها الصاع صاعين في أكتوبر ١٩٧٣م - وإسرائيل تكره البشرية جمعاء وأشد ما تكره من البشرية المسلمين وأشد ما تكره من المسلمين مصر لماذا؟ لأنها تعلم

أن مصـر هي الدولة العربية والإسلامـية القادرة على هزيمتـها والقضاء عليـها في أي وقت متى استعدت لهـا استعداداً جيداً وخططت لها تخطيطًا عسكريًـا علميًا سليمًا ـ وما حرب رمضان منا ببعيد ـ وهي تعلم جـيداً أن مصر عبر التاريخ هي الصخرة التي تتحطم عليـها كل القوى التي تحاول الاعتـداء على الدول العربية ـ فقـد تحطم عليها المغول في عين جالوت والصليبيون في حطين والمنصورة وغيرها ـ وفي التاريخ القديم تحطم عليها الهكسوس وغيرهم ـ وستتحطم عليها الصهيونية العالمية بإذن الله تعالى إن عاجلاً أو آجلاً؛ ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: ٤٠).

تحرير فلسطين:

هل يمكن تحرير فلسطين؟ والإجابة هي:

أولاً ـ في ظل ظروف العرب الراهنة والتفكك العربي والخنوع والجبن والارتماء في أحضان أمريكا وأوروبا ـ وتكديس آلاف الملـيارات بل ملايين المليارات من الدولارات العربيـة بواسطة ملوك وأمراء البترول العـرب في بنوك أوروبا وأمريكا ليسـتغلوها في صنع وتطوير المزيد من الأسلحـة الفتـاكة وإمـداد إسرائيل بهـا باستمـرار ـ وفي ظل الحروب بين العـرب والتي لم تجف دماؤها بعـد ـ وأقربها حـرب العراق وإيران ـ ثم العراق والكويت، وبين الفلسطينيين والأردنيين في (أيلول الأسود)، وبين الفلسطينيين والسوريين (تل الزعتـر)، وبين الفلسطينيين واللبنانيين (صابرا وشاتيـلا)، وغيرها من المجازر والمذابح التي دارت بين العرب وبعضهم ـ وعدم قبول أي دولة عربية أن تنضم لوحدة عربية شاملة فإذا أرادت الشـعوب ذلك رفض الزعماء والملوك والرؤساء ـ وفي ظل الكثير من الظروف المحزنة والمخزية للعرب والتي يعرفها الجميع ـ لا يمكن للعرب ولو ظلوا هكذا أمـداً بعيـداً ـ تحرير شـبر واحـد من أرض فلسطين ولا حتـى دخول القدس ـ بل لا يسـتطيعون الاحـتفاظ بما في أيديـهم من الأراضي العربية فـإسرائيل

تعمل على التهامها مستغلة الوضع العربي الراهن ومستغلة أكبر نقطة ضعف وهي أن العرب ليس لهم قيادة عسكرية واحدة.

ثانيًا - أما إذا اتحد العرب والمسلمون بمعنى كلمة الاتحاد وصاروا كلهم دولة واحدة يحكمها حاكم واحد كما كانوا أيام الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وصار لهم جيش واحد وقيادة عسكرية واحدة وسحبوا ملايين المليارات من الدولارات من بنوك أوربا واستغلوها في التنمية المحلية والصحة والتعليم وصنع الأسلحة الحديثة وتطويرها كما يفعل اليهود وتركوا ما يغضب المولى - عزَّ وجلَّ - ورجعوا وأنابوا إليه وعقدوا العزيمة الصادقة بإيمان راسخ وتمنوا الشهادة في سبيل الله تعالى وفضلوا الجهاد على اللهو والمجون والعبث والراحة والكسل وأقاموا حدود الله تعالى وأحيوا شرعه القويم وأغلقوا الكباريهات وقضوا على الخلاعة والفسوق والعصيان والفجور وأصبحوا صادقين بمعنى الكلمة ومسلمين بمعنى الكلمة عند ذلك سيظهر فيهم أمثال صلاح الدين الأيوبي وقطز وبيبرس وطارق بن زياد وموسى بن نصير ويوسف بن تاشفين ومحمد الفاتح وقتيبة بن مسلم وغيرهم، وهذا سيتحقق أيضًا عندما يقتدوا بالقادة العظام من الصحابة أمثال خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وغيرهم ممن كان الجهاد والموت في سبيل الله تعالى والشهادة أحب إليهم من الحياة.

▪ عند ذلك فإن إسرائيل لن تنتظر في فلسطين لحظة واحدة حتى يهجم العرب والمسلمون بل سترحل من تلقاء نفسها ويفر اليهود مذعورين مدحورين طالبين النجاة بأرواحهم تاركين أموالهم ومتاعهم كما حدث لهم في خيبر وبني قريظة وبني النضير - ونأمل أن يكون ذلك اليوم قريبًا بإذن الله تعالى.

عوامل تخلف العرب:

قد يسأل سائل: ألم يستطع العرب في هذه الآونة الحاضرة صنع أو إعداد أي شيء لتحرير القدس وفلسطين من أيدي اليهود؟ والإجابة: نعم فقد أعد العرب أشياءً كثيرة لتحرير القدس وفلسطين من أيدي اليهود ولا نستطيع سردها ولكن نكتفي فقط ببعض الأشياء التي أعددناها على سبيل المثال لا الحصر فيما يلي:

١ـ المزيد من أفلام وتمثيليات الحب والمجون وباسم الفن.

٢ـ المزيد من الأغاني الخليعة التي تثير شهوة الشباب والفتيات، والتي تغضب المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ ولولا حلمه وأن رحمته سبقت غضبه لصب علينا العذاب صبًا.

٣ـ مجموعة خطرة من الأغاني التي انفق عليها المليارات وكأنها قنبلة لو ألقيت إحداها على تل أبيب لأحرقتها بالكامل كما أحرقت هيروشيما ونجازاكي وكأن إسرائيل كلما سمعت إحدى هذه الأغاني تخاف وتفكر في الرحيل عن القدس وفلسطين خوفًا من هذه الأغاني.

٤ـ مزيداً من دور الرقص واللهو.

٥ـ كثيراً من الأضرحة والقبور التي وضعت في المساجد الكبيرة لابتزاز أموال السذج والجهلاء من الناس باسم النذور.

٦ـ المزيد من الموالد التي أصبحت مصدراً أساسيًا للدخل لفئة معينة؛ فلابد أن يقام لصاحب الضريح (مولد) سنوي كل عام يكون فيه ما يكون من اللهو والمجون واختلاط الحابل بالنابل ـ الرجال بالنساء، والشباب والشابات ـ والرقص وكل ما يغضب المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ.

٧ـ المزيد من التفكك والشقاق والنزاع العربي والحروب والمذابح بين العرب وبعضهم البعض، وليست حرب العراق وإيران أو احتلال العراق للكويت في حاجة إلى كلام منا فالجميع يعرف ذلك جيداً ـ فلو وجهت عشر معشار الطاقة الحربية والتدميرية التي استهلكت في الحرب بين العراق وإيران لمدة ثمان سنوات مستَعِرَة أكلت الأخضر واليابس من الدولتين ـ إلى إسرائيل لأبادتها من فلسطين ـ وكان بطل هذه الحرب الخاسرة صدام حسين حاكم العراق والخوميني حاكم إيران، ولم يرضخا لإيقاف الحرب والصلح ولم يشبعا من دماء المسلمين من الدولتين إلا بعد ثمان سنوات وبعد موت الخوميني ـ وكأن الرجلين قد اتفقا على الإجهاز على الدولتين والقضاء على الشباب المسلم من الدولتين قضاءً مبرمًا.

٨ـ السذاجة والغفلة وعدم الحيطة والحذر من العدو، ومثال ذلك المفاعل النووي العراقي الذي تركته العراق فريسة سهلة لليهود دون غطاء جوي دائم يحميه ودون حراسة جوية كفيلة برد أي عدوان عليه في الحال كما تفعل إسرائيل وغيرها من الدول النووية حيث تكون هناك مظلة جوية دائمة باستمرار فوق المفاعلات النووية سواء في إسرائيل أو غيرها ـ ولكن العراق تركت المفاعل مكشوفًا دون مظلة جوية تحميه وتركته فريسة سهلة للطائرات الإسرائيلية التي دمرته تدميراً كاملاً في ثوان معدودة وعادت جميعها إلى قواعدها سالمة دون إسقاط أي طائرة منها أو حتى إصابة طائرة واحدة ذراً للرماد في العيون ـ وقد قيل في صدد ذلك إن تدمير هذا المفاعل صار مصلحة كبيرة للعراق ـ فلو لم يدمر لأنتج قنبلة نووية كانت ستنفجر وتدمر حزب البعث العربي الاشتراكي.

٩ ـ كثرة الاتجاهات السياسية والعقائدية؛ فهذا تقدمي وهذا رجعي وهذا يميني وهذا يساري وهذا بعثي وهذا اشتراكي وهذا وحدوي ـ وهذا .. وهذا .. وهذا .. وقد بلغ من كثرة الاتجاهات السياسية أن أحد العرب أراد أن يسمي نفسه بأحد هذه الأسماء بحيث يكون له خاصة، وسأل أحد أصدقائه فنصحه أن يسمي نفسه تقدمي ـ ففعلاً سمى نفسه تقدمي ـ ولكنه اكتشف بعد ذلك أن هناك كثيرين بهذا الاسم (تقدمي)، فسارع في الحال وسمى نفسه (تأخري) ـ بينما جميع الأجناس اليهود نسيت جميع أصولها ودولها القديمة وتذكرت فقط أنها يهودية!!

١٠ ـ من أخطر الأعمال التي عملها العرب ـ وضع ملايين المليارات من الدولارات بواسطة ملوك وأمراء البترول العرب في بنوك أوروبا وأمريكا وذلك لتدعيم اقتصادهم حتى يتمكنوا من مساندة وتدعيم إسرائيل باستمرار وحتى يمكنهم صنع وتطوير المزيد من الأسلحة الفتاكة لتزويد إسرائيل بها ولتمكينها من السيطرة على العرب وفرض كلمتها عليهم ـ وقد مر بنا في الصفحات السابقة واقعة ذلك الأمير البترولي العربي الذي تبرع بعدة ملايين من ربحه في أحد بنوك إنجلترا لإحدى جمعيات الكلاب البريطانية ولم يقبل أن يتبرع بها كجزء من ديون مصر لأن ذلك في عرفه الخاص مخالف للقيم والكرامة العربية ـ وهناك أشياء كثيرة أعرضنا عنها لعدم الإطالة ـ ونذكر أن اليهود أثناء احتلالهم لفلسطين عام ١٩٤٨م ـ اتخذوا شعاراً: (بالدم والنار سقطت اليهودية ـ وبالدم والنار تعود من جديد) ـ ونحن نأمل أن يأتي ذلك اليوم الذي يفيق فيه العرب من سباتهم ويتحرروا من قيودهم كما نأمل أن يهب العرب والمسلمون لتحرير فلسطين والمسجد الأقصى؛ ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: ٤٠).

العدوان الثلاثي على مصر

ظلت الدولتان الصليبيتان إنجلترا وفرنسا تحلمان بأن تكون أرض مصر ملك لهما يتوارثانها ويتقاسمان امتلاكها واحدة بعد الأخرى ـ وسول لهما الشيطان كما صور لهما خيالهما المريض أن هذه الدولة مصر كباقي الدول العربية ملك لهما وازدادوا وتمادُوا بكل غرور في الصلف والعناد وفي تصميمهما على ذلك ـ ولم تكفِهم الحملة الفرنسية النابوليونية ـ ولم يكفهم الاحتلال الإنجليزي لمصر لمدة اثنين وسبعين عامًا امتصوا فيها دماء مصر والشعب المصري وسببوا لها من الضعف والفقر والتخلف والمرض ما لم يجهله أحد وانتهزوا فرصة أن مصر لم تتحرر من الاستعباد الإنجليزي إلا منذ أشهر قليلة ـ ولم تمتلك بعد جيشًا قويًا أو أسلحة حديثة تقاومهم بها لأنهم كانوا هم المسيطرون عليها والمتحكمون فيها طوال هذه المدة فمازالت بلا جيش يذكر وبلا سلاح يعتد به ويُؤْبه له فخططوا في الظلام مع ربيبتهم إسرائيل في أن يضربوا مصر ويحتلوا قناة السويس من جديد بعد ما أممها الزعيم جمال عبد الناصر موجهًا لهم أكبر صفعة نالوها في التاريخ الحديث ـ وكان يحكم هذه الدول ثلاثة سياسين ماكرين هم: إيدن رئيس بريطانيا، ومولِيه رئيس فرنسا، وبن جوريون قائد اليهود ورئيسهم ـ ويبدو أن فرنسا قد اشتاقت إلى الهزائم المصرية الساخنة المماثلة لهزائمها في المنصورة ودمياط أيام لويس التاسع، وفي الإسكندرية ودمنهور وإمبابة والقاهرة وغيرها أيام نابليون، ويبدو كذلك أن إنجلترا قد رغبت إلى هزيمة جديدة كهزيمة رشيد أيام فريزر، وكذلك في الإسكندرية ومدن القنال وغيرها أيام احتلالهم البغيض، فماذا فعلوا؟ ـ كل الذي فعلوه هو أنهم أظهروا بطولتهم على مدينة بور سعيد المصرية وهاجموها فماذا فعلت بهم؟ ـ أعطتهم درسًا لا ينسى وعبرة ذاقوها في العصر الحديث وأبادتهم وجعلتهم أضحوكة لدول العالم رغم ما كانوا يمتلكونه من أسلحة حديثة

ورغم أن المدينة كانت عزلاء من الأسلحة ولكنها كانت مسلحة برجالها الأبطال الذين دحروا الأعداء وردوهم على أعقابهم بعد أن قرروا ألا يقتربوا ثانيًا من شواطئ مصر - ويضيق المجال بسـرد التفاصيل العسكرية هنا ولكن نشير فقط إلى الصور الخيانية كما يلي:

١ - الخيانة اليهودية الصليبية: وهي أن يَعْتَدُوا على دولة متحررة منذ عهد قريب ولم تمتلك بعد أسباب القوة ويهاجمونها في غدر دون أي اعتبار للشهامة والكرامة، فهل يصح لشاب قوي متمتع بصحة جيدة أن يصارع طفلاً صغيراً مازال يحبو على الأرض؟!!

٢ - الحالة العربية: في خلال هذه الأزمة والأيام العصيبة التي مرت بها مصر وقف جميع العرب والدول العربية بل والإسلامية موقف المتفرج فلم يرسلوا إلى مصر مساعدة ولا حتى مسدسًا واحدًا ولا درهمًا مما لديهم من مليارات الدولارات البترولية وحتى لم يسحبوها من بنوك الأوروبيين الذين يهاجمون مصر ولم يرسلوا حتى معونة غذائية أو علاجية - حتى دول الخليج البترولية لم ترسل قطرة واحدة من بترولها - والعراق لم ترسل شيئًا وكل ما فعلوه أنهم كانوا يدعون فقط باللسان دون الفعل.

وحدة مصر وسوريا - والانفصال المشين

حدث موقفًا من نوع عجيب وغريب لا يصدقه عقل ولا يقبله إنسان لولا أنه قد صدر بالفعل - وصدر ممن؟ من أحد أنصار الإسلام وحتى لا نتجنى على الرجل ننقل ما جاء بمذكرات عبد اللطيف البغدادي أحد المؤسسين الكبار والبارزين لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وعضو مجلس قيادة الثورة - فكان معاصراً للأحداث التي واكبت الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م - فقد جاء في الجزء الثاني من مذكراته أثناء حديثه عن الوحدة بين مصر وسوريا تحت عنوان (انزعاج الملك سعود) ما يلي: «وكان قد أزعج

الملك سعود قيام الجمهورية العربية المتحدة ومثله في ذلك ملك العراق وملك الأردن الملك حسين، وكميل شمعون رئيس جمهورية لبنان ـ حيث كان الملك سعود يخشى على مملكته من هذا التطور التقدمي السريع في المنطقة وذلك التحمس الجماهيري الواضح لهذا التطور ـ وكان يخاف أيضًا من شعبية جمال عبد الناصر وتأثيرها على جماهير الشعب العربي ـ لذا عمل على الاتصال بعبد الحميد السراج (أحد كبار المسئولين السوريين في ذلك الوقت) بغرض إقناعه بأن يقوم بإحداث تلف أو تخريب في الطائرة التي سيستقلها جمال عبد الناصر عند عودته إلى القاهرة حتى تسقط به ويختفي بذلك من على المسرح السياسي العربي وذلك مقابل مليونين من الجنيهات تعطى للسراج ـ وقد رأى السراج أن يتمشى مع رسول الملك في العرض المقدم منه وعمل على تسجيل كل ما دار من أحاديث بينهما ـ وكان السراج منذ البداية قد أبلغ جمال بهذا الاتصال ـ وبعد أن استلم السراج مبلغ مليون من الجنيهات من مندوب الملك ـ قام جمال وأعلن عن تلك المؤامرة في كلمة ألقاها على الجماهير المحتشدة أمام قصر الضيافة بدمشق ـ وكان لإعلانه عنها دويًا مؤثرًا ـ الأمر الذي جعل الأمراء السعوديين يتقدمون إلى الملك سعود بطلب التنازل عن سلطاته لولي العهد الأمير فيصل بن عبد العزيز ـ وأن يعينه رئيسًا للوزارة ووزيرًا للخارجية[1].

■ ومن العجيب أن الملك المذكور هذا لم يدفع مليمًا واحدًا ليساهم به مجرد مساهمة في قتل أحد اليهود أو الإنجليز أو الفرنسيين أثناء اعتدائهم الغادر على مصر عام ١٩٥٦م ـ ولكنه يدفع مليونين من الجنيهات لقتل جمال عبد الناصر دون أي ذنب يرتكبه سوى شعبيته العربية وحب الجماهير له ـ وقد أدى هذا الحادث الخياني العجيب

(١) انظر: مذكرات عبد اللطيف البغدادي ٢/ ٤٧ ـ ٤٨.

إلى بذر بذور الشقاق والعداوة بين مصر والسعودية مما أضعف الأمة العربية أمام إسرائيل والقوى الأجنبية الخارجية المعادية ومزق شمل الأمة أكثر مما كانت عليه من قبل ـ وكرس كل من الفريقين جهده للكيد للفريق الآخر والإيقاع به ـ كما كانت مقدمة للحرب بين مصر واليمن.

■ **وهناك خيانة أخرى أفدح وأمر من السابقة:** هي خيانة قادة الانفصال السوريين وهم: العميد عبد الغني الدهمان، والعميد موفق عصافة، والمقدم هشام عبد ربه، والمقدم عبد الكريم النحلاوي، والمقدم حيدر الكزبري، والمقدم فيليب هنري.

فقد ارتكب هؤلاء أبشع جريمة وأفظع خيانة في حق الأمة كلها، فقد كان الأمل الكبير معقوداً في القضاء على إسرائيل بواسطة هذه الوحدة بين مصر وسوريا والتي تجعل إسرائيل بين فكي كماشة كما قال ابن جوريون قائد اليهود ورئيسهم، ففي حالة قيام أي حرب بين دولة الوحدة مصر وسوريا وبين إسرائيل كانت ستدير العمليات العسكرية في مصر وسوريا قيادة عسكرية واحدة ـ وهذا أشد ما كانت تخشاه إسرائيل ـ وقد بذلت أقصى ما في جهدها لإفشال وتحطيم الوحدة بين هاتين الدولتين بالذات لأنها تعلم جيداً أن الوحدة بينهما فيها نهايتها والقضاء عليها وإبادتها من الوجود فهي لا تستطيع إطلاقًا الحرب على أكثر من جبهة واحدة ـ فتنفرد بكل جبهة حتى تفرغ منها ثم تستدير إلى جبهة أخرى وهكذا ـ والذي يمكّنها من ذلك هو عدم وجود وحدة بين الدول العربية وبالتالي عدم وجود قيادة عسكرية واحدة لجميع الجبهات العربية المحيطة بها ـ وفي حرب أكتوبر ١٩٧٣م مثلاً حينما اتفقت مصر وسوريا مجرد اتفاق على أن يبدءا الحرب في وقت واحد تمكنوا من هزيمة إسرائيل هزيمة منكرة في بداية الحرب ـ ولكن لما انفردت بكل منهما على حدة تغير الموقف لصالحها واحتلت الجولان من سوريا وحدثت الثغرة في مصر ـ ولو كانت هناك قيادة عسكرية واحدة لاستمروا

في الانتصار الساحق عليها ـ وهل كانت إسرائيل تستطيع أن تحتل الجولان السورية وتسيطر عليها حتى الآن لو كانت هناك وحدة قائمة بين مصر وسوريا؟ ـ وهل كانت مصر ستقف هذه المدة منذ عام ١٩٧٣م وحتى الآن مكتوفة الأيدي؟ ـ لا يمكن ذلك بالطبع وكان لابد من تحرير الجولان إما بالمفاوضات أو بقوة السلاح. وكانت هذه فرصة العمر للعرب لكي يأخذوا دورهم بين دول العالم ويحرروا فلسطين ويقضوا على هذه الدولة اللقيطة التي لا تخشى كما قلنا وكما يعرف الجميع أي شيء سوى الوحدة بين العرب وخاصة بين مصر وسوريا فكي الكماشة بالنسبة لها ـ فقام هؤلاء الضباط بهذه العملية ـ عملية الانفصال التي لم تكن في صالح أحد سوى العدو الصهيوني إسرائيل ـ ومن العجيب أن عبد الكريم النحلاوي هذا كان من أشد المتحمسين للوحدة قبل قيامها ـ ثم كان من أكبر قادة الانفصال الأساسيين بعد ذلك ـ وقيل إن النحلاوي هذا قد شعر بصغر دوره في هذه الوحدة ففضل الانفصال على الوحدة وقام مع زملائه من الانفصاليين بهذه العملية التي حققت أماني إسرائيل وحلمها الذي تعيش عليه حتى الآن وهو عدم وجود أي اتحاد أو أي وحدة بين العرب وخاصة بين دول المواجهة وعلى رأسها مصر وسوريا ـ وبالرجوع إلى التاريخ نجد أن صلاح الدين الأيوبي لم يتمكن من تحطيم الصليبيين وسحقهم في حطين وغيرها ولم يتمكن من تحرير القدس إلا بعد أن قام بتوحيد الشام ومصر وأقام حول الصليبيين الكماشة العربية الإسلامية ـ وكان التاريخ سوف يعيد نفسه لولا هؤلاء الانفصاليون[١].

---

(١) انظر: المرجع السابق.

الباب الثالث عشر

حـرب اليمـن

ترددتُ كثيراً في الكتابة عن هذا الموضوع الخطير الذي يعتبر بحق حقبة سوداء قاتمة بل حالكة السواد في تاريخ شعبنا الطيب الأصيل وفي تاريخ مصر ـ وفي تاريخ بلد عربي مسلم وشقيق هو اليمن ـ وللأسف الشديد أن وسائل الإعلام في هذه الظروف كانت تطلق وبكل كذب واستخفاف بعقول الشعب ـ على قتلانا في اليمن عبارة (شهداء اليمن) ـ ولما سألتُ أحد العلماء: هل إذا ذهب مسلم لقتل مسلم آخر دون أي ذنب وقتله ذلك المسلم هل يعتبر شهيداً؟ ـ فأجاب على الفور وبكل حدة: لا ـ وكيف يعتبر شهيداً ـ.

وكنت كلما أسمع من وسائل الإعلام عبارة (شهداء اليمن) أو أقرأها في الصحف أزداد حيرة ودهشة، وبمرور الأيام عرفنا الحقيقة فكانت حرب اليمن هذه أكبر خنجر طُعنت به مصر واليمن بل والأمة العربية كلها ـ ولم يتفوق عليه سوى الخنجر الصدَّامي الذي طُعن به العراق وإيران والكويت فيما بعد بل وكل الأمة العربية والإسلامية كذلك ـ وحتى لا يكون الكلام غير موثق فإننا نقدم بعض ما جاء عن هذا الموضوع يقول الأستاذ/ وجيه أبو ذكرى (كانت حرب اليمن وبالاً على الأمة بأسرها) وبالطبع لا أستطيع أن أقدم عشر معشار ما جاء في هذا الكتاب عن حرب اليمن ولكن أكتفي بسرد القليل منه بقدر المستطاع ـ وللقارئ إن أراد المزيد من التفاصيل فعليه بالكتاب نفسه فسيجد فيه ما يشفي الغليل ويروي العليل عن هذا الموضوع وهو نشر المكتب المصري الحديث ـ فمن الصور الخيانية التي جاءت بهذا الكتاب ما يلي:

١ ـ رصد مصر لعدة ملايين من الجنيهات لجبهة تحرير السعودية بقيادة ناصر السعيد وهو شاب سعودي اختلف مع النظام السعودي وهرب إلى مصر لاجتماع وقيام

المخابرات العامة بوضع عـدة متفجرات في أماكن بالسعودية ـ كـثيرة ـ ولك أن تسأل أحد خبـراء الاقتصاد: كم كـان المليون الواحد من الجنيهـات في ذلك الوقت يساوي ويعادل من القيمة النقدية في هذه الأيام ـ فما بالك بعدة ملايين؟

٢ـ إعطاء عبـد الرحمن البيضـاني كتيبـة عسكرية مصـرية ترتدي الملابس المدنية يسافر بهـا إلى اليمن فور الانقلاب الذي قـاده عبد الله السلال ضد الأمـير البدر في اليمن في ٢٩ سـبتمبر ١٩٦٢ عقب وفـاة والده الإمام أحمـد ـ على أن ترتدي هذه الكتيبة الملابس العسكرية فور وصولها إلى اليمن لتقوم بحماية الانقلاب (أو الثورة)[١].

٣ـ نتيجـة لهذا التدخل فقد قام رجـال القبائل الذين نظمتهم السـعودية بدخول أحد المواقع المصـرية خارج صنعاء وذبـحوا كل من فيـه من المصريين وأخذوا مـعهم رءوسهم ـ وفوجئ باقي الجنود المصريين بجثث زملائهم (بلا رؤوس).

٤ـ دفـعت مصـر بمزيد من القوات حـتى فـاقت في وقت من الأوقات القـوات الموجودة داخل البلاد للدفاع عن سيناء وفي مواجهة العدو الصهيوني[٢].

٥ـ في عام ١٩٦٤م حينما سئل العميد محمد أحمد قاسم ضابط شئون القبائل: ماذا لو قامت إسـرائيل بعدوان على مصر مـستغلة وجود القوات المـصرية في اليمن؟ أجاب: تصبح كارثة.

٦ـ ولما سئل: لماذا؟ أجـاب بأن تطور القتـال دفع بالقيادة المـصرية أن ترسل إلى اليمن القوة الضاربة المصرية ـ وأن القوات المـصرية في سيناء لا يمكن أن تصد هجومًا إسرائيليًا[٣].

---

(١) انظر: مذبحة الأبرياء ص٤٧ ـ ٤٩ بتصرف.

(٢) انظر: المصدر السابق ص٥٠.

(٣) انظر: مذبحة الأبرياء ص٥١.

٧ ـ تحولت اليمن إلى منجم للذهب لأفراد القوات المسلحة حتى وصل عدد القوات في اليمن عام ١٩٦٤م إلى ٧٠٠٠٠ سبعين ألف مقاتل مصري.

٨ ـ أسرفت القوات النظامية المصرية في اليمن إسرافًا باهظًا في قوة النيران والذخيرة والصواريخ بلغت أعلى نسبة تكلفة حدثت في حروب العالم كله.

٩ ـ كان الجنود يسألون: لماذا نحارب في اليمن؟ وكان لابد من رشوة هؤلاء الجنود حتى يستمروا في القتال ـ ومن كثرة الرشوة للقوات المسلحة المصرية بل ولبعض القبائل من جهة ـ وكذلك الرشوة التي تقدمها السعودية لبعض القبائل من جهة أخرى خلقت طبقة لها مصلحة في استمرار الحرب في اليمن.

١٠ ـ جاء أيضًا في هذا المرجع ما يلي: «في اليمن قضيت الليلة في غرفة مع مقدم، ووجدته طول الليل يعد في حبات صفراء غريبة ثم يقوم بعملية حسابية في مذكرة صفراء بجواره، فاستيقظت من نومي لأعرف سر هذه الحبات الصفراء وعلمت منه أنها (فونية) لبابور الجاز (البريمس) فالواحدة رخيصة جدًا في القاهرة وغالية جدًا في اليمن، وهو يقوم بشراء عدة مئات أو آلاف من القاهرة ويبيعها في أسواق صنعاء وعدن، وهو (المقدم المقاتل) يشتري دخان النرجيلة من اليمن بكميات هائلة لأنه أرخص بكثير من القاهرة ويبيعه في مصر وفي سبيل ذلك أشرك قائده في هذه التجارة حتى يسمح له بالنزول والعودة عدة مرات»[1].

١١ ـ فقدت القوات المسلحة المصرية واجبها الحتمي وهو التدريب ورفع كفاءتها القتالية على أسلوب العمليات المشتركة وهي طبيعة المعركة المنتظرة مع العدو الصهيوني ـ ولم يكن في مسرح العمليات أي نشاط جوي معادي وبالتالي لم يتم عمليًا تدريب

(١) انظر: المصدر السابق ص٥٢ ـ ٥٤.

أي قوات للدفاع الجوي ـ وبذلك يمكن القول إن السنوات الأربع السابقة مباشرة لحرب ١٩٦٧م لم يتم فيها تدريب جاد من أي نوع استعداداً للمعركة الفاصلة ولم تجهِّز مصر نفسها أو مسرح عملياتها المنتظرة (سيناء) لمعركة مع العدو الإسرائيلي، وبدأت الكروش تتقدم المقاتلين والجيوب تنتفخ[1].

١٢ ـ وكانت أخطر خسارة عادت على القوات المسلحة المصرية هي إقحام صفات مخلة على صفات وأخلاق المقاتلين وهي:

(أ) انحلال الانضباط العسكري وهي صفة اكتسبت في مسرح اليمن.

(ب) الوساطة والمحسوبية سعيًا وراء المرتب المضاعف واستغلال النفوذ لأغراض شخصية.

(جـ) الاستهانة بالفاعلية الحقيقية لمطالب القتال والإهمال في العناية بالأسلحة والاحتفاظ بالمعدات الحربية سليمة وصالحة.

(د) وصلت هذه الحالة المؤسفة إلى حد اقتراح الضباط المصريين في اليمن أن يطلبوا عقد امتحان شهادة الثانوية العامة لأبنائهم وأقاربهم هناك في اليمن، وانتقل جميع الدارسين مرتين وثلاثًا إلى أرض الوطن ناجحين وحاصلين على الثانوية العامة بتفوق ـ وأدى ذلك إلى هز الثقة في بعض القيادات وضباط مكتب المشير وقد عولج الموقف بإحالة بعض الضباط الصغار إلى المعاش وكان وراء ذلك كله الرائد/ علي شفيق صفوت السكرتير العسكري للمشير عبد الحكيم عامر[2].

(هـ) وهكذا فإن تأثير حملة اليمن السلبي على القوات المسلحة المصرية ترتب عليه دخولها معركة ١٩٦٧م ضد العدو الصهيوني وهي غير معدة إطلاقًا للحرب

(١) انظر: مذبحة الأبرياء ص٥٦.

(٢) انظر: المرجع السابق ص٥٧ ـ ٥٨.

الحديثة، ناقصة التدريب منخفضة المستوى ـ كفاءتها القتالية ضعيفة جداً ـ فاقدة للانضباط العسكري ومعداتها التي استخدمت في اليمن غير مصونة[(١)] .

حرب يونية ١٩٦٧م

عندما توفي الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر انبرت مئات الأقلام والصحف والكتب للهجوم عليه ـ ووجدت الصحافة في ذلك مادة دسمة حتى الذين كانوا يؤيدونه أو بمعنى آخر ينافقونه في حياته، أخذوا أيضًا في الهجوم عليه وقطعوا في ذلك شوطًا طويلاً، وأصبحت مهاجمته هي الشغل الشاغل للكثيرين فقد أدلى كل منهم بدلوه ـ وأخرج كل منهم ما في جعبته ـ وأظهر كل منهم عبقريته وفصاحته للهجوم عليه، ولم أكن أود التعرض إطلاقًا لذكر الرجل لولا أن اسمه مرتبط أشد الارتباط بحرب يونية ١٩٦٧م ولا أريد أن أنضم لقائمة هؤلاء المهاجمين له أو المدافعين عنه، ولكن المرء يستنتج من ذلك الهجوم أن الرجل كان له أعداء كثيرون في الداخل وفي الخارج ومعظمهم بل وكلهم من ذوي الجاه والسلطان والمناصب الخطيرة قبل الثورة التي قادها في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، فمنهم أصحاب الثروات الطائلة التي أخذها منهم لأنهم امتصوها من دم الشعب، ومنهم أصحاب وملاك الأراضي الزراعية المقدرة بآلاف الأفدنة والتي انتزعها أيضًا منهم ووزعها على الشعب، ومنهم أصحاب المصانع والمحلات التجارية الكبيرة مثل هانو وصيدناوي، وعمر أفندي، وغيرها والتي أممها أيضًا لمصلحة الشعب، ومنهم وزراء سابقون ومنهم أساتذة جامعات، ومنهم أصحاب رتب كبيرة جداً في الجيش سابقًا، ومنهم أعضاء سابقون كانوا زملاء له في مجلس قيادة الثورة ومنهم رؤساء أحزاب سياسية، ومنهم صحفيون، ومنهم .. ومنهم ..، أما في الخارج فحدث ولا حرج وخاصة في الدول العربية، فلم تكن

(١) انظر: مذبحة الأبرياء لوجيه أبي ذكرى ص٥٩.

هناك دولة عربيــة لها علاقات طيـبة بمصر سوى الجـزائر والسودان بعض الشيء وفي بعض الأحيـان، وكذلك في الدول الأجنبيـة فكان العداء المستـحكم بينه وبين أمريكا وجمـيع دول الغرب وعلى رأسها إنجلتـرا وفرنسا وكلهـا دول عظمى وذات إمكانيات كبيـرة ورهيبة وهوليس له أي ذنب في هذا العداء فلم يقـبل أن تظل مصر ذيلاً لهم، وإنما أرادها حرة مـستقلة ذات سـيادة، وكانت هذه أمنـية كل مصـري مخلص لوطنه ومعتز بكرامته ومـصريته وعروبته، أما الدول الشرقية والشيـوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفـيتي فكانــت العلاقة مـتأرجـحة تارة طيـبة وتارة عكرة ومـدخنة، ولـم يكن له أصدقاء سوى نهرو رئيس الهند وتيتو رئيس يوغوسـلافيا وهما لا حول لهما ولا قوة وصداقـتهــما لا تســمن ولا تغني من جوع، وباخـتصـار كان العداء شـديدًا للرجل ومستحكمًا حوله من الداخل ومن الخارج، وكل من عاصر هذه الفترة يعلم ذلك جيدًا.

ضرب المطارات المصرية في حرب ١٩٦٧:

ولنا ان نسأل سؤالاً هامًا بعد ذلك لأن مصر بلدنا جميعًا وليست بلد فرد بعينه: هل يعجـز كل هؤلاء الأعداء في الداخل والخـارج بما لديهم من أموال طائلة وإمـكانيات رهيبة وقُدُرَات واسـعة على التخطيط المتقن والمحكم والمحسوب إلكتـرونيًا بأحدث ما وصل إليه العلم الحـديث من أجهزة، في تدبير مـؤامرة خيانيـة للرجل للإطاحة به؟ ولإرجاع مصـر كما كانت قبل قـيام الثورة؟ **ولنا ان نسأل سؤالاً آخر:** من الذي عرف إسـرائيل أماكن مطاراتنا كلهـا لتـضربهـا جمـيعًـا وتدمرها في وقت واحـد رغم أن المفروض أن تكـون هذه المطارات من أهم وأخطر أسرار الدولة والجـيش ولا يعرفـها إطلاقًا سـوى الطيارين ورجال القوات الجـوية وقادتهم ورئيس الأركان والقـائد العام للقوات المسلحـة؟ ألا يجوز أن يكون في الأمر خيـانة مستترة جـدًا ومختفـية بحيث يصعب اكـتشـافهـا ولو بعد حين؟، وإذا كانـت الخيانة مـوجودة في جـميع العـهود والعصور والأزمنة وفي عهد الرسل والأنبياء وفي عهـد نبينا محمد ﷺ نفسه، فما

الذي يمنع أن تكون موجودة في ذلك الوقت وفي ذلك العهد الذي اشتدت فيه الصراعات والخلافات والنزاعات؟ وسؤالاً ثالثًا: من الذي وضع الطائرات مكشوفة للعدو ليفترسها ويدمرها جميعًا في وقت واحد رغم أن المفروض ألا يراها أحد سوى الطيارين والمختصين في وقت السلم.

فما بالك بوقت الحرب؟ ألا يجوز أن تكون الخيانة السابقة هي التي فعلت ذلك؟ وسؤالاً رابعًا: من الذي أخبر العدو أن طائرة المشير ستكون معلقة في الجو في هذه الساعة من صباح ٥ يونية ١٩٦٧م ـ ذلك اليوم الحزين ـ فهل كل هذه الأشياء أتت عفواً دون قصد أم أنها أتت منسقة نتيجة لعملية خيانية كبيرة ومحكمة بدقة وإتقان وعلى أوسع نطاق لضرب مصر وهزيمتها في شخص جمال عبد الناصر للقضاء عليه والتخلص منه، ولا يستطيع أحد أن يعفي جمال عبد الناصر من المسئولية لأنه هو بنفسه اعترف بتحمله للمسئولية كاملة، أما عن وطنية الرجل وحبه لشعبه وحب شعبه له فلا يستطيع أحد أن ينكر ذلك سوى أعداءه، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الله تعالى قد جعل مصر تنتقل على يديه من عهد إلى عهد، من عهد الاحتلال الإنجليزي والألباني التركي ممثلاً في الملك فاروق حفيد محمد علي الألباني التركي، إلى عهد التحرير من الاحتلال وعهد الاستقلال والعزة والكرامة، ولا نقول ذلك في مجال الدفاع عن الرجل لأنه ليس في حاجة منا إلى دفاع ولندع من يريد مهاجمته ليهاجم كما يشاء فإن الدفاع عنه لم يعد ينفعه وكذلك الهجوم عليه لم يعد يضره لأنه الآن بين يدي الحكَم العدل اللطيف الخبير، ومرة أخرى أؤكد أنني لم أقصد التعرض إطلاقًا لذكر الرجل بخير أو شر إلا لأنه مرتبط أشد الارتباط بحرب يونية ١٩٦٧م ـ والتي سماها بنفسه النكسة ـ ولا نريد التعرض لأحداث النكسة فقد كُتِبَ عنها الكثير من قبل، ومن أحسن ما كتب عنها كتاب (مذبحة الأبرياء) للأستاذ/ وجيه أبو ذكرى، لمن أراد الاطلاع، ولكن نتعرض فقط لبعض الصور الخيانية.

بعض الصور الخيانية التي واكبت حرب يونية ١٩٦٧م

أولاً - الخيانة السوفيتية:

١ - هي التي تسببت بعملية محكمة في حرب يونية ١٩٦٧م، وذلك بأنها أخبرت مصر كذبًا وزورًا أن هناك حشودًا عسكرية إسرائيلية على حدود سوريا وذلك لتورط مصر في حرب هي غير مستعدة لها لانشغالها في اليمن فهي تعلم إمكانياتها جيدًا فأرادت توريطها بحجة الدفاع عن سوريا رغم عدم وجود أي حشود إسرائيلية وذلك باعتراف سوريا نفسها وبما التقطته طائراتها الاستطلاعية من صور، ولكن موسكو أخذت تضخم هذا الخبر المكذوب إعلاميًا، وتزيد من حماسة مصر حتى زج بجيشها غير المستعد في معركة غير متكافئة مع إسرائيل حتى يتم تدمير أسلحة الجيش المصري لتقوم مصر بشراء أسلحة بدلاً منها من الاتحاد السوفيتي سابقًا ويزداد حجم ديونها له وتزيد بالتالي من السيطرة السوفيتية على مصر - وهذا ما حدث بالفعل بعد النكسة - وقد أجمعت المراجع الخاصة بهذا الموضوع على ذلك[١].

٢ - أخبر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في خطابه بعد النكسة مباشرة أن السفير السوفيتي طلب الاتصال به في مكالمة تليفونية هامة وعاجلة في الساعة الثالثة من صباح الخامس من يونية وطلب منه ألا تبدأ مصر بإطلاق النار وأن تعمل على ضبط النفس، وكانت ثقة مصر والرئيس جمال عبد الناصر في ذلك الوقت بالاتحاد السوفيتي شديدة وزائدة وليست في موضع شك، ويقول اللواء طيار أركان حرب/ علي محمد لبيب متهكمًا: « . . . وقبل الساعة التاسعة من صباح ٥ يونية (لم تتمكن) رادارات الأسطول السوفيتي من اكتشاف موجات إسرائيلية وهي في طريقها لتبدأ هجومًا جويًا مفاجئًا على مصر، ثم يقول: وإذا كانت الرادارات السوفيتية القادرة

---

(١) انظر: كتاب مذبحة الأبرياء للاستاذ وجيه أبو ذكرى وكتاب القوة الثالثة للواء طيار علي محمد لبيب.

على كشف هجوم ذري أمريكي ومجهزة بالكفاءة العالية لهذا الغرض، لم تتمكن من اكتشاف الهجوم الإسرائيلي فقد سبقتها المخابرات السوفيتية القوية حيث لم تقدر على كشف النوايا الإسرائيلية على العدوان .. إلى أن يقول: نعود لنكرر أن تلك النصيحة السوفيتية في الثالثة من صباح ٥ يونية من السفير السوفيتي تكمن وراءها دوافع تدعو إلى الشك والريبة»[١].

ومعنى هذا أن سيادته يريد أن يقول: تكمن وراءها دوافع خيانية من الاتحاد السوفيتي، وليس سيادته أول ولا آخر من قال ذلك، ثم يستطرد بعد ذلك فيقول: « ... وتم تغيير في الوزارة الإسرائيلية وقام مندوب إسرائيلي بزيارة مفاجئة وغامضة أول يونية إلى واشنطن وبالطبع بقي سر هذه الزيارة المفاجئة سراً لا يعلن، ثم جاء التحذير السوفيتي لمصر بعدم البدء في إطلاق النار، وكان التحذير في الثالثة صباح ٥ يونية، واستمر التحذير السوفيتي محتفظًا بكامل قوته وتأثيره على القيادة المصرية حتى وقوع العدوان الإسرائيلي».

ثانيًا ـ الخيانة الأمريكية:

ما نكتبه في هذا الصدد يعرفه الكثيرون خاصة كل من عاش وعاصر أحداث هذه النكسة في ٥ يونية ١٩٦٧م الحزين الذي كنا نظن قبله أننا سنحرر فلسطين ونلقي بإسرائيل في البحر ولكن خاب أملنا في هذا اليوم وخاب آمل كل العرب والمسلمين، لذلك ننقل الأسطر التالية عن الخيانة الصليبية الأمريكية: « ... يؤكد السيد اللواء أركان حرب/ محمد عبد العزيز قابيل أنه كان لدى الولايات المتحدة الأمريكية تقريراً يؤكد أن مصر لن تحارب لأنها لا تملك القدرة على ذلك، وأن ما تقوم به مصر هو مظاهرة عسكرية، وقد انتقل هذا التقرير إلى إسرائيل في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق جونسون، وقد قام جونسون بإعطاء الضوء الأخضر لإسرائيل للقيام بالضربة

---

(١) انظر: كتاب القوة الثالثة.

الأولى، وقد تم إرسال (السفينة ليبرتي) للتشويش على اتصالات القوات والرادارات المصرية وسرعة فك شفرة الاتصالات، وذلك في الوقت الذي رحبت فيه الإدارة الأمريكية بزيارة السيد/ زكريا محي الدين نائب رئيس الجمهورية قبل بداية الحرب كنوع من الخداع[1] .

ثالثًا ـ الخيانة السورية:

عودة إلى مذكرات موشى ديان: لا نكتب هذا الكلام جزافًا ولكن ننقله حرفيًا من مذكرات وزير الدفاع الإسرائيلي في حرب يونية ١٩٦٧م، موشى ديان أو (موشه دايان)، فقد جاء ما يلي: «وفي زعورة أيضًا أبدى السوريون مقاومة ضارية فقاتلوا ببطولة، واحتلال تل باهر الموقع المهم الثالث في الجولان الشمالي عهد به إلى كتيبة من المشاة الإسرائيلية منقولة ومدعومة بنصف مجنزرات تابعة للواء (يونا) الإسرائيلي تساعد سرية تامة من المصفحات، وفيما كان رجالنا يقتربون من الهدف السوري كانوا يتعرضون لنيران مباشرة غاضبة من المواقع السورية المحصنة التي أعطبت في وقت قليل ست نصف مجنزرات وست آليات، فسدت اثنتان منها الطريق، وبعد ذلك بدقائق انفجرت النصف مجنزرة التي تحمل مدفع الهاون، فيما جمدت إصابة مباشرة النصف مجنزرة القيادية، وعلى هذا الوجه وجد قائد الكتيبة الإسرائيلية وأربعة من الضباط الإسرائيليين أنفسهم معزولين عن سائر القوات والمعركة في أوجها، وعندئذ ترك رجال قوة الطليعة الإسرائيلية آلياتهم وواصلوا هجومهم على الأقدام، فهاجم ضابط و١٢ جنديًا تل باهر السوري من الشمال فيما هاجمتها قوة مماثلة من الجنوب، وبحماية مدفعيتنا تعدت القوتان حزام الألغام وسائر عوائق الحماية من غير خسائر، لكن عند وصولها إلى داخل التحصينات العدوة اصطدمتا بمقاومة عنيفة من القوات السورية فأبيدتا، فقد أخرج من المعركة عشرة من المهاجمين من ناحية الجنوب بينما

(١) انظر: كتاب مذبحة الأبرياء للأستاذ وجيه أبو ذكرى.

أصيب اثنا عشر من القوة المهاجمة من ناحية الشمال، وقد قتل ضابط القوة الإسرائيلي الأخير، وفي الليلة نفسها لقي المصير نفسه قائد الكتيبة الإسرائيلية وقائد سرية وأصيب مساعد قائد الكتيبة إصابة مميتة، ولم ننجح في الاستيلاء على تل باهر السوري إلا بعد وصول إمدادات وإعادة تنظيم القوة، وبقيادة مساعد قائد لواء (جولاني) الإسرائيلي جرى إطلاق ما تبقى من قوات الهجوم مع سرية استطلاع ومجموعة دبابات وعدد من النصف مجنزرات على التحصينات العدوة الشمالية، وعندئذ تخلت القوات السورية عن الموقع، وفي صبيحة اليوم التالي السبت ١٠ حزيران يونية ١٩٦٧م لاحظ رجالنا أن المدافعين السوريين قد تخلوا في جو من الفوضى عن مواقعهم ليلاً، تاركين وراءهم المدافع المضادة للدبابات، والرشاشات الخفيفة والثقيلة، فإن الهزيمة التي حلت بهم في اليوم السابق وغارات طائراتنا المتواصلة قد حطمت معنوياتهم، ومن خلال ذلك نتبين مدى البطولة العظيمة والمقدرة الفائقة على القتال التي يتمتع بها الجندي السوري باعتراف العدو نفسه شأنه كشأن الجندي المصري والأردني والعراقي وأي جندي مسلم متى وجد القيادة السليمة التي توجهه التوجيه السليم وتتيح له فرصة المواجهة الحقيقية للعدو وذلك باعتراف العدو نفسه)[1] ثم يستطرد موشى ديان في نفس الفقرة فيقول: (والضربة الحاسمة كانت: إعلان إذاعة دمشق سقوط القنيطرة قبل سقوطها فإن الحكومة السورية أعلنت في الثامنة والنصف من صبيحة اليوم التالي سقوط القنيطرة لتدفع مجلس الأمن إلى اتخاذ قرار بوقف إطلاق النار فوراً، وفي الواقع: لم يكن أي جندي إسرائيلي قد ظهر ساعتئذ في المدينة، والقوات السورية في الجبهة ما كادت تسمع النبأ (نبأ سقوط القنيطرة) حتى انطلقت مدبرة، ولما وصلت قواتنا حوالي الظهر إلى القنيطرة والبطيحة ومسعدة وهي أهدافنا الأخيرة في الجولان وجدتها خالية»[2].

---

(١) انظر: (الفاشية) مذكرات موشى ديان ترجمة جوزيف صغير ص٣٠٣.

(٢) المصدر السابق ص٣٠٤.

هذا الكلام يوضح الخيانة والفضيحة الكبرى التي ارتكبتها القيادة والإذاعة السورية في ذلك الوقت بإعلانها كذبًا وزورًا عن سقوط القنيطرة وهي لم تسقط بعد بل أخلتها وتركتها فريسة سهلة ودسمة للعدو ليلتهما دون أي قتال فقدمت بخيانتها كلا من القنيطرة والبطيحة ومسعدة هدايا سهلة للعدو ليبتلعها في جوفه دون أن يخسر فيها طلقة رصاص واحدة.

ولا أظن أن موشى ديان يكذب في مذكراته هذه لأنه يعلم جيدًا أنها سوف تُنشر في جميع دول العالم وبجميع لغات العالم، ومن الذي تسبب في ذلك؟: إن الإجابة على هذا السؤال محيرة جدًا ولا يكاد يصدقها عقل، وقد ترددتُ كثيرًا في كتابتها بعد قراءتها في عدة مصادر ولكني كتبت عنها لتعرفها الأجيال القادمة التي من حقها أن تعرف كل شيء عن تاريخ بلدها ووطنها العربي والإسلامي، ومسئولية الأجيال الحاضرة هي نقل الأحداث بصدق وأمانة للأجيال القادمة، ولعلك لا تصدق مقدمًا ما سوف ننقله لك، وما سوف تقرأه، يقول الدكتور/عبد الله محمد الغريب: « ... ليس هناك من عاقل يعرف حافظ الأسد، ويصدق بأنه سيحارب إسرائيل، إنه وحده صاحب بلاغ سقوط القنيطرة»[1]،وقال أيضًا: « .. أنهم - أي السوريون - سلموا الجولان لإسرائيل في حرب عام ١٩٦٧م، ثم قدموا لها جيوبًا أخرى في حرب عام ١٩٧٣م»[2]، وعلى هذا يمكن القول بأن الجيش المصري راح ضحية قيادة فاشلة ومهملة في حرب يونية ١٩٦٧م، بينما الجيش السوري وقع ضحية قيادة خائنة، وقال أيضًا: « .. وبَعثْ الأسد أي حزب البعث السوري هو الذي أذاع بلاغ سقوط القنيطرة، والأسد نفسه هو الذي أذاع هذا البيان عندما كان وزيرًا للدفاع»،

(١) انظر: وجاء دور المجوس ص٣٩٣.

(٢) المصدر السابق ص٤٢١.

« . . وبعث الأسد هو الذي فاوض اليهود، وأعاد العلاقات مع أمريكا، وتحالف مع موارنة لبنان المسيحيين ضد المسلمين . . »[١]، وحتى لا تظل مصر متهمة أنها هي وحدها سبب الهزيمة بل شاركها آخرون في صنع الهزيمة.

رابعًا ـ الخيانة العربية بوجه عام:

الجميع يعلم أن جميع الدول العربية بوجه عام وخاصة الدول البترولية وقفت موقف اللامبالاة فلم تقدم سوى البيانات والاستنكارات والنشرات الإخبارية بل إن بعضها وقف موقف الشماتة فلم تصل إلى مصر أو سوريا أو الأردن أي طائرة أو مدفع أو دبابة أو طلقة رصاص أو دولار واحد أو برميل واحد من البترول العربي، ولا أي معونة طبية؟ أو غذائية ولنترك الجراح العربية عسى أن تلتئم.

ومن المعروف جيدًا: أن الخائن إما أن يهرب ويذهب إلى أحضان أسياده الذين استخدموه في الخيانة ثم يتخلصوا منه بعد ذلك بقتله لأنهم يعرفون أنه ما دام قد خان بلده فلا يتورع عن خيانتهم كذلك، وإما أن يُقتل في الحال إن أمكن قتله فور انتهاء عملية الخيانة التي قام بها حتى لا تكتشف عملية الخيانة، وإسرائيل ضليعة جدًا ومتميزة ولها خبرة كبيرة في استقطاب الخونة أولاً واستخدامهم لصالحها ثم التخلص منهم سريعًا حتى لا تكتشف عملياتهم الخيانية وحتى يمكن تكرارها.

خامسًا ـ شاه إيران:

وتتمثل خيانة هذا الرجل بإمداد إسرائيل بالبترول وعدم تقديم أي مساعدة للعرب والمسلمين، وهذا الرجل محمد رضا بهلوي شاه إيران كان العميل الأول لأمريكا وإنجلترا في الشرق الأوسط وقد تسبب في عداء مستحكم بين مصر وإيران منذ زواجه بأخت الملك فاروق ثم طلاقها، وكان المفروض أن يزول هذا العداء وينقلب إلى

---

(١) المصدر نفسه ص٤٣٢.

صداقة بين الدولتين في عهد الثورة التي طردت الملك فاروق، ولكنه أصر على عدائه لمصر ولمعظم الدول العربية وتمادى في عمالته لأمريكا ودول الغرب؛ فكان بالنسبة لأمريكا بمثابة الشرطي الأمين والحارس لمصالحها في منطقة الشرق الأوسط، وقد تقاعس عن مساعدة العرب ضد إسرائيل في حرب ١٩٤٨م، أثناء الاحتلال الصهيوني الإسرائيلي لفلسطين، ووقف هو وتركيا بصفتهما أقوى دولتين إسلاميتين في ذلك الوقت موقف اللامبالاة وموقف المتفرج الشامت بالعرب والمسلمين، وكذلك لم يقدم هذا الرجل المعروف (الشاه) أي مساعدة لمصر أثناء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م، وحتى لم يستنكر هذا العدوان كبقية الدول الإسلامية وكذلك لم يقدم أي مساعدة للجزائر العربية الإسلامية أثناء حرب التحرير ضد الاحتلال الفرنسي.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كانت له صداقة حميمة بإسرائيل وأقام معها العلاقات السياسية والاقتصادية المشبوهة، وكان العداء على أشده بينه وبين الزعيم جمال عبد الناصر الذي حاول بكل جهده جذب هذا الرجل لصفه ولحظيرة العرب والمسلمين ولكن دون جدوى، وباختصار شديد كان هذا الرجل هو العميل الأول للاستعمار الأوروبي والأمريكي فكان الابن الثاني لأمريكا بعد إسرائيل، وكل من عاش وعاصر عهد هذا الرجل يعرف مدى عمالته وعدائه لمصر والعرب من خلال الصحف اليومية في ذلك الوقت، وقد تجلت وانفضحت خيانة هذا الرجل بإمداده إسرائيل بكمية ١٨ مليون طن من البترول سنويًا تصل إليها من إيران عبر بوغاز باب المندب إلى ميناء إيلات الإسرائيلي فتستخدم منها جزءًا لإنعاش مصانعها وصناعتها وتصدر الجزء الأكبر منه إلى دول أوروبا محققة بذلك أرباحًا طائلة[1]، وظل الحال هكذا حتى قامت حرب رمضان (أكتوبر) المجيدة فقامت قواتنا البحرية المصرية بإحكام السيطرة المصرية على بوغاز باب المندب وحرمان أي سفينة إسرائيلية من المرور به فلم تدخل سفينة إسرائيلية واحدة خليج العقبة عبر باب المندب وأغرقت للعدو الإسرائيلي

---

(١) انظر: مذكرات المشير محمد عبد الغني الجمسي ص٣١٨.

ناقلة بترول كانت محملة بمقدار ٤٦ ألف طن بترول ثم ناقلة أخرى محملة بكمية ٢٠٠٠ طن بترول، وهكذا نجحت بحريتنا المصرية العظيمة في تعليم إسرائيل المبادئ ولقنتها درسًا بحريًا قاسيًا ضمن الدروس البحرية المصرية الأخرى التي لقنتها لها منذ حرب يونية ١٩٦٧م، ومنها على سبيل المثال إغراق المدمرة إيلات الإسرائيلية.

ونعود إلى هذا العميل الخائن شاه إيران أعز أصدقاء إسرائيل الذي عمل على إنعاشها اقتصاديًا بالبترول الإيراني بكمية ١٨ مليون طن سنويًا، فقد شاء الله تعالى أن يدفع هذا الرجل ثمن خيانته للإسلام والمسلمين وثمن وقوفه ضد أمته الإسلامية فقامت ضده الثورة الإيرانية العارمة بواسطة الخوميني وطردته من البلاد وابتلاه الله تعالى بالمرض ولفظته جميع دول العالم بما فيها أمريكا الذي كان العميل الأول والابن البار بالنسبة لها في منطقة الشرق الأوسط وبمثابة الشرطي والحارس الأمين لمصالحها، فلفظته في اشمئزاز وتخلت عنه في أحلك وأصعب أيامه وأوقاته، وذلك أنه كان قد قدم لها كل ما في جعبته من خيانة للمسلمين ومن عمالة لها ولم يعد في جعبته ما يقدمه لها فقالت له: أيها الشاه العميل: فلتذهب إذن إلى الجحيم، ولم تحتضنه أي دولة من دول العالم سوى مصر، فقد استضافه الرئيس السادات رأفة به واحتضنه في رحاب مصر وعامله أطيب معاملة وأظهر له من العطف والكرم والشفقة ما يعجز عنه الوصف، ولما مات قام بدفنه في أرض مصر الطيبة الطاهرة، وقد كتم الشعب المصري المتسامح غيظه لذلك احترامًا للرئيس السادات ـ ونحن نختلف مع الرئيس السادات في ذلك.

ونحن نتساءل: هل كان هذا الشاه عاجزًا عن تصدير هذه الكمية (١٨مليون طن) من البترول بنفسه لدول أوروبا وأمريكا وغيرها، والاستفادة بهذا الربح العظيم الذي كانت تحققه إسرائيل من وراء ذلك؟ وقد كتب الكثير عن التعاون بين المخابرات الإيرانية (السافاك) والمخابرات الإسرائيلية (الموساد) في عهد هذا الشاه.

وقبل أن ننهي الكلام في هذا الموضــوع نقدم جزءاً من كلام اللواء محــمد لبيب يقول: «تركت القيــادة المصرية القواعد الجويــة بممراتها المتقاطعــة على حالها، وزادت بأن تركت الطائرات على أرض هذه القواعد في العراء دون أي ساتر يحميها وأضافت إلى أخطائهــا المتعــددة الخطأ القــاتل بترتيب الطــائرات داخل بعض هذه القواعــد في صفوف منــتظمة لتكون فريسة ســهلة للهجوم الجوي الإســرائيلي، وهو في ذلك تتبع أساليب الاســتعراض القديمة البــالية، وتسبب ذلك في تمكين الطيــران الإسرائيلي من تدمير عدد ٢٧٢ مــائتين واثنين وسبعين طائرة حربية مــصرية على الأرض في الضربة الجــوية صبــاح ٥ يونية ١٩٦٧م كــما دمــرت ممرات عدد ١٠ عــشرة قــواعد جــوية رئيسية[1]، ويتحدث المشــير محمد عــبد الغني الجمسي بخصــوص حرب يونية التي اشعلتها إسرائيــل بهذه الضربة الجوية القاتلة فيقول: بدأت الحــرب في الجبهة المصرية صبــاح يوم الإثنين ٥ يونية ١٩٦٧م بينما كــان المشير/عبــد الحكيم عامر القــائد العام للقوات المسلحــة يرافقه الفريق/صــدقي محمــود قائد القوات الجوية المصــرية والدفاع الجوي وبعض القادة الآخرين في طريقهم جواً إلى مطار (تمادة) بسيناء لتفقد القوات، فاضطرت الطائرة للعودة بهم للقاهرة لعــدم إمكانها الهبوط في أي مطار في سيناء أو منطقة القناة حيــث كانت كلها تقصف بالطائرات الإسرائيلــية، وفي نفس الوقت كان كبــار القادة المصريين في سينــاء يتجمعــون في مطار تمادة لاستقــبال المشير عــامر عند وصوله بعــيدين عن مراكز قيــاداتهم، وقد هاجمت الطائرات الإســرائيلية المطار أثناء تجمعهم فيه ودمــرت جميع الطائرات الموجودة فيه مبتدئه بضــرب المــمرات لجعلها غير صالحــة، وضرب الطائرات الواقفــة على الأرض، وكان المفــروض أن تظهر الطائرات المصــرية المقاتلــة سريعًــا لامتــلاك زمــام الأمور وانتــزاع السيــطرة الجوية من العــدو

(١) انظر: كتاب القوة الثالثة للواء طيار علي محمد لبيت ص١٧٤.

الإسرائيلي ولكنها كانت تضرب كلها بالطيران الإسرائيلي في وقت واحد، وتشاء الظروف أن يكون حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية ومعه طاهر يحيى رئيس وزراء العراق في زيارة لمنطقة القناة فيقصف مطار (فايد) في الوقت الذي هبطت الطائرة بهما فيه، ويصف حسين الشافعي ما حدث في المطار فيقول: وصلت بنا الطائرة في الساعة ٨,٤٥ فوق مطار فايد فالتقينا بالطلعة رقم (١) للطيران الإسرائيلي، وكأننا على موعد أعده القدر لنشهد ونشاهد ما لم يكن متصوراً أن يعود أحد ليروي ما رآه، واستطاعت الطائرة أن تهبط على أرض المطار وقد انفجرت قنبلتان بالقرب منها، ونزلنا من الطائرة وانتشرنا في أرض المطار، وكل منا اتخذ ساتراً منبطحًا على الأرض نرى ونرصد كل ما يحدث دقيقة بدقيقة وكانت طائرات العدو تأتي بفاصل من ١٠ دقائق إلى ١٥ دقيقة في طلعات قوامها من ثلاث إلى أربع طائرات، ولم يكن يشغلها شاغل إلا القضاء على الطائرات وهي جاثمة على أرض المطار والجناح ملاصق للجناح كأنها أعدت بتدبير وبإحكام ليتم تدميرها في أقل وقت ممكن ودون جهد أو عناء، وكل طلعة تنتهي باحتراق طائرة أو طائرتين، ولم يتعرض طيران العدو لأي نوع من المقاومة لا من الطائرات ولا من الدفاع الجوي، وإذا كان الرادار لا يرصد الطيران المنخفض فلنقل ذلك على الطلعة الأولى، فماذا عن الطلعات التالية التي استمرت حتى الساعة ١١,٣٠ إن ما حدث في مطار فايد شاهدت نتائجه على طول طريق العودة إلى القاهرة فرأينا مع الوفد العراقي نفس الصورة وأعمدة الدخان تتصاعد في الجو في كل مطار أبو صير ثم مطار أنشاص ثم مطار بلبيس وأخيراً مطار الماظة قبل أن نصل إلى منشية البكري لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر ولنبلغه بما رأينا[1].

---

(١) انظر: مذكرات المشير محمد عبد الغني الجمسي ص٨٤.

فانظر بدقة وإمعان إلى قول حسين الشافعي أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة ونائب رئيس الجمهورية: «.. وكانت الطائرات جاثمة على أرض المطار والجناح ملاصق للجناح كأنها أعدت بتدبير وإحكام ليتم تدميرها في أقل وقت ممكن ودون جهد أو عناء ..»، ونعود فنكرر سؤالنا: من الذي وضع هذه الطائرات بهذا الشكل؟ وهل وضعت عمداً أو تلقائيًا وكأنها أعدت بتدبير وإحكام ليتم تدميرها، فإن كانت قد وضعت عمداً ليتم تدميرها فهذه خيانة عظمى في حق الوطن، وإن كانت وضعت بهذا الشكل تلقائيًا فهذا إهمال خطير وجسيم ويعتبر أيضًا من أشد وأفظع أنواع الخيانات، وبالتأكيد فلن يُعْرَف السر في هذه الأيام، ولكن بمرور الأزمنة والأجيال سوف ينكشف هذا السر وقد يصعب أن تنكشف هذه الخيانة في الوقت الحاضر.

ونكرر كذلك سؤالنا عمن أخبر العدو بوجود المشير وقائد الطيران داخل طائرة في الجو في ذلك الوقت لينتهز العدو هذه الفرصة ويقوم بضربته الجوية القاتلة؟ ويستطرد المشير/ محمد عبد الغني الجمسي حديثه فيقول: «وقد تمكنت المخابرات الإسرائيلية من الحصول على كل المعلومات المطلوبة لضمان نجاح الضربة الجوية، وبصفة خاصة تحديد عدد وأنواع الطائرات في كل قاعدة ومطار مصري، وتحديد أوضاع وقدرات ومدى عمل وسائل نظام الدفاع الجوي المصري حتى يمكن اختيار الممرات الجوية للطائرات الإسرائيلية بحيث تكون غير مغطاة بشبكة الإنذار أو الدفاع الجوي المصري، والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل تمكنت المخابرات الإسرائيلية من معرفة كل ذلك إلا عن طريق أحد الخونة والعملاء وضعاف النفوس والمأجورين الذين باعوا دينهم ووطنهم وشعبهم وجيشهم الذي ظُلم ظلمًا فادحًا في هذه الحرب، ومن الغريب والمحير لولا أنه من قول المشير/ محمد عبد الغني الجمسي صاحب التاريخ الحربي المجيد، فقد قال: «كانت هناك خمس طائرات قاذفة ثقيلة من طراز (ت ي ١٦) في برنامجها اليومي في التدريب على اختراق الضاحية من بني سويف (قاعدتها) إلى أسوان وبالعكس، أي أنها لم تنذر باحتمال وقوع هجوم جوي على

مصـر، وصدرت لها الأوامـر بالهبوط في مطار الأقـصر المدني، وبعد نصف سـاعة وصلت الطائرة المعـادية لتـدميـرها، فكيف عرفت إسـرائيل وعلمت بهـذه الطائرات الخمسة أنهـا هبطت في مطار الأقصر المدني لتأتي بكل بساطة بعـد نصف ساعة فقط وتدمرها، هل عرفت وعلمت بهـا تلقائيًا بمجرد الصدفة أم قـام أحد الخونة بإخطارها بذلك؟ إنني أفكر متسـائلاً: من الذي أخبرها؟ من سوى خائن عميل، حاقد على بلده ووطنه، ولا مانع أيضًـا من تقديم ما ذكره الفـريق أول/ محمد فـوزي رئيس الأركان أثناء حرب يونية عن الخيـانة السورية حيث قال: «إنه في حوالي الساعـة الحادية عشر صبـاح ٥ يونية كـلفني المشيـر عامـر بالاتصال بالقـيادة السـورية لإخطارها بالموقف ومحاولة تنفـيذ خطة القصف الجوي لمطارات إسرائيل الشمـالية وهي جزء من الخطط التي كنت قد نسقتها مع رئيس أركان الجيش السوري اللواء/ أحمد سويدان، فاتصلت به لاسلكيًـا وطلبت منه تنفيـذ الخطة التعـرضية (رشـيد) لكنني لم أحـصل على رد إيجابي وكل ما نطـق به هو جملة واحدة: (نحاول سيـدي)، ثم علمت بعد ذلك أنه لم تصدر أية أوامر من الجـانب السوري باتخاذ أي موقف مضـاد أو تعرضي أو حتى تدخل في أي عمليات إطلاقًا ضد إسـرائيل، رغم أن هذه الحرب قد نشبت وتورطت فيها مصـر بسبب سوريا، كما كان الفريق/ عبـد المنعم رياض في عمان قد طلب من القيادة السـورية نفس طلبي قبل ساعة إلا أن تصرف القـيادة السورية كان سلبيًـا معه أيضًا، وقامت إسـرائيل بتوجيه ضربة جويـة لسوريا يوم ٥ يونية خسرت فيـها سوريا نصف قواتهـا الجوية، وهذا جـزاء تخاذلهـا وتقاعسـها عن ضـرب مطارات العدو، ودخلت القـوات الإسرائيليـة صبـاح يوم ١٠ يونية القنيطرة وبعض المواقـع الأخرى فوجدتها خالية، وكانت إذاعة دمشق قـد أعلنت نبأ سقوط القنيطرة في الساعة الثامنة والنصف صباح ذلك اليوم بينما لم يكن هناك جندي إسـرائيلي واحد على مقربة منها حيث دخلتها القوات الإسرائيليـة وبعض المواقع الأخرى ظهر نفس اليوم، وهذا يؤكد ما جاء في مذكرات موشى ديان عن هذا الموضوع كما سبق».

حرب أكتوبر ١٩٧٣م ـ العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ

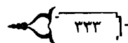
في العاشر من رمضان المبارك عام ١٣٩٣هـ، الموافق السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م قام الجيش الباسل ـ جيش مصر ـ جيش العزة والكرامة بأخذ الثأر من العدو الصهيوني، ولقنه درسًا لن ينسى مدى الحياة، ومحى العار الذي لحق بمصر وبأمتنا العربية والإسلامية في ٥ يونية الحزين عام ١٩٦٧م، وأثبت جيشنا العظيم للعالم أجمع أن مصر هي أم الأبطال، وقادرة في أحلك أوقاتها وأصعب ظروفها على إنجاب الأبطال وعلى سحق العدو، وأثبت الجيش المصري للعالم كله أيضًا أنه كان ضحية في ٥ يونية الحزين لقيادة عسكرية فاشلة ليس لها من القيادة إلا الاسم فقط، وتأكد العالم كله أن جيش مصر كان مظلومًا ظلمًا فادحًا في حرب ٥ يونية ١٩٦٧م، فقام جيشنا العظيم في العاشر من رمضان ـ السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، بتسديد الضربات القاتلة والقاصمة للعدو الصهيوني، وقام بإبادة قواته وجنوده وضباطه وقادته وتدمير المئات من دباباته وطائراته وتحطيم أعظم ما يمتلك من أسلحة ومعدات وقتل أعظم وأمهر قادته وضباطه وأسر العديد منهم وتحطيم أسطورة الجيش الصهيوني الذي لا يقهر، وإذلال وتحطيم كبريائه وغطرسة وعجرفة قادته وغرورهم وقطع الذراع الطويلة لهم وهي سلاحهم الجوي الذي طالما افتخروا وتباهوا به ونسجوا حوله الأساطير، فرغم أن السلاح الجوي المصري قد بدأ من الصفر نتيجة للضربة الجوية الإسرائيلية في ٥ يونية ١٩٦٧م، إلا أنه استطاع بعزيمة الرجال وتصميم الأبطال أن يفترس طائرات العدو في حرب وينتقم منه أشد الانتقام ويأخذ منه الثأر ويمحو عن نفسه الظلم الذي لحق به في ٥ يونية ١٩٦٧م، ولا نقول ذلك مجاملة بل نقوله من واقع المصادر العسكرية لأحد أبطالنا وقادتنا الجويين، وهذا المرجع هو كتاب (القوة الثالثة ـ تاريخ القوات الجوية المصرية) للسيد اللواء طيار أركان حرب/ علي محمد لبيب، فقد جاء بإيجار ما يلي:

١ ـ عدد الطائرات المصرية التي دمرها العدو الصهيوني على الأرض في ٥ يونية ١٩٦٧م: ٢٧٢ طائرة وكانت الطائرات خالية من الطيارين المصريين فلم يقتل منهم أحد.

٢ ـ بلغت خسائر العدو الصهيوني من الطائرات في حرب رمضان ـ أكتوبر ١٩٧٣م: ٣٥٨ طائرة بطياريها، وهذا العدد لم يدخل في حسابه الطائرات الإسرائيلية التي تم تدميرها على أرض مطاراته في سيناء أو تلك الطائرات التي تمت إصابتها ولم تسقط داخل الأراضي المصرية مما جعلها (محتملة) ولم تدخل في حساب الخسائر الإسرائيلية من الطائرات، وهذه الطائرات الإسرائيلية التي أسقطت ودمرت والتي عددها ٣٥٨ قُتل طياروها الإسرائيليون في حرب رمضان ـ أكتوبر المجيدة، أما الطائرات المصرية التي دمرت على أرض المطارات المصرية في ٥ يونية والتي يبلغ عددها كما سبق ٢٧٢ طائرة، كانت خالية من الطيارين المصريين، وهكذا أخذ الطيارون المصريون الأبطال ثأرهم وأثبتوا تفوقهم الساحق على الطيارين الإسرائيليين حينما قاتلوهم وجهًا لوجه، ولم يقاتلوهم بأسلوب الخسة والنذالة والجبن والخداع، وأرغموا إسرائيل على دفع الثمن باهظًا، فإسرائيل عندها الطيار الواحد أحسن من مائة طائرة، لأن الطائرات بالنسبة لها تعوض بسهولة ويُسْر من حليفتها أمريكا وغيرها من دول أوروبا، أما الطيارون فمن الصعب جداً عليها تعويضهم، ومن ثم فقد ثأر الطيارون المصريون لنفسهم ولمصر ولشعبهم المصري الذي أنجبهم وأنجب غيرهم من الأبطال والمقاتلين البواسل الأفذاذ وردوا لمصر ولأمتنا العربية والإسلامية عزتها وكرامتها، ورفعوا رأس كل مصري وعربي ومسلم، وبرهنوا للعالم كله أن ما حدث في ٥ يونية الحزين عام ١٩٦٧م، إنما كان من اختبارات القدر حدث نتيجة لوجود

قيادة فاشلة ومهملة، ولعدم وجود قيادة حكيمة وخبيرة وحاذقة وحازمة، وكنت كمسلم غيور على بلده وجيشه يغلي دمي غضبًا كلما أقرأ ما حدث أثناء الضربة الجوية القاتلة التي قام بها العدو الإسرائيلي الغادر صباح ٥ يونية ١٩٦٧م لمطاراتنا وطائراتنا وهي جاثمة على الأرض، وتمكن من تدميرها خيانةً وغدرًا.

ولكني بعد ما قرأت ما جاء في كتاب القوة الثالثة للسيد اللواء طيار أركان حرب/ علي محمد لبيب من قيام نسورنا وطيارونا البواسل بأخذ الثأر من هذا العدو الإسرائيلي في حرب رمضان ـ أكتوبر المجيدة كما سبق، زال غيظي وتبدل فرحًا وسرورًا وغبطة ويكفي أن نقدم ما جاء في كتاب (أمراء الموساد)، (فقد كل جاسوس أمير) تأليف الإسرائيليين: دان رافيف، ويوسي ميليمان، تعريب ممدوح لطفي، فقد جاء فيه عن حرب رمضان ـ أكتوبر ١٩٧٣م، ما يلي: «. . . وأصيب موشى ديان بطل حرب يونية ١٩٦٧م بالذعر وبلغ به اليأس والاكتئاب في اليوم الثالث من الحرب حدًا جعله يغمغم في غموض عن التدمير الممكن حدوثه للمعبد الثالث الإسرائيلي، وبالتالي لإسرائيل نفسها»، وجاء أيضًا فيه: «. . أثَّر يأس وزير الدفاع موشى ديان تأثيرًا كبيرًا ومخيفًا على معنويات جولدامائير ـ رئيسة الوزراء ـ وبدا أنها تفكر في الانتحار»، كما يتذكر كاتم أسرارها (لوبكادار) حيث يقول: «لم أرها أبدًا بمثل هذا الشحوب، وقالت لي: إن ديان يريدنا أن نناقش شروط الاستسلام للعرب، وأيقنتُ أن امرأة مثلها لن تقبل مطلقًا أن تعيش في مثل هذه الظروف، لهذا أعددتُ العدة لانتحار كل منا، فذهبت للقاء طبيب صديق لي ووافق على أن يعطيني الحبوب الضرورية لكي يمكننا نحن الاثنين (أنا وهي) من الانتحار ـ والرحيل معًا ـ» هذا هو الموقف في إسرائيل باعترافهم، ولكن الخيانة هي التي أدركتها وأنقذتها من الدمار كما



سنرى، ومن الجدير بالذكر حتى ينتبه العرب ويأخذوا حذرهم أنه جاء في هذا الكتاب أيضًا[١]: أن وزير الدفاع الإسرائيلي موشى ديان قد أعطى الأوامر لإعداد بعض الصواريخ من طراز (أريحا) الإسرائيلية، وحوامل خاصة للقنابل النووية على طائرات الفانتوم الأمريكية تمهيدًا لاستخدام الأسلحة النووية ضد مصر وسوريا وبقية العرب، وقد تمثل الضرر الفادح بالنسبة لإسرائيل في مصرع ٢٧٠٠ جندي وضابط إسرائيلي فهو يعادل مع مراعاة تناسب السكان ١٧٠ ألف جندي وضابط أمريكي، وهذا الرقم وهذه الخسارة كانت صدمة فادحة بالنسبة لإسرائيل، هذا هو الموقف في بداية الحرب في الأيام الأولى منه، أما عن الضربة الجوية القاصمة التي قام بها نسورنا الأبطال والتي أربكت العدو في خمس دقائق، بعد اقتحام وتدمير خط بارليف وغير ذلك من البطولات الأسطورية لطيراننا ودفاعنا الجوي وبقية جيشنا العظيم فذلك ليس في حاجة منا إلى الكتابة فيه، فالجميع يعرف ذلك جيدًا.

أولاً ـ موقف ملك الأردن:

جاء في المرجع السابق[٢] أنه في يوم ٩ أكتوبر ١٩٧٣م أن السفير الأمريكي في عمان قد أبلغ وزارة الخارجية الأمريكية أن القائم بالأعمال السوفيتي في عمان يضغط على ملك الأردن للاشتراك في المعركة ويعده بمساندة دبلوماسية من الاتحاد السوفيتي، ويقول كيسنجر في مذكراته: لقد رفض ملك الأردن حتى هذه الساعة دخول الحرب كما رفض أيضًا طلب الملك فيصل ملك السعودية إدخال فرقة سعودية متمركزة في الأردن للاشتراك في الحرب، وأرسل كيسنجر مذكرة إلى الملك حسين ناشده فيها عدم

(١) انظر: كتاب أمراء الموساد ص٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٢) انظر: كتاب أمراء الموساد ص٣٧٢ وما بعدها.

خوض الحرب، فأجابه الملك حسين أنه سيمتنع عن التدخل في الحرب إلى أقصى حد ممكن، إلى أن يقول: «.. ومن هنا كان الجهد الأمريكي ناجحًا بعدم فتح الجبهة الأردنية لتأثيرها الشديد ضد الموقف الإسرائيلي في حالة فتحها، وفي نفس الوقت سرعة تقديم الدعم العسكري لإسرائيل لزيادة قدرتها على القتال»، ولو فتحت الجبهة الأردنية لخففت الضغط عن الجبهة السورية ولما تمكن العدو الصهيوني من استعادة الجولان بعد أن حررتها سوريا، ولتشتت قوات العدو وانهارت لأنها لا تستطيع الحرب بكفاءة وفاعلية على ثلاث جبهات وخاصة أن الجبهة الأردنية كبيرة جدًا فكانت ستعمل على الأقل على بعثرة وتشتيت قوات العدو، وبالتالي كان يمكن للأردن استعادة القدس والضفة الغربية خاصة لو سمح للفرقة السعودية بالدخول والاشتراك في الحرب، وكان ذلك سيكون مقدمة لتدفق باقي القوات العربية خلال الأردن للاشتراك في الحرب بسرعة، ولكنها الخيانة الأردنية.

ثانيًا ـ الخيانة الأمريكية ضد مصر لصالح العدو الصهيوني:

أولاً ـ الجسر الجوي والبحري وإمداد إسرائيل ونجدتها بكافة الأسلحة: جاء أيضًا في المرجع السابق[1] أن القتال كان مستمرًا في سيناء والجولان خلال فترة (الوقفة التعبوية) من (١٠-١٣) أكتوبر، وكان الاتحاد السوفيتي قد بدأ بتزويد سوريا ومصر بالأسلحة والمعدات بينما طورت أمريكا خطتها بنقل أكبر كمية من السلاح الأمريكي إلى إسرائيل في أقصر وقت، ولم تكتف أمريكا وإسرائيل بطائرات الجامبو المدنية السبع لشركة العال لنقل احتياجاتها من الأسلحة والمعدات، ولذلك عملت محاولات لاستئجار طائرات نقل مدنية أمريكية لسرعة إجراء النقل، ولكن شركات الطيران

---

(١) انظر: المرجع السابق ص٣٨٠ وما بعدها.

رفضت التعاون مع إسرائيل في هذا المجال خوفًا من المقاطعة العربية، واتجه التفكير الأمريكي إلى استخدام طائرات النقل العسكرية الأمريكية لنقل الأسلحة والمعدات إلى جزر الآزور في المحيط الأطلنطي، ومنها تنقلها طائرات العال وأي طائرات مدنية أخرى إلى إسرائيل، وبذلك تستفيد إسرائيل من قصر المسافة وتعدد رحلات النقل، ولما اتضح أن هذا الأسلوب لا يحقق سرعة نقل الاحتياجات بالكميات الكبيرة المطلوب نقلها وبناء على اقتراح (مجموعة العمل الخاص) الأمريكية برئاسة (كيسنجر) رجل إسرائيل الأول في أمريكا، اتخذ الرئيس الأمريكي نيكسون قرارًا هامًا لصالح إسرائيل، وكان القرار هو (إنشاء جسر جوي أمريكي) تستخدم فيه طائرات النقل العسكرية الأمريكية لنقل احتياجات إسرائيل رأسًا إليها من المستودعات في الولايات المتحدة الأمريكية، وبذلك اتصل شريان الحياة لإسرائيل بعد أن استجابت أمريكا لطلبها، وقد بذل كيسنجر جهدًا كبيرًا للوصول إلى قرار بإنشاء الجسر الجوي الأمريكي لإسرائيل كما أوضحه بنفسه في مذكراته بدءًا من النداء العاجل الذي وجهته جولدامائير لأمريكا في صباح يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر لإنقاذ إسرائيل، حيث تلقت إسرائيل في مساء هذا اليوم وعدًا أمريكيًا وضمانات بتعويضها عن خسائرها، وانطلاقًا من هذه الضمانات أخذت إسرائيل تبدي عدم اهتمام بما تستهلكه من عتاد حربي، ولقد صدر قرار إقامة الجسر الجوي الأمريكي لإسرائيل يوم ١٣ أكتوبر في الوقت الذي كانت فيه إسرائيل قد استهلكت المخزون الاستراتيجي من السلاح، وسجل (إليعازر) رئيس الأركان الإسرائيلي في حرب رمضان ـ أكتوبر ١٩٧٣م خطورة الموقف الإسرائيلي بقوله: «لو لم تصل إلينا الأسلحة الأمريكية حتى يوم ١٢ أكتوبر فقد كان المعنى الوحيد لذلك أن الكارثة الكبرى قد وقعت وأن نهاية إسرائيل قد أصبحت وشيكة، لأننا كنا قد خسرنا تمامًا المخزون الاستراتيجي من السلاح، وكان ذلك معناه أن باستطاعة مصر وسوريا أن يصلا إلى أبعد ما يمكن أن يتصوره أي إسرائيلي»، وكان الرئيس الأمريكي نيكسون قد قرر إرسال جميع قطع الغيار والمعدات المطلوبة

وهي تجهيزات ومعدات إلكترونية ما عدا قنابل الليزر، ووافق على تعويض كل ما تفقده إسرائيل من طائرات ودبابات، وإرسال عددًا من المدرعات من طراز (إم-٦٠) وهي أحدث ما لدى أمريكا، وإرسال طائرات حديثة جدًا أيضًا، وتؤكد أمريكا أن جميع خسائر إسرائيل ستعوض، وإذا اضطرت إلى الدبابات فإنها تصل إسرائيل ولو على طائرات أمريكية، وقد أنشأت أمريكا جسرًا بحريًا لنجدة إسرائيل بالإضافة إلى الجسر الجوي أما عن كميات الأسلحة التي تم نقلها من أمريكا إلى إسرائيل بواسطة الجسر الجوي الأمريكي فهي موضحة بالتفصيل في المرجع المذكور[1] وكذلك بواسطة الجسر البحري، وتكلفت عملية النقل بواسطة الجسر الجوي وحده ٨٨,٥ مليون دولار بخلاف ثمن الأسلحة والمعدات، وقد أمدت أمريكا إسرائيل بأحدث ما لديها من طائرات ودبابات ومدافع وصواريخ ومحركات لطائرات الفانتوم وأجنحتها ومستودعات قنابل ومعدات إلكترونية متقدمة وأجهزة إشارية متطورة، وأغدقت عليها أحدث ما في الترسانة الأمريكية من أسلحة وأجهزة ومعدات حربية برية وجوية.

ومن الملاحظ أن الجسر الجوي بدأ يوم ١٣ أكتوبر، وكان تطوير الهجوم المصري في اتجاه المضايق يوم ١٤ أكتوبر فتمكنت إسرائيل من صد هذا الهجوم رغم قوته الفائقة وذلك بواسطة ما وصلها من أسلحة وعتاد بواسطة الجسر الجوي الأمريكي، ومن الملفت للنظر أيضًا أن أبرز الأيام التي تميزت بضخامة حجم المجهود الجوي الأمريكي لإسرائيل كانت أيام ١٥، ١٦، ١٧، ٢١ أكتوبر، وهي الفترة التي حدثت فيها ثغرة الدفرزوار، وبدون هذا الدعم الأمريكي الحربي لإسرائيل بطريقة مباشرة وسافرة ما كان يمكن لها عمل هذه الثغرة في المرحلة الأخيرة من الحرب بعد ما لاقته من هزائم متتالية ساحقة وإبادة شاملة لقواتها طيلة أيام القتال السابقة لهذا الجسر الجوي الأمريكي لها.

---

(١) انظر كتاب أمراء الموساد ص٣٩٧ ـ ٣٩٨.

ويقول أيضًا المشير/ كمال حسن علي مدير سلاح المدرعات المصرية في حرب أكتوبر ١٩٧٣م، ووزير الدفاع ورئيس الوزراء السابق، في مجال حديثه عن الإمدادات الأمريكية لإسرائيل بأحدث ما في الترسانة الأمريكية من أسلحة[(١)]: « .. ومما أذكر، أنه في فترة من الفترات، خاصة بعد استخدام إسرائيل لصواريخ (تو Tow) الأمريكية، زادت نسبة الإصابات في الدبابات المصرية، فإن هذا الصاروخ المضاد للدبابات عبارة عن صاروخ محمول ذي توجيه أتوماتيكي مداه حوالي ٣٠٠٠ متر ويستطيع استخدامه أي طفل، ولا أقول أي جندي مدرب فهو ينظر من خلال تلسكوب به دائرة، وما عليه إلا أن يضغط زر الإطلاق ويحافظ على وجود الدبابة المعادية داخل هذه الدائرة (أي أنه حينما ينظر في هذه الدائرة يحاول أن تظهر الدبابة المعادية أمام عينيه) ليحدث إصابة ١٠٠% وهي إصابة غالبًا ما تُخْرِج الدبابة المعادية من المعركة، وأحيانًا تتسبب في تفجير كل ما فيها من الذخيرة، وبالتالي تنسف الدبابة تقريبًا، وقد استخدم الإسرائيليون هذه الصواريخ التي أمدتهم بها أمريكا من فوق الأشجار، ومن فوق مآذن المساجد في منطقة القناة أثناء الثغرة عندما تدخلت أمريكا بكل ثقلها لإنقاذ إسرائيل، وقد استنتجت إدارة المدرعات وجود هذا الصاروخ المدمِّر من أقوال (عساف ياجوري) قائد اللواء الإسرائيلي الذي دمرته القوات المصرية والذي وقع في الأسر، وكانت أمريكا تمد إسرائيل فورًا بالدبابات، وقد تمكنت القوات المصرية من أسر العديد من الدبابات الأمريكية من أحدث طراز، ومازالت عليها الأرقام الخاصة بالجيش الأمريكي، وكانت نسبة كبيرة من هذه الدبابات تقع في أيدي القوات المصرية وهي صالحة تمامًا، وأحيانًا تقع في الأسر والمحرك الذي بها دائر، وبالرغم من وجود الدعم الأمريكي الغزير لإسرائيل، والذي مكنها من صنع الثغرة، فقد تمكنت المدرعات المصرية من محاصرة المدرعات الإسرائيلية في الثغرة حتى

(١) انظر: كتاب محاربون ومفاوضون ص٥٠.

وصلت نسبة الدبابات المصرية إلى دبابات العدو ٤:١ أي أن كل دبابة للعدو غرب القناة كان يقف في المرابض حولها ٤ دبابات مصرية، وكان هذا من أهم الأسباب التي دعت كيسنجر إلى نصيحة إسرائيل بالتخلص من هذا الموقف الصعب ـ ومن هذا المأزق ـ ليس بالعودة إلى مواقعها وقت إيقاف القتال فحسب، بل بسحب قوات الثغرة كلها إلى شرق القناة حتى لا يتم إبادتها بالكامل، حيث كانت محاصرة تمامًا بالقوات المصرية».

ثانيًا ـ الاستطلاع الجوي الأمريكي لصالح إسرائيل، وتحديد المكان الذي تمكنت إسرائيل أن تعمل فيه الثغرة: كما يعلم الجميع فقد قامت طائرة أمريكية في الساعة الواحدة بعد الظهر يوم ١٣ أكتوبر من طراز (س ر٧١ - SR71) تطير على ارتفاع أعلى من ٢٥ كم وبسرعة تصل إلى ثلاثة أضعاف سرعة الصوت، فقامت باختراق مجالنا الجوي، وبدأت خط طيرانها من البحر الأبيض المتوسط واخترقت مجالنا الجوي فوق بور سعيد إلى السويس حيث غطت جبهة القناة كلها، ومنها إلى منطقة البحر الأحمر لاستطلاع موانيء الغردقة وسفاجة، وكذا مطاراتنا ووسائل دفاعنا الجوي بالمنطقة، ثم التفت الطائرة غربًا إلى الوجه القبلي فوق مدينة قنا ثم شمالاً إلى الدلتا حيث استطلعت مطاراتنا ووسائل دفاعنا الجوي والاحتياطات، وبعد أن استكملت رحلتها الاستطلاعية عادت إلى البحر الأبيض المتوسط للهبوط في قاعدتها بأوروبا، وكما يقول المشير/ محمد عبد الغني الجمسي، فقد اتصلنا بقيادة الدفاع الجوي للاستفسار عن عدم اعتراض هذه الطائرة وإسقاطها، وكان الرد أنها تطير خارج مدى صواريخ الدفاع الجوي، كما أن مقاتلاتنا لا تتمكن من اللحاق بها، وكان معنى هذا الحدث أنه استطلاع جوي أمريكي لصالح العدو الإسرائيلي، وأصبحت أوضاع وحجم قواتنا بالجبهة ـ وفي عمق الدولة ـ كتابًا مفتوحًا أمام العدو الإسرائيلي، وكان ذلك أول تدخل عسكري أمريكي بطريقة علنية ومباشرة، يتم لصالح العدو الصهيوني الإسرائيلي، هذا هو الاستطلاع الأول، أما الاستطلاع الجوي

الأمريكي الثاني والتدخل الأمريكي الثاني فقد تم يوم ١٥ أكتوبر؛ حيث قامت طائرة استطلاع أمريكية للمرة الثانية باستطلاع منطقة القناة، ومن الطبيعي أن تكون نتائج هذا الاستطلاع قد وصلت إلى إسرائيل، ومن الطبيعي أيضًا أن تكون قد حددت المكان المناسب بين الجيشين الثاني والثالث لعمل الثغرة وتحديد الحد الفاصل بين الجيشين وتقديمه وتوضيحه للعدو الصهيوني الإسرائيلي مما مكنه من التركيز على ذلك الحد الفاصل لعمل الثغرة التي نجحت فعلاً في عملها، وبدون ذلك الاستطلاع الأمريكي الجوي في هاتين المرتين لما تمكن العدو الصهيوني من عمل الثغرة والعبور إلى غرب قناة السويس.

ثالثًا ـ الاتحاد السوفيتي وتفصيلات أخرى عن الخيانة الأمريكية:

جاء في المرجع السابق نقلاً عن كتاب (البحث عن الذات للرئيس السادات) ما يلي: بعد عودة الرئيس السادات من مركز العمليات ليلة ٢٠/ ٢١ أكتوبر إلى مقر عمله في قصر الطاهرة قرر الموافقة على وقف إطلاق النار، وسجل مبررات هذا القرار بالآتي:

١ ـ اتضح لي أن القمر الصناعي الذي كان يوصل المعلومات لإسرائيل ساعة بعد ساعة أخطرهم بنقل الفرقة ٢١ المدرعة من الضفة الغربية للقناة إلى الضفة الشرقية لمحاولة تخفيف الضغط عن سوريا كما طلب وألح الرئيس الأسد، وأقرر هذا التاريخ أن روسيا التي تدّعي وقوفها مع الحق العربي لم تبلغنا بأي شيء بواسطة أقمارها الصناعية التي كانت تتابع المعركة.

٢ ـ ثم حدث تطور خطير بدأت أشعر به وأنا أتابع الحرب من غرفة العمليات، لقد استخدم الجسر الجوي لنجدة إسرائيل مطار العريش لنزول الطائرات الأمريكية الجبارة التي تحمل الدبابات وكل الأسلحة الحديثة، والعريش تقع خلف الجبهة مباشرة، وبدأت ألاحظ تطوراً خطيراً آخر في معارك الدبابات التي اعترف

الإسرائيليون أنفسهم بشراستها وكفاءة المصريين في إدارتها، فكنت كلما أصبت لإسرائيل عشرة دبابات، أرى مزيداً من الدبابات الإسرائيلية قد ظهرت مكانها.

لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل بعد نداء جولدامائير المشهور (أنقذوا إسرائيل)، في اليوم الرابع من القتال، وأمريكا تستخدم بكل صراحة مطار العريش المصري الذي يقع خلف الجبهة بكل وضوح لكي تحول الهزيمة الإسرائيلية إلى انتصار، وتذكرت في تلك اللحظات ما فعلته أمريكا على جبهة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ثم على الجبهة اليابانية.

٣ـ أما التطور الثالث الخطير فهو أنه قد أطلق صاروخان على بطاريتين مصريتين للصواريخ فعطلا البطاريتين تعطيلاً كاملاً، وعرفت بعد ذلك أنه صاروخ أمريكي جديد يسمى (القنبلة التليفزيونية) وأنه كان لا يزال تحت الاختبار في أمريكا فأرسلته لنجدة إسرائيل.

٤ـ لقد دخلت أمريكا الحرب لإنقاذ إسرائيل حتى بالأسلحة تحت الاختبار، وقنبلة (المافريك) وأسلحة أخرى، وأنا أعرف إمكانياتي وأعرف حدودي ـ لن أحارب أمريكا ـ فأنا لا أخاف مواجهة إسرائيل ولكن أرفض مواجهة أمريكا.

٥ـ وفي هذه الليلة ٢٠/ ٢١ أكتوبر قررت وقف إطلاق النار، فقد كان لي عشرة أيام أحارب فيها أمريكا وحدي بأسلحتها الحديثة التي لم يستخدم أغلبها من قبل.

٦ـ وكان الموقف على غير ما يتصوره العالم كله، فقد كان اعتقاد الجميع في العالم أن الاتحاد السوفيتي يقف إلى جانبنا وأنه قد أرسل الجسر الجوي لنجدتنا كما فعلت أمريكا مع إسرائيل، ولكن الموقف كان على غير ذلك في الواقع، فأمريكا وإسرائيل في مواجهتي.

والاتحاد السوفيتي في يده الخنجر ويقع وراء ظهري ليطعنني في أي لحظة عندما أفقد ٨٥% أو ٩٠% من سلاحي كما حدث في سنة ١٩٦٧م، واستدعيت السفير

السوفيتي وقلت له: لقد قبلت وقف إطلاق النار على الخطوط الحالية، وفي هذا الوقت كان كيسنجر في طريقه إلى موسكو بشأن عملية وقف إطلاق النار، وقلت للسفير السوفيتي: «الدولتان العظيمتان يجب أن تضمنا وقف إطلاق النار والتنفيذ الفوري للقرار ٢٤٢».

هذا وإنني قبل أن أنهي هذا الموضوع أشهد الله تعالى أنني لا أكره ولا أبغض أي جنس من خلقه؛ لأن البشر كلهم أبناء آدم أما إسرائيل فإنهم يكرهون جميع البشرية بلا استثناء، وأكثر ما يكرهون العرب والمسلمين وبالذات مصر لأنهم يعلمون جيداً أن مصر هي الدولة العربية والإسلامية القادرة على هزيمتهم في أي وقت متى استعدت وخططت لهم كما حدث في هذه الحرب المجيدة الخالدة، حرب رمضان ـ أكتوبر ١٩٧٣م، وكما سحقت من قبلهم التتار والصليبيين، ويعلمون جيداً مدى قوة مصر صاحبة مبادرة السلام قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال:٦١)، وليس سراً أن إسرائيل بدون الرؤساء الأمريكيين الثلاثة (ترومان ـ وجونسون ـ ونكسون) ما كان لها أن تبقى وتعيش في أرض العرب والإسلام وتنشب أظافرها في الشعوب العربية والإسلامية، وتثبت أقدامها حتى الآن في البلاد العربية والإسلامية، فالأول (ترومان) هو الذي أنقذها من الهلاك عند نشأتها عام ١٩٤٨م، والثاني (جونسون) هو الذي عمل على تقويتها وتسليحها بطريقة رهيبة جعلتها تتفوق على جميع الدول العربية وتنتصر عليهم في عام ١٩٦٧م، والثالث (نيكسون) هو الذي أنقذها من الهلاك والتدمير والإبادة الشاملة الكاملة في عام ١٩٧٣م، والثلاثة من اليهود الماسونيين ولله الأمر من قبل ومن بعد[١].

---

(١) انظر: المرجع السابق.

مراجع البحث

١ ـ «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير.
٢ ـ «سير أعلام النبلاء» للذهبي.
٣ ـ «السيره النبوية» لابن هشام.
٤ ـ «تاريخ الطبري» لابن جرير الطبري.
٥ ـ «موسوعة التاريخ الإسلامي» للدكتور أحمد شلبي.
٦ ـ «تاريخ الخلفاء» للسيوطي.
٧ ـ «تاريخ الإسلام» لابن الأثير.
٨ ـ «التاريخ الإسلامي» للدكتور علي إبراهيم حسن.
٩ ـ «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي.
١٠ ـ «ياجوج وماجوج قادمون» للأستاذ د/ هشام عبد الحميد.
١١ ـ «سقوط القدس» للأستاذ عبد العال الباقوري.
١٢ ـ «الصراع بين العرب وأوربا» للدكتور عبد العظيم رمضان.
١٣ ـ «تاريخ مصر» للدكتور محمد صبري.
١٤ ـ «خريف الغضب» للأستاذ محمد حسنين هيكل.
١٥ ـ «صلاة الجواسيس» للأستاذ عادل حمودة.
١٦ ـ «الحرب في أرض الإسلام» للواء حسن البدري.
١٧ ـ «الفاشية» لموشى ديان، ترجمة جوزيف صغير.
١٨ ـ «الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي» إعداد فريق البحوث والدراسات الإسلامية.
١٩ ـ «مذبحة الأبرياء» للأستاذ وجيه أبو ذكرى.
٢٠ ـ «وجاء دور المجوس» للدكتور عبد الله محمد الغريب.
٢١ ـ «مذكرات المشير محمد عبد الغني الجمسي».
٢٢ ـ «محاربون ومفاوضون» للمشير كمال حسن علي.

الفهرس

الموضـــوع | صفحة

الفصل الثاني

أحداث في عهد الصديق أبي بكر رضي الله عنه

الفصل الثالث

أحداث في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الفصل الرابع

أحداث في عهد ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه

الفصل الخامس

أحداث في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه

الموضـــوع | صفحة

الباب الثاني

أحداث في عصر الدولة الأموية

الباب الثالث

أحداث في عصر الدولة العباسية

الموضـــوع | صفحة

الموضـــوع | صفحة

الموضـــوع صفحة

الموضـــوع صفحة

الباب الرابع

عهد التتار بعد قتل الخليفة المستعصم العباسي

الباب الخامس

الموضـــوع | صفحة

الموضـوع صفحة

الموضـــوع | صفحة

الموضـــوع صفحة

الباب السابع

عصر المماليك

الباب الثامن

الاحتلال التركي العثماني للشام ومصر

الباب التاسع

الحملة الفرنسية على مصر

الموضــوع — صفحة

الباب العاشر

عهد محمد علي

الباب الحادي عشر

الاحتلال البريطاني لمصر

الباب الثاني عشر

ضياع فلسطين

الباب الثالث عشر

الموضـــوع | صفحة



31 ش الصالحى - محطة مصر - الإسكندرية
تليفون: 002034970370 فاكس: 002033907305
محمول: 0106552118
E-mail:alamia_misr@hotmail.com

